الهمس في تهذيب النفس

تأليف

إبراهيم أحمد عنكير

بسم الله الرحمن الرحيم

مُقَدِّمَةٌ

المقدمة

الحمدلله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيد المرسلين محمد بن عبدالله وعلى آله وصحبه أجمعين ، أما بعد :

فإن الأمة المسلمة أمة صافية نقية ، تركها قائدها وقدوتها النبي محمد (ﷺ) على المحجة البيضاء . لكن تباعد الزمان عن عصر النبوة ، وتباعد الشعور عن نبع القرآن ، ونتيجة لغرق الناس في زماننا هذا في الماديات والشهوات، يحتاج المسلم بين الحين ولآخر همسة في الأذن تصل إلى القلب تذكره بتقوى الله واستشعار عظمته ومراقبته ومحاسبة النفس.

وكتاب (الهمس في تهذيب النفس) جهد في هذا المضمار، يعيد للنفس ألقها ، ويمسح عنها أدرانها، ويقوي صلتها بخالقها، ويهذبها ليكون صاحبها من المفلحين مصداقاً لقول رب العالمين: (قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها).

وهنا يحضرني قول الحسن البصري مخاطباً لأصحابه : (لا تكن شاة الراعي أعقل منك ...!! تزجرها الصيحة وتطردها الإشارة ... وأنت كم زجرتك آيات الله ... من النار تخوفك فلا تخاف ..وإلى الجنة تدعوكو كأن المخاطب غيرك ..ومن الله تحذرك فتتعرض لغضبه ...).

فاصبر نفسك لتسمع هذه الهمسات .. ثم اصبر نفسك ثانية لتفهم دلالات ومعاني الكلمات .. ثم اصبر نفسك في الثالثة للعمل والأستقامة والثبات حتى الممات.

والله نسال أن يجعلنا من أصحاب النفوس المطمئنة التي يناديها رب البرية قائلاً: (يا أيتها النفس المطمئنة ارجعي إلى ربك راضية مرضية فادخلي في عبادي وادخلي جنتي).

أسأل الله أن يكون لنا في هذا الكتاب هدي الطريق في السير إلى الله على منهج النبي ﷺ والسلف الصالح وأن يكون بداية لهداية شبابنا المسلم إلى الصراط المستقيم، وأن يجعلنا مخلصين في أعمالنا نبتغي بها رضا الله سبحانه، وأن نكون صادقين في التوجه إلى معالجة النفس بالإكثار من ذكر الله وتذكره. وربط النعم بالمنعم الأوحد والمحسن الأوحد وهو الله عز وجل.

اللهم طهر قلوبنا من كل وصف يباعدنا عن مشاهدتك ومحبتك، وأدم علينا عين عنايتك، واسترنا بسترك الجميل في الدنيا والآخرة آمين.

والله نسأ أن يجعل هذا الكتاب خالصاً لوجهه الكريم وأن لايجعلنا من الأخسرين أعمالاً (الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً).

وما تفيقي إلا بالله علية توكلت وإليه أنيب

والحمد لله رب العالمين

خطر المعاصي
والذنوب
ووجوب التوبة منها

اطلب التوبة من الله في كل وقت

يقول ابن عطاء الله: أيها العبد: اطلب التوبة من الله في كل وقت، فإن الله تعالى قد ندبك[1]. إليها، فقال تعالى: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ [النور: 31]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلۡمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: 222]. وقال رسول الله ﷺ: «إني لأستغفر الله في اليوم سبعين مرة»[2].

تعريف التوبة:

التوبة في اللغة: الرجوع، وتعني في الاصطلاح: الرجوع عما كان مذموماً في الشرع إلى ما هو محمود منه، وبعبارة أخرى: الرجوع إلى الله سبحانه بعد الابتعاد عنه بسبب الذنوب والمعاصي.

والتوبة هي أول مراحل سالكي طريق الآخرة، بل هي المدخل المفضي إليه، وكلمة «التوبة» شائعة على الألسن، حتى لكأن شيوعها ابتذلها وأطفأ سناها الكريم، مع أن دلالة الكلمة تجعلها أخطر من أن يجازف بها.

هل يلغو إنسان فيقول: بنيتُ قصراً، أو يلغو فيقول: ألفت كتابا!!.

إن بناء قصر شاهق أهون من بناء نفسٍ خربة، وإن تأليف كتاب ثمين أرخص من تأليف نفس فرق الهوى أقطارها.

---

(1) ندبك: دعاك.

(2) أخرجه البخاري عن أبي هريرة: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «والله إني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة». كتاب الدعوات، باب: استغفار النبي في اليوم والليلة، رقم (5832). وأخرجه مسلم عن الأغر المُزني أن رسول الله ﷺ قال: «إنه ليغان على قلبي، وإني لأستغفر الله في اليوم مئة مرة». كتاب: الذكر والدعاء، باب: استحباب الاستغفار والاستكثار منه، رقم (2702): 4/ 2075.

والتوبة هي هذا البناء والتأليف، فمن الهزل العجاب أن تدور على الألسنة دون تيقظ وإدراك [1].

إن البشر جميعاً محتاجون للتوبة، إذ قلما تجد من لا يذنب أو يقصر في حقوق الله سبحانه وتعالى، وقلما ينجو أحدنا من التخليط والتخبط وضعف اليقين، فيحتاج إلى هذه الشحنة لتقوية يقينه وليعود إلى إيمانه وهذه الشحنة هي التوبة.

أما علامة التوبة فهي الندم على المعصية، والندم على ما فات من الطاعات والخيرات، ولذلك قال رسول الله ﷺ: «الندم توبة»[2]. ومعنى هذا: أن أعظم أركان التوبة هو الندم، وهذا كقوله ﷺ : «الحج عرفة»[3]. لأنه أبرز وأعظم أركان الحج[4].

أركان التوبة:

فالركن الأول للتوبة هو: الندم، والثاني: ترك المعصية في الحال، والثالث: التصميم والعزم على أن لا يعود إلى مثل ما عمل من المعاصي.

فإن كانت المعصية تتعلق بآدمي، فلها شرط رابع وهو رد المظلمة إلى صاحبها أو تحصيل البراءة منه، لقوله ﷺ: «من كان لأخيه عنده مظلمة من عرضه أو شيء فليتحلله منه اليوم، قبل

---

(1) الجانب العاطفي من الإسلام، محمد الغزالي، ص: 154.

(2) أخرجه ابن ماجه، كتاب: الزهد، باب: ذكر التوبة، رقم (4242). والإمام أحمد، مسند المكثرين من الصحابة، مسند عبد الله بن مسعود، رقم (3387).

(3) أخرجه الترمذي، كتاب: الحج عن رسول الله، باب: ما جاء فيمن أدرك الإمام بجمع فقد أدرك الحج، رقم (814) والنسائي، كتاب: مناسك الحج، باب: فرض الوقوف بعرفة (2966). وابن ماجه، كتاب: المناسك، باب: من أتى عرفة قبل الفجر ليلة جمع، رقم (3006)، وأحمد، أول مسند الكوفيين، حديث عبد الرحمن بن يعمر، رقم (18022).

(4) الرسالة القشيرية، ص: 92.

أن لا يكون دينار ولا درهم، إن كان له عمل صالح أخذ منه بقدر مظلمته وإن لم تكن له حسنات أخذ من سيئات صاحبه فحُمل عليه»[1].

وقد حث النبي ﷺ على توبة الشباب لأنها مرحلة القوة ومجاهدة النفس والهوى، فالشاب التائه الذي أسلم زمامه لنفسه غالباً ما تجره إلى ارتكاب المعاصي والتجرؤ على الله سبحانه، فإذا زلت قدم الشاب بسبب نفسه السيئة أو بسبب وسوسة الشيطان فعليه أن يسرع إلى التوبة. فعن أنس بن مالك رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «ما من شيء أحب إلى الله عز وجل من شاب تائب»[2].

أما التأهب لأسباب التوبة فتكون يهجر إخوان السوء، فإنهم هم الذي يشوشون صحة العزم على التوبة.

فيا من أنعم الله عليك بنعمة التوبة واعترفت بتقصيرك ووضعت رحالك في بابه سبحانه، ومنَّ الله عليك فاستجاب دعاءك وقبل توبتك لأنه سبحانه يحب العبد التائب، ألم يقل سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلۡمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: 222]. إياك من رفقة السوء، فإن الصاحب ساحب وإن الطبع سراق. لا تصحب من لا ينهضك حاله، ولا يدلك على الله مقاله. كما يقول ابن عطاء الله في إحدى حكمه.

وقد ضرب لنا النبي ﷺ مثلاً للجليس الصالح والجليس السيئ بحامل المسك ونافخ الكير فقال ﷺ: «مثل الجليس الصالح والجليس السوء كمثل صاحب المسك وكير الحداد، لا

---

(1) أخرجه البخاري، كتاب: المظالم والغصب، باب: من كانت له مظلمة عند رجل، رقم (2269).

(2) أخرجه الديلمي في الفردوس بمأثور الخطاب، رقم (6153): 4/ 45.

يعدمك من صاحب المسك إما أن تشتريه أو تجد ريحهُ وكيرُ الحداد يُحرق بدنك أو ثوبك أو تجد منه ريحاً خبيثة»[1].

إن الرجل الفاسق يحب أن يرى الناس فساداً ليكمل عقدة النقص بمخالفته للعادات ومعصيته لله، وإن الرجل الصالح يتمنى أن يعم الصلاح على الجميع، فقرر بعقلك من تصاحب وتخالط، واعرف نهاية الطريق لكل من الصاحبين، تدرك حقيقة الصحبة.

الإسراع في طلب التوبة:

ثم بحثنا ابن عطاء الله رحمه الله على الإسراع في طلب التوبة وعدم تأجيل ذلك بقوله: «اطلب التوبة من الله في كل وقت».

فالتوبة واجبة على الفور لقوله تعالى: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[النور: 31].

وهذا أمر عام يشمل جميع الأوقات، لأن أي بشر لا يخلو من معصية بجوارحه، إذ لم يسلم منه حتى الأنبياء، فقد ورد في القرآن والأخبار قصص عن خطايا الأنبياء وتوبتهم وبكائهم، فإن سلم من معصية الجوارح فلا يخلو عن الهم بالذنوب بالقلب، فإن سلم من ذلك فلا يسلم من وسوسة الشيطان بإيراد الخواطر المتفرقة الشاغلة عن ذكر الله، فإن سلم من ذلك فلا يخلو عن غفلة وتصور في العلم بالله وصفاته وأفعاله وكل ذلك له نقص وله أسباب، وترك أسبابه بالتشاغل بأضداد ذلك وهذا يتحقق بالتوبة[2].

---

(1) أخرجه البخاري، كتاب: البيوع، باب: في العطار وبيع المسك، رقم (1995): 2/ 741. ومسلم، كتاب: البر والصلة والآداب، باب: استحباب مجالسة الصالحين ومجانبة قرناء السوء، رقم (2628): 4/ 2062.

(2) الإحياء، الغزالي: 4/ 14، 15.

إن تأجيل التوبة حتى الموت يمنع قبولها، قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ ﴾ [النساء: 17] أي قرب عهد بالخطيئة بأن يندم عليها ويمحو آثارها بحسنة.

فإيَّاك والتسويف بأن تقول غداً أتوب أو عندما أحج، أو في شهر الصوم، بل إن كنت في الصباح فلا ترقب الأصيل، إذ لا مكان للتريث، إن الزمن قد يفد بعون يشد به أعصاب السائرين في طريق الحق، أما أن يهب للمقعد طاقة على الخطو أو الجري فذاك مستحيل.

لا تعلق بناء حياتك على أمنية يلدها الغيب، فإن هذا الإرجاء لن يعود عليك بخير، الحاضر القريب بين يديك، ونفسك هذه التي بين جنبيك، والظروف الباسمة أو الكالحة التي تلتفت حواليك، هي وحدها الدعائم التي يتمخض عنها مستقبلك، فلا مكان لإبطاء أو انتظار، قال رسول الله ﷺ: «إن الله عز وجل يبسط يده بالليل ليتوب مُسيء النهار، ويبسط يده بالنهار ليتوب مُسيء الليل حتى تطلع الشمس من مغربها»[1].

ثم إن كل تأخير لإنفاذ منهاج تجدد به حياتك، وتصلح به أعمالك لا يعني إلا إطالة الفترة الكابية التي تبغي الخلاص منها، وبقاءك مهزوماً أمام نوازع الهوى والتفريط. بل قد يكون ذلك طريقاً إلى انحدار أشد، وهنا الطامة.

احذروا التوسيف، فإن الموت يأتي بغتة، ولا يغترن أحدكم بحلم الله عز وجل فإن الجنة والنار أقرب إلى أحدكم من شِراك نعله[2].

ولا يُغترن أحدكم بالشباب والصحة، فإن الموت لا يفرق بين الشاب وبين الهرم ومن الاغترار طول الأمل، فإن تأخير التوبة سببه أيضاً طول الأمل، لذلك تبادر الشهوات وتنسى

---

(1) أخرجه مسلم، كتاب: التوبة، باب: قبول التوبة من الذنوب وإن تكررت الذنوب والتوبة، رقم (4954).

(2) الجانب العاطفي من الإسلام. محمد الغزالي، ص: 156، 157.

الإنابة، فليكن عملك عملاً قصير الأمل، فلا تُمس حتى تنظر فيما مضى من يومك. فإن رأيت زلة فامحها بتوبة، أو خرقاً فارقعه باستغفار، وإذا أصبحت فتأمل ما مضى في ليلك، وإيَّاك والتسويف[1].

إن إضاعة الوقت أشد من الموت، لأن إضاعة الوقت تقطعك عن الله والدار الآخرة، والموت يقطعك عن الدنيا وأهلها.

وإليك المثال الآتي الذي يوضح ضرورة الإسراع في التوبة، يقول الغزالي في كتابه «الإحياء»: «وإذا كان متناول السم إذا ندم يجب عليه أن يتقيأ ويرجع عن تناوله بإبطاله وإخراجه عن المعدة، على سبيل الفور والمبادرة تلافياً لبدنه المشرف على هلاك لا يفوت عليه إلا هذه الدنيا الفانية، فمتناول سموم الدين وهي الذنوب أولى بأن يجب عليه الرجوع عنها بالتدارك الممكن ما دام يبقى للتدارك مهلة وهو العمر، فإن المخوف من هذا السم فوات الآخرة الباقية التي فيها النعيم المقيم والملك العظيم، وفي فواتها نار الجحيم والعذاب المقيم الذي تتصرم أضعاف أعمار الدنيا دون عشر عشير مدته، إذ ليس لمدته آخر البته، فالبدار البدار إلى التوبة قبل أن تعمل سموم الذنوب بروح الإيمان عملاً يجاوز الأمر فيه الأطباء واختيارهم ولا ينفع بعده الاحتماء، فلا ينجح بعد ذلك نصح الناصحين ووعظ الواعظين وتحق الكلمة عليه بأنه من الهالكين»[2].

ثم بين ابن عطاء الله أهمية التوبة بأنه ﷺ قال: «إنَّه ليغان على قلبي وإني لأستغفر الله في اليوم سبعين» فمم يستغفر النبي ﷺ وهو مغفور الذنوب؟.

---

(1) صيد الخاطر، ابن الجوزي: 228.

(2) إحياء علوم الدين، الغزالي، ص: 12، 13.

الغين هو ما يتغشى القلب من الغفلة عن ذكر الله الذي كان شأنه ﷺ الدوام عليه، فإذا فتر عنه عد ذلك ذنباً واستغفر منه[1].

فقلب النبي ﷺ كان مشغولاً أبداً بالله تعالى فإن عرض له وقتاً ما عارض بشري يشغله عن أمور الأمة والملة ومصالحها عد ذلك ذنباً وتقصيراً فيفزع إلى الاستغفار[2].

ومثل ذلك ما رواه ابن عمر رضي الله عنهما قال: كنا لنعد لرسول الله ﷺ في المجلس الواحد مئة مرة: «رب اغفر لي وتب علي، إنك أنت التواب الرحيم»[3]. فإذا كان النبي ﷺ يستغفر من تقصيره ويعد ذلك ذنباً، ويكرر الاستغفار في اليوم مئة مرة وقد غفر الله له ذنوبه، فماذا يكون حالنا؟. أليس ذلك تعليماً لنا على دوام التوبة والاستغفار وعدم تأجيل ذلك؟.

أفضل الأوقات لطلب التوبة:

وأفضل الأوقات لقبول التوبة هو بعد منتصف الليل حتى ينفجر الفجر لقوله ﷺ: «إذا مضى شطر الليل أو ثلثاه، ينزل الله تبارك وتعالى إلى السماء الدنيا فيقول: «هل من سائل يُعطى؟. هل من داع يُستجاب له؟. هل من مستغفر يُغفر له؟. حتى ينفجر الصبح»[4]. وفي رواية للترمذي: «أقرب ما يكون العبد من الرب في جوف الليل»[5].

---

(1) شرح النووي على مسلم: 17/ 23.

(2) عون المعبود: 4/ 265.

(3) أبو داود، كتاب الصلاة، باب: في الاستغفار، رقم (1295). وابن ماجه، كتاب: الأدب، باب: الاستغفار رقم (3804).

(4) مسلم، كتاب: صلاة المسافرين وقصرها، باب: الترغيب في دعاء الضيف، (3، 35). الليل والإجابة، (1263).

(5) الترمذي، كتاب: الدعوات عن رسول الله، باب: في دعاء الضيف، (3،35). وقال حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه.

وليس للتوبة صيغة معينة لكن النبي ﷺ علمنا الصيغة الآتية، فعن أبي يسار زيد بن بولا مولى النبي ﷺ رضي الله عنه: أنه سمع النبي ﷺ يقول: «من قال: أستغفر الله الذي لا إله إلا هو الحي القيوم وأتوب إليه، غُفر له وإن كان قد فر من الزحف»[1].

أخيراً ينبغي للعاقل أن يكون على خوف من ذنوبه، وإن تاب منها، وبكى عليها، يقول ابن الجوزي: «إني رأيت أكثر الناس قد سكنوا إلى قبول التوبة، وكأنهم قد قطعوا على ذلك، وهذا أمر غائب، ثم لو غُفرت بقي الخجل من فعلها. ويؤيد الخوف بعد التوبة أنه في الصحاح: «أن الناس يأتون إلى آدم عليه السلام فيقولون: اشفع لنا! فيقول: ذنبي! وإلى نوح عليه السلام، فيقول: ذنبي وإلى إبراهيم، وإلى موسى، وإلى عيسى صلوات الله عليه وسلامه عليهم»[2]. فهؤلاء إذا اعتبرت ذنوبهم لم تكن أكثرها ذنوباً حقيقة، ثم إن كانت فقد تابوا منها، واعتذروا، وهم بعدُ على خوف منها.

ثم إن الخجل بعد قبول التوبة لا يرتفع، وما أحسن ما قال الفضيل بن عياض رحمه الله: «واسوأتاه منك وإن عفوت». فأف والله لمختار الذنوب ومؤثر لذة لحظة تبقى حسرة على قلب المؤمن وإن غفر له! فالحذر الحذر من كل ما يوجب خجلاً، وهذا أمر قل أن ينظر فيه تائب أو زاهد، لأنه يرى أن العفو قد غمر الذنب بالتوبة الصادقة، وما ذكرتُه يوجب دوام الحذر والخجل»[3].

* * *

---

(1) أبو داود، كتاب: الصلاة، باب: في الاستغفار، (1296).

(2) أخرجه البخاري، كتاب: تفسير القرآن، باب: ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ (4343).

(3) صيد الخاطر، ابن الجوزي، ص: 412، 413.

محاسبة النفس

يقول ابن عطاء الله: فإن أردت التوبة فينبغي لك ألا تخلو من التفكير طول عُمرك، فتفكر فيما صنعت في نهارك، فإن وجدت طاعة فاشكر الله عليها وإن وجدت معصية فوبخ نفسك على ذلك، واستغفر الله وتب إليه، فإنه لا مجلس مع الله أنفع لك من مجلس توبخ فيه نفسك، ولا توبخها وأنت ضاحك فرح، بل وبخها وأنت مُجد صادق، مُظهر للعبوسة، حزين القلب، منكسر ذليل، فإن فعلت ذلك أبدلك الله: بالحزن فرحاً، وبالذل عزاً، وبالظلمة نوراً، وبالحجاب كشفاً.

إذا كنت لا تعرف فيما تفكر وكيف تحاسب نفسك فإن الحارث المحاسبي يعلمك ذلك بقوله: «تفقدوا السرائر في كل حين عسى أن يكون منكم مصرٌ على بعض المعاصي ولا يشعر، وانظروا هل تجدون في القلوب حب الدنيا، والسرور بإقبالها؟. والتقلب في شهواتها، وهل تجدون حلاوة المدحة والتعظيم أحياناً؟. وهل تأنفون من المذمة وتمتعضون منها؟. وهل تكرهون شيئاً يخالف أحوالكم، وترضون بما يوافق الهوى؟. وهل تُلهون بالنظر إلى الخلق بغير اعتبار؟. وهل تلهون بفضول الكلام؟. وهل تعلمون من الأعمال شيئاً الله راض به وأنتم تأنفون من عملها؟. وهل تعلمون من الناس ما الله راضي به وأنتم تأنفون منه؟... فهذا ونحوه من ذنوب القلوب، وأنتم غافلون. قد أحسب قراءكم مصرين عليها وما يشعرون»[1].

في هذه الفقرة يؤكد ابن عطاء الله على أهمية التفكر لحصول التوبة، فإن الذي لا يتفكر ما صنع في نهاره، كان كالتاجر الذي لا يعلم هل تجارته رابحة أو خاسرة؟. والغالب فيها الخسران وهذا الواقع.

---

(1) آداب النفوس، المحاسبي، ص: 93.

وكذلك المسلم إن لم يحاسب نفسه كل مساء ماذا عملت في النهار، هل أدى شكر الله هل صلى خمس صلوات أم كسل عن إحداها، هل كان خاشعاً في صلاته، هل قرأ شيئاً من القرآن، هل أدى حق الزوجة والأولاد، هل اغتاب أحداً أو سبه، هل هل. . . الخ فإن فعل ذلك حمد الله على ما وفقه من الطاعات وتاب واستغفر من تقصيره، ولذلك قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «حاسِبوا أنفسكم قبل أن تحاسَبوا وزِنوا أعمالكم قبل أن توزَن عليكم»[1].

أهمية الخلوة:

إن هذه الخلوة القصيرة جداً التي لا تتجاوز نصف ساعة مهمة جداً، إنها تصل العبد بالعالم العلوي، وتخلصه من شوائب الدنيا، فيبتعد بذلك عن زحمة العمل والأصدقاء والزوجة والأولاد، ويجلس وحده في غرفة ليس فيها ما يعكر صفوه، من تلفاز أو مذياع أو مجلة أو أي شيء آخر مما تفننت به تكنولوجيا العصر، يجلس متأملاً متفكراً في عبوديته لله، في حق الله عليه، فيشعر بضعفه أمام قدرة الخالق، فيطلب منه بكل تواضع وذل التوفيق لمزيد من الطاعات والابتعاد عن جميع المهلكات، ثم يحمد الله سبحانه وتعالى على ما متعه وأولاده وزوجه إن كان متزوجاً، بنعمة الصحة والعافية وإنها لنعمة عظيمة قل من يؤدي شكرها، قال ﷺ: «من أصبح منكم آمناً في سربه معافى في جسده عنده قوت يومه فكأنما حيزت له الدنيا»[2].

إن من يفعل ذلك يبدله الله بالحزن فرحاً وبالذل عزاً وبالظلمة نوراً، لأنه عندما يرتفع إلى القلب نور الطاعات وترك الشهوات، عند ذلك تُمحى ظلمة المعصية بنور الطاعة، وإليه الإشارة بقوله ﷺ: «اتق الله حيثما كنت، وأتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلق

---

(1) أخرجه الترمذي، كتاب: صفة القيامة والرقائق والورع عن رسول الله، رقم (2383).

(2) الترمذي، كتاب: الزهد عن رسول الله، باب: في التوكل على الله، رقم (2268) وقال: حسن غريب. وابن ماجه، كتاب: الزهد، باب: القناعة، رقم (4131).

حسن»[1]. وبدل حجاب الذنوب، كشفاً يشرق على القلب فيفهم مراد الله منه ولماذا خلقه ويفهم سر المكونات وأنها تدل على المكون سبحانه وتعالى.

* * *

(1) أخرجه الترمذي، كتاب: البر والصلة عن رسول الله، باب: ما جاء في معاشرة الناس، رقم (1910) وقال: حدث حسن صحيح، وأحمد. مسند الأنصار، حديث أبي ذر الغفاري، رقم (20392).

خطر الذنوب على القلوب

يقول ابن عطاء الله: واعلم أنه إذا كان لك وكيلٌ يحاسب نفسه ويحاققها [1]، فأنت لا تحاسبه، لمحاسبته نفسه، وإن كان وكيلاً غير محاقق لنفسه، فأنت تحاسبه وتحاققه وتُبالغ في محاسبته، فعلى هذا ينبغي لك أن يكون عملك كله لله تعالى، ولا ترى أنك تفعل فعلاً والله تعالى لا يحاسبك ولا يحاققك، وإذا وقع من العبد ذنبٌ وقع معه ظلمة، فمثال المعصية: كالنار والظلمة دُخانها، كمن أوقد في بيت سبعين سنة ألا تراه يسود؟! . كذلك القلب يسود بالمعصية، فلا يطهر إلا بالتوبة إلى الله، فصار الذل والظلمة والحجاب مقارناً للمعصية، فإذا تُبت إلى الله زالت آثار الذنوب.

إن الإنسان خليفة الله في الأرض، قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ ﴾ [الأنعام: 165]. وقال سبحانه: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ [البقرة: 30]. وهذا الخليفة بمثابة الوكيل الذي ضُرب به المثل في هذه الفقرة. فإن كنت تحاسب نفسك هان عليك حساب يوم القيامة، وإن قصرت في حساب نفسك فإن الموقف عصيب عليك يوم القيامة. والذي لا يحاسب نفسه يقع في معصية الله سبحانه، لأن النفس من شأنها أن تجر صاحبها إلى المعصية.

ثم بين ابن عطاء الله خطر الذنوب على القلوب بقوله: «إذا وقع من العبد ذنب وقع معه ظلمة. . . . الخ الفقرة».

وليس المقصود بالقلب هنا تلك القطعة اللحمية في الجانب الأيسر من الجسد، وإنما المقصود تلك القطعة التي بها يشعر الإنسان ويحس ويحب ويكره، فهذا الوعاء النظيف الشفاف تُسوُده المعصية وتُعكر صفائه، فالقلب الصافي هو العامر بحب الله والخوف منه، والقلب لا يتسع لشيئين معاً كالوعاء بقدر ما يدخله الماء يخرج منه الهواء، وكذلك لا يجتمع حب الآخرة وحب الدنيا في قلب واحد، قال تعالى: ﴿ مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ ﴾ [الأحزاب: 4].

---

(1) يحاققها: يخاصمها وينظر في حقوقه عليها.

فبقدر ما يمتلئ القلب بحب الآخرة يهرب منه حب الدنيا والعكس صحيح.

واسمع كيف يشرح ابن القيم هذه الحقيقة في كتابه «الفوائد» فيقول: «قبول المحل لما يوضع فيه مشروط بتفريغه من ضده، وهذا كما أنه في الذوات والأعيان فكذلك هو في الاعتقاد والإرادات، فإذا كان القلب ممتلئاً بالباطل اعتقاداً ومحبة لم يبق فيه لاعتقاد الحق ومحبته موضع، كما أن اللسان إذا اشتغل بالتكلم بما لا ينفع، لم يتمكن صاحبه من النطق بما ينفعه إلا إذا فرغ لسانه من النطق بالباطل، وكذلك الجوارح إذا اشتغلت بغير طاعة الله، لم يتمكن شغلها بالطاعة إلا إذا فرغها من ضدها، فكذلك القلب المشغول بمحبة غير الله وإرادته والشوق إليه والأنس به، لا يمكن شغله بمحبة الله وإرادته وحبه والشوق إلى لقائه، إلا بتفريغه من تعلقه بغيره، ولا حركة اللسان بذكره والجوارح بخدمته، إلا إذا فرغها من ذكر غيره وخدمته. . . »[1]. منال

ويشهد لهذه الحقيقة قوله ﷺ: «تُعرض الفتن على القلوب كالحصير عوداً عوداً، فأي قلب أشْربها [2]. نُكتت [3]. فيه نكتة سوداء، وأي قلب أنكرها نكتت فيه نكتة بيضاء، حتى تصير على قلبين، على أبيض مثل الصفا فلا تضره فتنة ما دامت السموات والأرض، والآخر أسودُ مرباداً[4]. كالكوز[5]. مجخياً [6]. ، لا يعرف معروفاً ولا يُنكر منكراً إلا ما أُشرب من هواه»[7].

---

(1) الفوائد، ابن القيم، ص: 45، 46.

(2) أشربها: تمكنت فيه وحلت كما يحل الشراب في الإناء.

(3) النكتة: البقعة، وهي كل لون يخالف ما وجد فيه من اللون العام.

(4) المرباد: المتغير من لونه، أو هو لون بين الغبرة والسواد.

(5) الكوز: الإناء.

(6) مجخياً: منكوساً.

(7) أخرجه مسلم: كتاب: الإيمان: بيان أن الإسلام بدأ غريباً وسيعود غريباً. (207).

فقد شبه النبي ﷺ عروض الفتن والمحن بالحصير، وكيف يتجمع وينسج بالعود بعد العود، حتى يصير حصيراً، كذلك الفتن تتجمع حتى تغير قلب الإنسان وتغلبه، فيصبح مليئاً بالشر بدلاً من الخير.

هذا التشبيه الذي صور الحالة النفسية وحدثنا عنها بعنوان «القلب» وهو مجمع التأثيرات (النفسية والمعنوية)، يشبه إتيان الفتن بالحصير ونسجه عوداً عوداً، وهكذا عرض لنا معاني متعددة:

1- عروض الفتن والاختبارات وشبه تدرجها في التأثير على النفس بنسج الحصير.

2- شبه القلب الثابت الذي سمد (ثبت) أمام هذه الحالات المغرية بالمرمر الصلب «الصفا» الذي يسر الناظر إليه لجمال لونه وصفاته. أي إن من حافظ على استقامته ولم تتأثر نفسه بالفتن يصبح صلباً في دينه، مطمئناً ذائقاً حلاوة الإيمان، حتى يخالط مخه وعظمه ودمه.

3- أما النوع الثاني من القلوب وهو الذي أشربها فهو أسود مرباد قذر، وصفه بأنه لا يقبل الخير، وشبهه في ذلك بالإناء المقلوب الذي لا يحل فيه سائل إطلاقاً، وهذا شأن الذي غاص في الفتن وحقق مستهويات نفسه وفكره، حتى أصبح مقلوباً رأساً على عقب [1].

أما تطهير القلب من هذا السواد فيكون بالتوبة الصادقة إلى الله تعالى، لأن التائب من الذنب كمن لا ذنب له كما قال ﷺ[2]، إن التوبة الصادقة هي بمثابة مسحوق الغسيل- إن صح التعبير- الذي يزيل ما على الإناء من أوساخ فيرجع الإناء نظيفاً برَّاقاً، كذلك التوبة تغسل القلب من آثار المعاصي والذنوب فيعود القلب مشرقاً بالإيمان، وهذا معنى قول ابن عطاء الله: «. . . فإذا تبت إلى الله زالت آثار الذنوب».

---

(1) في ظلال الحديث النبوي، د. نور الدين عتر، ص: 87.

(2) ابن ماجه في الزهد، باب: ذكر التوبة، رقم (4240).

فاصبر أيها الخاطئ حتى يتحلل ماء عينيك خلال ثوب القلب المتنجس، فإذا عصرته أكف الأسى، ثم إذا تكررت دُفع الغسلات حُكم بالطهارة.

فالحمد لله الذي جعل التوبة تمحو آثار الذنوب، إن الباري برحمته ينادي العبد قائلاً: انس الماضي وابدأ من جديد، قد غفرتُ لك ذنبك ومحوته عنك، فافتح صفحة جديدة وتقرب مني أتقرب منك أكثر؟! مع أنه سبحانه غني عن العالمين؟!!.

* * *

المصاب حقا من محقته الذنوب

يقول ابن عطاء الله: المصاب حقاً ما محقته [1] الذنوب والشهوات، حتى جعلته كالشـن [2] البالي، هذا هو المكتوب المُعزى. ذهبت مآكله وشهواته، ملأ بها المرحاض، وأرضى بها زوجته، ويا ليتها كانت من حلال، فالأول [3]. من المقامات التوبة، ولا يُقبل ما بعدها إلا بها.

هذا هو حال من ابتعد عن الله وأعرض عن ذكره إنه مصاب ومنكـوب ويصـدق عليـه قولــه تعــالى: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ ﴾ [طه: 124– 126].

إن السعادة هي في طاعة الله سبحانه، يعـرف هـذا مـن ذاق حـلاوة الطاعـة، أمـا الـذي يتنكب عن طاعته سبحانه، ويقترف أصناف الذنوب والشهوات همه بطنه وفرجه ويا ليته ملأ شهوته بالحلال، إنه لا يبالي أكانت من حلال أم من حرام، ألا يعلـم هـذا أن الشـهوة تنقضي- لكن تبعاتها لا تنقضي بل سيعذب عليها يوم القيامة بعد أن يُوقِفُـه الله سـبحانه للحسـاب، إن العاقل لا يُمتِعُ نفسه لساعة ليعذب عليها أياماً وسـنوات. . . فـأسرع بالتوبـة والإنابـة إلى الله سبحانه، قبل فوات الأوان، فهذه أول مقامات الوصول إلى الله سبحانه، فهي شرط لا يقبل ما بعدها إلا بوجودها.

* * *

---

(1) محقته: ذهبت به ومحته.

(2) الشن: القربة الخلق الصغيرة يكون الماء فيها أبرد من غيرها. المعجم الوسيط، ص: 516.

(3) في المطبوع: فأول المقامات التوبة.

مثال العبد إذا فعل معصية

يقول ابن عطاء: مثال العبد إذا فعل المعصية: كالقدر الجديد، ويوقد تحتها النار ساعة فتسود، فإذا بادرت إلى غسلها انفصلت من ذلك السواد، وإن تركتها وطبخت فيها مرة بعد مرة ثبت السواد فيها حتى تتسكر، ولا يُفيد غسلها شيئاً، فالتوبة هي التي تغسل سواد القلب، فتبرز الأعمال وعليها رائحة القبول، فاطلب من الله تعالى التوبة دائماً، فإن ظفرت بها فقد طاب وقتك، لأنها موهبةٌ من الله يضعها حيث شاء من عباده، وقد يظفر بها العبد المشقق الأكعاب دون سيده، وقد تظفر بها المرأة دون زوجها، والشاب دون الشيخ، فإن ظفرت بها فقد أحبك الله، لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلۡمُتَطَهِّرِينَ ﴾ [البقرة: 222]، وإنما يغتط بالشيء من يعرف قدره، ولو بدرت [1] الياقوت بين الدواب لكان الشعير أحب إليهم، فانظر من أي الفريقين أنت؟ ، إن تُبت فأنت من المحبوبين، وإن لم تتب فأنت من الظالمين، قال الله تعالى: ﴿وَمَن لَّمۡ يَتُبۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ [الحجرات: 11].

وهذا تأكيد على أهمية تجديد التوبة كل يوم، فالذي يسرع فيتوب من الذنب فإن التوبة تغسل هذا الذنب، وتزيل السواد من القلب، ولكن عندما تزداد الذنوب مع الغفلة عن التوبة يزداد السواد ويصعب غسله بل لا يفيده الغسل شيئاً، وهذا إشارة إلى أن القلب يصل إلى مرحلة يصبح كالكوز مجخياً كما مر في الحديث السابق، أي لا يدخله خير ولا يخرج منه خير فيموت صاحبه على ذلك والعياذ بالله.

والظفر بالتوبة دليل على محبة الله للعبد فليغبط نفسه على هذه النعمة، فكم من عبد لا يوفق إلى التوبة ويبقى شارداً عن طريق الله حتى يموت. إن أحدنا لا يأخذ التراب ويترك الياقوت إن هذا جنون مطبق؟!. كذلك المسلم لا يرضى لنفسه أن يكون من الظالمين وهذه حال من لم يتب، بل يسعى لأن يكون من المحبوبين وهذه حال التائب قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ

(1) بدرت: لعلها بذرت بمعنى فرقت. تاج العروس ت: محمد عليه محمد بحري وخالد السروجي، ص:15.

ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلۡمُتَطَهِّرِينَ ﴾ وقال سبحانه: ﴿ وَمَن لَّمۡ يَتُبۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾. هم الظالمون لأنفسهم فلا عذر لهم إن أصابهم عذاب أليم.

* * *

من تاب ظفر ومن لم يتب خسر

يقول ابن عطاء الله: ومن تاب ظفر، ومن لم يتب خسر، ولا تقطع يأسك وتقول: كم أتوب وأنقض، فالمريض يرجو الحياة ما دامت فيه الروح.

فالتائب من الذنب هو الرابح لأنه عرف الحق فالتزم به وعرف عبوديته لله فتحقق بها وعرف خطأه فسعى إلى إصلاحه، إنه ربح محبة الله ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلۡمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: 222]. أما الذي يبقى غافلاً سادراً في غيّه لا يفطن للتوبة فهو الظالم لنفسه، والخاسر لدنياه وآخرته.

يقول ابن عطاء الله: «ولا تقطع يأسك وتقول: كم أتوب وأنقض فالمريض يرجو الحياة ما دامت فيه روح» ، هذا والله حال الكثير منا يتوب وينقض، يُعاهد الله على ترك المعصية ويرجع إليها. ربما شعر العاصي بأن التوبة لا فائدة منها في هذه الحالة فيشعر باليأس من رحمة الله وقد يودي به إلى الاستمرار بالمعصية والعكوف عليها. لكن مهلاً لا تيأس فالمريض يرجو الحياة ما دامت فيه الروح. والحديث التالي يجلي هذه الحقيقة ويوضح الحل لهذه الحالة، فعن النبي ﷺ، فيما يحكيه عن ربه، تبارك وتعالى، قال: «أذنب عبدٌ ذنباً، فقال: اللهم اغفر لي ذنبي، فقال الله تبارك وتعالى: أذنب عبدي ذنباً، فعلم أن له رباً يغفر الذنب، ويأخذ بالذنب، ثم عاد فأذنب، فقال: أي رب اغفر لي ذنبي، فقال تبارك وتعالى: أذنب عبدي ذنباً، فعلم أن له رباً يغفر الذنب، ويأخذ بالذنب، ثم عاد فأذنب، فقال: أي رب اغفر لي ذنبي، فقال تبارك وتعالى: أذنب عبدي ذنباً، فعلم أن له رباً يغفر الذنب، ويأخذ بالذنب، قد غفرت لعبدي فليفعل ما شاء» [1].

---

(1) البخاري، كتاب: التوحيد، باب: قول الله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُواْ كَلَٰمَ ٱللَّهِۚ﴾ (6953)، ومسلم، كتاب: التوبة، باب: قبول التوبة من الذنوب....، (4953).

وقوله تعالى: «فليفعل ما شاء» أي: ما دام يفعل هكذا، يذنب ويتوب أغفر له، فإن التوبة تهدم ما قبلها [1].

والمقصود بهذا الحديث هو الذي يذنب بسائق ضعف من بشرية تغلبت عليه ونفس أطغته وشيطانٍ وسوس له، ثم عاد فتاب صدقاً وسأل الله مخلصاً أن يبعده عن هذا الذنب ويغفر له فإن الله يتوب عليه، ثم بعد ذلك ونتيجة لطغيان الهوى والنفس عاد إلى الذنب مرة أخرى، ثم سأل الله صادقاً مخلصاً أن يغفر له ويجنبه هذا الذنب، وهذا العبد مهما أذنب ثم تاب تاب الله عليه. أما الذي يذنب عن قصد وتصميم وإصرار وتكبر، ثم يقول: أُذنب ثم أتوب فهذا لا يغفر الله له. وهذه حال من يتوب بلسانه لا بقلبه، واستمع لما يقوله القرطبي في شرح هذا الحديث:

«وهذا يدل على عظيم فائدة الاستغفار وعلى فضل الله وسعة رحمته وحلمه وكرمه، ولكن هذا الاستغفار هو الذي ثبت معناه في القلب مقارناً اللسان لينحل من عقد الإصرار، ويحصل معه الندم، فهو ترجمة للتوبة، ويشهد له حديث: «خياركم كل مُفتن تواب» [2]. ومعناه: «الذي يتكرر منه الذنب والتوبة، فكلما وقع في الذنب عاد إلى التوبة، لا من قال: استغفر الله بلسانه وقلبه مُصر على تلك المعصية، فهذا الذي استغفاره يحتاج إلى استغفار» [3].

فإياك يا أخي مهما أذنبت أن يخطر ببالك أن الله لا يغفر لك، أين أنت من قوله تعالى: ﴿ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ ﴾ [الزمر: 53]. ثم إن الله اتصف بالمغفرة فهو الغفار، وهذا يستدعي

---

(1) رياض الصالحين، النووي، ص: 171.

(2) أخرجه الترمذي في نوادر الأصول: 2/ 209. والديلمي في الفردوس بمأثور الخطاب، رقم (2862: 2/ 173. والبزار في مسنده، رقم (700): 2/ 280 وقال: هذا الحديث لا نعلمه يروى عن النبي ﷺ بهذا اللفظ إلا من حديث عبد الرحمن بن إسحاق عن النعمان بن سعد عن علي.

(3) رياض الصالحين، النووي، ص: 172.

مغفوراً له، لذلك قال ﷺ: «والذي نفسي بيده لو لم تذنبوا، لذهب الله بكم، ولجاء بقوم يذنبون، فيستغفرون الله تعالى، فيغفرُ له»[1].

فلا تؤودنَّك كثرة الخطايا، فلو كانت ركاماً أسود كزبد البحر ما بالى الله عز وجل بالتعفية عليها إن أنت اتجهت إليه قصداً وانطلقت إليه ركضاً، وفي حديث قدسي عن الله عز وجل: «يا بن آدم إنك ما دعوتني ورجوتني غفرت لك على ما كان منك ولا أبالي، يا بن آدم لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتني غفرتُ لك ولا أبالي، يا بن آدم إنك لو أتيتني بقُراب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئا لأتيتك بقُرابها مغفرةً»[2].

يقول ابن عطاء الله في إحدى حكمه: «لا يعظم الذنب عندك عظمة تصدك عن حسن الظن بالله تعالى، فإن من عرف ربه استصغر في جنب كرمه ذنبه».

فمهما أذنبت لن تبلغ درجة ذلك الرجل الذي قتل تسعة وتسعين رجلاً ثم أراد التوبة فتاب الله عليه كما ثبت ذلك في الصحيحين[3].

(1) أخرجه مسلم، كتاب: التوبة، باب: سقوط الذنوب بالاستغفار، رقم (4936).

(2) الترمذي، كتاب: الدعوات عن رسول الله، باب: في فضل التوبة والاستغفار، رقم (3463) وقال: حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه.

(3) البخاري في أحاديث الأنبياء، باب: حديث الغار، رقم (3211). ومسلم في التوبة، باب: قبول توبة القاتل وإن كثر قتله، رقم (4967).

فرحة الله ورسوله بتوبة العبد

يقول ابن عطاء الله: إذا تاب العبد فرحت به دارهُ من الجنة، وتفرح السماء والأرض والرسول، فالحق سبحانه لم يَرْضَ أن تكون مُحباً بل محبوباً، وأين المحبوب من المحب؟!.

وهذا يدل على أن الجمادات فيها حياة خاصة بها كالسماء والأرض فإنها تفرح وتحزن وتسبح ومما يؤيد ذلك حنين الجذع الذي كان النبي ﷺ يخطب عنده [1]، وقوله تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: 44] وقوله تعالى: ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ۝١٨﴾ [ص: 18].

والأحاديث في ذلك كثيرة منها قوله ﷺ فيما يرويه مسلم: «إني لأعرف حجراً بمكة كان يسلم علي قبل أن أبعث إني لأعرفه الآن» [2]. وفي المعجم الكبير للطبراني يقول عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «إن الجبل يقول للجبل يا فلان: هل مر بك اليوم ذاكر لله عز وجل فإن قال نعم سره به» [3].

وفوق كل ذلك فرحة الله سبحانه بالعبد التائب، إن فرحته به تفوق كل وصف، قال رسول الله ﷺ: «الله أفرح بتوبة عبده المؤمن من رجل نزل منزلاً وبه مهلكة، ومعه راحلته، عليها طعامه وشرابه فوضع رأسه فنام نومة، فاستيقظ، وقد ذهبت راحلته حتى إذا اشتد عليه الحر والعطش أو ما شاء الله، قال: أرجع إلى مكاني فرجع فنام نومةً ثم رفع رأسه فإذا راحلته عنده» [4].

---

(1) أخرجه البخاري في الجمعة، باب: الخطبة على المنبر، رقم (867).

(2) أخرجه مسلم في الفضائل، باب: فضل نسب النبي وتسليم الحجر عليه قبل النبوة، رقم (4222).

(3) المعجم الكبير للطبراني، رقم (8542): 9/ 103.

(4) البخاري في الدعوات، باب: التوبة، رقم (5833).

ألا يبهرك هذا الترحاب الغامر؟. أترى سروراً يعدل هـذه البهجـة الخالصـة؟. إن أنبـل الناس عِرقاً، وأطهرهم نفساً، قلما يجد فؤاداً يتلهف على لقائه بمثل هذا الحنين، فكيف بخطّاءٍ أسرف على نفسه، وأساء إلى غيره؟. إنه لو وجد استقبالاً يستر عليـه مـا مضىـ لكـان بحسـبه ذلك الأمان المبذول ليستريح ويشكر.

أما أن يُفاجأ بهذه الفرحة، وذلك الاستبشار، فذاك ما يثير الدهشة !.

وطبيعي أن تكون هذه التوبة نقلة كاملة من حياة إلى حيـاة، وفاصـلاً قـائماً بـين عهـدين متمايزين كما يفصل الصبح بين الظلام والضياء.

فليست هذه العودة زورة خاطفة، يرتد المرء بعدها إلى ما أَلف من فوضى وإسفاف. . .

وليست محاولة فاشلة ينقصها صدق العزم، وقوة التحمل، وطول الجلد، كـلا، كـلا، إن هذه العودة الطاهرة التي يفرح الله بها، هي انتصار الإنسان عـلى أسـباب الضـعف والخمـول، وسحقه لجراثيم الوضاعة والمعصية، وانطلاقة مـن قيـود الهـوى والجحـود، ثـم اسـتقراره في مرحلة أخرى من الإيمان والإحسان والنضج والاهتداء. هـذه هـي العـودة التـي يقـول الله في صاحبها: ﴿ وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴿٨٢﴾ ﴾ [طه: 82].

إنها حياة تجددت بعد بلى، ونقلة حاسمة غيرت معالم الـنفس كـما تتغـير الأرض المـوات بعد مقادير هائلة من المياه والمخصبات [1].

إنها دعوة تتطلب أن يجدد الإنسان نفسه، وأن يعيد تنظيم حياته، وأن يسـتأنف مـع ربـه علاقة أفضل، وعملاً أكمل وعهداً يجري على فمه هذا الدعاء: «اللهم أنت ربي لا إله لا أنت، خلقتني وأنا عبدك، وأنا على عهدك ووعدك مـا اسـتطعت، أعـوذ بـك مـن شر مـا صـنعت، أبوء[2]. لك بنعمتك علي، وأبوءُ بذنبي فاغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت»[1].

---

(1) الجانب العاطفي من الإسلام، محمد الغزالي، ص: 161، 162.

(2) أبوء: أرجع.

إن الله سبحانه يحب العبد التائب، إن التائب قد عاد إلى الطريق الصحيح، وعرف الحق فاتبعه وهذا دليل محبة الله لعبده وكم من فرق بين من يحب الله ومن يحبه الله عز وجل؟!. وبين من لا يملك شيئاً ومن يملك كل شيء؟!.

هذه فرحة الله بتوبة عبده المؤمن، أما فرحة رسول الله ﷺ فيبينها حديث كعب بن مالك الأنصاري وهو يروي قصة تخلفه عن غزوة تبوك، إذ لما تاب الله عليه وعلى صاحبيه مرارة بن الربيع وهلال بن أمية ذهب كعب إلى رسول الله ﷺ، يقول كعب: «فلما سلَّمت على رسول الله ﷺ قال وهو يبرقُ وجهه من السرور: أبشر بخير يوم مر عليك منذُ ولدتك أمك. قال: قلت أمن عندك يا رسول الله أم من عند الله، قال: بل من عند الله. . . »[2].

* * *

(1) هذا سيد الاستغفار كما قال ﷺ: أخرجه البخاري في الدعوات، باب: أفضل الاستغفار، رقم (5831).

(2) مسلم في التوبة، باب: حديث توبة كعب بن مالك وصاحبيه، رقم (4973).

تجرؤ العبد على معصية المحسن سبحانه

يقول ابن عطاء الله: أفٍ لعبدٍ يعلم إحسان المحسن فيجترئ على معصيته، ولكن ما عرف إحسانه من آثر عصيانه، ما عرف قدره من لم يراقبه، وما ربح من اشتغل بغيره، وعلم أن النفس تدعوه إلى الهلكة فتبعها، وعلم أن القلب يدعوه إلى الرشد فعصاه، وعلم قدر المعصي فواجهه بالمعصية، ولو علم اتصافه بعظمته لما قابله بوجود معصيته، وعلم قرب مولاه، وأنه يراه فسارع لما نهاه، وعلم أثر الذنب المرتب عليه دنيا وأخرى، وغيباً وشهادة، لاستحيا من ربه، ولو علم أنه في قبضته لما قابله بمخالفته.

قال تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾ [الأنعام: 91].

حقاً كما يقول ابن عطاء الله، إذا تذكر العبد إحسان الله إليه وإنعامه الدائم له لما تجرأ على معصيته، إن الرجل المدين لرجل مثله لا يجرئ على مخالفته بل يسعى لإرضائه ولو على حساب راحته، فكيف إذا كان الدائن هو الله رب العالمين؟!.

يقول ابن الجوزي مخاطباً نفسه: «أفما تذكرين كيف ربَّاك، وعلَّمك، ورزقَكِ، ودافع عنكِ، وساق الخير إليكِ، وهداكِ أقوم طريق، ونجاكِ من كل كيد، وضم إلى حسن الصورة الظاهرة جودة الذهن الباطن، وسهل لكِ مدارك العلوم حتى نلتِ في قصير الزمان ما لم ينله غيركِ في طويله، وجلى في عرصة [1] لسانك عرائس العلوم في حلل الفصاحة بعد أن ستر عن الخلق مقابحك، فتلقوها منك بحسن الظن، وساق رزقك بلا كلفة تكلف، ولا كدرٍ من رغد غير نزر [2]. فوالله ما أدري أي نعمة عليك أن أشرح لك... ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [إبراهيم: 34] [3].

---

(1) العرصة: البقعة الواسعة.

(2) نزر: قليل.

(3) صيد الخاطر، ص 237.

ثم يقول ابن عطاء الله: «وما عرف قدره من لم يراقبه... » ، لو أن كل مسلم راقب الله حق المراقبة وهي: أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك، إذ كيف يراني وأعصيه، أم كيف أراه وأعصيه؟!. إن الله جعل ملائكة على كل كتف ليذكّرنا بضرورة المراقبة والحياء من هؤلاء الملائكة الكرام الموكلين على كتابة الأعمال، وبالتالي ضرورة مراقبة الخالق الذي أوكل للملائكة هذه المهمة.

ثم قال: «وما ربح من اشتغل بغيره، وعلم أن النفس تدعوه إلى التهلكة فتبعها، وعلم أن القلب يدعوه إلى الرشد فعصاه، وعلم قدر المعصي فواجهه بالمعصية ولو علم اتصافه بعظمته، لما قابله بوجود معصيته».

إن اشتغال القلب بذكر الله ومراقبته هو الربح الحقيقي، وإن تعظيم الله في القلب هو الفلاح لمن أراد الفلاح، لذلك كان التسبيح في الركوع هو «سبحان ربي العظيم» لأن الانحناء للتعظيم، والتعظيم يقتضي معرفة قدر المعظم والتفكر في هذه الصفة.

إن الرجل من إذا خلا بما يحب من المحرم ويقدر عليه، تذكر نظر الحق إليه فاستحيا منه وانصرف عن الذنب خوفاً منه سبحانه.

ثم قال: «ولو علم العبد قرب مولاه وأنه يراه فسارع لما نهاه».

إن الباري سبحانه أقرب إلينا من حبل الوريد كما أخبرنا بقوله: ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴾ [ق: 16]. وقال سبحانه: ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ﴾ [الحديد: 4]. وقال عز وجل: ﴿ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ﴾ [المجادلة: 7].

فكيف يعلم العبد أن الله قريب منه يرى ما يفعله ثم يتجرأ على معصيته؟. إن المذنب عندما يرتكب جريمة الزنى فإنه يستتر عن الخلق، يخشى نظر الناس ولا يخشى نظر الحق

إليه؟!. إن الحق سبحانه أقرب إلى عبده من حبل الوريد، لكنه عامل العبد معاملة الغائب عنه البعيد منه وأمره بتصحيح نيته ورفع اليدين إليه والسؤال له.

فقلوب الجهال تستشعر البعد، ولذلك تقع منهم المعاصي، إذ لو تحققت مراقبتهم للحاضر الناظر، لكفوا الأكف عن الخطايا، والمتيقظون علموا قربه، فحضرتهم المراقبة، وكفتهم عن الانبساط، ولولا نوع تغطية على عين المراقبة الحقيقة لما انبسطت كف بأكل، ولا قدرت عين على نظر، ومتى تحققت المراقبة حصل الأُنس، وإنما يقع الأُنس بتحقيق الطاعة، لأن المخالفة توجب الوحشة، فيا للذة عيش المستأنسين! ويا خسارة المستوحشين!(1).

ثم قال: «ولو علم أثر الذنب المترتب عليه دنيا وأخرى، وغيباً وشهادة، لاستحيا من ربه».

أما أثر الذنب في الدنيا فهو ظهور الكدورة في الأعضاء، والجمود في العين والكسل في خدمة الله سبحانه وصفات أخرى سيأتي ذكرها قريباً، ثم إن الذنوب تجعل الحياة قاسية جداً بدليل قوله تعالى: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا ﴾ [طه: 124]. والذنب يجعل القلب كالكوز الأسود لا يدخله خير ولا يخرج منه خير، فكيف يشرق هذا القلب بالأنوار الإلهية؟!. هذه آثار الذنوب في الدنيا.

أما في الآخرة فإن المذنبين سيعذبون في النار حتى تتطهر أجسادهم من كدر المعاصي والذنوب، هذه هي قصة الذنوب في الدنيا والآخرة، فلو علم العبد هذه الحقائق لاستحيا من ربه.

ثم قال: «ولو علم أنه في قبضته لما قابله بمخالفته».

فالإنسان والحيوان والجماد والأرض والسموات في قبضته سبحانه، قال تعالى: ﴿ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ﴾ [الزمر: 67]، وقال: ﴿ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ

---

(1) صيد الخاطر، ص: 234، 235، بتصرف في العبارة.

ٱلۡقِيَـٰمَةِ ﴾ [الزمر: 67]. فكيف تجرؤ على مخالفته وأنت في قبضته يتصرف بك كيف يشاء، إن شاء عذبك وإن شاء غفر لك.

فالحذر الحذر من المعاصي فإن عواقبها سيئة، وكم من معصية لا يزال صاحبها في هبوط أبداً مع تعثير أقدامه، وشدة فقره، فوا أسفاً لمعاقب لا يحس بعقوبته، وآه من عقاب يتأخر حتى يُنسى سببه، أوليس ابن سيرين يقول: عيرَّت رجلاً بالفقر فافتقرت بعد أربعين سنة، وابن الجلاء يقول: نظرت إلى شاب مستحسن فنسيت القرآن بعد أربعين سنة. فوا حسرة لمعاقب لا يدري أن أعظم العقوبة عدمُ الإحساس بها [1].

* * *

(1) المرجع السابق، ص: 229.

ماذا تتضمن المعصية

يقول ابن عطاء الله: واعلم أن المعصية تتضمن: نقض العهد، وتحليل عقد الود، والإيثار على المولى، والطاعة للهوى، وخلع جلباب الحياء، والمبارزة[1]. لله بما لا يرضى، مع ما في ذلك من الآثار الظاهرة: من ظهور الكدورة في الأعضاء، والجمود في العين، والكسل في الخدمة، وترك الحفظ للحرمة، وظهور كسب الشهوات، وذهاب بهجة الطاعات. وأما الآثار الباطنة: فكالقساوة في القلب، ومعاندة النفس، وضيق الصدر بالشهوات، وفُقدان حلاوة الطاعات، وترادف الأغيار المانعة من بروق شوارق الأنوار، واستيلاء دولة الهوى، إلى غير ذلك من ترادف الارتياب، ونسيان المآب، وطول الحساب.

المعصية جرأة على الله تحوي داخلها مصائب كثيرة يذكرها ابن عطاء الله وهي الآتي:

1- **نقض العهد :**

أي أن العبد العاصي نقض عهده مع الله وهي وصاياه وتكاليفه وكان الواجب عليه أن يلتزم أمر الله حين قال سبحانه: ﴿وَبِعَهۡدِ ٱللَّهِ أَوۡفُواْۚ﴾ [الأنعام: 152].

فلتعلم أيها المسلم أن لله حقاً عليك هو حق العبادة له سبحانه ذلك الحق الذي أخبرنا عنه نبينا ﷺ، يقول معاذ بن جبل رضي الله عنه: كنت ردف- راكباً خلفه – النبي ﷺ على حمار فقال: «يا معاذ هل تدري ما حق الله على عباده، وحق العباد على الله؟ قلت: الله ورسوله أعلم. قال: فإن حق الله على العباد أن يعبدوه، ولا يشركوا به شيئاً، وحق العباد على الله أن لا يعذب من لا يشرك به شيئاً، فقلت: يا رسول الله أفلا أبشر الناس؟ قال: لا تبشرهم فيتكلوا»[2].

---

(1) في المطبوع: والمبادرة.

(2) البخاري: كتاب: الجهاد والسير، باب: اسم الفرس والحمار، رقم (2644)، ومسلم، كتاب: الإيمان، باب: الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة قطعاً، رقم (44).

فحق الله على العباد هو العبادة قال تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات: 56] ثم قال ﷺ: «وحق العباد على الله أن لا يعذب من لا يشرك به شيئاً». وهل للعباد حق على الله! ! !. أبداً إنه سبحانه لا يُسأل عما يفعل؟. إنه على كل شيء قدير ليس لنا حق عليه فلو شاء سبحانه أن يدخل أهل النار الجنة أو بالعكس فلا مُلزم له، لكنه سبحانه ألزم نفسه تحبباً لنا وتلطفاً بعقولنا فسمى جزاء العباد حقاً. وهذا أمثلته كثيرة مثل قوله تعالى: ﴿ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴾ [الرحمن: 60] وقوله: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴾ [الأنبياء: 101] وقوله: ﴿ ۞ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾ [يونس: 26].

2- تحليل عقد الود:

الوُد هو: الحب، ويأتي هنا على معنيين: حب الله لعباده الصالحين، أو امتلاء قلوب العباد بحب الله سبحانه، قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴾ [البقرة: 222]، فإذا عصى العبد ربه فكأنه تخلى - والعياذ بالله- عن محبة الله، وعلى المعنى الآخر فإن العبد المداوم على الذنوب كاذب في ادعاء محبته للباري عز وجل.

3- الإيثار على المولى والطاعة للهوى:

وقد حذر الله سبحانه من اتباع الهوى، بل اعتبره إلهاً فقال سبحانه: ﴿ أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ ﴾ [الجاثية: 23].

وإليك أمثلة عن طاعة الهوى: كثير من الناس يحجُّون ويعتمرون كل عام، مع أن الفرض هو حجة أو عمرة في العمر كله، أما الزيادة فيسمى حج النفل والتطوع، فهؤلاء يحجُّون ويعتمرون كل سنة وهناك جيران لهم جائعون محتاجون، فإذا قلت لهم: تصدَّقوا بثمن الحج على الفقراء امتنعوا وما كل ذلك إلا طاعة للهوى. مع أن إطعام الجائع وكفاية المحتاج أولى من حج النفل.

كثير من الناس يتحرَّزون من رشاش نجاسة، ولا يتحاشون من غيبة، ويكثرون من الصدقة، ولا يبالون بمعاملات الربا، ويتهجَّدون بالليل ويؤخرون الفريضة عن الوقت، يذكرون الله بألسنتهم وقلوبهم محشوة بالكبر والعجب والحقد والحسد، والأمثلة كثيرة لا تنتهي.

وسبب ذلك كله غلبة الهوى والعادة، فمن اعتاد شيئاً وألِفَه فإنه لا يقدر خطورته. وهذه حال المسلمين اليوم اعتادوا الاهتمام بالقشور وتركوا اللب والأصل فلم يقدروه قدره.

4ـ خلع جلباب الحياء والمبادرة لله بما لا يرضى:

فالعبد المذنب لا يستحي من ربه، إذ كيف يعصيه وهو –سبحانه- يراه، ومن هذا قوله ﷺ: «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر حين يشرب وهو مؤمن، ولا يسرق حين يسرق وهو مؤمن، ولا ينتهب [1]. نُهبة يرفع الناس إليه فيها أبصارهم حين ينتهبها وهو مؤمن» [2].

إذ كيف يزني المؤمن الذي يعلم أن الله يراه ! ! ! إنه ينخلع من إيمانه مدة المعصية، أفلا يخشى أن لا يعود إليه هذا الرداء؟!.

إن الحياء من الله شعبة عظيمة من شعب الإيمان، لذلك خصها النبي ﷺ بقوله: «الإيمان بضع وستون شعبة، فأفضلها: لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق والحياء شعبة من الإيمان»[3].

---

(1) النهب: أخذ الشيء قهراً، المعجم الوسيط، ص: 994.

(2) البخاري في المظالم والغصب، باب: النهب بغير إذن صاحبه، رقم (2295).

(3) البخاري في الإيمان، باب: أمور الإيمان، رقم (8) بلفظ: «الإيمان بضع وستون شعبة والحياء شعبة من الإيمان». ومسلم من الإيمان. ومسلم في الإيمان، باب: بيان عدد شعب الإيمان، رقم (51) بلفظ: «الإيمان بضع وسبعون شعبة».

فالحياء صفة خُلقية تُبعد الإنسان عن الأعمال المشينة، والنبي ﷺ خصها بالذكر لما لها من أثر عظيم وفضل جليل فمن لم يستح من الله لم يبال أن يشرك به ويعصيه، والذي لم يستح من الناس لم يستح أن يعمل عمل الأشرار، فالحياء منبع القيم الإنسانية [1].

أما آثار المعصية، فهناك آثار ظاهرة وآثار باطنة. أما الظاهرة فهي:

الآثار الظاهرة للمعصية:

1- **ظهور الكدورة في الأعضاء:** الكدورة من الكدر، وهو: ما تغير لونه ومال إلى الغبرة والرمد. وهو كناية عن ذهاب بهاء نور الوجه والأعضاء بسبب فعل المعاصي.

وهذا أمر يشهد له الواقع، إذ الأعضاء تتنور بالطاعة وتُكدر بالمعصية، إن المسلم المطيع لربه يعرف إذا نظر إلى الوجوه المتق من المذنب وهذا مصداق قوله تعالى: ﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم﴾ [الفتح: 29].

وعندما دخل ذلك الرجل على سيدنا عثمان بن عفان ﷺ قال له: أيدخل علي أحدكم وفي عينيه أثر الزنى، فقال الرجل: أوحي بعد رسول الله يا أمير المؤمنين قال: بل فِراسة المؤمن، قال ﷺ: «اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله» ثم قرأ ﷺ: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾ [2]. [الحجر: 75].

ولذلك كانت صفة أهل الله أن النظر إلى وجوههم يُذكر بالله سبحانه. فقال ﷺ: «خير عباد الله من إذا رُؤوا ذكُر الله» [3].

---

(1) في ظلال الحديث النبوي، د. نور الدين عتر، ص: 59.

(2) الترمذي في تفسير القرآن، باب: ومن سورة الحجر، رقم (3052).

(3) أحمد مسند الشاميين، حديث عبد الرحمن بن غنم الأشعري، رقم (17312).

2ـ **الجمود في العين**: فعين العاصي جامدة لا تفيض بالدمع من خشية الله واستشعار تقصيره، فأين هو من قوله ﷺ: «عينان لا تمسهما النار: عينٌ بكت من خشية الله وعينٌ باتت تحرس في سبيل الله» (1).

3ـ **الكسل في الخدمة**: أي في خدمة الله وتطبيق أوامره فلا يقوم إلى الصلاة إلا عندما يقترب وقتها من الانتهاء ولا يصلي إلا وهو كسلان كالمنافقين الذين وصفهم الله بقوله: ﴿ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ ﴾ [النساء: 142].

4ـ **ترك الحفظ للحرمة**: فهو لا يعظم شعائر الله من صلاة وصيام وحج. . الخ، ولا يعظم القرآن وكلها من حرمات الله، بل ويتجرأ على الدخول في حمى الله أي محارمه كما ورد في الحديث، همه إرواء شهواته، همه الانغماس في غفلته فلا يذكر الله ولا يصلي على رسول الله ويغتاب الناس ويؤذيهم وهذا كله من حرمات الله، ويرائي بعمله ويطلب مدح الناس ورضاهم وينسى رضا الله سبحانه، وكل ذلك من تركه الحفظ للحرمة.

5ـ **ظهور كسب الشهوات وذهاب بهجة الطاعات**: إن العبد المذنب لا يُقدِّر قيمة الطاعة ولا يشعر بلذتها، ولو صلى ركعتين في الليل خاشعاً بعيداً عن الأغيار لذاق لذة الطاعة والقرب من الله سبحانه، لكنه معرض عن ذلك كله لاهثٌ وراء شهواته الدنيئة التي من شأنها أن تحجبه عن معرفة بهجة الطاعات.

هذه هي الآثار الظاهرة للمعصية.

---

(1) الترمذي، كتاب: فضائل الجهاد عن رسول الله، باب: ما جاء في فضل الحرس في سبيل الله، رقم (1563). وقال: حسن غريب.

أما الآثار الباطنة فهي:

1ـ **القساوة في القلب:** وأقسى القلوب تلك الممتلئة بحب الدنيا والجاه والتكبر، والمحشوة بالمعاصي والذنوب، نُزعت منها الرحمة والخوف من الباري سبحانه، لا يدخلها خير ولا يخرج منها خير كالكوز مُجخياً كما قال ﷺ [1]. وفي الحديث أيضاً «أبعد ما يكون عن الله القلب القاسي» [2]. لذلك هدد الله سبحانه قساة القلوب بقوله تعالى: ﴿ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾ [الزمر: 22].

2ـ **معاندة النفس:** عاند فلان فلاناً: خالفه وعارضه فيما يفعل [3]. فالمطلوب من النفس طاعة ربها والتزام أوامره. وعندما تشرد عن كل هذا، فعلى صاحبها معاندتها لردها إلى الحق. وهو ما يسمى: مجاهدة النفس الأمَّارة بالسوء.

3ـ **ضيق الصدر بالشهوات، وفقدان حلاوة الطاعات:** سُئل وهيب بن الورد: أيجد لذة الطاعة من يعصي؟ فقال: لا ومن هم. فرب شخص أطلق بصره، فحرم اعتبار بصيرته، أو لسانه فحُرِمَ صفاء قلبه، أو آثر شُبهة في مطعمه، فأظلم سره، وحُرِمَ قيام الليل، وحلاوة المناجاة إلى غير ذلك وهذا أمر يعرفه أهل محاسبة النفوس [4].

4ـ **الأغيار المانعة من بروق شوارق الأنوار:** الأغيار هي الشواغل عن الله سبحانه وتعالى فكل ما يشغلك عن الله يمنع عنك توفيقه وإلهامه، إذ العبد المجاهد لنفسه المطيع لربه يوفقه الله لمزيد من الطاعات، قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾ [العنكبوت: 69].

---

(1) سبق تخريجه، ص: 31.

(2) أخرجه الترمذي، كتاب: الزهد عن رسول الله، رقم (2335). وقال: حديث حسن غريب.

(3) المعجم الوسيط، ص: 654.

(4) صيد الخاطر، ابن الجوزي، ص: 85.

5ـ **استيلاء دولة الهوى**: بسبب طاعة النفس وشهواتها، قال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ [الجاثية: 23]. وقال سبحانه: ﴿وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ﴾ [الأعراف: 176].

يقول ابن الجوزي: «تأملتُ وقوع المعاصي من العصاة فوجدتهم لا يقصدون العصيان، وإنما يقصدون موافقة هواهم، فتبع العصيان تبعاً. فنظرت في سبب ذلك الإقدام مع العلم بوقوع المخالفة، فإذا به ملاحظتهم لكرم الخالق، وفضله الزاخر. ولو أنهم تأملوا عظمته وهيبته ما انبسطت كف بمخالفته. فليعرض المُقدم على الذنوب على نفسه الحذر ممن هذه صفته. فقد قال الله تعالى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾ [آل عمران: 28].

وملاحظة أسباب الخوف أدنى إلى الأمن من ملاحظة أسباب الرجاء، فالخائف آخذ بالحزم، والراجي متعلق بحبل طمع، وقد يخلف الظن»[1].

إن موافقة الهوى سبب للذل والخسران، ومخالفة الهوى سبب للعز والكرامة.

اسمع لما يقوله ابن الجوزي –رحمه الله–: «قرأت سورة يوسف عليه السلام، فتعجبت من مدحه عليه السلام على صبره وشرح قصته للناس ورفع قدره بترك ما ترك، فتأملت خبيئة الأمر، فإذا هي مخالفة للهوى المكروه. فقلت: واعجباً لو وافق هواه من كان يكون؟! ولما قد خالفه (خالف هواه)، لقد صار أمراً عظيماً يُضرب الأمثال بصبره، ويفتخر على الخلق باجتهاده، وكل ذلك قد كان بصبر ساعة، فيا له عزاً وفخراً !

وبالعكس منه حالة آدم في موافقته هواه، لقد عادت نقيصة في حقه أبداً لولا التدارك ﴿فَتَابَ عَلَيْهِ﴾ [البقرة: 37]. فتلمحوا –رحمكم الله– عاقبة الصبر، ونهاية الهوى.

---

(1) صيد الخاطر، ص: 245.

فالعاقل من ميز بين الأمرين: الحلوين والمرين، فإن من عدل ميزانه ولم تمل به كفة الهوى رأى كل الأرباح في الصبر، وكل الخسران في موافقة النفس، وكفى بهذا موعظة في مخالفة الهوى لأهل النهي ! والله الموفق» [1].

6ـ **ترادف الارتياب، ونسيان المآب، وطول الحساب:** إن المعاصي سبب للتشكيك في كل الأمور: قد تكون المعاصي سبباً للشك في الله – والعياذ بالله – والشك في الرزق، والشك في حكمة الله في خلقه، والشك في عذاب القبر وأهوال يوم القيامة والحساب والعقاب والجنة والنار. كل ذلك لنقص اليقين بالله سبحانه بسبب ما ران على القلب من الذنوب والمعاصي.

إن العبد الغافل ينسى القدوم على الله، فليتفكر في ذلك اليوم وما يحويه من الأهوال وطول الحساب، ذلك اليوم المرعب الذي وصفه الله سبحانه بقوله: ﴿ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ﴾ [الحج: 2]. سكارى من شدة الخوف لا من شرب الخمر.

وهو يوم تشيب له رؤوس الأولاد الأبرياء، قال سبحانه: ﴿ فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا ﴾ [المزمل: 17].

وفيه ينسى الإنسان كل من حوله ولا يفطن إلا لنفسه، يقول سبحانه: ﴿ فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ﴿٣٣﴾ يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴾ [عبس: 33– 37].

---

(1) المرجع السابق، ص: 249، 250.

عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «تُحشرون من حفاةً عراةً غرلاً[1]، قالت عائشة: فقلت يا رسول الله ينظر الرجال والنساء بعضهم إلى بعض فقال: الأمر أشد من أن يُهمهم ذاك»[2].

وانظر كيف يصور الباري سبحانه ذلك المشهد من مشاهد يوم القيامة بقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ[3] فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٤٢﴾ مُهْطِعِينَ[4] مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ[5] لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ[6] وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ[7] ﴾ [إبراهيم: 42- 43]. فهل أنت مستعد لكل ذلك؟ أنسيت ذلك الموقف؟!.

ثم أيها العبد تذكر الحساب وطوله يوم القيامة، وأنك ستقف بين يدي الله سبحانه وتعالى ليس بينك وبينه ترجمان فيسألك عما اقترفته يداك ومشت به رجلاك وتكلم به لسانك، قال تعالى: ﴿ فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ [الأعراف: 6]. وقال سبحانه: ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [الحجر: 92- 93]. سوف يسألك ربك عن النعم التي وهبك إياها، قال تعالى: ﴿ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ﴾ [التكاثر: 8]. ستُسأل عن كل شيء، قال عز وجل: ﴿ وَقِفُوهُمْ ۖ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ﴾ [الصافات:24].

---

(1) غرلاً: غير مختونين.

(2) البخاري، كتاب: الرقاق، باب: كيف الحشر، رقم (6046).

(3) تشخص: يرتفع جفنها وتبقى مفتوحة من شدة الهول.

(4) مهطعين: مسرعين إلى الداعي بذلة وخوف. قال تعالى: ﴿ مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ ۖ يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴾ [القمر: 8].

(5) مقنعي رؤوسهم: رافعيها مديمي النظر للأمام فلا يتلفتون يميناً ولا شمالاً.

(6) لا يرتد إليهم طرفهم: لا يرجع إليهم تحريك أجفانهم بعد شخوصها.

(7) وأفئدتهم هواء: قلوبهم خالية من الفهم والتدبر كالهواء والخلاء الذي لا شيء فيه.

أي احبسوهم للحساب ولن تجد النصير أو المعين، قال تعالى: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ۝٢٥ بَلْ هُمُ ٱلْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ﴾ [الصافات: 25- 26].

في ذلك اليوم: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ﴾ [الرحمن: 39] لأن الله سبحانه علمها منهم وكتبها الحفظة عليهم. فأي داع لسؤالهم عن ذنوبهم!.

في ذلك اليوم يُمنع العاصي من الكلام، ﴿فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ﴾ [الرحمن: 41] ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا﴾ [آل عمران: 30].

في ذلك اليوم توضع الأغلال في أعناق الكافرين والظالمين، قال تعالى: ﴿إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسْحَبُونَ ۝٧١ فِى ٱلْحَمِيمِ ثُمَّ فِى ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ﴾ [غافر: 71- 72]. يومٌ تخرس فيه الألسن وتنطق الجوارح، يوم شيَّب ذكره سيد المرسلين ﷺ إذ قال له الصديق رضي الله عنه: يا رسول الله شبت، قال: «شيبتني هود والواقعة والمرسلات وعم يتساءلون وإذا الشمس كورت»(1).

فيا من ضيع عمره بالشهوات والغفلة، استمع لقوله تعالى: ﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ۝١ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ۝٢ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنبياء: 1- 3].

يا من تظن أن يوم القيامة بعيد استمع لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا ۝٦ وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا﴾ [المعارج: 6- 7].

في ذلك اليوم ستقف بين يدي الله سبحانه للحساب، يقول ﷺ في ذلك: «ليقفن أحدكم بين يدي الله عز وجل ليس بينه وبينه حجاب فيقول له: ألم أنعم عليك؟ ألم أوتك مالاً؟

---

(1) أخرجه الترمذي، كتاب: تفسير القرآن عن رسول الله، باب: ومن سورة الواقعة، رقم (3219). وقال: حديث حسن غريب.

فيقول: بلى، فيقول: ألم أرسل إليك رسولاً؟ فيقول: بلى، ثم ينظر عن يمينه فلا يرى إلا النـار، ثم ينظر عن شماله فلا يرى إلا النار، فليتَّقِينَّ أحدكم النار ولو بشـق تمـرة فـإن لم يجـد فبكلمـة طيبة»[1].

فكيف يكون حياؤك يا مسكين وأنت مُثقل بالـذنوب والمعـاصي، فكيـف بـك إذا قيـل للملائكة: خذوا هذا العبد فغلوه ثم الجحيم صلوه؟!

تذكر أن نعيم الدنيا زائل لا يبقى معك تلك اللحظة، فما هذه الدنيا التي تشغلنا عن مثل تلك المواقف، ماذا تفيدنا، إنها لا شيء !!!.

فإياك أن تغفل عن يوم القيامة، فإن عذاب من يكذّب بالساعة كبير قال تعالى: ﴿ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلسَّاعَةِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴿١١﴾ إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ سَمِعُوا۟ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴿١٢﴾ وَإِذَآ أُلْقُوا۟ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ[2] دَعَوْا۟ هُنَالِكَ ثُبُورًا[3] ﴿١٣﴾ لَّا تَدْعُوا۟ ٱلْيَوْمَ ثُبُورًا وَٰحِدًا وَٱدْعُوا۟ ثُبُورًا كَثِيرًا ﴿١٤﴾ قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۚ كَانَتْ لَهُمْ جَزَآءً وَمَصِيرًا ﴾ [الفرقان: 11-15]

يقول ابن الجوزي: «أجهل الجهال من آثر عاجلاً على آجل لا يأمن سوء مغبته، فكم قـد سمعنا عن سلطان وأمير وصاحب مال أطلق نفسـه في شـهواتها ولم ينظـر في حـلال وحـرام، فنزل به من الندم وقت الموت أضعاف ما التذ، ولقي من مرير الحسرات مـا لا يقاومـه ولا ذرة من كل لذة. ولو كان هذا فحسب لكفى حزناً وكيف ؟!. والجزاء الدائم بين يديه. . فلا خـير في لذة من بعدها النار. وهل عد في العقلاء قط من قيل له: اجلس في المملكة سنة ثـم تقتلـك.

---

(1) أخرجه البخاري، كتاب: الزكاة، باب الصدقة قبل الرد، رقم (1324).

(2) مقرنين: مقرونة أيديهم إلى أعناقهم بالأغلال.

(3) الثبور: الهلاك.

هيهات بل الأمر بالعكس، وهو أن العاقل من صابر مرارة الجهد سنة، بل سنين ليستريح في عاقبته»[1].

إن ما ينتظر الإنسان بعد الموت أعظم وأشد خطراً مما قبله! فالموت ليس نهاية الحياة وإنما بداية لحياة أكبر؟!

فلو أنا إذا متنا تُركنا ... لكان الموت راحة كل حي

ولكنا إذا مِتنا بعثنا ... ونُسأل بعدهُ عن كل شيء

هذا ما ذكره ابن عطاء الله من آثار سيئة للمعاصي والذنوب، وهناك آثار سيئة أخرى ذكرها ابن القيم في كتابه «الفوائد» منها: «قلة التوفيق وفساد الرأي، وخفاء الحق وفساد القلب، وخمول الذكر، وإضاعة الوقت، ونُفرة الخلق والوحشة بين العبد وبين ربه، ومنع إجابة الدعاء وقسوة القلب، ومحق البركة في الرزق والعمر، وحرمان العلم ولباس الذل وإهانة العدو وضيق الصدر، والابتلاء بقرناء السوء الذين يفسدون القلب ويضيعون الوقت، وطول الهم والغم، وضنك المعيشة وكسف البال تتولد من المعصية والغفلة عن ذكر الله كما يتولد الزرع من الماء، والإحراق عن النار، وأضداد هذه تتولد عن الطاعة»[2].

أسأل الله أن يجنبنا الزلل في القول والعمل، وأن ينور قلوبنا بطاعته، وأن يغفر لنا ما اقترفناه من الذنوب والمعاصي إنه هو الغفور الرحيم.

* * *

---

(1) صيد المخاطر، ص: 212.

(2) الفوائد، ابن القيم، ص: 51.

مقارنة بين الطائع والعاصي

يقول ابن عطاء الله: ولو لم يكن في المعصية إلا تبدل الاسم لكان ذلك كافياً، فإنك إذا كنت طائعاً تُسمى بالمحسن المقبل، وإذا كنت عاصياً انتقل اسمُك إلى المسيء المعرض، هذا في انتقال الاسم، فكيف بانتقال الأثر من تبدل حلاوة الطاعة بحلاوة المعصية؟! ولذاذة الخدمة بلذاذة الشهوة ؟! هذا في تبدل الأثر، فكيف بتبدل الوصف؟ بعد أن كنت موصوفاً عند الله بمحاسن الصفات، فيعكس الأمر، فتتصف بمساوي الحالات، هذا في تبدل الوصف، فكيف بتبدل الرتبة؟ فبعد أن كنت عند الله من الصالحين صرت عنده من المفسدين، وبعد أن كنت عند الله من المتقين، صرت عنده من الخائنين، فإن كانت الذنوب منفتحة في وجهك فاستغث بالله، والجأ إليه، واحث التراب على رأسك وقل. اللهم انقلني من ذل المعصية إلى عز الطاعة، وزر ضرائع الأولياء والصالحين، وقل: يا أرحم الراحمين!.

في هذا المقطع يقارن ابن عطاء الله –رحمه الله– بين الطائع والعاصي: فالعبد الطائع محسن لنفسه، قال تعالى: ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾ [الإسراء: 7].

والعبد الذي أحسن لنفسه بطاعة ربه هو المفلح يوم القيامة، قال سبحانه: ﴿الٓمٓ ۝١ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ۝٣ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝٤ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [لقمان: 1– 5].

أما العبد المنغمس بالمعاصي فهو مسيء لنفسه مُعرض عن طاعة ربه، قال سبحانه: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ [الشمس: 7– 10].

أما **انتقال الأثر**: فالطائع يتلذذ بحلاوة الطاعة، بل لو يعلم الملوك ما عليه الطائع من السرور لقاتلوه على ذلك بالسيوف كما قال أحد الصالحين. فلا حلاوة إلا حلاوة الطاعة لأن الطاعة هي مهمة العبد في هذه الدنيا، أما العاصي فيظن أنه يتلذذ بالمعصية ولا والله ليست هذه لذة لأنها تنتهي بانتهاء الفعل ويعقبها ضنك العيش في الدنيا والعذاب في القبر ويوم القيامة.

لذلك كان جزاء الذي يغض بصره عن النظر المحرم للمرأة إيماناً يملأ قلبه، قال ﷺ: «النظرة إلى المرأة سهم مسموم من سهام إبليس من تركها مخافتي أبدلته إيماناً يجد حلاوته في قلبه» (1).

أما **تبديل الأثر**: فالطائع يلتذ بخدمة الله وطاعته وتطبيق شرعه، والعاصي يلتذ بشهوته ويغفل عن الله سبحانه.

أما **تبدل الوصف** : فالطائع عبد لله معترف بعبوديته متواضع حسن الخلق، مراقب لله في السر والعلانية، يحب لأخيه ما يحب لنفسه، رحيم بمن حوله واصل لرحمه منفق لماله في سبيل الله. أما العاصي فمتصف بالتكبر وقسوة القلب والغفلة والحسد وقطيعة الرحم.

أما **تبدل المرتبة** : فالطائع متصف بالصلاح يعمل الصالحات ويعتقد أنها خير وأبقى كما قال تعالى: ﴿ٱلۡمَالُ وَٱلۡبَنُونَ زِينَةُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَٱلۡبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيۡرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابٗا وَخَيۡرٌ أَمَلٗا﴾ [الكهف: 46].

أما العاصي فهو فاسد المزاج يسعى وراء شهوته وينسى حق الله عليه، فهو من المفسدين.

والطائع متصف بالتقوى فهو ممتثل لأوامر ربه مبتعد عن نواهيه، يعمل لآخرته ويتذكر مآبه إلى الله، قال تعالى: ﴿هَٰذَا ذِكۡرٞۚ وَإِنَّ لِلۡمُتَّقِينَ لَحُسۡنَ مَـَٔابٖ﴾ [ص: 49].

أما العاصي فهو خائن للأمانة مبتعد عن صراط الله، متبع للسبل كما قال سبحانه: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦۚ﴾ [الأنعام: 153].

ثم ينصح ابن عطاء الله العبد الذي انفتحت في وجهه الذنوب أن يستغيث بالله وأن يلجأ إليه وحده سبحانه كما أوصى رسول الله ﷺ ابن عباس بقوله: «إذا سألت فاسأل الله وإذا استعنت فاستعن بالله» (2).

---

(1) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير، رقم (10362): 10/ 173. والحاكم في المستدرك رقم (7875): 4/ 349. وقال: صحيح الإسناد.

(2) الترمذي في صفة القيامة والرقائق والورع عن رسول الله، رقم (2440). وقال: حسن صحيح.

ثم يقول ابن عطاء الله مخاطباً العبد المذنب: «واحث التراب على رأسك وقل: اللهم انقلني من ذل المعصية إلى عز الطاعة».

فحثى التراب على الرأس دليل الندم على فقد شيء عزيز كما كانت النساء تفعل في الجاهلية عندما يموت الزوج أو الابن. فالمذنب فقد لذة الطاعة ووقع في شرك الندم بسبب معصيته فعليه أن يعترف بضعفه أمام قوة الله وبذّلِه أمام عزة الله، يقول ابن عطاء الله في إحدى حِكَمِهِ: «تحقق بأوصافك يمدُّك بأوصافه! تحقق بذلِّك يمُّدك بعزه، تحقق بعجزك يمُّدك بقدرته، تحقق بضعفك يمُّدك بحوله وقوته».

واعلم أن الله يستجيب دعاء المضطر المكسور الفؤاد، ألم يقل سبحانه: ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ ﴾ [غافر: 60].

ألم يقل سيدنا محمد ﷺ: «إن الله حيي كريم يستحي إذا رفع الرجل إليه يديه أن يردهما صفراً خائبتين»(1).

إن الباري سبحانه مستغنٍ عن عبادتنا ولا تضره معصيتنا لكنه سبحانه يتحبب إلى العاصي رحمة به ونجاة له من العذاب فيخاطبه قائلاً: مهما ابتعدت عني، مهما قصرت في أداء حقوقي، فأنا قريب أسمع دعاءك، فتوجه بقلبك إلي واطلب مني أحقق لك ما تريد؟!

واختر من الأوقات للدعاء أفضلها كوقت السحر، إذ يقول ﷺ: «إذا مضى شطر الليل أو ثلثاه، ينزل الله تبارك وتعالى إلى السماء الدنيا فيقول: هل من سائل فيُعطى؟ هل من داع فيُستجاب له؟ هل من مستغفر فيغفر له؟ حتى ينفجر الفجر»(2).

---

(1) الترمذي في الدعوات عن رسول الله، باب: في دعاء النبي، رقم (3479). وقال: حسن غريب. وابن ماجه في الدعاء، باب: رفع اليدين في الدعاء، رقم (3855). وأحمد باقي مسند الأنصار، حديث سلمان الفارسي، رقم (22600).

(2) سبق تخريجه، ص: 22.

ويقول ﷺ: «أقرب ما يكون العبد من ربه في جوف الليل»[1]. فإن استطعت أن تكون ممن يذكر الله في تلك الساعة فقد حزت الفضيلة.

إن لحظة إدبار الليل وإقبال النهار يمكنك أن تنهض لتبني مستقبلك.

أفبعد هذا كله تبقى شارداً عن صراطه، إن الباري سبحانه يدلُّك على الخير وأنت تهرب منه وينجيك من العذاب الذي تزج نفسك فيه!!. وما هذا إلا من الكبر، فإيَّاك والكبر فإنه سبب الطرد من رحمة الله، وما لُعن إبليس وطُرد من رحمة الله ومن الجنة إلا بسبب كبره، قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [البقرة: 34].

وإيَّاك أن تُصرف عن آيات الله بسبب كبر تلبست به، قال تعالى: ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ﴾ [الأعراف: 146].

ثم يقول ابن عطاء الله: «وزر ضرائح الأولياء والصالحين، وقل: يا أرحم الراحمين».

مشروعية زيارة القبور:

أما زيارة القبور فمشروعية بقوله ﷺ: «كنت نهيتكم عن زيارة القبور فقد أذن لمحمد في زيارة قبر أمه فزوروها فإنها تذكر الآخرة»[2].

وقد ثبت في الصحيح أن النبي ﷺ كان يذهب كل ليلة إلى البقيع يسلم على أهله ويدعو ويستغفر لهم[3].

---

(1) سبق تخريجه، ص: 22.

(2) أخرجه الترمذي، كتاب: الجنائز عن رسول الله، باب: ما جاء في الرخصة في زيارة القبور، رقم (974).

(3) مسلم، كتاب الجنائز، باب: ما يقال عند دخول القبور والدعاء لأهلها، رقم (1618).

يقول الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي: «أما زيارة مسجده وقبره ﷺ فهي من أعظم القربات إلى الله عز وجل. أجمع على ذلك جماهير المسلمين في كل عصر إلى يومنا هذا. لم يخالف في ذلك إلا ابن تيمية غفر الله له، فقد ذهب إلى أن زيارة قبره ﷺ غير مشروعة. ودليل ما أجمع عليه المسلمين من دونه عدة وجوه:

الوجه الأول : ما ذكرته من زيارته ﷺ لأهله في البقيع.

الوجه الثاني : ما ثبت من إجماع الصحابة والتابعين ومن بعدهم على زيارة قبره ﷺ والسلام عليه كلما مروا على الروضة الشريفة. روى ذلك الأئمة الأعلام وجماهير العلماء بمن فيهم ابن تيمية رحمه الله.

الوجه الثالث : ما ثبت من زيارة كثير من الصحابة قبره ﷺ، فمنهم بلال رضي الله عنه رواه ابن عساكر بإسناد جيد، وابن عمر فيما رواه مالك في الموطأ وأبو أيوب فيما رواه أحمد، دون أن يؤثر عنهم أو عن أحد منهم أي استنكار أو نقد لذلك.

الوجه الرابع : ما رواه أحمد رضي الله عنه بسند صحيح أن النبي ﷺ لما خرج يودع معاذ بن جبل إلى اليمن قال له: «يا معاذ إنك عسى أن لا تلقاني بعد عامي، ولعلك أن تمر بمسجدي هذا وقبري»[1]. فكلمة «لعل» تأتي في أعم الأحوال للرجاء، وإذا دخلت (أن) على خبرها تمحضت للعرض والرجاء، فالجملة تنطوي بصريح البيان على توصية معاذ أن يعرج عند رجوعه إلى المدينة على مسجده ﷺ وقبره ليسلم عليه»[2].

هذا في مشروعية زيارة القبور، أما الحكمة من الزيارة فالواقف أمام القبر يتفكر في حاله وأنه سيُدفن في التراب مثل صاحب القبر وحيداً فريداً لا يدفع عنه العذاب إلا عمله بعد أن

---

(1) أخرجه أحمد، مسند الأنصار، حديث معاذ بن جبل، رقم (21042).

(2) فقه السيرة النبوية، د. محمد سعيد رمضان البوطي، ص: 560، 561.

تركه أهله وماله وولده، وهذا التفكر يجعل صاحب الـذنب يرجـع إلى ربـه ويتـوب إليـه، إن زيارة القبور تذكر بحقيقة الجسد وبحقيقة هذه الدنيا.

فلينظر المسلم إلى الذين بنوا القصور أين هم الآن، إنهـم في قبـورهم يحاسـبون عـلى مـا فرطوا في جنب الله، فلينظر بعين بصيرته إلى الذين لا يُصلُّون أن أول ما سيحاسبون عليه يـوم القيامة هو الصلاة [1]، فلينظر إلى الذين لا يزكُّون ولا يقرؤون القرآن وكـانوا يغتـابون النـاس وينهشون أعراضهم ماذا حل بهم في قبورهم، فلينظـر إلى الـذين يـؤّذون المـؤمنين والمؤمنـات كيف يعذبون في قبورهم ثم سيحاسبون حساباً عسيراً يوم القيامة.

ثم قال ابن عطاء الله –رحمـه الله-: «زر ضرائـح الأوليـاء والصـالحين وقـل: يـا أرحمـن الراحمين». أي اطلب من الله الرحمة بـك والعفـو عـن تقصـيرك واسـأله المعونـة عـلى الطاعـة والهداية والاستقامة، افعل ذلك بقلب منكسر ونفس متواضعة لخالقها معترفة بتقصيرها. فإن ذلك يثمر المغفرة من الله سبحانه ومحو الذنب عند ذلـك عـد إلى بيتـك وابـدأ حياتـك بطاعـة جديدة!!.

* * *

---

(1) النسائي في الصلاة، باب: المحاسبة على الصلاة، رقم (325): 1/ 143.وأبو داود في الصلاة، باب: قول النبي: «كل صلاة لا يتمها صاحبها تـتم مـن تطوعـه»، رقـم (864): 1/ 229. وابـن ماجـه في إقامـة الصلاة، باب: ما جاء في أول مـا يحاسـب بـه العبـد الصـلاة، رقـم (1425): 1/ 458. والترمـذي في الصلاة، باب: ما جاء أن أول ما يحاسب به العبد يوم القيامة الصـلاة، رقـم (463): 2/ 269. وأحمـد، باقي مسند المكثرين، رقم (9210).

الذنوب الصغائر والكبائر

يقول ابن عطاء الله: وأضر ما يُخاف عليك مُحقرات الذنوب، لأن الكبائر ربما استعظمتها فتُبت منها، واستحقرت الصغائر فلم تتب منها، فمثالك كمن وجد أسداً فخلَّصه الله منه، فوجد بعده خمسين ذئباً فغلبوه، قال الله تعالى: ﴿ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ﴾ [النور: 15]. والكبيرة حقيرةٌ في كرم الله، وإذا أصررت على الصغيرة صارت كبيرة، لأن السم يقتل مع صغره، والصغيرة: كالشرارة من النار، والشرارة قد تُحرق بلّدة.

من تجرأ على صغيرة وقع في كبيرة:

قسم العلماء الذنوب إلى صغائر وكبائر، فالصغائر هي: الذنوب التي لم يرد فيها تهديد أو وعيد من الله تعالى أو من رسوله ﷺ.

والكبائر هي: التي ورد فيها تهديد أو وعيد من الله تعالى أو من رسوله ﷺ.

والقرآن يفرق بين أنواع الذنوب، فيقول سبحانه: ﴿ إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ﴾ [النساء: 31]. وقال سبحانه: ﴿ ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ ﴾ [النجم: 32]. واللمم: الذنوب الصغيرة.

ونجد أحاديث للنبي ﷺ يفرِّق فيها بين الصغائر والكبائر منها:

- ما رواه مسلم أن النبي ﷺ قال: «الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة كفارةٌ لما بينهن ما لم تُغش الكبائر»[1].

---

(1) أخرجه مسلم، كتاب الطهارة، باب: الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة ورمضان إلى رمضان. . رقم (342).

- وفي الصحيحين قال ﷺ: «ألا أنبئكم بأكبر الكبائر ثلاثاً، قالوا: بلى يا رسول الله. قال: الإشراك بالله وعقوق الوالدين وجلس وكان متكئاً فقال: ألا وقول الزور فما زال يكررها حتى قلنا ليته سكت»[1].

وفي البخاري عن عبد الله بن عمر قال: قلت يا رسول الله: أي الذنب أعظم؟ قال: «أن تجعل لله نداً وهو خلقك، قلت: إن ذلك لعظيم ثم أي؟ قال: أن تقتل ولدك تخاف أن يطعم معك، قلت: ثم أي؟ قال: أن تزاني حليلة جارك»[2].

فمن الكبائر ما يأتي:

أ- الإشراك بالله والوعيد الذي جاء في حقه قول الله عز وجل: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ ﴾ [النساء: 48].

ب- عقوق الوالدين: والوعيد الذي جاء في حقه، المفهوم المخالف لقول الله تعالى: ﴿ ۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنًاۚ ﴾ [الإسراء: 23].

ج- قتل النفس، قال تعالى: ﴿ وَمَن يَقۡتُلۡ مُؤۡمِنٗا مُّتَعَمِّدٗا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدٗا فِيهَا ﴾ [النساء: 93].

وكثير من الكبائر ذُكرت في القرآن وذُكر الوعيد عليها كأكل الربا والفرار من الزحف، وأكل مال اليتيم، والزنى، وكتمان الشهادة، واليمين الغموس، وشرب الخمر، وترك الصلاة، ونقض العهد، وقطيعة الرحم. . . .

---

(1) أخرجه البخاري، كتاب: الشهادات، باب: ما قيل في شهادة الزور، رقم (2460). ومسلم، كتاب: الإيمان، باب: بيان الكبائر وأكبرها، رقم (126).

(2) أخرجه البخاري، كتاب: تفسير القرآن، باب: قوله تعالى: ﴿ فَلَا تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴾ رقم (4117).

وكمثال على الصغائر ما رواه البخاري عن ابن مسعود أن رجلاً أصاب من امرأة قبلة فأتى النبي ﷺ فأخبره فأنزل الله عز وجل: ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ﴾ [هود: 114]. فقال الرجل: يا رسول الله: ألي هذا؟ قال: «لجميع أمتي كلهم»[1].

وما رواه البخاري عن أبي هريرة – رضي الله عنه – أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «أرأيتم لو أن نهراً بباب أحدكم يغتسل فيه كل يوم خمساً ما تقول ذلك يبقى من درنه[2]. قالوا: لا يبقى من درنه شيئاً. قال: فذلك مثل الصلوات الخمس يمحو الله بهن الخطايا»[3].

فالخطايا هنا هي: الذنوب الصغائر لأنه شبه الخطايا بالدرن، والدرن صغير بالنسبة إلى ما هو أكبر منه من القروح والخراجات.

وصغائر الذنوب خطيرة لأن المسلم لا يأبه لها بل يستهزئ بها لكنها عظيمة عند الله، لأن الذنوب صغيرها وكبيرها نهى الله عنها، فمهما كان نوع الذنب فالعبد قد تجرأ على الله وعصى أوامره، قال تعالى: ﴿ وَتَحۡسَبُونَهُۥ هَيِّنٗا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٞ ﴾ [النور: 15].

ثم يضرب ابن عطاء الله –رحمه الله– المثل لمن يجتنب الكبائر ويقع في الصغائر فيقول: «فمثالك كمن وجد أسداً فخلصه الله منه فوجد بعده خمسين ذئباً فغلبوه».

ويشهد لهذا ما قاله أبو أيوب الأنصاري: «إن الرجل ليعمل الحسنة فيثق بها وينسى المحقرات فيلقى الله وقد أحاطت به، وإن الرجل ليعمل السيئة فلا يزال منها مشفقاً حتى يلقى الله آمناً»[4].

---

(1) البخاري في مواقيت الصلاة، باب: الصلاة كفارة، رقم (495).

(2) الدرن: الوسخ.

(3) البخاري في مواقيت الصلاة، باب: الصلوات الخمس كفارة، رقم (497). ومسلم في المساجد ومواضع الصلاة، باب: المشي إلى الصلاة تمحى به الخطايا وترفع به، رقم (1071).

(4) فتح الباري، ابن حجر: 11/ 330.

وانظر كيف تكون الصغائر – كما يراها الناس – سبباً لدخول النار في قصة المرأة التي قال عنها النبي ﷺ: «عُذبت امرأةٌ في هرةٍ حبستها حتى ماتت جوعاً فدخلت فيها النار، لا هي أطعمتها وسقتها إذ هي حبستها ولا هي تركتها تأكل من خشاش الأرض[1]»[2].

ثم إن الصغائر ومحقرات الذنوب هي المجال الذي يوسوس فيه الشيطان بحرية مما ينتج عنه كثرة المعاصي والفتن بدليل ما قاله المصطفى ﷺ في حجة الوداع: «.. وإن الشيطان قد أيس من أن يعبد في بلادكم هذه أبداً ولكن ستكون له طاعة فيما تحتقرون من أعمالكم فسيرضى به»[3].

فقد أيس الشيطان أن يطاع في عبادة غير الله أي بالكفر، أو أيس أن يعود المؤمنون إلى عبادة الأصنام، لكن سيطيعه الناس فيما دون الكفر من القتل والنهب والكبائر وتحقير الصغائر فيؤدي هذا إلى الفتن والحروب، يدل عليه قوله ﷺ في حديث آخر: «إن الشيطان قد يئس من أن يعبده المصلون في جزيرة العرب، ولكن في التحريش بينهم»[4].

وفي سنن ابن ماجه عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال لي رسول الله ﷺ: «يا عائشة إياك ومحقرات الأعمال فإن لها من الله طالباً»[5].

---

(1) خشاش الأرض: حشرات الأرض وهوامها.

(2) أخرجه البخاري، كتاب: أحاديث الأنبياء، باب: حديث النار، رقم (3223).

(3) أخرجه الترمذي، كتاب: الفتن عن رسول الله، باب: ما جاء دماؤكم وأموالكم عليكم حرام. رقم (2085). وابن ماجه، كتاب: المناسك، باب: الخطبة يوم النحر، رقم (3046).

(4) الترمذي، كتاب البر والصلة عن رسول الله، باب: ما جاء في التباغض، رقم (1860). وقال: حديث حسن.

(5) ابن ماجه، كتاب: الزهد، باب: ذكر الذنوب، رقم (4233). وإسناده صحيح ورجاله ثقات كما في الزوائد.

ثم يقول ابن عطاء الله: «والكبيرة حقيرة في كرم الله».

هذه العبارة جاءت في الحكم العطائية بلفظ: «لا صغيرة إذا قابلك عدله ولا كبيرة إذا واجهك فضله».

فإذا واجهنا الله سبحانه بعدله لم تبق لنا صغيرة وعادت الصغائر كبائر، وإذا واجهنا الحق تعالى بفضله وكرمه وإحسانه لم تبق لنا كبيرة وعادت الكبائر صغائر.

ولذلك كان بعضهم يدعو فيقول: «واجعل سيئاتنا سيئات من أحببت، ولا تجعل حسناتنا حسنات من أبغضت، فالإحسان لا ينفع مع البغض منك، والإساءة لا تضر مع الحب منك».

ثم يقول ابن عطاء الله: «والصغيرة كالشرارة من النار، والشرارة قد تحرق بلّدة».

فإيَّاك وعدم المبالاة بالصغائر فإن معظم النار من مستصغر الشرر، وإن كثرة الصغائر تهلك المرة وقد ضرب لنا رسول الله ﷺ مثالاً لذلك فيما يرويه عنه ابن مسعود إذ يقول: «إياكم ومحقرات الذنوب فإنهن يجتمعن على الرجل حتى يهلكنه، وإن رسول الله ﷺ ضرب لهنَّ مثلاً كمثل قوم نزلوا أرض فلاة فحضر صنيع القوم، فجعل الرجل ينطلق فيجيء بالعود والرجل الآخر يجيء بالعود حتى جمعوا سواداً فأجَّجْوا ناراً وأنضجوا ما قذفوا فيها»[1].

إن المؤمن يستصغر عمله الصالح ويخشى من صغير عمله السيئ لأنه يقدر لله قدره فيعلم قدر المعصي فيرى الصغيرة كبيرة، وقد أوحى الله تعالى إلى بعض أنبيائه: لا تنظر إلى قلة الهدية وانظر إلى عظم مهديها ولا تنظر إلى صغر الخطيئة وانظر إلى كبرياء من واجهته بها[2].

---

(1) أخرجه أحمد، مسند المكثرين من الصحابة، مسند عبد الله بن مسعود، رقم (3627).

(2) الإحياء، الغزالي: 4/ 48.

أما الفاجر فهو الذي لا يأبه لذنبه صغيراً كان أو كبيراً، هذه الحقيقة بينها المصطفى ﷺ بقوله: «إن المؤمن يرى ذنوبه كأنه قاعد تحت جبلٍ يخاف أن يقع عليه، وإن الفاجر يرى ذنوبه كذباتٍ مر على أنفه فقال به هكذا، قال أبو شهاب: بيده فوق أنفه»[1].

متى يصبح الذنب الصغير كبيرا:

والذنب الصغير يصح مع الإصرار والمواظبة عليه كبيراً، لذلك قيل: لا صغيرة مع الإصرار، ولا كبير مع الاستغفار. ويشهد لهذا أن أنس بن مالك ﷺ قال لأصحابه: «إنكم لتعملون أعمالاً هي أدق في أعينكم من الشعر إن كنا لنعدها على عهد النبي ﷺ من الموبقات»[2].

وخطر المواظبة على الصغائر أعظم من اقتراف ذنب كبير. وفي ذلك يقول الإمام الغزالي رحمه الله: «كبيرة واحدة تنصرم ولا يتبعها مثلها لو تصور ذلك كان العفو عنها أرجى من صغيرة يواظب العبد عليها، ومثال ذلك قطرات من الماء تقع على الحجر على توالٍ تؤثر فيه، وذلك القدر من الماء لو صب عليه دفعة واحدة لم يؤثر، ولذلك قال ﷺ: «أحب الأعمال إلى الله ما دام وإن قل»[3].

والأشياء تستبان بأضدادها وإن كان النافع من العمل هو الدائم وإن قل فالكثير المنصرم قليل النفع في تنوير القلب وتطهيره، فكذلك القليل من السيئات إذا دام عظم تأثيره في إظلام القلب، إلا أن الكبيرة قلما يتصور الهجوم عليها بغتة من غير سوابق ولواحق من جملة الصغائر، فقلما يزني الزاني بغتة من غير مراودة ومقدمات، وقلما يقتل بغتة من غير مشاحنة

---

(1) البخاري، كتاب: الدعوات، باب: التوبة، رقم (5933).

(2) البخاري، كتاب: الرقاق، باب: ما تبقى من محقرات الذنوب، رقم (6011).

(3) البخاري، كتاب: اللباس، باب: الجلوس على الحصير ونحوه، رقم (5413). ومسلم، كتاب: صلاة المسافر وقصرها، باب: فضيلة العمل الدائم من قيام الليل وغيره، رقم (1303).

سابقة ومعاداة، فكل كبيرة تكتنفها صغائر سابقة ولاحقة، ولو تصور كبيرة وحدها بغتة ولم يتفق إليها عود، ربما كان العفو فيها أرجى من صغيرة واظب الإنسان عليها عمره»[1].

والصغيرة تكبر بالسرور بها والفرح والتبجح، فكلما غلبت حلاوة الصغيرة عند العبد كبرت الصغيرة وعظم أثرها في تسويد قلبه، حتى إن من المذنبين من يتمدح بذنبه ويتبجح به لشدة فرحه بمفارقته إياه، كما يقول: أما رأيتني كيف فرقت عرضه، ويقول المناظر في مناظرته: أما رأيتني كيف فضحته وكيف ذكرت مساويه حتى أخجلته وكيف استخففت به وكيف لبست عليه ويقول في التجارة: أما رأيت كيف روجت عليه الزائف وكيف خدعته وكيف غبنته في ماله وكيف استحمقته؟ فهذا وأمثاله تكبر به الصغائر فإن الذنوب مهلكات[2].

والذنب الصغير يكبر بذكره بعد إتيانه، أو يأتيه في مشهد غيره فإن ذلك جناية منه على ستر الله الذي سدله عليه وتحريك لرغبة الشر فيمن أسمعه ذنبه أو أشهده فعله، فهما جنايتان انضمتا إلى جنايته فغلظت به، فإن انضاف إلى ذلك الترغيب للغير فيه، والحمل عليه، وتهيئة الأسباب له صارت جناية رابعة وتفاحش الأمر، وفي الحديث الصحيح: «كل الناس معافى إلا المجاهرين يبيت أحدهم على ذنب قد ستره الله عليه فيصبح فيكشف ستر الله ويتحدث بذنبه»[3].

والذنب الصغير يكبر إذا كان المذنب عالماً يُقتدى به، فإذا فعله بحيث يُرى ذلك منه كبر ذنبه. مثل أن يلبس العالم الإبريسم[4] ويركب مراكب الذهب، ومثل أن يأخذ مال الشبهة. . . ويطلق لسانه في أعراض الناس وتعديه باللسان في المناظرة. وقصده الاستخفاف واشتغاله من

---

(1) إحياء علوم الدين، الغزالي: 4/ 47، 48.

(2) المرجع السابق: 4/ 49.

(3) إحياء علوم الدين، الغزالي: 4/ 49.

(4) الإبريسم: أحسن الحرير، المعجم الوسيط، ص: 2.

العلوم بها لا يقصد منه إلا الجاه كعلم الجدل والمناظرة، فهذه ذنوب يُتبع العالم عليها فيموت العالم ويبقى شره مستطيراً في العالم آماداً (أزماناً) متطاولة. . . . قال بعضهم: مثل زلة العالم مثل انكسار السفينة تغرق ويغرق أهلها. . . . وكما تتضاعف أوزارهم على الذنوب فكذلك يتضاعف ثوابهم على الحسنات إذا اتبعوا. فإذا ترك التجميل والميل إلى الدنيا وقنع منها باليسير ومن الطعام بالقوت ومن الكسوة بالخلق فيتبع عليه ويقتدى به العلماء والعوام فيكون له مثل ثوابهم، وإن مال إلى التجمل مالت طباع من دونه إلى التشبه به، ولا يقدرون على التجمل إلا بخدمة السلاطين وجمع الحطام من الحرام ويكون هو السبب في جميع ذلك»[1].

أمثلة عن صغائر يتسامح بها الناس:

وإليك أمثلة أخرى عن صغائر يتسامح بها الناس، يقول ابن الجوزي:

«كثير من الناس يتسامحون في أمور يظنونها قريبة، وهي تقدح في الأصول كاستعارة طلاب العلم جزءاً لا يردونه، وقصد الدخول على من يأكل ليأكل معه، وتناول طعام لم يُدع الإنسان إليه، والتسامح بعرض العدو التذاذاً بذلك، واستصغاراً لمثل هذا الذنب، وإطلاق البصر في المحرم هواناً بتلك الخطيئة، وفتوى من لا يعلم لئلا يقال: هو جاهل، ونحو ذلك مما يظن صغيراً وهو عظيم، وأهون ما يصنع ذلك بصاحبه أن يحطه من مرتبة المتميزين بين الناس، ومن مقام رفعة القدر عن الحق، وربما قيل له بلسان الحق: يا من اؤتمن على أمر يسير فخان، كيف ترجو بتدليك رضا الديان؟!.

قال بعض السلف: تسامحت بلقمة، فتناولتها، فأنا اليوم أربعين سنة إلى خلف، فالله الله اسمعوا ممن قد جرب، كونوا على مراقبة، وانظروا في العواقب، واعرفوا عظمة الناهي، واحذروا من نفخة تحتقر، وشررةٍ تستصغر، فربما أحرقت بلداً»[2].

---

(1) إحياء علوم الدين: 4/ 50.

(2) صيد الخاطر، ص/ 171.

ومن الأمثلة أيضاً على معاصٍ أو حتى مكروهات يستهين بها مرتكبوها ويعاودون ارتكابها في استخفاف بها، مطمئنين إلى أنها من اللمم الذي سيعفو الله عنه.

من ذلك إصرار بعض الناس على الأكل بالشمال طبقاً لما يقتضيه عرف السكين والشوكة. مع أن الأكل باليمين ليس من الفرائض ولو أن مسلماً تغلبت عليه عادة درج عليها فأخذ يأكل باليسرى بدل اليمنى، لما كان في ذلك حرج ولما ارتكب من جراء ذلك وزراً، ولكن الذين يستخفون بهذا الأدب النبوي ويترفعون عن الالتزام به استكباراً أو إيثاراً لتقليد درج عليه عشاق الحضارة الآسنة. فإن هؤلاء قد تلبَّسوا بمعصية كبيرة، وربما تسرَّبت إلى مكمن الإيمان فزلزلته أو قضت عليه.

يتضح هذا جلياً من الحديث الذي رواه سلمة بن الأكوع أن رجلاً أكل عند رسول الله ﷺ بشماله، فقال: «كل بيمينك. قال: لا أستطيع، قال: لا أستطيع، قال: لا استطعت! ما منعه إلا الكبر. فما رفعها إلى فمه» (1).

ومن الأمثلة على ذلك استهانة بعض الناس بارتكاب محرمات بلغهم أنها من الصغائر، أو وجدوا أن القرآن ينعتها باللمم، أنواع من الاختلاط اللا منضبط بالنساء. . وكمقدمات محرمة من العلاقة بهن، وكتساهل النساء في إبراز بعض مظاهر الإغراء والزينة، وكالركون إلى بعض المحرمات في نظام التعامل التجاري، اعتماداً على أنها من الصغائر التي وعد الله بالصفح عنها.

إن هذه المحرمات هي فعلاً من الصغائر إذا تورط الإنسان بها بسائق ضعف وتغلب شهوة، وقاده ذلك إلى الندم والحياء من الله تعالى واللجوء إليه بالتوبة والاستغفار فإن الله عز وجل يعُدُّها عليه صغيرة، ويعامله عليها بفضله ورحمته، فيغفرها له كما وعد.

---

(1) أخرجه مسلم في الأشربة، باب: آداب الطعام والشراب وأحكامها، رقم (3766).

أما إن ارتكبها آمناً مطمئناً، مستبشراً بأنه لن يلقى على أعقابها من الله أي مكروه، ناسياً بأنه قد أهدر بارتكابه لها حق الله عليه وهو أن يطيعه ولا يعصيه، فإنها تتحول باستهتاره هذا من صغيرة إلى كبيرة، إذ لا كبيرة أكبر، بعد الكفر والشرك بالله، من الاستخفاف بقول الله تعالى. . وعندئذٍ يواجهه عدل الله. . . ومن البداهة بمكان أن الله عز وجل لو قضى بأن يحاسب الناس بعيداً عما قد ألزم ذاته العلية من الرحمة بهم والمغفرة لهم، محاكماً لهم إلى ميزان عدله المجرد، إذاً لهلكوا جميعاً، بدليل قوله تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ﴾[1] [فاطر: 45].

* * *

(1) شرح الحكم العطائية، د. محمد سعيد رمضان البوطي: 2/ 231 وما بعدها.

المعصية قد تكون سبباً لتوقف الرزق

يقول ابن عطاء الله: اعلم يا هذا إياك والمعصية فقد تكون سبباً لتوقف الرزق، فاطلب من الله التوبة، فإن قُبلت وإلا فاستغيث بالله، وقل: ﴿ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ [الأعراف: 23]. ولا تكُن كمن أتى عليه أربعون سنة ولم يقرع باب الله قط.

وهذه حقيقة أخرى يجب أن يدركها كل مسلم وهي: أن المعصية من أسباب حرمان العبد من الرزق، يؤكد هذا قوله ﷺ: « لا يزيد في العمر إلا البر ولا يرد القدر إلا الدعاء، وإن الرجل ليُحرم الرزق بخطيئة يعملها» [1].

ويقول ﷺ: «لا ينال ما عند الله بسخطه» [2].

والرزق هنا يشمل كل أنواعه، فالمال رزق والبركة رزق والعافية رزق والفهم والحكمة رزق، وانظر للإمام الشافعي –رحمه الله– حين شكا لشيخه وكيع سوء حفظه فأرشده إلى ترك المعاصي فقال:

شكوتُ إلى وكيعٍ سوء حفظي فأرشدني إلى ترك المعاصي
وأخبرني بأن العلم نورٌ ونورُ الله لا يُهدى لعاصي

فإذا أردت استمرار رزق الله ودوام بركته عليك فالزم طاعته وتب إليه وتفكر في قوله تعالى: ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ ﴾ [البقرة: 282].

---

(1) ابن ماجه، المقدمة، باب: في القدر، رقم (87)، وأحمد، باقي مسند الأنصار، ومن حديث ثوبان، رقم (21352) ضعيف بالزيادة.

(2) أخرجه الحاكم بلفظ مقارب، رقم (2136): 2/ 5. والطبراني في الكبير، رقم (7694): 8/ 166. وهو حديث ضعيف، انظر: مجمع الزوائد، الهيثمي: 4/ 72.

فإن قُبلَت توبتك فاحمد الله وإلا فاستغث بالله بقلب مكسور وقل: ﴿ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴾ [الأعراف: 23].

وإيَّاك أن يمتد بك العمر وأنت غافل لم تقرع باب الله قط: فأين أنت وماذا تفعل؟ هل استغنيت عن الله! هل أنت ترزق نفسك وتشفي مرضك!.

أم أن النعم التي تتمتع بها مصدرها هو الله وحده، فهو الذي أعطى كل شيء وبيده كل شيء، قال تعالى: ﴿ مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [فاطر: 2].

فاقرع باب الله واطلب منه دوام الصحة والعافية ودوام الرزق، واسأله من خزائنه التي لا تنفد، وتب إلى الله من هذه الغفلة.

الحكمة من اختيار ابن عطاء الله سن الأربعين:

أما اختيار ابن عطاء الله لسن الأربعين فله حكمة، فإن كمال العقل وإنما يكون عند مقاربة الأربعين، فإذا مرت عليك أربعون سنة ولم تقرع باب الله قط وأنت في تمام عقلك فمتى تقرع بابه ؟ !. ولذلك بُعث النبي ﷺ في الأربعين من عمره وكذلك باقي الأنبياء، قال تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ ... ﴾ [الأحقاف: 15].

فالعاقل من فهم مقادير الزمان، فإنه كما قيل: قبل البلوغ صبي ليس على عمره عيار، إلا أن يُرزق فطنه، ففي بعض الصبيان فطنة تحثهم من الصغر على اكتساب المكارم والعلوم، فإذا بلغ فليعلم أنه زمان المجاهدة للهوى، وتعلم العلم، فإذا رزق الأولاد فهو زمان الكسب للمعاملة، فإذا بلغ الأربعين انتهى تمامه، وقضى مناسك الأجل، ولم يبق الانحدار إلى الوطن: فينبغي له عند تمام الأربعين أن يجعل جل همه التزود للآخرة، ويكون كل تلمحه لما بين يديه،

ويأخذ في استعداد للرحيل. . . . فإذا بلغ الستين فقد أعذر الله إليه في الأجل[1]، وجائز في الزمن، فليقبل بكليته إلى جمع زاده، وتهيؤ آلات السفر. . . وكذا علت سنه فينبغي أن يزيد اجتهاده، فإذا دخل في عشر الثمانين فليس الوداع»[2].

* * *

---

(1) يشير إلى قوله: «قد أعذر الله إلى امرئ أخره حتى بلغه ستين سنة: البخاري، كتاب الرقاق، باب: من بلغ ستين سنة. . ، رقم (5940).

(2) صيد الخاطر، ص: 301.

وأوتوا البيوت من أبوابها

يقول ابن عطاء الله: قال الله تعالى: ﴿وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا﴾ [البقرة: 189]. فاعلم أن باب الرزق طاعة الرازق، فكيف يطلب منه بمعصيته؟ أم كيف يستمطر فضله بمخالفته؟ وقد قال عليه أفضل الصلاة والسلام: «لا يُنال ما عند الله بسخطه»(1). أي: لا يطلب رزقه إلا برضاه، وقد قال تعالى مبيناً ذلك بقوله: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا﴾ [الطلاق: 2].

ولهذا المعنى قال الشيخ أبو العباس رضي الله تعالى عنه في حزبه لما قال له: وأعطنا كذا وكذا، قال: والرزق الهني الذي لا حجاب به في الدنيا، ولا حساب ولا سؤال ولا عقاب عليه في الآخرة، فأهله على بساط علم التوحيد والشرع سالمون من الهوى والشهوة والطمع.

هذا تأكيد للحقيقة السابقة بأن الرزق مقترن مع الطاعة وأن المعصية سبب من أسباب حرمان الرزق.

فالرزق الهني هو الذي يعتقد فيه العبد أن الله هو الرازق وحده لا سعيه وجهده، فيأخذ العبد بأسباب الرزق دون شهوة وطمع.

* * *

(1) لم أعثر عليه فيما اطلعت عليه من كتب الحديث.

حقيقة سوء الخاتمة

يقول ابن عطاء الله: وأكثر ما يُخاف عليك سوء الخاتمة -والعياذ بالله تعالى- بسبب إطفاء جمرة الإيمان بسواد العصيان، وهي الذنب على الذنب حتى يسود القلب من غير توبة.

سوء الخاتمة أمر خطير جداً، لأن به يختم للإنسان عمله عند موته، وهو العنوان الذي ينتقل من هذه الدنيا بعمل صالح، وبين من ينتقل بعمل سيئ.

إن سوء الخاتمة نتيجة للتصرفات والأفعال التي كان القلب مشغولاً بها في هذه الحياة، فمن أحب شيئاً أكثر من ذكره، ويستمر هذا الذكر لساعة الموت فترى العبد في سكرات الموت يغلب عليه ما كان مشغولاً به في حياته.

وقد قسم الإمام الغزالي رحمه الله سوء الخاتمة على رتبتين [1]:

الأولى: وهي أعظم من الأخرى وهي ما يغلب على القلب عند سكرات الموت وظهور أهواله: إما الشك في الاعتقاد، وإما الجحود لنعم الله، فتُقبض الروح على حال غلبة الجحود أو الشك، فيكون ما غلب على القلب من عقده الجحود حجاباً بينه وبين الله تعالى أبداً، وذلك يقتضي البعد الدائم والعذاب المخلّد.

وأما **الثانية** : وهي دون الأولى أن يغلب على القلب عند الموت حب أمر من أمور الدنيا وشهوة من شهواتها، فتُقبض الروح في تلك الحال فيكون استغراق قلبه به منكّساً رأسه إلى الدنيا وصارفاً وجهه إليها.

والمرء يموت على ما عاش عليه، ولا يمكن تغيير هذه الحال بعد الموت إذا بطلت الأعمال، وعند ذلك تعظم الحسرة، ولذلك روي عن بقال أنه كان يلَّقن عند الموت كلمتي

---

(1) إحياء علوم الدين، الغزالي: 4/ 251.

الشهادة فيقول: خمسة ستة أربعة، فكان مشغول النفس بالحساب الذي طال إلفه له قبل الموت.

أما سبب سوء الخاتمة فهو كثرة المعاصي والذنوب وإن قوي الإيمان، أو ضعف الإيمان وإن قلت المعاصي، وذلك لأن مقارفة المعاصي سببها غلبة الشهوات ورسوخها في القلب بكثرة الإلف والعادة، وجميع ما أَلِفَهُ الإنسان في عمره يعود ذكره إلى قلبه عند موته. . . فإن كان ميله الأكثر إلى الطاعات كان أكثر ما يحضره ذكر طاعة الله، وإن كان ميله الأكثر إلى المعاصي غلب ذكرها على قلبه عند الموت؟! فربما تُقبض روحه عند غلبة شهوة من الشهوات ومعصية من المعاصي، فيتقيد بها قلبه ويصير محجوباً عن الله تعالى، ثم يقول الإمام رحمه الله: «فعلى هذا –والعلم عند الله– من كانت الخياطة أكثر أشغاله، فإنك تراه يومئ إلى رأسه كأنه يأخذ إبرته ليخيط بها ويبل أصبعه التي لها عادة بالكستبان [1] ويأخذ الإزار من فوقه ويقدره ويشبره كأنه يتعاطى تفصيله، ثم يمد يده إلى المقراض، ومن أراد أن يكف خواطره عن الانتقال عن المعاصي والشهوات فلا طريق له إلا المجاهدة طول العمر في فطامه نفسه عنها وفي قمع الشهوات عن القلب. . . فإنه يموت المرء على ما عاش عليه ويحشر على ما مات عليه، ولذلك نُقل عن بقال أنه كان يُلَقَّن عند الموت كلمتي الشهادة فيقول: خمسة ستة أربعة، فكان مشغول النفس بالحساب الذي طال إلفه له قبل الموت» [2].

هذا هو معنى سوء الخاتمة وهذا هو خطرها والأحاديث الآتية توضح هذا المعنى وتؤيده:

الحديث الأول : عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: «حدثنا رسول الله ﷺ وهو الصادق المصدوق أن خلق أحدكم يُجمع في بطن أمه أربعين يوماً أو أربعين ليلةً ثم يكون علقة مثله ثم

---

(1) الكستبان: أو الكستبان: وهو قمع يغطي طرف إصبع الخياط ليقيه وخز الإبر وهي فارسية الأصل. المعجم الوسيط، ص: 819.

(2) إحياء علوم الدين، الغزالي: 4/ 256، 257.

يكون مضغةً مثله ثم يبعث إليه الملك فيؤذن بأربع كلمات فيكتب رزقه وأجله وعمله وشقي أم سعيدٌ ثم ينفخ فيه الروح، فإن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى لا يكون بينها وبينه إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخل النار، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينها وبينه إلا ذراعٌ فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها»[1].

إنه في الظاهر يعمل بعمل أهل الجنة لكن هذا العمل شوب بالكبر والرياء وحب مدح الناس أي لا يبتغي بعمله هذا وجه الله وإنما المصلحة الدنيوية. يشرح هذه الحقيقة رواية مسلم لهذا الحديث إذ يقول فيه ﷺ: «إن الرجل ليعمل بعلم أهل الجنة فيما يبدو للناس. . . . »[2].

الحديث الثاني: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: شهدنا مع رسول الله ﷺ خيبر فقال رسول الله ﷺ لرجل ممن معه يدعي الإسلام: «هذا من أهل النار، فلما حضر القتال قاتل الرجل من أشد القتال وكثرت به الجراح فأثبتته فجاء رجلٌ من أصحاب النبي ﷺ فقال: يا رسول الله أرأيت الرجل الذي تحدثت أنه من أهل النار قد قاتل في سبيل الله من أشد القتال فكثرت به الجراح، فقال النبي ﷺ: أما إنه من أهل النار، فكاد بعض المسلمين يرتاب، فبينما هو على ذلك إذ وجد الرجل ألم الجراح، فأهوى بيده إلى كنانته فانتزع منها سهماً فانتحر بها فاشتد رجال من المسلمين إلى رسول الله ﷺ فقالوا: يا رسول الله صدَّق الله حديثك قد انتحر فلانٌ فقتل نفسه فقال رسول الله ﷺ: يا بلال قم فأذن لا يدخل الجنة إلا مؤمنٌ وإن الله ليؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر»[3].

الحديث الثالث : عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الرجل ليعمل بعمل أهل الخير سبعين سنة فإذا أوصى حاف في وصيته فيُختم له بشر عمله فيدخل النار، وإن

---

(1) أخرجه البخاري، كتاب: التوحيد، باب: قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ﴾، رقم (6900).

(2) مسلم، كتاب: الإيمان، باب: غلظ تحريم قتل الإنسان نفسه. . .، رقم (163).

(3) أخرجه البخاري، كتاب: القدر، باب: العمل بالخواتيم، رقم (6116).

الرجل ليعمل بعمل أهل الشر سبعين سنة فيعدل في وصيته فيُختم له بخير عمله فيدخل الجنة» ، قال أبو هريرة: واقرؤوا إن شئتم ﴿ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِۚ ﴾ إلى قوله ﴿عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾[1][2].

من هذه الأحاديث وغيرها يتبين بأن العمر بآخره، والعمل بخاتمته، من أحدث قبل السلام بطل ما مضى من صلاته، ومن أفطر قبل غروب الشمس ذهب صيامه ضائعاً، ومن أساء في آخر عمره لقي ربه بذلك الوجه[3].

* * *

---

(1) تكملة الآيات: ﴿ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِۚ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٣﴾ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ [النساء: 13- 14].

(2) أخرجه ابن ماجه، كتاب: الوصايا، باب: الحيف في الوصية، رقم (2695).

(3) الفوائد، ابن القيم، ص: 93.

الذل يترافق مع المعصية

يقول ابن عطاء الله: لا يكون معصيةٌ إلا والذل معها، أفتعصيه ويُعزك؟! كلا، فقد ربط العز مع الطاعة، والذل مع المعصية، فصارت طاعته نوراً وعزاً وكشف حجاب، وضدها معصيةً وظلمةٌ وذلاً وحجاباً بينك وبينه.

هذه الحقيقة ذكرها الله سبحانه وتعالى بقوله: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا ﴾ [فاطر: 10]. وقال سبحان في آية أخرى: ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [المنافقون: 8].

فالعزة تكون في طاعة الله وتنفيذ أوامره ووصاياه، والذل يترافق مع المعصية. وعندما التزم صحابة رسول الله الكرام بطاعة ربهم أكرمهم الله بالعز والنصر على الأعداء. كان الواحد منهم قبل إسلامه ذليلاً لا يؤبه له، كانوا على هامش التاريخ، لكنهم عندما دخلوا الإسلام صار الواحد منهم كربعي بن عامر يدخل على رستم قائد الفرس بكل عزة غير مبال بقوته وجبروته وسطوته.

وإليك خبره كما ورد في تاريخ الطبري: «دخل ربعي بن عامر إلى خيمة رستم المجهزة بكل أنواع العظمة والزينة، دخل يسير على فرس معه سيف ملفوف بثوب خلق، ورمحه وقوسه ونبله، فلما انتهى إلى أدنى البسط قيل له أنزل، فحمل فرسه على البساط فلما استوى عليه نزل عليها وربطها بوسادتين ثم أدخل الحبل فيهما، ثم قالوا له: ضع سلاحك فقال: إني لم آتكم فأضع سلاحي بأمركم، أنتم دعوتموني فإن أبيتم أن آتيكم كما أريد رجعت فأخبروا رستم. فقال: ائذنوا له هل هو إلا رجل واحد، فأقبل يتوكأ على رمحه وزجه نصل يقارب الخطر ويزد النمارق والبسط فما ترك لهم نمرقة ولا بساطاً إلا أفسده وتركه مخرقاً، فلما دنا من رستم تعلق به الحرس وجلس على الأرض وركز رمحه بالبسط، فقالوا: ما حملك على هذا؟ قال: إنا لا نستحب القعود على زينتكم هذه. الكلمة رستم فقال: ما جاء بكم؟. قال: الله، والله جاء بنا لنخرج من شاء من عبادة إلى عبادة الله ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ومن جور

الأديان إلى عدل الإسلام فأرسلنا بدينه إلى خلقه فمن قبل منا ذلك قبلنا ذلك منه ورجعنا عنه وتركناه وأرضه يليها دوننا، ومن أبى قاتلناه أبداً حتى نقضي إلى موعود الله. قال: وما موعود الله؟ قال: الجنة لمن مات على قتال من أبى والظفر لمن بقي. . . »[1].

وإليك صورة أخرى من عز الإسلام والمسلمين الصحابي خُبيب بن عدي ﵁ عندما ظفر به المشركون غدراً، وأخذوا يمثلون به حياً، فيقطعون من جسده القطعة تلو القطعة وهم يقولون له: أتحب أن يكون محمدٌ مكانك وأنت ناجٍ؟. فيقول والدماء تنزف منه: والله ما أحب أن أكون آمناً وادعاً في أهلي وولدي، وأن محمداً يوخز بشوكه؟![2].

فهذه والله هي العزة، أما حالنا اليوم –للأسف الشديد– فبسبب كثرة معاصينا وجرأتنا على الله قد أصابنا الله بالذل وسلط علينا أعطاءنا، وأذهب مخافتنا من قلوبهم، بعد أن كان جيش المسلمين يُنصر بالرعب وتنخلع له قلوب الأعداء من مسافة شهر، قال ﷺ: «نصرتُ بالرعب مسيرة شهر»[3].

وتحقق فينا قوله ﷺ: «يوشك الأمم أن تداعى عليكم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها، فقال قائل: ومن قلةٍ نحن يومئذٍ، قال: بل أنتم يومئذٍ كثير ولكنكم غثاء كغثاء السيل ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم وليقذفن الله في قلوبكم الوهن، فقال قائل: يا رسول الله ما الوهن؟ قال: حب الدنيا وكراهية الموت»[4].

---

(1) تاريخ الطبري: 2/ 401.

(2) صور من حياة الصحابة، د. عبد الرحمن رأفت باشا، ص: 8.

(3) البخاري، كتاب: التيمم، باب: قول الله تعالى: ﴿فَلَمْ تَجِدُوا۟ مَآءً فَتَيَمَّمُوا۟ صَعِيدًا طَيِّبًا﴾، رقم (323). ومسلم في المساجد ومواضع الصلاة، رقم (810).

(4) أبو داود في الملاحم، باب: في تداعي الأمم على الإسلام، رقم (3745). وأحمد، باقي مسند الأنصار، ومن حديث ثوبان، (21363).

إن عمر العظيم رضي الله عنه فهم هذا الدرس فقال لأبي عبيدة بن الجراح: «نحن قوم أعزنا الله بالإسلام ومهما ابتغينا العزة بغير ذلك أذلنا الله».

فيا أمة الإسلام إن نصرنا مشروط بتوبتنا إلى الله، وباعتصامنا بحبل الله المتين، نصرُنا مرهون بانتصارنا على نفوسنا وأن نكون على قلب رجل واحد نحب بعضنا ونرحم بعضنا، قال صلى الله عليه وسلم: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه»[1].

نصرُنا وعزتنا مرتبط بالذلة لله قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ﴾ [آلعمران: 123] أذلة الله، متحققين بصفة العبودية له، أذلة على المسلمين لكنهم أعزة على الكافرين، قال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴾ [المائدة: 54].

وتأمل كيف أعز الله يوسف عليه السلام لما امتنع عن الوقوع في المعصية، وكيف أذل إخوته بعدما تآمروا عليه، لقد مكن الله ليوسف في الأرض، قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ﴾ [يوسف: 21].

وقال سبحانه: ﴿ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ ۚ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [يوسف: 56]. ثم قال سبحانه على لسان إخوة يوسف: ﴿ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَـٰطِـِٔينَ ﴾ [يوسف: 91].

ثم يعترف سيدنا يوسف عليه السلام بهذا العز وبهذه النعم فيقول: ﴿ ۞ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّـٰلِحِينَ ﴾ [يوسف: 101].

أما ذل إخوة يوسف عليهم السلام فيوم دخلوا على يوسف.

---

(1) البخاري، كتاب: الإيمان، باب: من الإيمان أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه، رقم (12). ومسلم، كتاب: الإيمان: الدليل على أن من خصال الإيمان أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه، رقم (64).

قـــالوا: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهۡلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئۡنَا بِبِضَٰعَةٖ مُّزۡجَىٰةٖ فَأَوۡفِ لَنَا ٱلۡكَيۡلَ وَتَصَدَّقۡ عَلَيۡنَآۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَجۡزِي ٱلۡمُتَصَدِّقِينَ ﴾ [يوسف: 88].

فمن تأمل قولهم: ﴿ وَتَصَدَّقۡ عَلَيۡنَآۖ ﴾ عرف شؤم الزلل، ومن تدبر أحوالهم شعر الفـرق بينهم وبين أخيهم –وإن كانت توبتهم قبلت– فإنه ليس من رقع وخاط كمـن ثوبـه صـحيح ورب عظم هيض لم ينجبر، فإن جبر فعلى وهي[1].

إن ظلمة المعاصي تبدو على العاصين ويشعر بها من حولهم، فمن عرف بـالزنى أو بغـيره من الموبقات ترى القلوب تنفر عنه وكأنه لبس ظلمة يراها غيره. بعكس من تغلب على هـواه فترى القلوب تحبه وتميل إليه من نور الطاعة التي تنعكس عليه.

ثم قال ابن عطاء الله: «فصارت طاعته نوراً وعـزاً وكشـف حجـاب، وضـدها معصـية وظلمة وذلاً وحجاباً بينك وبينه».

الطاعة نور للقلب يزيل منه ظلمـة المعصـية، والطاعـة عـز المسـلمين أفـراداً وجماعـات وكشف حجاب إذ الحجاب سببه المعـاصي والـذنوب وعنـدما يتطهـر القلـب مـن المعـاصي بالطاعة فقد زال الحجاب واقترب العبد من ربه وفهم كلامه، قـال تعـالى واصـفاً الكـافرين: ﴿ جَعَلۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ أَكِنَّةً أَن يَفۡقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٗاۖ وَإِن تَدۡعُهُمۡ إِلَى ٱلۡهُدَىٰ فَلَن يَهۡتَدُوٓاْ إِذًا أَبَدٗا ﴾ [الكهـف: 57]. وقـال تعـالى: ﴿ كَلَّاۖ بَلۡۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ١٤ كَلَّآ إِنَّهُمۡ عَن رَّبِّهِمۡ يَوۡمَئِذٖ لَّمَحۡجُوبُونَ ﴾ [المطففين: 14– 15].

يقول ابن الجوزي رحمه الله: «وفي قوة قهر الهوى لذة تزيد على كل لذة، ألا تـرى إلى كـل مغلوب الهوى كيف يكون ذليلاً، لأنه قُهر، بخلاف غالب الهوى، فإنـه يكـون قـوي القلـب، عزيزاً لأنه قهر»[2].

* * *

(1) صيد الخاطر، ص: 161.

(2) المرجع السابق، ص: 93.

مثال الإيمان معك إذا عصيت الله كالشمس المكسوفة

يقول ابن عطاء الله: مثال الإيمان معك إذا عصيت الله تعالى كالشمس المكسوفة، أو كالسراج إذا غطيته بصحفة (1)، وهو موجود ولكن يمنع نوره الغطاء. ثم إنك تحضر المجلس في الجامع ليتوفر عقلك، وإن كان عمرك قليلاً يصير كثيراً لحصول الإيمان والخشوع والخشية والتدبر والتذكر ونحوها، فلو عرفت الإيمان ما قاربت العصيان، فلا غريم أمطل من النفس، ولا عدو أعظم من الشيطان، ولا معارض أقوى من الهوى.

هذا المثال يبين خطر المعصية على نور الإيمان في قلب المؤمن، فإن المعصية -كما مر سابقاً- حجابٌ على القلب يمنع النور من الانتشار فيبقى القلب مظلماً، والقلب المظلم قلب سيئ جداً، ويزداد السوء كلما ازداد هذا الحجاب.

فاللهم نور قلوبنا بالإيمان ولا تحجبنا بالمعاصي عنك، بل طهر قلوبنا من النفاق والرياء والكذب والخيانة آمين.

ثم يحثنا نور قلوبنا بالإيمان ولا تحجبنا بالمعاصي عنك، بل طهر قلوبنا من النفاق والرياء والكذب والخيانة آمين.

ثم يحثنا ابن عطاء الله لكي نتخلص من حجاب المعاصي أن نحضر مجالس العلم حتى نعرف حقوق الله علينا، ونشعر بعظمته، ونحس بالخشية والخشوع تسري في كياننا.

أما أكثر الناس -وللأسف- فإنهم معرضون عن تلك المجالس، مشغولون بدنياهم. . . مع أن الله أنعم علينا بأشياء تُعيننا على التذكر إن لم نحضر مجالس العلم، منها المذياع وآلة التسجيل والتلفاز والكمبيوتر والإنترنت والكتاب، فلا عذر لمن يقصر في هذا الأمر.

---

(1) الصحفة: وعاء متوسط في الحجم.

ثم يقول ابن عطاء الله: «فلا غريم أمطل من النفس ولا عدو أعظم من الشيطان، ولا معارض أقوى من الهوى».

فهذه أعداء الإنسان تصده عن السير إلى الله.

أما النفس والأهواء فالخلاص منهما بمخالفتهما. كما قال الشاعر:

وخالف النفس والأهواء واعصهما   وإن هما محضاك النصح فاتهم

وأما الشيطان فباتخاذه عدواً كما أمرنا الباري سبحانه بقوله: ﴿ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّاۚ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴾ [فاطر: 6].

* * *

المنكوب من عصى الله

يقول ابن عطاء الله: لا تعتقد أن المنكوب من كان في الأسر أو في السجن، بل المنكوب من عصى الله وأدخل في هذه المملكة الطاهرة نجاسة المعصية.

كفى بك جهلاً أن يعاملك مولاك بالوفاء وأنت تعامله بالجفاء.

هذا جانب آخر من آثار المعصية على العاصي، فالله سبحانه وتعالى خلقنا على هذه الأرض الطاهرة وأمرنا بطاعته، ويأبى الإنسان إلا أن يملأ هذه الأرض بنجاسة المعاصي والذنوب وهي طبعاً نجاسة معنوية لا حسية. قال تعالى: ﴿ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ ﴾ [الروم: 41].

ثم يبين ابن عطاء الله جانباً من نعم الله علينا فالله سبحانه يعاملنا بالوفاء، فهو وَعَدَ من أطاعه بالعيش الرغيد في الدنيا والسعادة الدائمة في الآخرة، وتكفل سبحانه برزق المخلوقات كلها، قال تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴾ [الذاريات: 56- 58]. وقال سبحانه: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [النحل: 97]. ويأبى الإنسان إلا أن يعامل ربه بالجفاء والخيانة، وبدل الطاعة عصى مولاه وملأ الأرض بأصناف وأنواع لا تُحصى من الذنوب والجرأة على الله سبحانه، فنسي العهد الذي طالبه الله به فحق عليه قول الله تعالى: ﴿ فَذُوقُوا۟ بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَآ إِنَّا نَسِينَٰكُمْ ۖ ﴾ [السجدة: 14].

«فيا أيتها النفس: لقد أعطاك ربك ما لم تأملي، وبلغك ما لم تطلبي، وستر عليك من قبيحك ما لو فاح ضجت المشام، فما هذا الضجيج من فوات كمال الأغراض، أمملوكة أنت أم حرة»[1].

---

(1) صيد الخاطر، ابن الجوزي، ص: 232.

قصة عبد الله بن أبي نوح مع رجل يعظه:

وقال عبد الله بن أبي نوح: قال لي رجل على بعض السواحل: كم عاملته تبارك اسمه بما يكره فعاملك بما تحب؟ .

قلت: ما أحصي ذلك كثرة.

قال: فهل قصدت إليه في أمر كربك فخذلك؟.

قلت: لا والله، ولكنه أحسن إلي وأعانني.

قلت: فهل سألته شيئاً فلم يعطه؟.

قلت: وهل منعني شيئاً سألته، ما سألته شيئاً قط إلا أعطاني ولا استعنت به إلا أعانني.

قال: أرأيت لو أن بعض بني آدم فعل بك بعض هذه الخلال ما كان جزاؤه عندك؟.

قلت: ما كنت أقدر له على مكافأة ولا جزاء.

قال: فربك أحق وأمري أن تدأب نفسك له في أداء شكره وهو المحسن قديماً وحديثاً إليك، والله لشكره أيسر من مكافأة عباده، إنه تبارك وتعالى رضي من العباد بالحمد والشكر [1].

هناك ناسٌ لهم طباع غبية كئود، تسدي إليهم الجميل بعد الجميل فكأنما ترقم على ماء، لا يبقى في نفوسهم أثر منه، ولا اعتراف به.

وكثير ممن نلقى على هذا الغرار الرديء يجيء أحدهم بطلبه فتحس أنه محرج، وأنه محتبسٌ في دائرة هذه الحاجة التي يفتقدها.

فإذا قضيتها له ولى مدبراً ولم يعقب! . . .

---

(1) الجانب العاطفي من الإسلام، محمد الغزالي، ص: 214، 215.

كثير من الناس يعاملون الله بهذا الأسلوب الجاحد، يسألونه فيجيبهم فإذا رجع أحـدهم بيده حافلةً مر كأن لم يدع ربه إلى ضر مسه، مر دون شكر ودون حياء. . .

ونحن – جماهير البشر – نصـبح ونمسي نخـوض في نعـم الله خوضـاً، فلـماذا لا نـوقظ أفكارنا الغافية إلى معرفة المنن؟ ولماذا لا نوقظ ضمائرنا لشكر مرسلها؟ [1].

* * *

(1) المرجع السابق، ص: 216، 217.

طهر قلبك من العيب يُفتح لك باب الغيب

يقول ابن عطاء الله: إذا انغمست في جيفة الدنيا، لا تصلح للمحاضرة، لأن حضرة الله تعالى لا يدخلها المتلطخون بنجاسة المعصية، فطهر قلبك من العيب يُفتح لك باب الغيب، وتب إلى الله وارجع إليه بالإنابة والذكر، ومن أدام قرع الباب يفتح له، ولولا الملاطفة ما قلنا لك ذلك، لأنه كما قالت رابعة العدوية رضي الله عنها: متى أُغلق هذا الباب حتى يُفتح؟!.

الجيفة هي جثة الميت إذا أنتنت، فمن انشغل بالجيف كيف له أن يلقى الله سبحانه ؟! يقول ابن القيم رحمه الله: «تزينت الجنة للخطاب فجدوا في تحصيل المهر، وتعرف رب العزة إلى المحبين بأسمائه وصفاته فعملوا على اللقاء، وأنت مشغول بالجيف» (1).

والجيف هنا هي الشهوات والمعاصي، هب أنك تريد الدخول إلى غرفة استقبال، كل شيء فيها نظيف لماع وحذاؤك متسخ ومتنجس، ألا تخجل من نفسك؟!.

فاحذر عندما تصلي وتقف في حضرة الله تخاطبه سبحانه وتعالى أن تكون متلطخاً بنجاسة المعصية.

واحذر عندما تدعوه أو تقرأ كلامه أن تكون على تلك الصفة السيئة. ثم يقول ابن عطاء الله «فطهر قلبك من العيب يفتح لك باب الغيب».

أي طهر قلبك من المساوئ والعيوب لما في التطهير من الخضوع والانكسار والذل والافتقار، فإذا تطهر القلب من العيوب قرب من حضرة الله وقرع الباب وطلب رفع الحجاب عندئذٍ يُفتح باب الغيب وهي أسرار يُطلع عليها الباري سبحانه عباده الصالحين على حسب قربهم منه (2).

ولنزد شرحاً قول ابن عطاء الله رحمه الله «فطهر قلبك من العيب يُفتح لك باب الغيب».

---

(1) الفوائد، ابن القيم، ص: 99.

(2) إيقاظ الهمم، ابن عجيبة، ص: 172.

فالإنسان يُبصر من الكون الظاهر فقط ويغيب عن خفاياه وبواطنه، أما الكشف الرباني الذي يمتع الله به من شاء من عباده، فيجلو به أمام بصره أو بصيرته ما شاء من أسرار ملكوته ومن معارف مخلوقاته العلوية والسفلية وما بينهما، فمنحة ومكرمة لا حد لها. . . ربما أكرم بها رسله وأنبياءه، وربما أكرم بها بعضاً من أصفيائه وعباده الصالحين.

فمن هذه الأسرار الكونية التي كشف الله الغطاء عنها لرسوله المصطفى ما أخبر عنه رسول الله ﷺ من حديث أبي ذر رضي الله عنه: «إني أرى ما لا ترون، أطتَّ السماء وحق لها أن تئط ما فيها موضع أربع أصابع إلا وملكٌ واضع جبهته ساجداً لله تعالى، والله لو تعلمون ما أعلم، لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً، وما تلذذتم بالنساء على الفرش، ولخرجتم إلى الصعدات تجأرون إلى الله تعالى»[1].

ومن ذلك ما أخبر عنه المصطفى ﷺ بقوله: «إن الله زوى لي الأرض، فرأيت مشارقها ومغاربها، وإن أمتي سيبلغ ملكها ما زُوي لي منها»[2].

وربما كشف الله من ذلك جوانب لأوليائه وعباده الربانيين، وقد علمت القاعدة المتفق عليها عند جميع علماء العقيدة الإسلامية، وهي قولهم: «كل ما كان معجزة لنبي جاز أن يكون كرامة لولي».

وقد وقع ذلك لسيدنا عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- عندما نادى، وهو في المدينة، سارية وهو في مشارف بلاد الشام: «يا سارية الجبل الجبل»[3].

---

(1) الترمذي في الزهد عن رسول الله: في قول النبي ﷺ: لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً، رقم (2234). وقال: حديث حسن غريب. وابن ماجه في الزهد، باب: الحزن والبكاء، رقم (4180). وأحمد في مسند الأنصار، حديث أبي ذر الغفاري، رقم (20539).

(2) مسلم في الفتن، باب: هلاك هذه الأمة بعضهم ببعض، رقم (5144).

(3) شرح الحكم العطائية، د. محمد سعيد رمضان البوطي: 4/ 96 وما بعدها.

ثم يقول ابن عطاء الله: «وتب إلى الله وارجع إليه بالإنابة والذكر، ومن أدام قـرع البـاب يفتح له، ولولا الملاطفة ما قلنا لك ذلك، لأنه كما قالت رابعـة العدويـة رضي الله عنهـا: متـى أُغلق هذا الباب حتى يُفتح؟!».

فالتوبة إلى الله تكون من المعاصي والذنوب والعزم على عدم العودة لذلك. وتكون التوبة من الغفلة بملء القلب بذكر الله سبحانه وتعالى، وتكون بقرع باب الله عز وجـل حتـى يفـتح له. وهذا الباب هو باب التوبة والإنابة إلى الله عز وجل وهو بـاب عظـيم مفتـوح دومـاً حتـى تطلع الشمس من مغربها. يشهد لهذا ما رواه أبو هريرة ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «من تـاب قبل أن تطلع الشمس من مغربها تاب الله عليه»[1].

وكما قالت رابعة العدوية رضي الله عنها: متى أُغلق هذا البـاب حتـى يُفـتح جوابـاً لمـن خاطبها قائلاً: من أدام قرع الباب يُفتح له؟!.

* * *

(1) مسلم في الذكر والدعاء، باب: استحباب الاستغفار والاستكثار منه، رقم (4872).

حلاوة الطاعة وخطر المعصية

يقول ابن عطاء الله: إذا ثقلت عليك الطاعة والعبادة، ولم تجد لها حلاوة في قلبك، وتخف عليك المعصية، وتجد لها حلاوة، فاعلم أنك لم تصدق في توبتك، فإنه لو صح الأصل لصح الفرع.

علامة صحة التوبة وقبولها أن تشعر بلذة الطاعة وحلاوتها في قلبك لأنك بتوبتك أعلنت ندمك على المعصية وشعورك بالحياء من الله سبحانه وعقدك العزم على المنهج الذي أمرك الله به، هذا هو الأصل وإذا صح الأصل صح الفرع الذي هو وجود حلاوة الطاعات وثقل المعاصي على القلوب. قال ﷺ: «إن المؤمن يرى ذنوبه كأنه قاعد تحت جبل يخاف أن يقع عليه، وإن الفاجر يرى ذنوبه كذباب مر على أنفه فقال به هكذا، قال أبو شهاب بيده فوق أنفه»[1].

* * *

(1) سبق تخريجه، ص: 72.

إنما عصى الله من لم يعرف عقابه

يقول ابن عطاء الله: قال الله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ ﴾ [العنكبوت: 69]. إنما عصى الله من لم يعرف عقابه، وإنما ترك طاعة الله من لم يعرف ثوابه، فلو اطَّلعوا على عذاب النار لما غفلوا، ولو اطَّلعوا على ما أعد الله لأهل الجنة، لما تركوها طرفة عين.

إن عقاب الله للعصاة والمجرمين عظيم كما أن ثوابه للطائعين عظيم أيضاً، والعاقل هو الذي يبعد جسده عن العذاب، أما الأحمق فهو كالفراش الذي يهوي إلى النار تحرقه ظاناً أن النجاة هناك، وإليك نماذج من أهوال أهل النار يوم القيامة علك تحذر أن تكون من أهلها:

صور من عقاب الله للعصاة وما أعده الله لأهل الجنة:

قال تعالى: ﴿ وَٱسۡتَفۡتَحُواْ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٖ ١٥ مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ وَيُسۡقَىٰ مِن مَّآءٖ صَدِيدٖ ١٦ يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ وَيَأۡتِيهِ ٱلۡمَوۡتُ مِن كُلِّ مَكَانٖ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٖۖ وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٞ ﴾ [إبراهيم: 15- 17].

فهذه حال كل متجبر معاند للحق، إنه يتمنى الموت لكن هيهات، إن أسباب الموت تحيط به من كل جانب لكنه لا يموت حتى يستكمل عذابه.

وتأمل قوله تعالى: ﴿ يَوۡمَ نَحۡشُرُ ٱلۡمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحۡمَٰنِ وَفۡدٗا ٨٥ وَنَسُوقُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرۡدٗا ﴾ [مريم: 85- 86].

فواحد يخرج من قبره فإذا البراق على رأس القبر والتاج والحلل، فيلبس ويركب إلى جنات النعيم وآخر يخرج من قبره فإذا الزبانية والأغلال والأنكال، يُسحب إلى النار عليوجهه أما تسمع قوله تعالى: ﴿ أَفَمَن يُلۡقَىٰ فِي ٱلنَّارِ خَيۡرٌ أَم مَّن يَأۡتِيٓ ءَامِنٗا يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ ﴾ [فصلت: 40].

فأعظم برجل يشاهد تلك الأهوال والزلازل والوقائع، وهو آمن لا يدخل قلبه فزع، ولا يكون على قلبه ثقل !!.

وتأمل هاتين الآيتين إحداهما قوله تعالى: ﴿وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴿٢١﴾ إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا﴾ [الإنسان: 21- 22]. وقوله تعالى حكاية عن آخرين: ﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ﴿١٠٧﴾ قَالَ ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ [المؤمنون: 107- 108].

وتأمل قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾ ۞ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُوا۟ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۖ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾[1] [هود: 106- 108].

وفوق نعيم الجنة رضوان الله تعالى، وأعظم من عذاب النار سخط الله والعياذ بالله، قال تعالى: ﴿۞ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ۚ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾[آل عمران: 15].

ويقول سبحانه: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ وَجَنَّٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ﴾ [التوبة: 20- 21].

وقال عز وجل: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التوبة: 72].

ويقول سبحانه: ﴿وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ ۚ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ﴾ [الأعراف: 8- 9].

فخف من ميزانك أن تثقل السيئات وتطيش الحسنات.

---

(1) مجذوذ: مقطوع عنهم.

أما ما أعد الله لأهل الجنة فيشير إليه قوله سبحانه: ﴿ وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ﴾ [آل عمران: 15]. فالمرأة في الدنيا يطرأ عليها أِشياء قد تنفر منها إما خلقاً وإما خُلقاً، أما نساء أهل الجنة فهم «الحور العين» وصفهم ربنا سبحانه بقوله «أزواج مطهرة» أي مطهرة من كل عيب يعيب نساء الدنيا.

ونساء الدنيا كلما تقدمت في السن تقل نضارتها ويخبو جمالها شيئاً فشيئاً، أما في الآخرة فالمرأة مطهرة من ذلك فتظل على نضارتها وجمالها إلى الأبد.

ثم يبين سبحانه أن الله اشترى من المجاهدين في سبيله أنفسهم وأعطاهم ثمنها وهو الجنة، فقال سبحانه: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ [التوبة: 111].

وانظر إلى أصناف من النعيم أعدها الله لعباده المتقين فيقول سبحانه: ﴿ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ۖ وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ ۖ كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ ﴾ [محمد: 15].

فأنهار الجنة غير آسنة لا يتغير طعمها، أما في الدنيا فإذا توقف جريان النهر تغير طعم الماء ولونه وأصبح آسناً.

وفي الجنة أنهار من لبن لم يتغير طعمه، أما لبن الدنيا فإذا خزن يتغير طعمه.

وفي الجنة أنهار من خمر لذة للشاربين، أما خمر الدنيا فإنه لاذع لذلك تجد الذي يشرب الخمرة يسكبها في فمه مرة واحدة ثم إنها تفسد العقول أما خمرة الآخرة فلا تغتال العقول.

وفي الجنة أنهار من عسل مصفى من الشوائب، أما عسل الدنيا فإنك تجد فيه كثيراً من الشوائب سواء من الأشجار أو من الجبال التي وجد النحل فيها.

وفي المقابل تأمل فيما أعده الله لأهل النار من الذل والمهانة والعذاب.

يقول سبحانه: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَـٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ **[الأنعام: 27].**

فكم ذاقوا في تلك اللحظة من الذل والمهانة والندم؟.

ويقول سبحانه: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَـٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ ﴾ **[النساء: 56].**

وانظر إلى هذا المشهد الذي يأخذ بالألباب فيقول عز وجل: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۙ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَـٰرَهُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّـٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ **[الأنفال: 50- 51].**

وعندما يعطش أهل النار يغاثوا بماء مغلي قال سبحانه: ﴿ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّـٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ۚ وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ﴾ **[الكهف: 29].**

وانظر إلى عقاب المنافقين وما أكثر النفاق في مجتمعنا –وللأسف-: ﴿ بَشِّرِ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ **[النساء: 138]. وقوله تعالى :** ﴿ إِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴾ **[النساء: 145]. وهذا يدل على أن للنار درجات كما أن للجنة درجات.**
واستمع إلى حسرة الكافرين وماذا يطلبون من أهل الجنة، قال سبحانه: ﴿ وَنَادَىٰٓ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ أَصْحَـٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا۟ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴾ **[الأعراف: 50].**

روي أن الحسن البصري –رحمه الله تعالى– أعطي شربة ماء بارد، فلما أخذ القدح غَشي عليه وسقط من يده، فلما أفاق قيل له: ما لك يا أبا سعيد؟ . قال: ذكرت أمنية أهل النار حين يقولون لأهل الجنة: ﴿ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ ﴾[1] [الأعراف: 50].

أما جزاء الذي يكنزون الذهب والفضة ولا يزكونها ولا ينفقون منها في سبيل الله فهو كما قال سبحانه: ﴿ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ ۖ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴾ [التوبة: 34- 35].

ثم أخبرنا سبحانه كيف أن النار تحيط بأهلها من كل جهة فيقول سبحانه: ﴿ لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ۚ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ ۚ يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ ﴾ [الزمر: 16].

ويقول سبحانه في آية أخرى: ﴿ لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ۚ[2] وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴾ [الأعراف: 41]. فالمهاد من تحتهم والأغطية من فوقهم.

فهل تقوى على حر النار يا مسكين أم تقول كما قال الإمام الشافعي –رحمه الله – :

جسمي على البرد ليس يقوى ولا على شدة الحرارة
فكيف يقوى على حميم وقودها الناس والحجارة

بعد كل هذه الآيات يتضح ما ذكره ابن عطاء الله في هذه الفقرة بقوله: «إنما عصى الله من لم يعرف عقابه، وإنما ترك طاعة الله من لم يعرف ثوابه، فلو اطَّلعوا على عذاب النار لما غفلوا، ولو اطَّلعوا على ما أعد الله لأهل الجنة، لما تركوها طرفة عين».

* * *

(1) أيها الولد، الغزالي، ص: 16.

(2) الغواش: الأغطية.

من الناس من هو جُعلي الهمة فراشي العقل

يقول ابن عطاء الله: من الناس من هو جُعلي الهمة [1]. فراشي العقل، فإن الفراش لا يزال يرمي نفسه في النار حتى تحرقه، فكذلك أنت ترمي نفسك في نار المعصية عمداً، فلو أردت السير إلى الله تعالى شددت المحزم، فأين الهمة ؟!.

يقول ﷺ: «مثلي ومثلكم رجل أوقد ناراً فجعل الفراش والجنادب يقعن فيها وهو يذبُّهن عنها وأنا آخذٌ بحجزكم عن النار وأنتم تفلتون من يدي» [2].

يستغرب ابن عطاء الله من ضعف همة كثير من المسلمين في عصره، فماذا نقول نحن في عصرنا؟!. لا نقول: أين الهمَّة؟!. بل ينبغي أن نقول: فقدت الهمَّة؟. فالكل منغمس في أودية الدنيا، همته محصورة في جمع المال والتفاخر بالمسكن والسيارة والشهادة والأولاد، أما لعمل الآخرة فهو جُعلي الهمة، كسلان يثاقل إلى الأرض؟!.

ما هي الهمة:

والهمَّة تعني: تعلق العبد بالحق سبحانه لا بأحد من خلقه فيزهد القلب بالدنيا وأهلها ويبتعد عن المعاصي والذنوب.

إن مثل فاقد الهمَّة كالفراش يرمي بنفسه إلى النار والعاصي يرمي بنفسه إلى نار جهنم، يقول ابن الجوزي: «يجب أن تكون همة المؤمن متعلقة بالآخرة، فكل ما في الدنيا يحركه إلى ذكر الآخرة، وكل من شغله شيء فهمته شغله. . . والمؤمن إذا رأى ظلمة، ذكر ظلمة القبر، وإن رأى الناس نياماً، ذكر الموتى في القبور، وإن رأى لذة، ذكر الجنة وذلك يشغله عن كل مأثم.

---

(1) الجعل: حشرة تدب على الأرض، تعيش في الأرواث وإذا شمت الورد ماتت. الحيوان، الجاحظ: 2/ 242.

(2) مسلم في الفضائل، باب: شفقته على أمته، رقم (4236).

وأعظم ما عنده أنه يتخايل البقاء في الجنة، وأن بقاءه لا ينقطع، ولا يزول، ولا يعتريه نغصة، فيكاد إذا تخايل نفسه متقلباً في تلك اللذات الدائمة التي لا تفنى، يطيش فرحاً، ويسهل عليه ما في الطريق إليها من ألم ومرض وابتلاء، وفقد محبوب، وهجوم الموت، ومعالجة غُصصه. . . فإن التائق إلى العافية لا يبالي بمرارة الدواء، ويعلم أن جودة الثمر هناك على مقدار جودة البذر ها هنا، فهو يتخير الأجود، ويغتنم الزرع في تشرين العُمر من غير فتور.

ثم يتخايل المؤمن دخول النار والعقوبة، فيتنغص عيشه، ويقوى قلقه، فعنده بالحالين شغل عن الدنيا وما فيها، فقلبه هائم في بيداء الشوق تارة، وفي صحراء الخوف أخرى، فما يرى البنيان، فإذا نازله الموت، قوى ظنه الملائكة بالسلامة، ورجى لنفسه النجاة، فيهون عليه، فإذا نزل إلى القبر، وجاءه يسألونه، قال بعضهم لبعض: دعوه فما استراح إلا الساعة. نسأل الله عز وجل يقظة تامة تحركنا إلى طلب الفضائل، وتمنعنا من اختيار الرذائل! فإنه إن وفق، وإلا فلا نافع»[1].

* * *

---

(1) صيد الخاطر، ابن الجوزي، ص: 428، 429.

إذا نمت على تخليط رأيت التخليط في منامك

يقول ابن عطاء الله: إذا نمت على تخليط، رأيت التخليط في منامك، بل ينبغي لك أن تنام على طهارة وتوبة، فيفتح[1] قلبك بنوره، ولكن من كان في نهاره لاغياً، كان في ليله عن الله ساهياً.

وأضر ما يخاف على المريض التخليط، وما من أحد إلا وهو مريض الهوى، والحمية عنه رأس الدواء، والتخليط يديم المرض.

وكذلك المسلم يضره التخليط في نهاره ويكون ذلك بمخالطة أرباب الدنيا وإظهار الزهد لهم والتخشع لاجتلاب محبتهم، ويكون بالغفلة عن ذكر الله والصلاة على رسول الله ﷺ ويكون بعدم الخشوع في الصلاة واللغو في الكلام والغيبة والسب والشتم، فكيف من كانت هذه حاله يتنور قلبه. فينبغي أن لا ينام المسلم إلا على طهارة من الذنوب والتوبة منها كل يوم.

وقد علمنا النبي ﷺ عندما نضع رأسنا على الفراش نريد النوم أن نقول: «باسمك اللهم وضعت جنبي وبك أرفعه اللهم إن أمسكت نفسي فارحمها وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين»[2].

* * *

---

(1) في المطبوع: فيفاتح.

(2) البخاري في الدعوات، باب: التعوذ والقراءة عند المنام، رقم (5845). ومسلم في الذكر والدعاء، باب، ما يقول عند النوم، رقم (4889).

ما أرخص نفسك عليك

يقول ابن عطاء الله: تكون في وسط النهر وأنت عطشان، تكون معه في الحضرة وأنت تطلب الاتصال، كأن العباد لم يتواصلوا للآخرة إلا بكثرة المأكل والمشرب، أو قيل لهم هذه توصلكم إلى الآخرة، ولكن ما أرخص نفسك عليك! لولا هوانها عليك ما عرضتها لعذاب الله تعالى، وما أغلاها في طلب الدنيا وجمعها، والعجب كل العجب فيمن يسأل المنجم[1] عن حاله، ولا يسأل كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ.

إن العبد عندما يطيع الله سبحانه فإنه يقربه ويدخله حضرته، فالصلاة والذكر والدعاء وقراءة القرآن كلها دخول في حضرة الله، فكيف تغفل عن هذا؟.

إن الغافل عن هذا قد حُرم لذة القرب والمناجاة مثاله مثال من هو في وسط النهر لكنه عطشان؟!.

وإن من شأن من يهتم بشهواته من المآكل والمشرب أن تحجبه هذه عن حضرة الله سبحانه. إنه بذلك يعرض نفسه لعذاب الله وسخطه.

إن من شأن العبد الطائع أن يفهم كلام الله ويلتزم بسنة رسول الله ولكن الذي يعطي نفسه هواها في طلب الدنيا فهو لا يدري ماذا يفعل وماذا يفعل له. إن شأنه شأن من يسأل المنجم عن حاله والمنجم من عادته أن يكذب مئة كذبة حتى يصدق مرة واحدة.

فارجع بنفسك إلى كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ واتبع أوامر الله وابتعد عما نهى عنه فهذا هو الصواب.

* * *

(1) المنجم: هو الكاهن وهو الذي يتعلم النجوم للحكم بها وعليها، وينسب التأثيرات من الخير والشر إليها.
انظر: المعجز الوسيط، ص 941.

إن طلبت أن تعصيه فاطلب مكاناً لا يراك فيه

يقول ابن عطاء الله: إن طلبت أن تعصيه، فاطلب مكاناً لا يراك فيه أحد، واطلب القوة من غيره تعصيه بها، ولن تستطيع شيئاً من ذلك لأن الكل من نعمه، أتأخذ نعمه وتعصيه بها؟!. بل تفننت في المخالفات، مرة بالغيبة ومرة بالنميمة ومرة بالنظر، وما بنيته في سبعين سنة تهدمه في نفسٍ واحد.

يا من يعرض نفسه في الشهوات والمعاصي، ليتك أعطيتها ذلك في المباحات.

قصة إبراهيم بن أدهم مع رجل:

روي أن رجلاً أتى إبراهيم بن أدهم فقال:

يا أبا إسحاق. . إني مسرف على نفسي، فاعرض علي ما يكون لها زاجراً، أو مستنقذاً. .

قال إبراهيم: إن قبلت مني خمس خصال فقدرت عليها، لم تضرك المعصية.

قال: هات يا أبا إسحاق.

قال إبراهيم: أما الأولى، فإذا أردت أن تعصي الله عز وجل فلا تأكل رزقه.

قال: فمن أين آكل، وكل ما في الأرض رزقه؟.

قال: أفيحسن بك أن تأكل رزقه وتعصيه؟.

قال: لا. . هات الثانية.

قال: وإذا أردت أن تعصيه فلا تسكن شيئاً من بلاده.

قال: هذه أعظم من الأولى يا إبراهيم، إذا كان المشرق والمغرب وما بينهما له فأين أسكن؟.

قال: يا هذا، أفيليق بك أن تأكل رزقه، وتسكن بلاده، وتعصيه؟.

قال: لا. . هات الثالثة.

قال: وإذا أردت أن تعصيه فانظر موضعاً لا يراك فيه. . فاعصه فيه. .

قال: يا إبراهيم ما هذا؟ وهو يطلع على ما في السر؟.

قال: يا هذا أفيحسن بك أن تأكل رزقه، وتسكن بلاده، وتعصيه، وهو يـراك ويعلـم مـا تجاهر به؟.

قال: لا هات. . الرابعة.

قال: إذا جاءك ملك الموت ليقبض روحك فقل له أخرني حتى أتوب.

قال: لا يقبل مني. . .

قال: يا هذا إذا كنت لا تقدر أن تدفع عنك الموت لتتوب، وتعلم أنه إذا جاء لم يكـن لـه تأخير، فكيف ترجو وجه الخلاص؟.

قال: إذا جاءك الزبانية يوم القيامة ليأخذوك إلى النار فلا تذهب معهم.

قال: إنهم لا يقبلون مني.

قال: فكيف ترجو النجاة إذاً؟.

قال: يا إبراهيم. . حسبي حسبي، أنا أستغفر الله وأتوب إليه [1].

ثم يقول ابن عطاء الله: «يا من يعرض نفسه في الشهوات والمعاصي، ليتك أعطيتها ذلـك في المباحات».

إن الإسلام يحرم على الناس أموراً كثيرة، ويعترض رغبات شتى يظن الـبعض أن الحيـاة تطيب بها، إن الإسلام ما حرم طيباً ولا حظر خيراً، وكل ما تعتدل به الطبيعة البشرية وتستقيم فهو مباح لها.

إن الله ما حرم على الناس إلا ما علم أنه يزيغ بهم عن الصراط، ويتسارع بهم إلى الشر.

* * *

---

(1) انظر: مع الله، محمد الغزالي، ص: 451، 452.

إن تفضل عليك بالتوبة فمن فضله سبحانه تبت إليه

يقول ابن عطاء الله: إن تفضل عليك بالتوبة فمن فضله سبحانه وتعالى تبت إليه، وإنك تذنب سبعين سنة فتتوب إليه في نفس واحد فيمحو ما عملته في تلك المدة، «والتائب من الذنب كمن لا ذنب له»[1]، فالمؤمن كلما ذكر ذنبه حزن، وكلما ذكر طاعته فرح.

هناك من يذنب ويغفل إلى أن يموت وهذا خاتمته سيئة والعياذ بالله، أما الذي يبصر معصيته ويتوب منها فإن هذا فضل من الله سبحانه.

قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٞ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ ﴾ [الأعراف: 201].

والمؤمن يحس بعظمة الذنب وبعظمة الخالق سبحانه، ومن رحمته سبحانه أن الله فتح باب التوبة، ولم يحدد لها زماناً أو مكاناً، فمن أذنب سبعين سنة وتاب إلى الله توبة صادقة فإن الله يمحو كل تلك الذنوب، فكيف بعد هذا الإكرام يصرُّ العبد على معصيته؟!. إنه يُعرض عن كرم الكريم.

ثم يقول ابن عطاء الله: «فالمؤمن كلما ذكر ذنبه حزن، وكلما ذكر طاعته فرح».

ألا ترى الأنبياء عليهم السلام عندما يلجأ إليهم الخلق يوم القيامة طالبين منهم أن يشفعوا لهم عند ربهم يعتذرون ويذكرون ذنباً مع أن الله قد غفر لهم ذلك[2].

فالمؤمن كلما ذكر ذنبه حزن، وكلما ذكر طاعته فرح أن وفقه الله لتلك الطاعة والتي كانت سبباً لكسب رضا الله ودخول جنته.

* * *

---

(1) سبق تخريجه، ص 32.

(2) البخاري في أحاديث الأنبياء، باب: قول الله تعالى: ﴿ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا ﴾، رقم (3092).

تقهقه بالضحك كأنك جاوزت الصراط

يقول ابن عطاء الله: تقهقه. بالضحك كأنك جاوزت الصراط، وعبرت[1] النيران؟ ! إذا لم يكن بينك وبين الله ورع يحجزك عن المعاصي إذا خلوت، وإلا فضع التراب على رأسك لقوله ﷺ: «من لم يكن له ورع يحجزه عن معاصي الله إذا خلا، لم يعبأ الله بشيء من عمله»[2].

هذه والله حالنا نمرح ونضحك وما ندري أنحن من الأتقياء المقبولين أم من الأشقياء المحرومين، ومن هذا خاف الحسن بن علي رضي الله عنهما فقال: «أخاف أن يكون اطلع على بعض ذنوبي، فقال: لا غفرت لك»[3].

فيا من تقهقه بالضحك، هل نسيت الصراط، أم نسيت عثرات النيران، كان ﷺ جُل ضحكه التبسم، وكان يقول: «لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً»[4].

والصراط جسرٌ يضرب على جهنم كما أخبر بذلك المصطفى ﷺ، ففي الصحيحين: «ويُضرب جسر جهنم فأكون أول من يجيز، ودعاء الرسل يومئذٍ اللهم سلم سلم. وبه كلاليب مثل شوك السعدان، أما رأيتم شوك السعدان؟ قالوا: بلى يا رسول الله، فقال: فإنها مثل شوك السعدان غير أنه لا يعلم قدر عظمها إلا الله. فتخطف الناس بأعمالهم منهم الموبق بعمله. ومنهم المخردل ثم ينجو. . . »[5].

فهل تهيأت لذلك الصراط، هل ستمر عليه وتنجو أم تخطفك تلك الأشواك لتلقيك في نار جهنم؟!.

---

(1) في المطبوع: وعثرات.

(2) الفردوس بمأثور الخطاب، الديلمي، رقم (2964): 2/ 193.

(3) صيد الخاطر، ابن الجوزي، ص: 277.

(4) البخاري، الرقاق، باب: قول النبي: لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً، رقم (6004).

(5) البخاري، الرقاق، باب: الصراط جسر جهنم، رقم (6088).

ثم يقول ابن عطاء الله «إذا لم يكن بينك وبين الله ورع يحجزك عن المعاصي إذا خلوت، وإلا فضع التراب على رأسك. . .».

هذه الحقيقة واقع عند كثير من المسلمين، فالإنسان بطبيعته يخجل من الناس ويستحي منهم أن يرتكب ذنباً أمامهم، أما إذا خلا بنفسه تراه يقترف أنواع الذنوب جميعاً.

إن الخوف والحياء ينبغي أن يكون من الله وحده، ولا قيمة لمدح الناس وذمهم. وقد عاتب الله سبحانه نبيه ﷺ فقال له: ﴿وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ﴾ [الأحزاب: 41]. وقال سبحانه :﴿وَإِيَّٰيَ فَٱتَّقُونِ﴾ [البقرة: 41]. ﴿وَإِيَّٰيَ فَٱرْهَبُونِ﴾ [البقرة: 40].

إن العمل من أجل الناس يُحبطه ويُذهب ثوابه، وإن المسلم الذي يراقب الله سبحانه لا يجرؤ على معصيته سواء أكان بين الناس أم خالياً بنفسه. ومن قدر الله قدره فهو يخاف منه في كل الأوقات.

تعريف الورع وحقيقته:

والورع مشتق من الخوف كما تقول: راعني فلان وروعني، أي خوفني.

وفي الاصطلاح: إسقاط ما حاك في القلب مع ترك ما اشتبه عليك، وترك ما يريبك إلى ما لا يريبك. فعلى قدر هيجان الخوف يكون الورع.

والورع مشتق أيضاً من الابتعاد والمجانية فهو يعني: مجانبة ما كره الله عز وجل، ومنه قول العرب: ورع الإبل أي جنبها[1].

إن الورع هو الذي يتوقى المحرمات أمام الناس وفي الخلوة، أي يخاف الله في الخلوة والجلوة.

والورع يطهر دنس القلب ونجاسته كما يطهر الماء دنس الثوب ونجاسته.

(1) آداب النفوس، الحارث المحاسبي، ص: 124.

وقد جمع النبي ﷺ الورع في كلمة واحدة، فقال: «من حُسن إسلام المرء تركه ما لا يُعنيه»(1). فهذا يعم الترك لما لا يعني: من الكلام والنظر، والاستماع، والبطش والمشي والفكر وسائر الحركات الظاهرة والباطنة.

وعند ابن ماجه مرفوعاً إلى النبي ﷺ أنه قال: «يا أبا هريرة كن ورعاً، تكن أعبد الناس»(2).

فالورع سببه الخشية من الله، وقدوتنا في ذلك المصطفى ﷺ فقد روى البخاري في صحيحه من حديث أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: «إني لأنقلب إلى أهلي فأجد التمرة ساقطة على فراشي فأرفعها لآكلها ثم أخشى أن تكون صدقة فألقيها»(3).

هذه هي مدرسة النبي ﷺ التي تخرج فيها أولئك النبلاء فرسول الله ﷺ يرسم الخطوط العريضة بالتعامل مع الله في هذه الدنيا في أي أمر من أمورها حتى ولو كانت تمرة لم يأكلها ﷺ لأنه خشي أن تكون من تمر الصدقة، فالقضية عند رسول الله ﷺ شُبهة فامتنع عن أكل تلك التمرة؟!.

وأخرج البخاري من حديث عائشة رضي الله عنها قالت: «كان لأبي بكر غلام يخرج له الخراج أي يأتيه بما يكسبه من بيعه وشرائه، وكان أبو بكر يأكل من خراجه أي من كسب هذا الغلام، فجاء يوماً بشيء فأكل منه أبو بكر، فقال له الغلام: أتدري ما هذا؟ فقال أبو بكر: وما هو؟ قال الغلام: كنت تكهنت لإنسان في الجاهلية وما أحسن الكهانة إلا أني خدعته فأعطاني

---

(1) الترمذي في الزهد، باب: فيمن تكلم بكلمة يضحك بها الناس، رقم (2239).

وقال: حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه. وابن ماجه في الفتن، باب: كف اللسان في الفتنة، رقم (3966).

(2) ابن ماجه في الزهد، باب: الورع والتقوى، رقم (4207).

(3) البخاري في اللقطة، باب: إذا وجد تمرة في الطريق، رقم (2253).

بذلك، فهذا الذي أكلت منه، فماذا فعل أبو بكر الصديق؟. القضية شبهة عنده، تقول عائشة: فأدخل أبو بكر يده فقاء كل شيء في بطنه» [1].

هكذا يكون الورع، هكذا يكون التقُىَ، هكذا تكون مراقبة الله جل وعلا، لا يريد الصديق أن يختلط في بطنه شيء فيه شبهة حرام فضلاً على شيء من المحرمات فأين الناس اليوم من هؤلاء؟!.

قصة رائعة عن الورع:

ويذكر ابن الجوزي في صفوة الصفوة أن امرأة جاءت إلى الإمام أحمد لتسأله عن مسألة جعلت الإمام يبكي، تقول المرأة: إننا نغزل على سطوحنا فيمر بنا مشاعل الظاهرية –أي نور الحرس الذين يجوبون الطرقات بالليل –ويقع الشعاع علينا- أي للحظات –أفيجوز لنا الغزل في شعاعها.

وفي رواية أخرى كان السؤال: إنني أغزل في السطح على ضوء السراج وربما انطفأ السراج فأغزل على ضوء القمر أفيجب علي يا إمام عند بيع غزلي أن أبين للمشتري ما غزلته تحت السراج مما غزلته تحت ضوء القمر. سبحان الله !! إلى هذا الحد يبلغ الخوف من الله ومراقبة الجبار في قلب هذه المرأة. فأين نساؤنا من هذه المرأة؟!. فيبكي الإمام أحمد ﷺ وهو إمام الورع وألف كتاباً سماه «الورع».

ويقول للمرأة: من أنت يا أمة الله، من أنت عافاك الله، فتذكر أنها أخت لبشر الحافي، فيبكي ويشتد بكاؤه ويقول: من بيتكم يخرج الورع الصادق [2].

---

(1) البخاري في المناقب، باب: أيام الجاهلية، رقم (3554).

(2) صفوة الصفوة: 2/ 525.

فكم نحن محتاجون لتربى أبناءنا على مثل ذلك الورع، أن نغرس في قلوبهم الخوف من الله والمراقبة له. كما فعل ذلك الرجل الذي يقول ابنه: مررت مع أبي من حائط فيه تبن وقد كنت صغيراً آنذاك فأخذت عود تبن من الحائط فوقف أبي وقال: لم أخذت كأنه ينهرني. فقلت: إنما هي تبنة – ببراءة الصغير – أي لا تساوي شيئاً. فقال له أبوه: يا سلمان (اسم الابن) لو أن كل إنسان أخذ تبنة هل كان يبقى في الجدارتين؟.

هكذا كانوا يربون أبناءهم وصغارهم على أحقر الأشياء وأصغرها حتى إذا شب وعقل لا تمتد يده على أي شيء مهما كان كبيراً أو صغيراً، هذه والله بيوت تربت على الخوف والورع.

* * *

حقيقة الاستدراج

يقول ابن عطاء الله: ومما يُخاف عليك موالاة الذنوب، ليستدرجك فيها، ويمكنك فيها، قال الله تعالى: ﴿ فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [القلم: 44].

الاستدراج: استدرجه إلى كذا أي استنزله إليه درجة فدرجة حتى يورطه فيه.

واستدراج الله للعصاة بأن يرزقهم الصحة والنعمة فيجعلون رزق الله ذريعة إلى ازدياد المعاصي، وقيل: كما جدَّدوا معصية جدَّدنا لهم نعمة وأنسيناهم شكرها. قال ﷺ: «إذا رأيت الله يُعطى العبد من الدنيا على معاصيه ما يحب فإنما هو استدراج»[1].

هذا هو معنى قوله تعالى: ﴿ فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [القلم: 44].

ويشرح الباري سبحانه هذا الاستدراج بشكل أوضح بقوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴾ [الأنعام: 44].

أي فلما أعرضوا عما ذكروا به وتناسوه، وجعلوه وراء ظهورهم عند ذلك فتحنا عليهم أبواب الرزق استدراجاً لهم، حتى إذا فرحوا بالأموال والأولاد والأرزاق، أخذناهم فجأة وهم غافلون فإذ هم مبلسون أي: آيسون من كل خير.

ولذلك قال الحسن البصري: من وسع الله عليه فلم ير أنه يمكر به فلا رأي له، ومن قتر عليه فلم ير أنه ينظر له، فلا رأي له ثم قرأ: ﴿ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴾ [الأنعام: 44]. فإيَّاك ثم إيَّاك من الغفلة عن الله والوقوع في المعاصي والاستمرار فيها وترى أن نعم الله عليك بسبب

---

(1) أحمد، مسند الشاميين، حديث عقبة بن عامر الجهني، رقم (16673).

كرامتك عليه. بل ربما كان ذلك الإنعام من الاستدراج المخيف الذي نهايته عذاب عظيم من الله عز وجل.

والمؤمن يخاف دائماً عندما تفتح له أبواب الرزق من أن يكون ذلك استدراجاً له للعذاب فيبقى دائم الشكر لله مطيعاً له ومؤدياً حق المال كما أمره الله.

* * *

نِعَمُ اللّه على العبد

يقول ابن عطاء الله: وكم لله عليك من أيادي[1] أكثر من أمك! إنها إذا أخذتك وأنت صغير تلبسك أحسن الملابس، فإن وسختها تخلع عليك ثياباً أخر في الوقت، وأنت تأتي إلى مملكة مزينة، ليس فيها موضع شبر إلا ويصلح للسجود عليه، تتلف ثوبك وتوسخه بالمعصية، هكذا فعلك، تجلى[2] عليك المحاسن فتجعل فيها ما يكدرها من المعصية !.

نِعَمْ الله علينا لا تُعَدُ ولا تُحصى ونعجز عن شكرها، إننا عاجزون عن شكر أمهاتنا لأن الأم تحرق نفسها لتضيء الطريق لولدها، منذ ولادته همها سعادة ولدها ترضعه وتلبسه وتنظفه وهي مسرورة يملأ الفرح قلبها.

الأم لا نستطيع أن نؤديها حقها، فكيف نؤدي شكر الله الذي خلقنا وخلق أمهاتنا وأعطانا كل شيء؟!.

انظر إلى نفسك ترى اللطف الرباني قد رباك، يقول ابن الجوزي: «فمن بدء الطفولة إلى الآن أرى لطفاً بعد لطف، وستراً على قبيح، وعفواً عما يوجب عقوبة وما أرى لذلك شكراً إلا باللسان، ولقد تفكرت في خطايا لو عوقبت ببعضها لهلكت سريعاً، ولو كشف للناس بعضها لاستحييت»[3].

فكم لله علينا من أيادي أكثر من أمهاتنا، يقول ابن عطاء الله في إحدى حكمه: «إن لم تحسن ظنك به لأجل وصفه فحسن ظنك به لأجل معاملته معك، فهل عودك إلا حسناً وهل أسدى إليك إلا متناً».

---

(1) في نسخة أياد. والأيادي: تستفاد مجازاً للنعمة والإحسان مثل قوله تعالى: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ [المائدة:64]. لسان العرب، ابن منظور: 15/ 419. المعجم الوسيط، ص: 1106.

(2) تجلى: تتجلى أي توضحت وتكشفت. المعجم الوسيط، ص 137.

(3) صيد الخاطر، ص: 488.

والمملكة المزينة هي هذه الأرض التي نعيش عليها إنها مملكة ظاهرة قال ﷺ: «وجُعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً فأيما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليُصل. . »[1].

فإياك أن تدنس هذه الأرض الطاهرة بالمعاصي، إن الله سخر لك المكونات وأسبغ عليك نعمه ظاهرة وباطنة فعليك شكر هذا لا تكديره بالذنوب.

* * *

(1) البخاري، التيمم، باب: قول الله تعالى: ﴿فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا﴾، رقم (323). ومسلم، كتاب: المساجد ومواضع الصلاة، رقم (810).

جدّدِوا إيمانكم بقول لا إله إلا اللّه

يقول ابن عطاء الله: قال ﷺ: «جدّدِوا إيمانكم بقول لا إله إلا الله»[1] فدل ذلك على أنه يحصل له غبار المعصية ودنس المخالفة، وما كل غش يطهره الماء بل رب غش لا يطهره إلا النار، كالذهب إذا كان فيه الغش فكذلك العصاة من هذه الأمة، لا يصلحون لدخول الجنة حتى تطهرهم النار.

روى الطبراني بإسناد حسن أن رسول الله ﷺ قال: «إن الإيمان ليخلق في جوف أحدكم كما الثوب فسلوا الله تعالى أن يجدد الإيمان في قلوبكم»[2].

وذلك لأن العبد يتكلم بلا إله إلا الله ثم يدنسها ويكدرها بسوء أفعاله، لأن من شرط المؤمنين في هذه الكلمة أن لا يكون في قلوبهم شيء إلا الله، فإذا لهت قلوبهم إلى المخلوقين فقد دنسوا هذه الكلمة، وأخلقوها فأمروا بالتجديد بالتكلم بها. لأن المداومة عليها تجدد الإيمان في القلب وتملؤه نوراً وتزيده يقيناً.

أما عصاة هذه الأمة فلا يصلحون لدخول الجنة حتى تطهرهم النار، ويدل على ذلك ما قاله الباري سبحانه في وصف الكافرين: ﴿ يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ ﴾ [الذاريات: 13]. فالفتنة هنا هي: الإحراق بالنار وهي من قولهم: فتنت الذهب أي أحرقته والفتنة: هي: الاختبار.

* * *

(1) أخرجه أحمد، باقي مسند المكثرين، رقم (8353). بلفظ: «جددوا إيمانكم، قيل: يا رسول الله وكيف نجدد إيماننا؟ قال: أكثروا من قول لا إله إلا الله».

(2) المعجم الكبير، للطبراني: 1/ 52.

مثال الذنب كجيفة أدخلت الكلاب خراطيمها فيها

يقول ابن عطاء الله: مثال الذنب عند أرباب البصائر، كجيفة أدخلت الكلاب خراطيمها فيها، أرأيت إذا غمس رجل فمه في جيفة أفما تعيب عليه؟. فإذا كان الحق سبحانه قد جعل ميزاناً للبيع والشراء، أفما جعل ميزاناً للحقائق؟!

المتنجس القدم لا يصلح للمحاضرة، فكيف بمن تنجس فمه؟!.

الذنب عند المؤمن نجاسة معنوية يتلبس بها المذنب، مثاله مثل النجاسة الواضحة على الثوب الأبيض. وتطهير الذنب يكون بالتوبة إلى الله سبحانه، أما مديم الذنب والكافر والمنافق فهؤلاء لا يحسُّون بخطر الذنب. إذ قلوبهم كالثوب الأسود لا يبين عليه النجاسة، فقد اعتادوا الذنوب وغفلوا عن الله سبحانه.

هذا هو ميزان الحقيقة التي ينبغي أن يتعامل العبد به مع ربه وخالقه عز وجل.

ثم يقول ابن عطاء الله: «المتنجس القدم لا يصلح للمحاضرة، فكيف بمن تنجس فمه؟!.».

فكما أن متنجس القدم لا يسمح له بالدخول للمحاضرة، كذلك متنجس الفم بالمعاصي أولى أن لا يصلح للمحاضرة ومناجاة الله سبحانه وتعالى، وهذا والله عقاب شديد للعاصي قد لا يشعر به ويظن أن الله لم يعاقبه على معصيته وهذا من الغفلة، فقد قال بعض أحبار بني إسرائيل:

يا رب كم أعصيك ولا تعاقبني! فقيل له: كم أعاقبك وأنت لا تدري، أليس قد حرمتك حلاوة مناجاتي؟! [1].

فالصلاة حضور مع الله والدعاء وقراءة القرآن، فإياك أن تخاطب الله بفم متنجس بالغيبة والنميمة والفحش من الكلام.

* * *

---

(1) صيد المخاطر، ابن الجوزي، ص: 85.

من أحب اللّه تطهر من العيوب

يقول ابن عطاء الله: إذا أحببت حبيباً، لن تصل إليه حتى تكون أهلاً للوصول إليه، وذلك حتى تتطهر مما أنت فيه من الرذائل.

من أحب الله تطهر من العيوب والنقائص وهي هنا تشمل جميع أنواع الذنوب والغفلة عن الله سبحانه.

هذا هو ثمن المحبة الحقيقية، أما ادعاء المحبة مع بقاء الغفلة والعيوب فهذا دليل على المحبة الناقصة والكاذبة. كما قال الشاعر:

تعصى الإله وأنت تُظهر حبه هذا لعمري في القياس بديع

لو كنت تُظهر حبه لأطعته إن المحب لمن يحب مطيع

وعندما يتطهر العبد من محبة الأغيار، ويتجه قلبه إلى شهود الله وحده، والحب له والخوف منه وحده، عند ذلك يكون أهلاً ليدخل حضرة الله ويناجيه بأنواع المناجاة من الصلاة والذكر والدعاء وقراءة القرآن، وعندئذٍ يكون العبد قد وصل إلى ربه عز وجل.

* * *

العبد العاصي لا قيمة له عند ربه

يقول ابن عطاء الله : من خان هان، قيمة اليد خمسمائة دينار، قُطعت في ربع دينار إذا خانت.

لا تزال لك قيمة عند الله حتى تعصي، فإذا عصيت فلا قيمة لك.

الكريم على الله هو المتصف بذل العبودية له سبحانه، المواظب على طاعته المحافظ على الأمانة كما قال سبحانه: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ [الأحزاب: 72].

قيمتك أيها العبد عند الله تكون بمقدار تعظيمك له وخوفك من عقابه وطمعك في ثوابه، وبعبارة أخرى: قيمتك بمقدار سيرك على منهج الله وصراطه الذي أمرنا باتباعه.

أما إن خالفت المنهج فلا قيمة لك، وخذ مثلاً لذلك: إن الله يأمر عباده بالتواضع ويحذرهم من التكبر، تجد ذلك في آيات كثيرة وأحاديث متعددة، كقوله تعالى: ﴿ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الحجر: 88] وقوله: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ ﴾ [عمران: 159] وقوله: ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِىَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ﴾ [الأعراف: 146].

ومن الأحاديث قوله ﷺ: «ألا أُخبركم بأهل النار: كل عتل [1] جواظٍ [2] مستكبر»[3].

ولذلك إن الذي يتكبر في الدنيا على الخلق، فيرى أنه أفضل وأعلى مستوى منهم وإن الناس يجب أن تحترمه وتسمع كلمته في الوقت الذي لا يحترم أحداً ولا يشاور أحداً. هذا

(1) عتل: الجافي الشديد الخصومة بالباطل.

(2) جواظ: الفظ الغليظ المتكبر في مشيته.

(3) البخاري في تفسير القرآن، باب: عتل بعد ذلك زنيم، رقم (4537).

الرجل يكون عقابه في الآخرة أنه يحشر أمثال الذر يغشـاهم الـذل مـن كـل مكـان، قـال ﷺ: «يُحشر المتكبرون يوم القيامة أمثال الذر في صور الرجال يغشاهم الذل من كل مكان»[1].

* * *

(1) الترمذي في صفة القيامة والرقاق والورع عن رسول الله، رقم (2416).

اجتناب مجالس المعصية

يقول ابن عطاء الله: هذا زمان اجتماع، قلما تجلس مجلساً إلا وتعصي الله فيه، فكثير من السلف آثروا الجلوس في بيوتهم وتركوا صلاة الجمعة [1]، فإن طالبتك النفس بالخروج، فاشغلها بالقعود في الدار بشيء من الطاعة فإن الغيبة أشد من ثلاثين زنية في الإسلام [2]، ولكن الكلاب لا ترقد على الحيطان، بل على المزابل. وأكثر ما يُخاف عليك مخالطة الناس، ولا يكفيك أن تسمع بل تشاركهم في الغيبة، وهي تنقض الوضوء وتفطر الصائم [3].

هذه حالنا والله!. إن جلسنا في مجلس لابد وأن تغتاب أحداً، الغيبة والنميمة والحسد هي فاكهة المجلس.

خلت مجالسنا من ذكر الله ومن الصلاة على رسول الله ﷺ، مجالسنا مجالس غفلة وبعد عن الله سبحانه، كل واحد معتد برأيه، همه أن يُظهر لمن حوله أنه الأفهم والأحكم والأعلم، إن تكلمت بالسياسة أظهر براعته في تحليل الأحداث، وإن تكلمت بالدين أظهر أنه أفقه الحاضرين وهو ليس كذلك، وإن تكلمت بفن الطبخ أظهر أنه أكثر الجالسين علماً وبراعة بهذا الفن، غير الجدل الذي عم المجالس، جدل بالحق وجدل بالباطل.

مجالسنا مجالس معصية، الكل عنده الوقت الكافي لقضاء ساعات في اللغو دون فائدة، وليس عنده دقائق ليذكر الله أو ليقرأ في كتاب!.

ما أجمل أن تكون مجالسنا قصيرة بحيث لا نثقل على صاحب البيت، لعله تعبان، لعله مشغول، أنت عندك الوقت لتهدره فهل كل الناس كذلك؟!.

---

(1) هذا تصرف خاص بهم أما النبي ﷺ فقد حث على صلاة الجماعة ولم يرخص لأحد بتركها إلا لعذر بسبب مرض أو خوف أو نحوه. وربما هؤلاء السلف تركوا الجماعة أحياناً وليس كل الأوقات. والله أعلم.

(2) ليس لهذا دليل من الكتاب أو السنة. والله أعلم.

(3) الغيبة لا تنقض الوضوء ولا تفطر الصائم عند الفقهاء.

ما أجمل مجالسنا إذا خلت من الغيبة والنميمة والجدال.

خطر الغيبة وحقيقتها:

وفيما يأتي ترغيب في حفظ اللسان عن الغيبة وغيرها من المعاصي:

قال تعالى: ﴿ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ [ق: 18].

وقال سبحانه: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ﴾ [الفجر: 14].

ويقول الإمام النووي رحمه الله [1]: «واعلم أنه ينبغي لكل مكلف أن يحفظ لسانه عن جميع الكلام، إلا كلاماً تظهر المصلحة فيه، ومتى استوى الكلام وتركه في المصلحة، فالسنة الإمساك عنه، لأنه قد ينجر الكلام المباح إلى حرام أو مكروه، بل هذا كثير أو غالب في العادة، والسلامة لا يعدلها شيء.

وفي صحيحي البخاري ومسلم عن أبي هريرة ﵁ عن النبي ﷺ قال: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت» [2].

وفي صحيح البخاري عن سهل بن سعد ﵁، عن رسول الله ﷺ قال: «من يضمن لي ما بين لحييه [3]، وما بين رجليه [4]. أضمن له الجنة» [5].

---

(1) الأذكار، النووي، ص: 383 وما بعدها.

(2) البخاري في الأدب، باب: من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره، رقم (5560). ومسلم في الإيمان، باب: الحث على إكرام الجار، رقم (67).

(3) أي لسانه.

(4) أي فرجه.

(5) البخاري في الرقاق، باب: حفظ اللسان، رقم (5993).

وفي صحيح البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إن العبد ليتكلم بالكلمة من رضوان الله تعالى ما يُلقي لها بالاً يرفع الله تعالى بها درجات، وإن العبد ليتكلم بالكلمة من سخط الله تعالى لا يلقي لها بالاً يهوي بها في جهنم»(1). .

وبلغنا أن قس بن ساعدة وأكثم بن صيفي اجتمعا، فقال أحدهما لصاحبه: كم وجدت في ابن آدم من العيوب؟ فقال: هي أكثر من أن تُحصى، والذي أحصيته ثمانية آلاف عيب، ووجدت خصلة إن استعملتها سترت العيوب كلها، قال: ما هي؟ قال: حفظ اللسان.

هذه مقدمة عن خطر اللسان أما الغيبة والنميمة فإنهما خصلتان من أقبح القبائح وأكثرها انتشاراً في الناس حتى ما يسلم منهما إلا القليل من الناس.

تعريف الغيبة:

أما الغيبة فهي: ذكرك الإنسان بما فيه مما يكره، سواء كان في بدنه أو دينه أو دنياه أو نفسه أو خلقه أو خُلقه أو ماله أو ولده أو والده أو زوجه أو عمامته أو ثوبه أو مشيته وحركته وبشاشته وخلاعته وعبوسه وطلاقته، أو غير ذلك مما يتعلق به سواء ذكرته بلفظك أو كتاب، أو رمزت أو أشرت إليه بعينك أو يدك أو رأسك أو نحو ذلك. أما البدن فكقولك: أعمى، أعرج، أعمش، أقرع، قصير، طويل، أسود، أصفر. وأما الدين فقولك فاسق، سارق، خائن، ظالم، متهاون بالصلاة، متساهل في النجاسات، ليس باراً بوالده، لا يضع الزكاة مواضعها، لا يجتنب الغيبة. وأما الدنيا: فقليل الأدب، يتهاون بالناس، لا يرى لأحد عليه حقاً، ويقاس الباقي على ذلك إن كان يكرهه.

وضابطه: كل ما أفهمت به غيرك نقصان مسلم فهو غيبة محرمة.

وأما النميمة: فهي نقل كلام الناس بعضهم إلى بعض على جهة الإفساد.

---

(1) البخاري في الرقاق، باب: حفظ اللسان، رقم (5992).

أما حكمهما فهي محرمتان بإجماع المسلمين. والدليل من الكتاب والسنة وإجماع الأمة.

قال الله تعالى: ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا﴾ [الحجرات: 12]. وقال تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ[1] لُّمَزَةٍ[2]﴾ [الهمزة: 1]. وقال تعالى: ﴿هَمَّازٍ مَّشَّآءِۭ بِنَمِيمٍ﴾ [القلم: 1].

ومن الأحاديث ما يأتي:

ففي الصحيحين:

- عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «لا يدخل الجنة نمام»[3]

- في الصحيحين عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن رسول الله ﷺ مر بقبرين فقال: «إنهما يُعذبان وما يعذبان في كبير، بلى إنه كبير، أما أحدهما فكان يمشي بالنميمة، وأما الآخر فكان لا يستتر من بوله»[4].

ومعنى ما يعذبان في كبير: أي في كبير في زعمهما.

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «أتدرون ما الغيبة؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: ذكرك أخاك بما يكره، قيل: أفرأيت إن كان في أخي ما أقول، قال: إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته، وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بهته»[5].

---

(1) الهماز: الذي يغتاب الناس ويطعن في أعراضهم.

(2) اللماز: الذي يعيب الناس وينال منهم بالحاجب والعين.

(3) البخاري في الأدب، باب: ما يكره من النميمة، رقم (5596). ومسلم في الإيمان، باب: بيان غلظ تحريم النميمة، رقم (151).

(4) البخاري في الوضوء، باب: من الكبائر أن لا يستتر من بوله، رقم (209). ومسلم في الطهارة، باب: الدليل على نجاسة البول ووجوب الاستبراء منه، رقم (439).

(5) مسلم في البر والصلة والآداب، باب: تحريم الغيبة، رقم (4690).

وكما أن الغيبة يحرم على المغتاب ذكرها، يحرم على السامع استماعها وإقرارها وهذا ما أشار إليه ابن عطاء الله عند قوله: «ولا يكفيك أن تسمع بل تشاركهم في الغيبة».

فيجب على من سمع إنساناً يبتدئ بغيبة محرمة أن ينهاه إن لم يخف ضرراً ظاهراً، فإن خافه وجب عليه الإنكار بقلبه ومفارقة ذلك المجلس إن تمكن من مفارقته، فإن قال بلسانه: اسكت، وهو يشتهي بقلبه استمراره، فذلك نفاق لا يخرج عن الإثم، ولابد من كراهته بقلبه. وإن لم يتمكن من مفارقة المجلس للضرورة حرم عليه الاستماع والإصغاء للغيبة، بل طريقه أن يذكر الله تعالى بلسانه وقلبه، أو بقلبه، أو يفكر في أمر آخر ليشتغل عن استماعها. ولا يضره بعد ذلك السماع من غير استماع وإصغاء في هذه الحالة المذكورة، فإن تمكن بعد ذلك من المفارقة وهم مستمرون في الغيبة ونحوها وجب عليه المفارقة، قال تعالى: ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِۦۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [الأنعام: 68].

ما يباح من الغيبة:

تُباح الغيبة للمصلحة لأسباب ستة [1]:

الأول: التظلم، فيجوز للمظلوم أن يتظلم إلى السلطان فيذكر أن فلاناً ظلمني، وفعل بي كذا وأخذ لي كذا.

الثاني: الاستعانة على تغيير المنكر ورد العاصي إلى الصواب، فيقول لمن يرجو قدرته على إزالة المنكر: فلان يعمل كذا، فازجره عنه ونحو ذلك.

---

(1) الأذكار، النووي، ص: 392، 393.

الثالث: الاستفتاء بأن يقول للمفتي: ظلمني أبي أو أخي أو فلان بكذا، فهل له ذلك أم لا؟. بدليل قول هند زوج أبي سفيان: «يا رسول الله، إن أبا سفيان رجل شحيح. . الحديث، ولم ينهها رسول الله ﷺ» (1).

الرابع: تحذير المسلمين من الشر ونصيحتهم، فإذا استشارك إنسان في مصاهرة فلان أو مشاركته أو إيداعه وجب عليك أن تذكر ما تعلمه منه على جهة النصيحة.

الخامس : أن يكون مجاهراً بفسقه أو بدعته كالمجاهر بشرب الخمر وأخذ الربا.

السادس : التعريف فإذا كان الإنسان معروفاً بلقب كالأعمش والأصم والأعمى والأفطس وغيرهم، ولو أمكن التعريف بغيره كان أولى.

ومما استدل به على جواز غيبة أهل الفساد وأهل الريب.

ما ورد في الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها: أن رجلاً استأذن على النبي ﷺ فقال: «ائذنوا له بئس أخو العشيرة» (2).

وفي صحيح البخاري عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «ما أظن فلاناً وفلاناً يعرفان من ديننا شيئاً» (3). قال الليث بن سعد أحد الرواة: كانا رجلين من المنافقين.

وحديث فاطمة بنت قيس وقول النبي ﷺ لها: «أما معاوية فصعلوك، وأما أبو جهم فلا يضع العصا عن عاتقه» (4).

---

(1) البخاري في البيوع، باب: من أجرى أمر الأمصار على ما يتعارفون بينهم، رقم (2059). ومسلم في الأقضية، باب: قضية هند، رقم (3233).

(2) البخاري في الأدب، باب: لم يكن النبي فاحشاً ولا متفحشاً، رقم (5572). ومسلم في البر والصلة والآداب، باب: مداراة من يتقي فحشه، رقم (4693).

(3) البخاري في الأدب، باب: ما يكون من الظن، رقم (5607).

(4) مسلم في الطلاق، باب: المطلقة ثلاثاً لا نفقة لها، رقم (2709).

كفارة الغيبة والتوبة منها[1]:

التوبة من حقوق الله تعالى يشترط فيها ثلاثة أشياء: أن يقلع عن المعصية في الحال، وأن يندم على فعلها، وأن يعزم ألا يعود إليها.

والتوبة من حقوق الآدميين يشترط فيها هذه الثلاثة، ورابع: وهو رد الظلامة إلى صاحبها، أو طلب عفوه عنها والإبراء منها، فيجب على المغتاب التوبة بهذه الأمور الأربعة، لأن الغيبة حق آدمي.

ويكفي أن يقول: قد اغتبتك فاجعلني في حل، ولا حاجة أن يبين ما اغتابه فيه.

فإن كان صاحب الغيبة ميتاً أو غائباً فينبغي أن يكثر الاستغفار له والدعاء ويكثر من الحسنات.

بعد هذه الجولة في الكلام عن خطر الغيبة والنميمة ثق بما قاله ابن عطاء الله: «وأكثر ما يُخاف عليك مخالطة الناس؟!».

* * *

---

(1) الأذكار، النووي، ص: 397، 398.

النجاة من المعاصي يكون بالهروب إلى الله والاستغاثة به

يقول ابن عطاء الله: أتظن أن الدواء حلو تأكله[1]، إن لم تهجم عليه هجماً لم يحصل لك الشفاء، فاهجم على التوبة ولا تغلبنك حلاوة المعصية، وإذا رأيت نفسك متطلعة إلى الشهوة فاهرب إلى الله واستغث به فإنه ينجيك منها.

هذا من الخيانة التي ذكرها ابن عطاء في الفقرة السابقة بقوله: «من خان هان» إذ كيف تحتاج إلى الخلق ولا تحتاج إلى الحق؟. كيف تطلب من المخلوقين وتنسى الخالق إنها خيانة عظيمة.

والتوبة دواء للمعاصي والذنوب فاهجم عليها ولا تفكر بحلاوة المعصية حتى لا تغلبك بل تب إلى الله واترك المعصية وإن كنت قد تركت لذة فالصبر عليها هو الدواء، والدواء غالباً يكون مر المذاق فإن امتنعت عن شربه استمر المرض، أما إن هجمت عليه وسكبته في حلقك مباشرة فقد حّصل لك الشفاء.

إن الذي ينجيك من أسر الشهوات هو الله وحده سبحانه فاهرب إليه واستغث به بقلب منكسر ذليل تجد أن الله يستجيب دعاء المضطر ويحقق لك ما تريد. ألم يقل سبحانه: ﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلۡمُضۡطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكۡشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجۡعَلُكُمۡ خُلَفَآءَ ٱلۡأَرۡضِۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ [النمل: 62].

* * *

---

(1) في نسخة: حلوى تأكلها.

مثال من يكثر الذنوب والاستغفار

يقول ابن عطاء الله: مثال من يكثر الذنوب والاستغفار كمثل من يكثر شرب السم، ويكثر استعمال الترياق، فيقال له: قد لا تصل إلى الترياق مرة، فيهجم عليك الموت، قبل الوصول إليه.

إن هذه الحقيقة التي يذكرها ابن عطاء الله هي حال الكثيرين من المسلمين، تراهم يذنبون ويستغفرون ويعقدون العزم على عدم العودة لكنهم يعودون لاقتراف الذنوب، وهذا أمر حسن طالما أن الذنب كان عن ضعف بشري ووسوسة شيطان لا عن تكبر أو كأن يقول: أذنب ثم أتوب فهذا لا ينطبق عليه وصف العبد الذي قال عنه ﷺ في الحديث الذي يرويه عن ربه: «أذنب عبدٌ ذنباً فقال: اللهم اغفر لي ذنبي، فقال الله تبارك وتعالى : أذنب عبدي ذنباً، فعلم أن له رباً يغفر الذنب، ويأخذ بالذنب، ثم عاد فأذنب، فقال: أي رب اغفر لي ذنبي. . . ثم يقول الله تبارك وتعالى: قد غفرت لعبدي فليفعل ما شاء»[1].

لكن ابن عطاء الله، رحمه الله، يحذر من يكثر الذنوب والاستغفار أن لا يصل إلى وقت يذنب فيه لكن الموت يفجؤه قبل أن يستغفر، فينبغي للمسلم أن يقلل من الذنوب ما أمكن وأن يكثر من الاستغفار والتوبة حتى إذا جاءه الموت كان مستعداً لذلك فيُختم لم بحسن العمل ويفوز بمغفرة الله سبحانه.

* * *

---

(1) سبق تخريجه، ص: 38.

تنقية القلب من الذنوب يكون بالتوبة والأذكار والندم والاستغفار

يقول ابن عطاء الله: من أحب الدنيا بقلبه كان كمن بنى بناء حسناً فوقه مرحاض فرشح عليه، فلا يزال كذلك حتى يُرى ظاهره كباطنه، ومنهم من ينقيه فلا يزال قلبه أبيض، وتنقيته بالتوبة والأذكار والندم والاستغفار، كذلك أنت في حضرة الله ملوث بمعصيتك، تأكل الحرام وتنظر المحرم، فمن يفعل المخالفات والشهوات يُظلم قلبه، فإن لم تتب في حالة الصحة، ربما ابتلاك بالأمراض والمحن، حتى تخرج نقياً من الذنوب، كالثوب إذا غسل.

قال ﷺ: «حب الدنيا رأس كل خطيئة»[1]. فحب الدنيا نجاسة تلوث القلب، وكلما ازداد التلوث حتى تستوعب القلب كله.

والمقصود هنا: الدنيا التي تلهي عن الآخرة، أي من شغل قلبه بالدنيا حتى نسي لقاء ربه وآخرته. وليس المقصود اعتزال الدنيا فإن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام كانوا يعملون ويبنون ويكسبون ويتزوجون.

قال تعالى عن سيدنا داود: ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ﴾ [الأنبياء: 80].

وقال تعالى: ﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾ [القصص:77].

فالدنيا يجب أن تكون في الكف لا في القلب، لأنه ممتلئ بحب الله والشوق إلى الجنة فإن تعارضت الدنيا مع الدين رمينا بالدنيا حفاظاً على الدين.

---

(1) رواه البيهقي في الشعب بإسناد حسن إلى الحسن البصري رفعه مرسلاً والحديث ضعيف. كشف الخفاء، العجلوني الجراحي، 1/ 412.

والخلاص من هذا البلاء يكون بالتوبة والأذكار والندم والاستغفار، فالقلب عندما يصحو للحقيقة يتوب من تلك الغفلة ويعلم أن هذه الدنيا مصيرها للزوال، ومهما تنعم فيها فإنها لا تساوي شيئاً عندما يأتي ملك الموت ليقبض الروح.

فإذا أحب الله عبداً هيأ له أسباب التوبة فإن لم يتب في حال الصحة، ابتلاء بالأمراض والمحن حتى يخلص من شوائب الذنوب.

وهذه حال الكثيرين منا لا يشعر بتقصيره ولا بندمه ولا يفطن أن يتوب طالما يشعر بالقوة والصحة والغنى. لكنه عندما يُبتلى بفقد الصحة أو بفقد عزيزٍ عليه، تراه يتذكر ويتأمل في حاله وحال الدنيا فيصحو من رقدته وينيب إلى ربه، فتكون الأمراض والمحن رحمة لهم وخيراً كما قال تعالى: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ﴾ [البقرة: 216].

إن الأمراض والمحن من النعم الباطنة التي أسبغها الله علينا كما قال سبحانه ﴿وَأَسۡبَغَ عَلَيۡكُمۡ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةٗ وَبَاطِنَةٗۗ﴾ [لقمان: 20].

* * *

القلب يتنور بالطاعة ويظلم بالمعصية

يقول ابن عطاء الله: مثالك مثال رجلين اشتريا أرضاً قياساً واحداً، فأخذها الواحد فنقَّاها من الشوك والحشيش، وأجرى بها الماء، وبذرها فنبتت وجنى منها وانتفع بها، فهذا كمن نشأ في الطاعة، قد أشرقت أنوار قلبه، وأما الآخر فإنه أهملها حتى نبت فيها الشوك والحشيش، وبقيت مأوى للأفاعي والحيات، فهذا قد أظلم قلبه بالمعاصي.

وهذا مثال واضح للقلب الذي يتعهده صاحبه فيغسله بالتوبة وينقيه من الذنوب ويسقيه بماء الطاعة فيشرق بنور الإيمان، وأما الآخر فإنه غافل عن قلبه لا يتعهده، وهذا القلب يُظلم بسبب كثرة الذنوب والمعاصي. فتراه يتخبط وربما قاده التخبط للشك في الرزق والشك في العقيدة، تضربه العاصفة من كل جهة ولا يستطيع النجاة منها وكل ذلك بسبب ظلمة قلبه.

* * *

حقيقة الفراسة

ما أتيت لموطن حكمة أو معصية إلا وفي عنقك سلسلةٌ نورانية، أو ظلمانية، فإن كنت لا تشهدها أنت فغيرك يشهدها، ألا ترى أن الشمس يشهدها الناس أجمعون إلا من كان أعمى؟!.

هذه الحقيقة يشهد لها قول الله تعالى: ﴿ سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ﴾ [الفتح:29]. إنه نور الإيمان والطاعة يراه ويحس به من فتح الله على بصيرته.

وهو ما يسمى بالفراسة. كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴾ [الحجر: 75].

وقال تعالى في حال المنافقين: ﴿ وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ ۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ ۚ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ ﴾ [محمد: 30].

فالأول : فراسة النظر والعين.

والثاني : فراسة الأذن والسمع.

والمقصود : أنه سبحانه أقسم على معرفتهم من لحن خطابهم. فإن معرفة المتكلم وما في ضميره من كلامه أقرب من معرفته بسيماه وما في وجهه. والفراسة تتعلق بالنوعين بالنظر والسماع.

وسببها: نور يقذفه الله في قلب عبده. يفرق به بين الحق والباطل، والصادق والكاذب، والفراسة على حسب قوة الإيمان. فمن كان أقوى إيماناً فهو أحد فراسة.

قال ابن مسعود: أفرس الناس ثلاثة: العزيز في يوسف، حيث قال لامرأته: ﴿ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا ﴾ [يوسف: 21] وابنة شعيب حين قالت لأبيها في موسى: ﴿ اسْتَأْجِرْهُ ﴾ [القصص: 26].وأبو بكر في عمر رضي الله عنهما، حين استخلفه، وفي

رواية أخرى: وامرأة فرعون حين قالت: ﴿ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا ﴾[1] [القصص: 9].

أما السلسلة الظلمانية، فيشهد لها قصة ذلك الرجل الذي دخل على سيدنا عثمان رضي الله عنه، فقال له: يدخل علي أحدكم وفي عينيه أثر الزنى، فقال الرجل: أوحي بعد رسول الله يا أمير المؤمنين؟ قال: بل فراسة المؤمن: «اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله»[2].

بعد هذه الجولة في الكلام عن المعاصي والذنوب وخطرها على العبد ووجوب التوبة منها إليك هذه الأبيات التي تهيب بالنائم أن يصحو ويترك دفء الفراش يناجي ربه تائباً منيباً معترفاً بتقصيره مؤملاً الخير والرشاد:

قال الشاعر:

قم في الدجى يا أيها المتعبد ... حتى متى فوق الأسرة ترقد؟
قم وادع مولاك الذي خلق الدجى ... والصبح وامض فقد دعاك المسجد
واستغفر الله العظيم بذلة ... واطلب رضاه فإنه لا يحقد
وأندم على ما فات، واندب ما مضى ... بالأمس، واذكر ما يجيء به الغد
واضرع وقل: يا رب عفوك إنني ... من دون عفوك ليس لي ما يعضد
أسفاً على عمري الذي ضيعته ... تحت الذنوب أنت فوقي ترصد!
يا رب لم أحسب مرارة مصدر ... عن زلة قد طاب منها المورد
يا رب قد ثقلت علي كبائر ... بإزاء عيني لم تزل تتردد!
يا رب إن أبعدت عنك فإن لي ... طمعاً برحمتك التي لا تبعد

---

(1) مدارج السالكين، ابن القيم: 2/ 153.

(2) سبق تخريجه، ص: 51.

يـا رب مـالي غـير لطفـك ملجـأ ... ولعلنـــي عـــن بابـــه لا أطـــرد!
يـا رب هــب لي توبـة أقضي بهـا ... دينـاً عــلي بــه جلالــك يشــهد
أنــت الخبـير بحـال عبـدك إنــه ... سلاســل الــوزر الثقيــل مقيــد
أنــت المجيــب لكــل داعٍ يلتجــئ ... أنــت المجيــز لكــل مــن يســتنجد
من أي بحر غـير بحـرك نسـتقي؟ ... ولأي بـابٍ غـير بابـك نقصـد؟

اللهم إننا نسألك توبة نصوحة لا ننكثها أبداً، ونسألك سـبيل الاسـتقامة لا نزيـغ عنهـا أبداً يا رب العالمين!

* * *

فضل متابعة النبي ﷺ

حقيقة متابعة النبي ﷺ

يقول ابن عطاء الله: ولا يدخل عليك الإهمال إلا بإهمالك عن متابعة النبي ﷺ، ولا تُحصل لك الرفعة عند الله تعالى إلا بمتابعة النبي ﷺ. والمتابعة له عليه الصلاة والسلام على قسمين: جليةٌ، وخفية.

فالجلية: كالصلاة والصيام والزكاة والحج والجهاد، وغير ذلك.

والخفية: أن تعتقد الجمع [1]. في صلاتك، والتدبر في قراءتك. فإذا فعلت الطاعة كالصلاة والقراءة ولم تجد فيها جمعاً ولا تدبراً، فاعلم أن بك مرضاً باطناً من كبر أو عجب أو غير ذلك. قال الله تعالى: ﴿ سَأَصۡرِفُ عَنۡ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ ﴾ [الأعراف: 146]. فيكون مثالك كالمحموم الذي يجد في فمه الشكر مراً. فالمعصية مع الذل والافتقار خير من الطاعة مع العز والاستكبار. قال الله تعالى حكاية عن إبراهيم الخليل –عليه وعلى نبينا محمد أفضل الصلاة وأتم السلام–: ﴿فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّيۖ ﴾ [إبراهيم: 36]. فمفهوم هذا أن من لم يتبعه ليس منه، وقال تعالى حكاية عن نوح – عليه وعلى نبينا المصطفى أزكى الصلاة والسلام– : ﴿قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيۡرُ صَٰلِحٖۖ ﴾ [هود: 46]. فالمتابعة تجعل التابع كأنه جزءً من المتبوع وإن كان أجنبياً، كسلمان الفارسي رضي الله عنه، لقوله ﷺ : «سلمان منا أهل البيت» [2]. ومعلوم أن سلمان من أهل فارس، ولكن بالمتابعة قال عنه ﷺ تعلياً، فكما أن المتابعة تثبت الاتصال، كذلك عدمها يثبت الانفصال.

إن علامة محبة الله تعالى هي إيثار طاعته ومتابعة نبيه ﷺ. قال تعالى: ﴿ قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۚ ﴾ [آل عمران: 31].

---

(1) الجمع: رؤية الحق وحده سبحانه.

(2) أخرجه الحاكم في المستدرك وسكت عنه: 3/ 196. والطبراني في المعجم الكبير؛ 6/ 212. وسنده ضعيف كما جاء في مجمع الزوائد: 6/ 130.

فالجادة السليمة، والطريق القويمة هي الاقتداء بصاحب الشرع، والبدار إلى الاستنان به، فهو الكامل الذي لا نقص فيه. فإن خلقاً كثيراً انحرفوا إلى جادة الزهد، وحملوا أنفسهم فوق الجهد، فأفاقوا في أواخر العمر والبدن قد نُهك، وفاتته أمور مهمة من العلم وغيره. وإن أقواماً انحرفوا إلى صورة العلم، فبالغوا في طلبه، فأفاقوا في أواخر العمر، وقد فاتهم العمل به، فطريق المصطفى ﷺ العلم والعمل والتلطف بالبدن[1].

إن متابعة النبي ﷺ الجلية بظاهر العبادات لا تكفي – وهذه حال كثير من المسلمين وللأسف- فكم من مصلٍّ تكون صلاته وبالاً عليه، بدل أن تقربه من الله عز وجل تبعده عنه. وكم من صائم ليس له من صيامه إلا الجوع والعطش، والحج والجهاد كذلك.

إن المتابعة الخفية هي لب الإسلام وبها يكون الثواب والقرب من الله سبحانه.

وأساس ذلك خلو القلب من الكبر. والمعجب بطاعته ليس همه وقصده رضا الله وإنما رضا الناس وحب مدحهم والخوف من مدحهم. وهذا الأمر يحبط العمل.

إن المتابعة الحقيقية للنبي ﷺ تكون بأداء الفرائض في الظاهر وإخلاص العمل لله في الباطن.

فهذه المتابعة تجعل التابع كأنه جزء من المتبوع وإن كان أجنبياً كسلمان الفارسي رضي الله عنه، وهذه المتابعة تثبت الاتصال بالله عز وجل والقرب من النبي ﷺ، وعدمها يثبت انفصال العبد عن ربه وبعده عن نبيه المصطفى ﷺ.

* * *

(1) صيد الخاطر، ابن الجوزي، ص: 255.

الخير يكون بمتابعة النبي ﷺ

يقول ابن عطاء الله: وقد جمع الله الخير كله في بيت وجعل مفتاحه متابعة النبي ﷺ فتابعه بالقناعة بما رزقك الله تعالى، والزهد والتقلل من الدنيا، وترك ما لا يعني من قول وفعل، فمن فتح له باب المتابعة، فذلك دليل على محبة الله له، قال تعالى: ﴿ قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ ﴾ [آل عمران: 31].

وإذا طلبت الخير كله فقل: اللهم إني أسألك المتابعة لرسولك ﷺ في الأقوال والأفعال. ومن أراد ذلك فعليه بعدم الظلم لعباد الله في أعراضهم وأنسابهم، فلو سلموا من ظلم بعضهم بعضاً لانطلقوا إلى الله، ولكنهم معوقون كالمديان [1]. بسبب من يطلبه. واعلم أنك لو كنت مخصصاً عند الملك، مقرباً منه، وجاء من يطلبك بدين، ضيق عليك، ولو كان قدراً [2] يسيراً، فكيف بك إذا جئت يوم القيامة ومائة ألف إنسان أو أكثر يطلبون بديون مختلفة من أخذ مال، وقذف عرض، وغير ذلك، فكيف يكون حالك؟!.

الواقع أن الناس لم يفهموا حقيقة المتابعة للنبي ﷺ، إنهم فهموها – في هذا العصر – أقوالاً دون أفعال، يقول لك أحدهم مادحاً صفة الحلم: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال له: «أوصني، قال: لا تغضب فردد مراراً والنبي ﷺ يقول: لا تغضب» [3]. وتنظر إلى المتكلم فتراه إن خاصم أحدًا غضب واحمرت عيناه، وانتفخت أوداجه وسب وشتم ولعن وربما كفر بالله، فأين هذه المتابعة ؟!.

---

(1) المديان: الكثير الدين، وهو مفعال من الدين للمبالغة.

(2) في نسخة: نزراً.

(3) البخاري في الأدب، باب: الحذر من الغضب، رقم (5651).

بماذا تكون المتابعة:

وترى آخر أغلب صلاته مع الجماعة في المسجد ترافقه السبحة دائماً ويتكلم بأمور الدين ويظهر للناس علمه وحماسه لحقائق الإسلام، فإذا حانت له فرصة ليعصي الله فيها لم يقصر، فيأكل الربا ويقيم الحفلات المحرمة وينافق في معاملته وو . . ، فأين المتابعة؟ !.

إن المتابعة كما قال ابن عطاء الله تكون في الأقوال والأفعال. فتكون:

1- **بالقناعة بما رزقك الله تعالى** : وبعدم السخط لقلة ذات يدك، ولا تكون القناعة إلا باليقين التام بأن ما تملكه هو ما قسمه الله لك من الرزق، وبأنه لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها فاتقوا الله وأجملوا في الطلب كما قال ﷺ[1].

2- **بالزهد والتقلل من الدنيا** : وليس المقصود بالزهد ترك التنعم واحتقار اللباس والزينة وإنما أن تكون بما في يد الله أوثق منك بما في يدك، يكفيك أن تظهر بمظهر حسن كما أمرك النبي ﷺ، واجعل الدنيا في يدك لا في قلبك هذا هو الزهد الحقيقي.

وفي هذا الزمن الصعب الذي أصبح المال عصب الحياة من الصعب أن يكون المسلم كسلمان الفارسي وخالد بن الوليد وأبي الدرداء فإنهم ماتوا ولا يملكون من متع الدنيا شيئاً؟!. ولكن كن قانعاً بالشيء الوسط واجعل همك بناء الآخرة لا بناء الدنيا فإن مصيرها إلى الزوال.

إن الزهد في الدنيا سبب لمحبة الله، وإن الزهد بما في أيدي الناس سبب لمحبة الناس، قال رسول الله ﷺ: «ازهد في الدنيا يحبك الله وازهد بما في أيدي الناس يحبوك»[2].

---

(1) ابن ماجه في التجارات، باب: الاقتصاد في طلب المعيشة، رقم (2135).

(2) ابن ماجه في الزهد، باب: الزهد في الدنيا، رقم (4092).

وبقدر ما تكون متقللاً من الدنيا يهون الحساب يوم القيامة والعكس صحيح. إذ لن تزول قدماً عبد يوم القيامة كما يقول ﷺ حتى يُسأل عن أربع: «عن شبابه فيما أبلاده وعن عمره فيما أفناه وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه» (1).

3- **ترك ما لا يعني من قول وفعل**: وهذا من المتابعة لقوله ﷺ: «من حسن إسلام المرء تركه ما لا يُعنيه» (2)..

فالعاقل هو الذي يحافظ على وقته ولا يهدره بالتفاهات وبسفاسف الأمور، ما الذي يفيده قول ما لا يعنيه وفعل ما لا يعنيه، إنه لا يزيده إلا بعداً عن الله واحتقار الناس له.

4- **عدم الظلم للعباد**: فلم يؤثر عنه ﷺ أنه ظلم أحداً.

فأين متابعة النبي ﷺ في اجتناب ظلم العباد، مع ما نراه اليوم من انتشار الظلم بين فئات المجتمع كلها.

فترى الأب يظلم أولاده، والابن يظلم أباه، والجار يظلم جاره، والزوج يظلم زوجته وبالعكس، وانتشر الظلم بين الجماعات والدول فترى الدول القوية تعتدي على الضعيفة لمصلحة خاصة غير عابئة بآلاف الأرواح التي أزهقت وبآلاف الأسر التي شردت، إن ظلم العباد لبعضهم جعل قسماً منهم متخمين من الشبع وآخرين هياكل عظمية من الجوع؟!.

لقد عم الظلم ظهر الأرض وصدق الله سبحانه حين قال: ﴿ ظَهَرَ ٱلۡفَسَادُ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ بِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِي ٱلنَّاسِ ﴾ [الروم: 41].

وانتقل الفساد إلى الفضاء لتدور حول الأرض الأقمار الصناعية بهدف التجسس على الدول؟!.

---

(1) الطبراني في الأوسط: 5/ 74.

(2) سبق تخريجه، ص: 118.

إن الله سبحانه عندما حرم الظلم، حرمه لمصلحتنا، لكي نعيش بأمن وسلام ولكـي ننـام مطمئنين على دمائنا وأموالنا وأعراضنا، فكيف تكون حياة لا يأمن فيها المرء على حياته أو على ماله أو على عرضه، إنه يعيش في قلق واضطراب دائم، فيؤثر ذلك على تفكيره ونشاطه، فـلا يمكنه القيام بالمهمة التي وكلها الله إليه وهي عمارة الأرض بقوله تعـالى: ﴿ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ﴾ [هود: 61] أي طلب منكم عمارتها.

من أجل هذا جاء الحديث النبوي الشريف الجامع؛ الذي يقول فيه ﷺ: «كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه»[1].

وفي الحديث القدسي يقول ربنا جل جلاله: «يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا»[2].

إن الله سبحانه متصف بالعدل فهو العادل سبحانه فكن أنت عادلاً. قال تعـالى: ﴿ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ [الأنفال: 51].

إن الظلم عاقبته وخيمة يوم القيامة؛ فالظالمون ليس لهم من ينقذهم وينصرهم من نار جهنم ومن سؤال الله لهم، قـال الله تعـالى: ﴿ مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ[3] وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴾ [غافر: 18]. وقال سبحانه: ﴿ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴾ [الحج: 71].

والظلم ظلمات يوم القيامة فعن جابر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «اتقوا الظلم، فإن الظلم ظلمات يوم القيامة، واتقوا الشح فإن الشح أهلك من كان قبلكم، حملهم على أن سفكوا دماءهم، واستحلوا محارمهم»[4].

---

(1) مسلم في البر والصلة والآداب، باب: تحريم ظلم المسلم، رقم (4650).

(2) التخريج السابق، رقم (4674).

(3) الحميم: القريب المشفق.

(4) مسلم في البر والصلة والآداب، باب: تحريم الظلم، رقم (4675).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لتؤدن الحقوق إلى أهلها يوم القيامة حتى يقاد للشاة الجلحاء [1]. من الشاة القرناء» [2].

ثم إن الظلم يمحق الحسنات يوم القيامة، فيقول ﷺ لأصحابه: « أتدرون من المفلس؟ قالوا: المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع، فقال: إن المفلس من أمتي يأتي يوم القيامة بصلاةٍ وصيام وزكاة ويأتي قد شتم هذا وقذف هذا وأكل مال هذا وسفك دم هذا وضرب هذا فيعطي هذا من حسناته وهذا من حسناته فإن فنيت حسناته قبل أن يُقضى ما عليه أُخذ من خطاياهم فطرحت عليه ثم طرح في النار» [3].

فإياك ثم إياك من ظلم العباد في أعراضهم وأموالهم!!.

* * *

---

(1) الجلحاء: التي لا قرن لها.

(2) مسلم في البر والصلة والآداب، باب: تحريم الظلم، رقم (4679).

(3) مسلم في البر والصلة، باب: تحريم الظلم، رقم (4678).

أحوال القلوب

إذا جف القلب سقطت ثـمراته

يقول ابن عطاء الله: القلب شجرة تُسقى بماء الطاعة، وثمراتها مواجيدها، فالعين ثمرتها الاعتبار، والأذن ثمرتها الاستماع للقرآن، واللسان ثمرته الـذكر، واليـدان والـرجلان ثمـرتهما السعي في الخيرات، فإذا جف القلب سقطت ثمراته، فإن أجدب فأكثر من الأذكار.

معنى القلب:

يأتي القلب بمعنى العقل، ويأتي بمعنى العضلة المعروفة وراء الأضلاع في الجانب الأيسر من جسم الإنسان. وقد وردت بمعنى العقل في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ [ق: 37].

فجل المفسرين قالوا: المراد بالقلب هنا العقل.

ووردت بمعنى العضلة المعروفة مثل قوله عز وجـل: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴾ [الرعد: 28]. ولكن ليس المـراد العضـلة الماديـة التـي يصطلح عليها الأطباء، بل المراد ما ينعكس على هذه العضلة من المشاعر العاطفيـة مـن حـب وخوف وتعظيم، أي ما يسمى بالعواطف الدافعة والرادعة والممجدة.

ومراد ابن عطاء الله بكلمة القلب هنا بمعناه الحقيقي وليس المعنـى المجـازي المتمثـل في العقل(1).

يقول ابن عطاء الله في إحدى حكمه: «تمكُّن حلاوة الهوى من القلب هو الداء العضال».

وذلك عندما يتمكُّن داء الهوى والشهوة من القلب ويرسخ فيـه لا يبقـى لـدواء الإيـمان والمعرفة واليقين محل فلذلك أعضل أمره وتعذره برؤه.

---

(1) الحكم العطائية، شرح وتحليل د. محمد سعيد رمضان البوطي: 1/ 168. إحياء علـوم الـدين، الغـزالي: 3/ 4، 5.

فالشهوات تقسي القلب، وقسوة القلب وعماه لعنة إلهية تهبط على رؤوس الناقضين للمواثيق، المارقين من التقوى، اللاعبين بالإيمان، قال تعالى: ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً ﴾ [المائدة: 13].

وتظهر قسوة القلب في السلوك كالاعتداد بالشخصية، وميل إلى اتهام الغير لا يقبل العذر، وفرح بافتضاح المخطئين مليء بالشماتة. وتلك كلها خلال تنافي الإيمان، فالإيمان إنكار للذات، وحب للغير، وستر على المخطئ، وسعي لإقالته من عثرته، وسرور غامر بتوبته.

الإيمان توقير للكبار ورحمة بالصغار وتكريم للعلماء.

الإيمان سعادة بالرخاء يشيع بين الناس، وألم للكوارث التي يقطب لها الجبين، ولو كان هذا أو ذاك خبراً ينقل لا علاقة لشخصك به[1].

هذا صنف من الناس قساة القلوب، همهم إظهار مقدرتهم العلمية وتتبع الزلات فتراهم يجادلون بالباطل لا ليتعلموا بل لينصروا أفكارهم وليشيعوا الفتنة بين الناس، والفتنة نائمة لعن الله من أيقظها. إن هؤلاء في الفقه أصفار، وهذا الجهل مقبحة محدودة أما المصيبة التي لا تحد فهي اشتهاؤهم لذم الناس والتماس العيب للأبرياء.

لقد ابتلي المسلمون بهذه الفئة ممن يتكلمون باسم الدين وهم يهدمون الدين ويظنون أنهم يُحسنون صنعاً، ولو فتشت قلوبهم لوجدت حجاباً ثخيناً سببه المعاصي والذنوب وسببه ابتعادهم عن آداب الإسلام وأخلاقه فليتذكروا أن كثيراً من العلماء والفقهاء تمنوا أن لا يذكر اسمهم ولا ينسب لهم فقه، بل اكتبوا الكتب ونشروا العلم لفائدة الناس. وليس لنفوسهم تطلع لمنصب أو شهرة أو عرض دنيوي.

إننا نحتاج اليوم لقلوب عامرة بذكر الله والخوف منه، لقلوب ممتلئة بذل العبودية لله سبحانه ممتلئة بالتواضع لله ولعباده المسلمين.

---

(1) دستور الوحدة الثقافية بين المسلمين، محمد الغزالي، ص: 184.

القلب شجرة تسقى بماء الطاعة:

ثم يقول ابن عطاء الله: «فالقلب شجرة تسقى بماء الطاعة، وثمراتها مواجيدها» فالقلب كالشجرة المثمرة تسقيها طاعة الله، وينتقل أثر الطاعة إلى الأغصان أي: الجوارح.

«فالعين ثمرتها الاعتبار» بما ترى والنظر في المكونات لتستدل بها على المكون، أما إن كانت العين غافلة عن ذلك مشغولة بالنظر إلى المحرمات ومراقبة الناس فإنها ليست لها ثمرة، ومصيرها إلى النار.

«والأذن ثمرتها الاستماع للقرآن». لتفهم كلام الله وتطمئن به أما إذا رأيت الأذن قد شغلت بسماع المحرمات وتتبع أسرار الناس وعوراتهم فإن ذلك سبب لقسوة القلب.

قال تعالى محذراً من عدم استعمال العين والأذن في طاعة الله: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا ۚ أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ [الأعراف: 179].

«واللسان ثمرته الذكر» إن لسان مشغول بذكر الله، فإن وجدت اللسان يلهج بالغيبة والنميمة والسب والشتم والاعتداء على أعراض الناس والكلام الفارغ فإن سبب لقسوة القلب. قال ﷺ: «لا يزال لسانك رطباً بذكر الله»(1).

وعن سفيان بن عبد الله أنه قال: «قلت: يا رسول الله ما أكثر ما تخاف علي؟. فأخذ عليه الصلاة والسلام بلسان نفسه ثم قال: هذا»(2).

---

(1) الترمذي، الدعوات عن رسول الله، ما جاء في فضل الذكر، رقم (3297). وابن ماجه، الأدب، فضل الذكر رقم (3783). وأحمد، مسند الشاميين، حديث عبد الله بن يسر المازني، رقم (17020).

(2) الترمذي، الزهد عن رسول الله، ما جاء في حفظ اللسان، رقم (2334). وابن ماجه، الفتن، كف اللسان عن الفتن، رقم (3962).

إن نطق اللسان يؤثر في أعضاء الإنسان بالتوفيق والخذلان، يؤكد هذا المعنى ما روي عن مالك بن دينار أنه قال: إذا رأيت قساوة في قلب، ووهناً في بدنك، وحرماناً في رزقك فاعلم أنك قد تكلمت فيما لا يعنيك [1].

«واليدان والرجلان ثمرتهما السعي في الخيرات». فترى المسلم يحافظ على صلاة الجماعة ويسعى لزيارة المرضى ومساعدة الناس ويتصدق بيديه وينفق مما آتاه الله، أما إذا رأيت اليدين والرجلين تُستعملان لمعصية الله فإن ذلك سبب لقسوة القلب.

إن جميع ما ذكرته يجمعه قوله ﷺ: «استحيوا من الله حق الحياء، قلنا: يا رسول الله إنا لنستحي والحمد لله، قال: ليس ذاك ولكن الاستحياء من الله حق الحياء أن تحفظ الرأس وما وعى والبطن وما حوى ولتذكر الموت والبلى. ومن أراد الآخرة ترك زينة الدنيا، فمن فعل ذلك فقد استحيا من الله حق الحياء» [2].

«فإذا جف القلب سقطت ثمراته، فإن أجدب فأكثر من الأذكار» إذ إن الأذكار دواء لقسوة القلب. لذلك قال ﷺ كما مر: «لا يزال لسانك رطباً من ذكر الله» [3]. فإذا هيمن على القلب ذكر الله وتسبيحه فإنه يشعر أن الله يراك ويراقبك مما يعينك على طاعته ويخوفك من معصيته.

يقول الحارث المحاسبي رحمه الله: «من أحسن العبادة: أن يمتلئ قلب العبد من حب الطاعة، فإذا فاض عملت الجوارح على قدر ما رأت من القلب، فربما كانت الجوارح في العبادة والقلب في البطالة.

قلت: وكيف عبادة القلب دون الجوارح؟ وكيف يفيض القلب بالعبادة إلى الجوارح؟.

---

(1) منهاج العابدين، الغزالي، ص: 72.

(2) الترمذي، صفة القيامة والرقائق والورع عن رسول الله، رقم (2382).

(3) سبق تخريجه في الصفحة السابقة.

قال: أن يصير وعاء للهم والحزن، والافتقار والخوف، والندامة والتواضع والاضطرار إلى الله عز وجل، والنصح له وحب ما يحب الله، وبغض ما يبغض الله.

فإذا عامل الله على هذا بقلبه، هاجت الجوارح بمثل ما رأت من القلب، فانبعث على الطاعة، وإنما يكون ذلك من القلب إذا خالط سويداءه ما تأتي به القيامة.

والباب الآخر: أن يمتلئ قلبه من معرفة نعم الله عز وجل، وسروره بالله، وأنسه بعبادة الله، وشوقه إلى محاب الله، وحبه للشكر لله، ورجائه مغفرة الله.

فإذا عامل الله بهذا في قلبه، اشتاق إلى عبادة الجوارح معه، فيكون عاملاً، وفي عمله أنس وسرور وحلاوة»[1].

إن القلب ملك مُطاع ورئيس متتبع، فالأعضاء كلها تبع له، فإذا صلح المتبوع صلح التبع، وإذا استقام الملك استقامت الرعية، يبين ذلك ما روي عن النبي ﷺ أنه قال: «إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب»[2].

* * *

---

(1) آداب النفوس، المحاسبي، ص: 131، 132.

(2) البخاري في الإيمان، باب: فضل من استبرأ لدينه، رقم (50). ومسلم في المساقاة، باب: أخذ الحلال وترك الشبهات، رقم (2996).

مثال الإيمان في القلب كالشجرة الخضراء

يقول ابن عطاء الله: مثال الإيمان في القلب كالشجرة الخضراء، فإذا كثرت [1]. عليها المعاصي يبست وفرغ إمدادها، فمن أحب القيام بالواجبات، فليترك المحرمات، ومن ترك المكروهات أعين على تحصيل الخيرات، ومن ترك المباحات وسع عليه توسعة لا يسعها عقله وأباح له حضرته. ومن ترك استماع ما حُرم عليه أسمعه كلامه.

إن معاصي القلوب أشد خطراً على المسلم من معاصي النفوس، فهوى النفس يرجع لشهواتها الجسمانية كحلاوة المآكل والمشارب والملابس والمراكب والمناكح والمساكن، وهوى القلب هو شهواته المعنوية كحب الجاه والرياسة والعز والمدح والخصوصية والكرامات وحلاوة الطاعات الحسية.

أما علاج النفس فيكون بالفرار من أوطان ذلك والزهد وصحبة الأخيار. وأما علاج هوى القلب إذا تمكن فهو صعب وهو الداء العضال الذي أعجز الأطباء.

يقول ابن عطاء الله في إحدى حكمه: «تمكن حلاوة الهوى من القلب هو الداء العضال». ولا يخرج هذا الداء إلا بما قاله ابن عطاء الله في حكمة أخرى [2]:

«لا يُخرج الشهوة من القلب إلا خوف مزعج أو شوق مقلق».

فالخوف يصرف عن الشهوة، والشوق ينسيك حظوظك ويؤنسك بربك.

إذاً معاصي القلوب تجعل القلب يابساً وجافاً فارغاً من الطاعات.

فمن أحب القيام بحقوق الله، فعليه أن يترك المحرمات، فإنه بذلك يحظى بمحبة الله له، والأفضل من هذا أن يترك المكروهات وهي: الأفعال التي يكون تركها أولى من فعلها وفعلها ليس حراماً، فمن ترك المكروهات لله تعالى وحباً له، فإن العبد يقترب أكثر من ربه ويأنس به أكثر ممن يترك المحرمات فقط.

---

(1) في المطبوع: أكثرت.

(2) إيقاظ الهمم، ابن عجيبة، ص: 281.

ولذلك يكافئه ربه بمزيد من الخيرات التي تنفعه يوم القيامة.

والأفضل من كل ذلك من يترك المباحات قاصداً رضا ربه عليه، فهذا جزاؤه أن يدخل حضرة الله ويطلعه الله على أسراره.

وليس المقصود ترك المباحات بالكلية وإلا فكيف يعيش الإنسان؟ وترك المباحات ينافي كلام الله الذي أباح لنا الأكل من الطيبات بقوله: ﴿كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾[الأعراف: 160].

بل قد تكون المباحات قربات لها ثوابها إذا اقترنت بالنية الصالحة، كالطعام بنية القوة على العمل للدين والدنيا، والنوم قوة على الطاعة، واللباس لستر العورة، وإظهار النعمة لله، وترويح النفس لتجديد قواها. . .

أما إذا كانت هذه الأعمال المباحة دنيئة خالية من نية صالحة فهي هدر لا ثواب بها. وهذا المعنى هو ما يقصده ابن عطاء الله.

وقد تنقلب إثماً إذا اقترنت بنية فاسدة، كالطعام قوة على الشهوة، واللباس تكبراً وهكذا[1]. . . .

ويجمع هذا كله الحديث القدسي الذي يقول فيه الباري سبحانه: «من عادي لي ولياً فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إلي عبدي شيء أحب إلي مما افترضته عليه، وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنتُ سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها، وإن سألني لأعطينه ولئن استعاذني لأعيذنه وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن نفس المؤمن يكره الموت وأنا أكره مساءته»[2].

* * *

(1) آداب النفوس، المحاسبي، ص: 87.

(2) البخاري، كتاب: الرقاق، باب: التواضع، رقم (6021).

مثال القلب كالمرآة

يقول ابن عطاء الله: مثال القلب كالمرأة، ومثال النفس كالنفس كلما تنفست النفس على المرآة سودها.

قلب الفاجر كمرآة العجوز التي ضعفت همتها أن تجلوها وتنظر فيها، وقلب العارف كمرآة العروس كل يوم تنظر فيها، فلا تزال مصقولة.

همة الزاهدين في كثرة الأعمال، وهمة العارفين في تصحيح الأحوال.

القلب موضع نظر رب العالمين، ولذلك قال ﷺ: «إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم» (1).

فيا عجباً لمن يهتم بوجهه الذي هو موضع نظر الخلق، فيغسله وينظفه لئلا يطلع مخلوق فيه على عيب، ولا يهتم بقلبه الذي هو موضع نظر رب العالمين، فيطهره ويزينه ويطيبه كيلا يطلع الله سبحانه على دنسٍ فيه وآفة وعيب، بل يهمله بفضائح وأقذار وقبائح.

ثم يقول ابن عطاء الله: «همة الزاهدين في كثرة الأعمال، وهمة العارفين في تصحيح الأحوال».

تعريف الزاهد:

الزاهد: من الزهد وهو ضد الرغبة ويعني ترك الرغبة في الدنيا والثقة بما عند الله بأن تكون الدنيا في كفه لا في قلبه، فلا تطغيه الدنيا بلذاتها وشهواتها.

---

(1) مسلم في البر والصلة، باب: تحريم ظلم المسلم وخذله... رقم (4651).

تعريف العارف:

والعـارف : من المعرفة وهو المختص بمعرفة الله ومعرفة عظمته وحسن معاملتـه، وهـو الذي أنس بالله فأوحشـه مـن الخلـق، وافتقـر إلى الله فأغنـاه عـنهم، وذلـك لله فـأعزه مـنهم، وتواضع لله فرفعه بينهم، واستغنى بالله فأحوجهم إليه.

فالعارف أعلى درجة وقرباً من الله من الزاهد لأن همة الزاهد في كثرة الأعمال مـع نسـيان آفات القلوب، فربما كانت الأعمال مشوبة بالرياء والعجب.

أما همة العارف فهو تصحيح حال قلبه مع الله، فلا يخـرج مـن قلبـه إلا العمـل الصـالح الخالص له سبحانه.

فاحذر من نفسك فإنها سبب لسواد القلب، ولا تكن غافلاً عن تنظيف قلبـك وجلائـه من هذا السواد، وجلاؤه بالتوبة إلى الله وبطاعته وتنفيذ أوامره.

* * *

أربعة تعينك على جلاء قلبك

يقول ابن عطاء الله: أربعة تعينك على جلاء قلبك: كثرة الذكر، ولزوم الصمت، والخلوة، وقلة المطعم والمشرب.

يرشدنا ابن عطاء الله – رحمه الله- إلى أن جلاء القلب من المعاصي والآفات التي تصيبه يكون بأربعة أشياء:

1- **الذكر**: ذكر الله يخلص القلب من القسوة ومن التعلق بغير الله سبحانه، إن القلوب التي لذكر الله، هي قلوب عرفت الإيمان ولذة القرب وحلاوة الطاعة وعرفت الخشية فذكرت الله، واقشعرت الجلود ثم لانت وهذا من صفات القلوب السليمة التائبة إلى الله قال سبحانه: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٍ﴾ [الزمر: 23].

إن الذاكر لله بلسانه ليس ذاكراً إن لم يكن ذكره من قلبه، واللسان مساعد له. فالقلب الذاكر شعر بعظمة المذكور وخاف منه مما جعله يسعى لإرضائه بطاعته واتباع أوامره.

وبالتالي فالذكر يخلص القلب من شوائب المعاصي والذنوب.

ولذلك جاء هذا التأكيد من الله سبحانه على أهمية الذكر والتكثير منه بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكۡرٗا كَثِيرٗا﴾ [الأحزاب: 41].

واذكروا الله في كل الأوقات والأحوال قال سبحانه: ﴿ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ﴾ [آل عمران: 191].

2ـ لزوم الصمت:

قال الإمام الشافعي:

قالوا سكت وقد خوصمت قلت لهم — إن الجواب لباب الشر مفتاح

الصمت عن جاهل أو أحمق شرفٌ — وفيه أيضاً لصون العرض إصلاح

أما ترى الأسد تخشى وهي صامتة؟! — والكلب يُخسى لعمري وهو نباح

وعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت»[1].

إن لكثرة الكلام محاذير عدة أهمها[2]:

أ. إن كثير الكلام ثقيل الظل غالباً لأنه يحتكر الحديث ويحول بين كثير من الراغبين في الكلام وبين بغيتهم، ويقطع على المتأمل طريق التأمل ويُدخل الضيق على صدور السامعين.

ب. إن كثير الكلام معرض إلى الوقوع في الغلط غالباً لأنه سيخوض في أمور ليس عنده فيها كلها اطلاع كاف.

ج. إن الكلام الكثير غالباً ما يكون سطحياً سخيفاً مكروراً مهما كان صاحبه من النوابغ.

---

(1) سبق تخريجه، ص: 132.

(2) قضايا في الدين والحياة والمجتمع، د. محمد بن لطفي الصباغ، ص: 56 وما بعدها.

إن آفات اللسان كثيرة ومتنوعة ولها في القلب حلاوة، ولا نجاة من خطرها إلا بالصمت، لأن الصمت يجمع الهمة ويفرغ الفكر. لذلك قال ﷺ: «من يضمن لي ما بين لحييه، وما بين رجليه أضمن له الجنة» [1].

وفي حديث معاذ في آخره قال ﷺ: «كُفّ عليك هذا فقلت: يا رسول الله، وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به؟. قال، ثكلتك أمك يا معاذ، وهل يكب الناس في النار على وجوههم، أو قال: على مناخرهم، إلا حصائد ألسنتهم» [2].

وذمَّ النبي ﷺ الثرثار الذي يكثر الكلام بقوله: «إن أبغضكم إلي وأبعدكم مني يوم القيام مساوئكم أخلاقاً الثرثارون المتشدقون[3] المتفيهقون[4]»[5].

3ـ **الخلوة** : وقد سبق الكلام عنها [6].

4ـ **قلة المطعم والمشرب:** فالجوع يكسر النفس، والشبع يهيج البطر ويورث القسوة والثقل والنوم، وفي الجوع قوة الهم والحزن، والهم والحزن يقطعان الشهوة والرغبة [7].

إن شهوة البطن تحدث شهوة الفرج والرغبة في المال ويتبع ذلك آفات كثيرة.

---

(1) سبق تخريجه، ص: 133.

(2) الترمذي في الإيمان عن رسول الله، باب: ما جاء في حرمة الصلاة، رقم (2541) وقال: حسن صحيح. وابن ماجه في الفتن، باب: كف اللسان رقم (3963).

(3) المتشدق: المتكلم بملء الفم إظهاراً للفصاحة.

(4) المتفيهق: الذي يتوسع في الكلام ويفتح به فاه.

(5) الترمذي في البر والصلة، باب: ما جاء في معالي الأخلاق، رقم (1941). وقال: حسن غريب. وأحمد، مسند الشاميين، حديث أبي ثعلبة الخشني، رقم (17066).

(6) انظر، ص: 22. وسيأتي ذكر فوائدها، ص186.

(7) آداب النفوس، المحاسبي، ص: 87.

ولذلك قال ﷺ: «ما ملأ ابن آدم وعاءً شراً من بطنه، بحسب ابن آدم أكلاتٌ يقمن صلبه، فإن كان لا محالة، فثلثٌ لطعامه وثلث لشرابه وثلث لنفسه»[1].

وتجشأ رجل في مجلس رسول الله ﷺ فقال له: «أقصر من جشائك فإن أطول الناس جوعاً يوم القيامة أكثرهم شبعاً في الدنيا»[2].

وقال أبو هريرة: «ما أشبع النبي ﷺ أهله ثلاثة أيام تباعاً من خبز الحنطة حتى فارق الدنيا»[3].

يقول الإمام الغزالي -رحمه الله- شارحاً فوائد الجوع:

«**الفائدة الأولى**: صفاء القلب وإيقاد العزيمة وإنفاذ البصيرة، فإن الشبع يورث البلادة ويعمي القلب ويكثر البخار في الدماغ شبه السكر حتى يحتوي على معادن الفكر فيثقل القلب بسببه عن الجريان في الأفكار وعن سرعة الإدراك. . .

الفائدة الثانية: رقة القلب وصفاؤه الذي به يتهيأ لإدراك لذة المثابرة والتأثر بالذكر، فكم من ذكر يجري على اللسان مع حضور القلب ولكن القلب لا يلتذ به ولا يتأثر حتى كأن بينه وبينه حجاباً من قسوة القلب، وقد يرق في بعض الأحوال فيعظم تأثره بالذكر وتلذذه بالمناجاة، وخلو المعدة هو السبب الأظهر فيه. قال الجنيد: يجعل أحدهم بينه وبين صدره مخلاة من الطعام ويريد أن يجد حلاوة المناجاة»[4].

* * *

(1) الترمذي، الزهد عن رسول الله، ما جاء في كراهية كثرة الأكل، رقم (2302). وقال: حديث حسن صحيح. وابن ماجه، الأطعمة، الاقتصاد في الأكل وكراهة الشبع، رقم (3340). وأحمد، مسند الشاميين، حديث المقداد بن معدي كرب، رقم (16556).

(2) الترمذي في صفة القيامة، رقم (2402) وقال: حسن غريب من هذا الوجه. وانب ماجه في الأطعمة، باب: الاقتصاد في الأكل وكراهة الشبع، رقم (3341).

(3) مسلم في الزهد، رقم (5286).

(4) إحياء علوم الدين: 3/ 125، 126.

القلب أشد تقلباً من القدر إذا غلت

يقول ابن عطاء الله: قال رسول الله ﷺ: «لقلب ابن آدم أشد تقلباً من القدر على النار إذا غلت [1]». فكم من كان في جمع مع الله أتته الفرقة في نفس واحد، وكم من بات في طاعة الله ما طلعت عليه الشمس حتى دخل في القطيعة، فالقلب بمثابة العين، والعين لا ترى بها كلها، بل بمقدار العدسة منها، وكذلك القلب لا يراد منه اللحمانية، بل اللطيفة التي أودعها الله فيه وهي المدركة، وجعل الله القلب معلقاً في الجانب الأيسر. كالدلو، فإن هب عليه هوى الشهوة حركه، وإن هب عليه خاطر التقوى حركه، فتارة يغلب عليه خاطر الهوى، وتارة يغلب عليه خاطر التقى، حتى يعرفك مرة منه ومرة قهره، فمرة يغلب عليه خاطر التقى ليمدحك، ومرة يغلب عليه خاطر الهوى ليذمكن فالقلب بمثابة السقف، فإذا أوقد في البيت نار صعد الدخان إلى السقف فسوده فكذلك دخان الشهوة، إذا نبت في البدن صعد دخانه إلى القلب فسوده.

ما سمي القلب قلباً إلا من التقلب ولذلك قال الشاعر:

ما سمي القلب إلا من تقلبه ... والرأي يضرب بالإنسان أطواراً

فإذا زلَّ القلب –والعياذ بالله– فزلُّ الله عظيم، ووقوعه أصعب، إذ أدناه قسوة وميل إلى غير الله، ومنتهاه ختم بكفر الله تعالى.

فسبب كفر الشيطان هو كبر ملأ قلبه، قال تعالى: ﴿ أَبَىٰ وَٱسۡتَكۡبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾ [البقرة: 34].

وقوله تعالى: ﴿ وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخۡلَدَ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُۚ ﴾ [الأعراف: 176]. فكان الميل واتباع الهوى في قلبه، فحمله على ذلك الذنب المشئوم بنفسه. أما تسمع قوله تعالى: ﴿ وَنُقَلِّبُ أَفۡـِٔدَتَهُمۡ وَأَبۡصَٰرَهُمۡ كَمَا لَمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٖ وَنَذَرُهُمۡ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ ﴾ [الأنعام: 110].

---

(1) أحمد، باقي مسند الأنصار، حديث المقداد بن الأسود، رقم (2699). والحاكم في صحيحه، رقم (3142): 2/ 317.

ولهذا المعنى خاف عباد الله تعالى الخواص على قلوبهم، وبكوا عليها وصرفوا عنايتهم إليها، فقال سبحانه في وصفهم: ﴿ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ﴾ [النور: 37].

من أجل هذا كان من دعائه ﷺ: «يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك» (1).

وعندما سألت السيدة عائشة رضي الله عنها عن سبب إكثار النبي ﷺ من هذا الدعاء. قال: «ليس من قلب إلا هو بين إصبعين من أصابع الرحمن إن شاء أن يقيمه أقامه وإن شاء أن يزيغه أزاغه» (2).

ولهذا كان دعاء المؤمنين: ﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴾ [آل عمران: 8].

والقلب دائماً في صراع بين خاطر الهوى وخاطر التُقى، فإن غلب عليه خاطر التقى فهذا منة سبحانه وإحسان، وإن غلب عليه خاطر الهوى فهذا من قهره سبحانه إذ تجلى عليه سبحانه باسم الجليل والقهار.

وما قضى عليك من الوقوع في الذنوب فعليك أن ترجع إليه تائباً فإن المصائب لها فوائد عظيمة، إذ بها يُعرف الصادق من الكاذب، فإذا تجلى لك سبحانه باسمه القهار فقابله أنت بالذل والعبودية والاستسلام لقضائه، بعد ذلك اسأله سبحانه أن يعينك على خاطر الهوى والتزام سبيل التُقى.

فالعطاء والمنع لمصلحة العبد إذ بكلتا الحالتين يتعرف العبد على خالقه ويرجع إليه، وهذا من رحمة الله وإقباله ولطفه عليه، كما قال ابن عطاء الله في إحدى حكمه: «متى أعطاك

---

(1) الترمذي في القدر عن رسول الله، باب: ما جاء أن القلوب بين أصبعي الرحمن، رقم (2066). وقال: حديث حسن. وابن ماجه في الدعاء، باب: دعاء رسول الله، رقم (3824).

(2) مسلم بألفاظ متقاربة، كتاب: القدر، باب: تصريف الله تعالى القلوب كيف شاء، رقم (4798).

أشهدك بره، ومتى منعك أشهدك قهره، فهو في كل ذلك متعرف إليك ومقبل بوجوه لطفه عليك».

فالعبودية لله تقتضي شكره على النعم والصبر ابتغاء وجهه في الضراء.

القلب بمثابة السقف وحقيقة ذلك:

ثم يقول ابن عطاء الله: «فالقلب بمثابة السقف، فإذا أوقد في البيت نار صعد الدخان إلى السقف فسوده فكذلك دخان الشهوة، إذا نبت في البدن صعد دخانه إلى القلب فسوده».

ومعنى هذا: أن للحسنة نوراً في القلب، وقوة في البدن، وضياء في الوجه، وسعة في الرزق، ومحبة في قلوب الخلق، وإن للسيئة ظلمة في القلب وسواداً في الوجه، ووهناً في البدن، ونقصاً في الرزق، وبغضاً في قلوب الخلق [1].

ويشهد لهذا قوله ﷺ : «إن المؤمن إذا أذنب ذنباً نُكت في قلبه نُكتة سوداء، فإذا تاب ونزع واستغفر صُقل قلبه وإذا زاد زادت حتى تعلو قلبه فذلك الران الذي ذكره الله عز وجل: ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾»[2] [المطففين: 14].

وعن حذيفة بن اليمان –رضي الله عنهما– قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول « تُعرض الفتن [3]. على القلوب كالحصير عوداً عوداً، فأي قلب أشربها [4]. نُكتت فيه نُكتة [5]. سوداء،

---

(1) أمراض القلوب، ابن تيمية، ص: 21.

(2) ابن ماجه في الزهد، باب: ذكر الذنوب، رقم (4234). وأحمد باقي مسند المكثرين، مسند أبي هريرة، رقم (7611).

(3) الفتن: كل ما يعرض للإنسان من مغريات شهوانية ويدخل فيها أنواع الذنوب والمعاصي مما يمتحن تقواه وثباته على دينه سلوكاً واعتقاداً. في ظلال الحديث النبوي، د. نور الدين عتر، ص: 85.

(4) أشربها: تمكنت فيه وحلت كما يحل الشراب في الإناء.

(5) النكتة: البقعة.

وأي قلب أنكرها نُكتت فيه نُكتة بيضاء، حتى تصير على قلبين: على أبـيض مثـل الصـفا فـلا تضره فتنة ما دامت السموات والأرض، والآخر أسود مربادا[1]. كالكوز مجخيـاً[2] ، لا يعـرف معروفاً ولا يُنكر منكراً إلا ما أشرب من هواه»[3].

فالمعاصي سبب لسواد القلب وإنكار المعاصي، والتوبة منها سبب لبياض القلب ونقائـه وهو مثال القلب الممتلئ إيماناً وحباً لله وخوفاً منه سبحانه.

* * *

(1) المرباد: المتغير عن لونه، أو هو لون بين الغبرة والسواد.

(2) مجخياً: منكوساً.

(3) أخرجه مسلم، كتاب : الإيمان، باب: بيان أن الإسلام بدأ غريباً . . ، رقم (207).

مثال القلب إذا أسلمته إلى النفس

يقول ابن عطاء الله: مثال القلب إذا أسلمته [1] إلى النفس كمن تعلق بغريق فغرق كل واحد منهما، ومثال النفس إذا سلمتها إلى القلب كمن أسلم نفسه إلى عوام قوي فسلمها، فلا تكن كمن [2] أسلم قلبه إلى نفسه !، فهل رأيت بصيراً قلد نفسه إلى أعمى يقوده ؟!.

والمقصود بالنفس هنا أي: الأمارة بالسوء فإنها تسيء للقلب إساءة عظيمة إن كانت هي القائدة له. يقول ابن القيم: «ألقى الله سبحانه العداوة بين الشيطان وبين الملك، والعداوة بين العقل وبين الهوى، والعداوة بين النفس الأمارة وبين القلب. وابتلي العبد بذلك وجمع له بين هؤلاء، وأمد كل حزب بجنود وأعوان فلا تزال الحرب سجالاً ودولاً بين الفريقين، إلى أن يستولي أحدهما على الآخر ويكون الآخر مقهوراً معه، فإذا كانت النوبة للقلب والعقل والملك فهنالك السرور والنعيم واللذة والبهجة والفرح وقرة العين وطيب الحياة وانشراح الصدر والفوز بالغنائم، وإذا كانت النوبة للنفس والهوى من الشيطان، فهنالك الغموم والهموم والأحزان وأنواع المكاره وضيق الصدر وحبس الملك» [3].

فالنفس الأمارة تكون سبباً في هلاك القلب، إن أسلم القيادة لها، فسلم نفسك إلى قلبك واجعل النفس تابعة للقلب لأنه منبع الإيمان والصلاح ومنبع العواطف الدافعة والرادعة والممجدة. وإلى هذا أشار ﷺ

---

(1) في المطبوع: سلمته.

(2) في المطبوع: ممن.

(3) الفوائد، ص: 87.

بقوله: «إن في الجسد مضغة، إذا صلحت صلح الجسد كلـه، وإذا فسـدت فسـد الجسـد كله، ألا وهي القلـب»[1]. ولم يـذكر الـنفس دلالـة عـلى أن القلـب هـو المسـيطر عـلى الـنفس والأعضاء.

* * *

---

(1) سبق تخريجه، ص: 164.

الغيرة على القلب والإيمان

يقول ابن عطاء الله: كفى بك جهلاً أن تغار على زوجتك ولا تغار على إيمانك، كفى بك خيانة أن تغار عليها لأجل نفسك ولا تغار على قلبك لأجل ربك، إذا كنت تحفظ ما هو لك، ألا تحفظ ما هو لربك؟!.

الغيرة على المرأة تعني: نوران النفس لإبداء المرأة زينتها ومحاسنها لغيره، أو لانصرافها عنه إلى آخر.

والغيرة على الزوجة أمر حسن إذا لم يجاوز المعقول والمعتاد، وبه يكون الحفاظ على العرض.

لكن ابن عطاء الله ينبهنا إلى ضرورة الغيرة على الإيمان، وبما أن القلب هو منبع الإيمان بدليل قوله تعالى عن الأعراب: ﴿ ۞ قَالَتِ ٱلۡأَعۡرَابُ ءَامَنَّاۖ قُل لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسۡلَمۡنَا وَلَمَّا يَدۡخُلِ ٱلۡإِيمَٰنُ فِي قُلُوبِكُمۡۖ ﴾ [الحجرات: 14] فإن الغيرة تشمل القلب أيضاً.

والغيرة على القلب تعني: ثوران النفس لانصراف القلب إلى التعلق بغير الله سبحانه، كأن يتعلق بالصور والمكونات ويُملأ بحب الدنيا والجاه والرياسة والحقد والحسد. . . الخ.

إن الغيرة هنا هي انصراف القلب إلى الله وحده وملؤه بالحب له والخوف منه وحده سبحانه.

* * *

المؤمن له قلبان يرجو بأحدهما ويخاف بالآخر

قال ابن عطاء الله: قال لقمان الحكيم المؤمن له قلبان يرجو بأحدهما ويخاف بالآخر، يرجو قبول عمله، ويخاف ألا يقبل منه، ولو وزن خوف المؤمن ورجاؤه لاعتدلا، ومن أراد الجمع على الله فعليه القيام بأوامر الله.

ما خرب القلوب إلا قلة الخوف:

قال الإمام النووي رحمه الله: «اعلم أن المختار للعبد في حال صحته أن يكون خائفاً راجياً، ويكون خوفه ورجاؤه سواه، وفي حال المرض يمحض الرجاء» [1].

أي في حال المرض واقتراب الموت يغلب الرجاء على الخوف.

خوف القلب: تعريفه وحقيقته:

1ـ **الخوف** : وهو رعدة تحدث في القلب عن ظن مكروه يناله، والخشية نحوه لكن الخشبة تقتضي ضرباً من الاستعظام والمهابة.

ومقدمات الخوف أربع ذكرها الإمام الغزالي [2]. وهي:

الأولى: ذكر الذنوب الكثيرة التي سبقت، وكثرة الخصوم الذين مضوا في المظالم وأنت مرتهن لم يتبين لك الخلاص بعد.

والثانية: شدة عقوبة الله سبحانه، والتي لا طاقة لك بها.

والثالثة : ذكر ضعف نفسك عن احتمالها.

والرابعة : ذكر قدرة الله تعالى عليك متى شاء وكيف شاء.

---

(1) رياض الصالحين، النووي، ص: 179.

(2) منهاج العابدين، ص: 154.

أما الآيات الدالة على الخوف فكثيرة منها قوله تعالى: ﴿ يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ ﴾ [الزمر: 16].

وقوله تعالى: ﴿ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴾ [القيامة: 36].

وقوله سبحانه: ﴿ وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ ﴾ [الزمر: 47].

وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴾ [البروج: 12]. وقوله سبحانه: ﴿ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [آل عمران: 28]. وقوله تعالى: ﴿ يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴾ [عبس: 34 - 37].

وأما الأحاديث فكثيرة أذكر منها:

- قوله ﷺ: «يؤتى بجهنم يومئذ لها سبعون ألف زمام، مع كل زمام سبعون ألف ملك يجرونها»[1].

- عن النعمان بن بشير، رضي الله عنهما، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن أهون أهل النار عذاباً يوم القيامة لرجل يُوضع في أخمص قدميه جمرتان يُغلي منهما دماغه ما يرى أن أحداً أشد منه عذاباً، وإنه لأهونهم عذاباً»[2].

- عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «يعرق الناس يوم القيامة حتى يذهب عرقهم في الأرض سبعين ذراعاً، ويلجمهم حتى يبلغ آذانهم»[3].

(1) مسلم في الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب: في شدة حر نار جهنم . . . ، رقم (5076).

(2) البخاري في الرقاق، باب: صفة الجنة والنار، رقم (6076). ومسلم في الإيمان، باب: أهون أهل النار عذاباً، رقم (313).

(3) البخاري في الرقاق، قول الله تعالى: ﴿ أَلَا يَظُنُّ أُو۟لَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ﴿٤﴾ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ ، رقم (6051).

- وعنه قال: كنا مع رسول الله ﷺ، إذ سمع وجبة[1]. فقال: «هل تدرون ما هـذا؟ قلنـا: الله ورسوله أعلم. قال: هذا حجر رمي به في النار منذ سبعين خريفاً فهـو يهـوي في النـار الآن حتى انتهى إلى قعرها، فسمعتم وجبتها»[2].

- وعن أبي سعيد الخدري، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «كيف أنعم [3]. وصاحب القرن (الصور) قد التقم القرن، واستمع الإذن متى يُـؤمر بـالنفخ فيـنفخ» فكـأن ذلـك ثقـل عـلى أصحاب رسول الله ﷺ، فقال لهم: «قولوا: حسبنا الله ونعم الوكيل» [4].

رجاء القلب: تعريفه وحقيقته:

2ـ **الرجاء** : هو ابتهاج القلب بمعرفة فضل الله سبحانه، واستروا‌حه إلى سـعة رحمـة الله تعالى. وضده اليأس وهو: تذكر فوات رحمة الله وفضله وقطع القلب عن ذلك.

ومقدمات الرجاء أربع:

الأولى: ذكر سوابق فضل الله إليك.

والثانية: ذكر ما وعد الله من جزيل ثوابه وعظيم كرامته على حسب فضله وكرمه دون استحقاقك إياه بالفعل.

والثالثة: ذكر كثرة نعمة الله عليك في أمر دينك ودنياك في الحـال، مـن أنـواع الإمـداد والألطاف من غير استحقاق أو سؤال.

---

(1) وجبة: سقطة.

(2) مسلم في الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب: في شدة حر نار جهنم. . ، رقم (5078).

(3) أنعم: أطيب عيشاً.

(4) الترمذي: في صفة القيامة والرقائق والورع عن رسول الله، باب: ما جاء في شأن الصور، رقـم (2355)، وقال: حديث حسن.

والرابعة: ذكر سعة رحمة الله تعالى وسبقها غضبه، وأنه الرحمن الرحيم، الغني الكريم الرءوف بعباده المؤمنين[1].

- أما آيات الرجاء فكثيرة منها:

- قوله تعالى: ﴿ ۞ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾[الزمر: 53].

قوله تعالى: ﴿ وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ ﴾[سبأ: 17]. والكفور: البليغ في الكفر أي هل يجازى بالعذاب إلا شديد الكفر، أما المؤمن منهم فهو في مأمن من ذلك.

- قوله تعالى: ﴿ إِنَّا قَدْ أُوحِىَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴾ [طه: 48].

- قوله تعالى: ﴿ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ ﴾[الأعراف: 156].

قوله تعالى: ﴿ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۚ ﴾ [الأنعام: 12].

ومن الأحاديث ما يأتي:

- عن عبادة بن الصامت، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، وأن عيسى عبد الله ورسوله، وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، والجنة والنار حق، أدخله الله الجنة على ما كان من العمل»[2].

وفي رواية لمسلم: «أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، حرم الله عليه النار».

- وعن أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ ومعاذٌ رديفه على الرحل قال: «يا معاذ قال: لبيك يا رسول الله وسعديك، قال: يا معاذ، قال: لبيك يا رسول الله وسعديك. قال: يا معاذ. قال: لبيك يا

---

(1) منهاج العابدين، الغزالي، ص: 154، 155.

(2) البخاري في أحاديث الأنبياء، قوله: ﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ ﴾ رقم (3180)، ومسلم في الإيمان، الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة قطعاً، رقم (41).

رسول الله وسعديك ثلاثاً، قال: ما من عبد يشهد أن لا إله الله وأن محمداً عبده ورسوله صدقاً من قلبه إلا حرمه الله على النار. قال: يا رسول الله أفلا أخبر بها الناس فيستبشروا؟ قال: إذاً يتكلوا. فأخبر بها معاذ عند موته تأثماً»[1].

ومعنى تأثماً: أي خوفاً من الإثم في كتم العلم لقوله ﷺ: «من كتم علماً مما ينفع الله به في أمر الناس أمر الدين ألجمه الله يوم القيامة بلجام من نار»[2].

إن الأحاديث ليست على عمومها ويجب الحذر من الفهم الخاطئ لها. ولذلك قال الطيبي تعليقاً على قوله ﷺ: «صدقاً» في الحديث السابق: أقيم الصدق هنا مقام الاستقامة، لأن الصدق يُعبر به قولاً عن مطابقة القول المخبر عنه، ويعبر به فعلاً عن تحري الأخلاق المرضية، وقال الحافظ ابن حجر: وأراد بهذا التقرير رفع الإشكال عن ظاهر الخبر، لأنه يقتضي عدم دخول جميع من شهد الشهادتين النار لما فيه من التعميم والتأكيد، ولكن دلت الأدلة القطعية عند أهل السنة على أن طائفة من عصاة المؤمنين يُعذبون ثم يخرجون من النار بالشفاعة، فعُلم أن ظاهره غير مراد، فكأنه قال: إن ذلك أي تحريم النار مقيد بمن عمل الأعمال الصالحة، وأجاب بعضهم بأن مطلقه مقيد بمن قالها تائباً، ثم مات على ذلك، أو أن المراد بتحريمه على النار تحريم خلوده فيها لا أصل دخولها، وقوله يتكلوا: أي يمتنعوا من العمل اعتماداً على ما يتبادر من ظاهره»[3].

لذلك قال ابن عطاء الله في إحدى حكمه: «الرجاء ما قارنه عمل وإلا فهو أمنية».

---

(1) البخاري في العلم، باب: من خص بالعلم قوماً دون قوم كراهية أن لا يفهموا، رقم (125). ومسلم في الإيمان، باب: الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة قطعاً، رقم (47).

(2) ابن ماجه في المقدمة، باب: من سئل عن علم فكتمه، رقم (261).

(3) رياض الصالحين، النووي، ص: 168.

فالرجاء الكاذب هو الذي يفتر صاحبه عن العمل، ويجرئه على المعاصي والذنوب فهذا يُسمى «أمنية» واغتراراً بالله تعالى.

وقد ذم الله قوماً ظنوا مثل هذا وأصروا على حب الدنيا وتمنوا المغفرة على ذلك فسماهم الله «خلفاً» والخلف: الرديء من الناس، فقال عز وجل: ﴿ فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٞ وَرِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ يَأۡخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلۡأَدۡنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغۡفَرُ لَنَا ﴾[الأعراف: 169].

وفي الحديث قال ﷺ: «الكيس [1]. من دان نفسه وعمل لما بعد الموت والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأماني» [2].

الجمع بين الخوف والرجاء:

وأدلة ذلك من القرآن قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ لَفِي نَعِيمٖ ۝١٣ وَإِنَّ ٱلۡفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٖ ﴾ [الانفطار:13- 14].

- وقوله تعالى: ﴿ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتۡ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٦ فَهُوَ فِي عِيشَةٖ رَّاضِيَةٖ ۝٧ وَأَمَّا مَنۡ خَفَّتۡ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٨ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٞ ۝٩ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا هِيَهۡ ۝١٠ نَارٌ حَامِيَةُۢ ﴾[القارعة: 6-9].

- وقوله تعالى: ﴿ ۞ نَبِّئۡ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝٤٩ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلۡعَذَابُ ٱلۡأَلِيمُ ﴾[الحجر: 49 – 50]. وهذا كيلا يستولي على العبد الرجاء فأتبع المغفرة والرحمة بالعذاب الأليم.

- وقوله تعالى ﴿ شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ ذِي ٱلطَّوۡلِۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ إِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ﴾[غافر: 3].

فأتبع الخوف والعقاب بالفضل والإنعام وهو معنى قوله تعالى: ذي الطول.

---

(1) الكيس: العاقل المتبصر في الأمور الناظر في العواقب.

(2) الترمذي في صفة القيامة والرقائق والورع، رقم (2283).

وأعجب آيات الجمع بين الرجاء والخوف قوله تعالى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾[آل عمران: 30]. ثم قال في عقبه: ﴿وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾[آل عمران: 30].

وأعجب منه قوله سبحانه: ﴿مَّنْ خَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ﴾[ق: 33] وإذ علق الخشية باسم الرحمن دون اسم الجبار والمنتقم والمتكبر؛ لتكون الخشبة مع ذكر الرحمة كقولك: أما تخشى الوالدة الرحمة؟.

أما تخاف الوالد المشفق؟ وسبب ذلك أن يكون الطريق عدلاً، فلا تذهب إلى أمن ولا قنوط.

ومن الأحاديث الدالة على ذلك ما يأتي:

- ما رواه أبو هريرة ﵁ أن رسول الله ﷺ قال: «لو يعلم المؤمن ما عند الله من العقوبة، ما طمع بجنته أحد، ولو يعلم الكافر ما عند الله من الرحمة، ما قنط من جنته أحد» [1].

- وعن ابن مسعود ﵁، قال: قال رسول الله ﷺ: «الجنة أقرب إلى أحدكم من شراك نعله[2]. والنار مثل ذلك» [3].

هل يغلب الرجاء أم الخوف؟

ذكرت قول الإمام النووي أن المختار للعبد في حال صحته أن يكون خائفاً راجياً كجناحي الطائر، إذ لو وزن – كما يقول ابن عطاء الله – خوف المؤمن ورجاؤه لاعتدلا.

وهذه حال التقي الذي ترك ظاهر الإثم وباطنه فالأصل له أن يعتدل خوفه ورجاؤه.

أما أكثر الخلق فالخوف لهم أصلح من الرجاء، لأجل غلبة المعاصي.

(1) مسلم، التوبة، في سعة رحمة الله تعالى وأنها سبقت غضبه، رقم (4948).

(2) شراك النعل: أحد سيور النعل التي تكون في وجهها.

(3) البخاري، الرقاق، الجنة أقرب إلى أحدكم من شراك نعله والنار مثل ذلك، رقم (6007).

أما في حالة المرض المؤثر على العمل، وحالة الإشراف على الموت فالأصلح غلبة الرجاء وحسن الظن، لأن الخوف باعث على العمل وقد انقضى في هذه الحالات وقت العمل. فالمريض مرضاً مزمناً والمشرف على الموت لا يقدر على العمل ثم لا يطيق أسباب الخوف، لأن ذلك يعين على تعجيل موته، وأما الرجاء فإنه يقوي قلبه ويحبب إليه ربه الذي إليه رجاؤه، فلا ينبغي أن يفارق أحد الدنيا إلا محباً لله، فإن من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه [1].

ولذلك حثنا النبي ﷺ على حسن الظن بالله تعالى وخاصة عند الموت فقال: «لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن بالله الظن» [2].

* * *

(1) إحياء علوم الدين، الغزالي: 4/ 240.

(2) مسلم في الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب: الأمر بحسن الظن بالله تعالى عند الموت، رقم (5124).

أمثلة القلوب

يقول ابن عطاء الله: من أراد أن ينظر إلى أمثلة القلوب، فلينظر إلى الديار: فدارٌ خربت وقد بقيت مبولة للبوالين، وقلب كالدار العامرة، وقلب كالدار الخراب.

مثال آخر لأحوال القلوب فالقلب الخرب هو قلب امتلأ بالنفاق والزيغ والغيظ والقوة والغفلة والحقد والغل وكل ذلك بسبب حب الدنيا.

والقلب العامر هو قلب امتلأ بالإيمان والخشوع والسكينة والتقوى والرأفة والرحمة والاطمئنان والانشراح والخوف من الله.

وعلى قدر الإيمان يكون الخراب والعمار.

أمثلة القلوب العامرة السليمة:

أـ القلب الخاشع: الذي يخشع لذكر الله والحق، قال تعالى: ﴿ ۞ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴾ [الحديد: 16].

بـ القلب الساكن: الذي لا يعرف التردد ولا الاضطراب بل يرجع الأمور كلها لله سبحانه فيعلم أنه كما قال ﷺ: «واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك رُفعت الأقلام وجفت الصُحف»[1].

عندما يعلم القلب ذلك لا يخاف من أحد إلا منه سبحانه فتكون السكينة والاطمئنان التي تكون عوناً للمسلم على تحمل الشدائد والمصائب.

قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓاْ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ۗ ﴾[الفتح: 4].

---

(1) الترمذي، صفة القيامة والرقائق والورع عن رسول الله، رقم (2440).

جـ القلب التقي: هو قلب يراقب الله في كل أموره ويعظم شعائره قال سبحانه: ﴿ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴾[الحج: 32].

د- القلب الطاهر: هو قلب تخلص من أدران الرذيلة ومن شوائب الشهوات والأهواء بل كان هواء تبعاً لما جاء به المصطفى ﷺ عن ربه، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتَ ٱلنَّبِىِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُوا۟ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُوا۟ وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْ ۖ وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْىِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ۚ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ ۚ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا۟ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓا۟ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا ﴾[الأحزاب: 53].

وبالمقابل فإن الله لم يطهر قلوب الكافرين بل أبقاها قلوباً مريضة لأن الإيمان لم يدخلها أصلاً فقال: ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ ۛ وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ ۛ سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ ۖ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَٱحْذَرُوا۟ ۚ وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [المائدة : 41].

د- القلب المنيب: العائد إلى ربه المعترف بتقصيره التائب من ذنبه، قال عز وجل: ﴿ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ مَّنْ خَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴾[ق: 32- 33].

أمثلة القلوب السقيمة:

أما أمثلة القلوب الخربة والسقيمة فأذكر ما يأتي:

أ- القلب المريض : مريض بالشرك والكفر والنفاق والغفلة. . . إلخ قال تعالى واصفاً المنافقين: ﴿ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴾[البقرة: 10].

ب- القلب المنافق : هو القلب الذي يظهر شيئاً ويبطن خلافه كان يظهر الإيمان ويبطن الكفر، ويظهر النصح ويبطن الحقد والحسد. قال تعالى عقاباً للمنافقين: ﴿ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴾[التوبة: 77].

ج. القلب الزائغ: هو قلب عرف الحق وتركه كبراً ونفاقاً قال سبحانه: ﴿ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۡهُ ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٞۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٞ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦۖ وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴾ [آل عمران: 7].

وقال سبحانه: ﴿ فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡۚ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴾[الصف: 5].

ولذلك فإن المؤمن يتوجه إلى الله تعالى أن يثبته على الحق فلا يزغ عنه، قال تعالى عن دعاء المؤمنين: ﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغۡ قُلُوبَنَا بَعۡدَ إِذۡ هَدَيۡتَنَا وَهَبۡ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحۡمَةًۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡوَهَّابُ ﴾[آل عمران: 8].

د. القلب الغائظ: والغيظ شعور بالغضب الشديد من إساءة الغير وهي من صفات المنافقين والكافرين حيث يغتاظ القلب من المؤمنين ولا يتمنى لهم الخير، قال تعالى: ﴿ قَٰتِلُوهُمۡ يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ بِأَيۡدِيكُمۡ وَيُخۡزِهِمۡ وَيَنصُرۡكُمۡ عَلَيۡهِمۡ وَيَشۡفِ صُدُورَ قَوۡمٖ مُّؤۡمِنِينَ ﴾ [التوبة: 14- 15].

هـ. القلب المطبوع: هو الذي ختم الله عليه بعد استمراره بالنفاق والكفر والغفلة وإهمال علاجه، إنه عقاب من الله بسبب الإصرار على المعصية قال تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَسَمۡعِهِمۡ وَأَبۡصَٰرِهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ ﴾[النحل: 108].

و. القلب القاسي: وهو عقاب من الله لمن عرف الحق فحاد عنه ولمن رأى المعجزات والآيات فلم يتحرك الإيمان في قلبه، فهو مرض خطير وهو من صفات المنافقين والكافرين، قال تعالى واصفاً حال اليهود: ﴿ فَبِمَا نَقۡضِهِم مِّيثَٰقَهُمۡ لَعَنَّٰهُمۡ وَجَعَلۡنَا قُلُوبَهُمۡ قَٰسِيَةٗۖ يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَنَسُواْ حَظّٗا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦۚ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٖ مِّنۡهُمۡ إِلَّا قَلِيلٗا مِّنۡهُمۡۖ فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ وَٱصۡفَحۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾[المائدة: 13].

ثم يهدد الله أصحاب القلوب القاسية بقوله تعالى: ﴿ أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٖ مِّن رَّبِّهِۦۚ فَوَيۡلٞ لِّلۡقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ﴾[الزمر: 22].

إبليس يهوى القلوب الخربة:

فإذا كان القلب فارغاً من الخوف اللازم، والحزن الدائم، فهو حينئذ قلب خرب، ينفث فيه إبليس بالوسوسة لآمال الدنيا، والجمع لها، مخافة فقرها، مع لزوم طول الأمل لقلبك، وإعراضه عن الله تعالى، وانقطاع مراد عظمة الله منه، وفراغه من الهيبة والحياء منه. فإذا وجد القلب عامراً خنس، ونفر منه، ولم يجد فيه مساغاً، ولا من جوانبه مدخلاً، لأن القلب عامر بالخوف والأحزان والفكر، فهو منير مضيء يرى العبد بنور قلبه مداخل إبليس، فيرميه بالإنكار لما يدعوه إليه، ويعتصم بما أيده الله به من نور قلبه، فيدحره (يهزمه) فولى الخبيث إلى قلب قد فقد الخوف، فخرب وأظلم، فلا نور فيه.

. . ولا شيء أعجب إلى إبليس من ظلمة القلب وسواده، وانطفاء نروه، وتراكب الرين عليه، ولا شيء أثقل على الخبيث من النور والبياض والنقاء والصفاء، وإنما مأواه الظلمة، وإلا فلا مأوى له ولا قرار في النور والبياض[1].

ومن النور ذكر الله عز وجل لذلك ورد في الحديث أن الشيطان إذا سمع ذكر الله أدبر وله حصاص[2].

وحديث أبي هريرة عند البخاري حين قبض على الجني يسرق من تمر الصدقة، فطلب منه الجني أن يتركه على أن يعلمه كلمات لا يجتمع معها جني أبداً، وهي آية الكرسي[3]. وآية الكرسي ما هي إلا ذكر الله ؟!

* * *

(1) آداب النفوس والمحاسبي، ص: 40، 41.

(2) البخاري، الأذان، فضل التأذين، رقم (573)، ومسلم، الصلاة، فضل الأذان وهرب الشيطان عند سماعه، رقم (583).

(3) البخاري في بدء الخلق، باب: صفة إبليس وجنوده، رقم (3033).

مثال الجوارح كالسواقي تجري إلى القلب

يقول ابن عطاء الله: ما مثالك إلا كالبصلة إذا قُشّرت خرجت كلها قشور.

إذا أردت تنظيف الماء قطعت عنه أسبابه الخبيثة، فمثال الجوارح كالسواقي تجري إلى القلب، فإياك أن تسقي قلبك بالرديء، كالغيبة والنميمة والكلام السيئ والنظر إلى ما لا يحل وغير ذلك، فإن القلب لا يحجبه ما خرج منه، وإنما يحجبه ما أقام [1]. فيه، فاستنارة القلب: بأكل الحلال والذكر وتلاوة القرآن وصونه عن النظر إلى الكائنات المباحات والمكروهات والمحرمات، فلا تُطلق صائد بصرك إلا لمزيد علم أو حكمة، عوض ما تقول: هذه المرآة صدئت، قل: عيني بها رمد !.

هذا النوع من المسلمين ما أكثره في مجتمعنا، يهتمون بالقشور وينسون اللب، مع أن اللب هو الأصل، والقشر يرمى ولا يؤكل.

إن المصيبة هي اهتمام الناس بالعبادات الظاهرة من أعمال الجوارح ونسيان تقوى القلوب. فالعمل الظاهر لا يفيد شيئاً حين يكون القلب غافلاً، قال ﷺ: «إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم» [2].

أو تقول: العلم قشر والعمل لب وماذا يفيد القشر من دون لب، وماذا يفيد العلم من دون العمل به؟!.

ثم يضرب لنا ابن عطاء الله مثالاً للقلب مع الجوارح، فإن الجوارح قد تسيء إلى القلب وتحجبه عن الله سبحانه وإن كان هو القائد لها، ولكنها كالسواقي تصب في القلب، فإن كانت الساقية نجسة تنجس القلب بها.

ومن هذه النجاسات المعنوية:

---

(1) في المطبوع، ما قام.

(2) سبق تخريجه ص 168.

- **الغيبة**: وهي ذكرك أخاك بما يكره.

- **النميمة**: وهي نقل الكلام من القائل إلى المقول فيه على سبيل الإفساد.

- **الكلام السيئ**: لأنه يعبر عن التكبر والحقد والحسد.

- **النظر إلى ما لا يحل**: فإنه مخالفة لأمر الله بقوله تعالى: ﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُواْ فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ ... ﴾[النور: 30 - 31] وكمثال على تأثير هذه المعاصي على القلب قوله ﷺ: «النظر سهم من سهام إبليس من تركها أورثه الله إيماناً يجد حلاوته في قلبه»[1].

كيف يستنير القلب:

ثم بين لنا ابن عطاء الله أن استنارة القلب تكون بما يأتي:

أ- أكل الحلال من الطعام: بأن يكون من كسب طيب خال من الشبهات فإن الله سبحانه يبارك في الرزق الحلال، على عكس الرزق الحرام فإنه ممحوق البركة، قال ﷺ لسيدنا سعد بن معاذ: «يا سعد ! أطب مطعمك تكن مستجاب الدعوة، والذي نفس محمد بيده إن العبد ليقذف اللقمة الحرام في جوفه ما يُتقبل منه عمل أربعين يوماً، وأيّما عبد نبت لحمه من السحت والربا فالنار أولى به»[2] .

ب- الذكر: فإن الذكر ينور القلب لدوام تذكر الله سبحانه واستشعار عظمته، فإن القلب يطمئن بذكر الله كما قال سبحانه: ﴿ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴾ [الرعد: 28]. والقلب يخاف إذا ذكر الله فيكون سبباً للاستقامة والابتعاد عن المعاصي، قال عز وجل: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾[الأنفال: 2].

---

(1) سبق تخريجه، ص: 30.

(2) خرجه الطبراني في الأوسط، رقم (6495): 6/ 311. قال في مجمع الزوائد: وفي الحديث من أ لم أعرفهم: 10/ 291.

فالقلب يطمئن على الرزق أنه من عند الله فلا يشكك في ذلك بل يأخذ بالأسباب كما أمره الله، أما النتائج فهي بيد الله وهكذا في كل أموره. والقلب يخاف على مصيره يوم القيامة فيسعى لإصلاح نفسه والإخلاص في عبادته لله عز وجل وبذلك يتنور القلب بطاعة ربه وتوكله عليه. وقد ضرب النبي ﷺ لنا مثلاً لمن يذكر ربه ومن لا يذكر ربه مثل الحي والميت»[1].

جـ تلاوة القرآن: فإن القرآن كلام الله سبحانه، والقلب الذي ليس فيه شيء من القرآن كالبيت الخرب.

فالذي يقرأ القرآن يشعر بجلال الله سبحانه ونعمه وعظمته في مكوناته والقرآن شفاء لما في الصدور، قال تعالى: ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴾ [الإسراء: 82]. وشفاء لمن في قلبه أمراض الشبهات والشهوات، ففيه من البينات ما يُزيل الحق من الباطل: فيزيل أمراض الشبهة المفسدة للعلم والتصور والإدراك بحيث يرى الأشياء على ما هي عليه، وفيه من الحكمة والموعظة الحسنة بالترغيب والترهيب والقصص التي فيها عبرة ما يوجب صلاح القلب، فيرغب القلب فيما ينفعه ويرغب عما يضره، فيبقى القلب محباً للرشاد مُبغضاً للغي بعد أن كان مريداً للغي مبغضاً للرشاد.

فالقرآن مزيل للأمراض الموجبة للإرادات الفاسدة حتى يصلح القلب فتصلح إرادته ويعود إلى فطرته التي فطر عليها، كما يعود البدن إلى الحال الطبيعي، ويغتذي القلب من الإيمان والقرآن بما يزكيه ويؤيده كما يغتذي البدن بما ينميه ويقومه، فإن زكاة القلب مثل نماء البدن[2].

د- صون النظر إلى الكائنات المباحات والمكروهات والمحرمات:

أي استعمال النظر بما يرضي الله سبحانه وهذا هو شكر العين أما النظر إلى المباحات فليس بحرام، لكنه عندما يُلهي عن فرائض الله ويؤخر عن الصلاة مثلاً ويُشغل القلب به عندئذ يصبح صون النظر عنه أفضل.

---

(1) البخاري في الدعوات، باب: فضل ذكر الله عز وجل، رقم (5928).

(2) أمراض القلوب وشفاؤها، ابن تيمية، ص: 13، 14.

إذاً صلاح القلب هو حياته واستنارته، قال تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾[الأنعام: 122].

وقال تعالى: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَى نُورٍ﴾[النور: 35].

فهذا مثل نور الإيمان في قلوب المؤمنين ثم قال: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٣٩) أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ﴾[النور: 39- 40].

فهذا مثل ظلمة المعاصي والذنوب في قلوب الكافرين.

ثم يقول ابن عطاء الله: «عوض ما تقول هذه المرآة صدئت، قل: عيني بها رمد».

فكل ما في هذا الوجود يدل على الخالق عز وجل:

وفي كل شيء له آية تدل على أنه الواحد

إن الشمس لا ينكر وجودها أحد، ولكن من كان بعينه عور أو مرض فهو الذي لا يبصر الشمس؟!. وهذه المكونات تدل على المكون.

إذاً الحقائق موجودة لكن العيب منا نحن، الرمد بعيوننا أما المرآة فإنها بيضاء نظيفة فلماذا ندعي أنها قد صدئت، لماذا لا نقول عيوننا بها رمد؟!.

* * *

مرض القلب وعلاجه

يقول ابن عطاء الله: من مرض قلبه منع أن يلبس لباس التقوى، فلو صح قلبك من مرض الهوى والشهوة تحملت أثقال التقوى، فمن لم يجد حلاوة الطاعة دل على مرض قلبه من الشهوة، وقد سمى الله تعالى الشهوة مرضاً، بقوله تعالى: ﴿ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ ﴾ [الأحزاب: 32].

ولك في علاجه طريقان: استعمال ما هو لك نافع وهو الطاعة، واجتناب ما هو لك مضر، وهو المعصية، فإن فعلت ذنباً وأعقبته بالتوبة والندم والانكسار والإنابة كان ذلك سبب وصلتك به، وإن فعلت طاعةً فأعقبتها بالعجب والكبر كان ذلك سبب القطيعة عنه.

للقلوب أمراض كما للأجساد أمراض، ومرض القلب هو: نوع فساد يحصل له يُفسد به تصوره وإرادته: فتصوره بالشبهات التي تعرض له حتى لا يرى الحق أو يراه على خلاف ما هو عليه، وإرادته بحيث يبغض الحق النافع ويحب الباطل الضار.

فلهذا يُفسر المرض تارة بالشك والريب كما فسر مجاهد وقتادة قوله تعالى: ﴿ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾[البقرة: 10]. أي: شك.

وتارة يفسر بشهوة الزنى كما فسر به قوله تعالى: ﴿ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ ﴾ [الأحزاب: 32] [1].

وعلاج القلب المريض يكون: بالتخلي عن الاعتقادات الفاسدة والأعمال التي تغضب الله سبحانه، والالتزام بطاعته وأوامره عز وجل، فإن ترك الفواحش والمعاصي يزكو به القلب، فإنها بمنزلة الأخلاق الرديئة في البدن، فإذا استفرغ البدن من الأخلاق الرديئة كاستخراج الدم الزائد تخلصت القوة الطبيعية واستراحت فينمو البدن.

---

(1) أمراض القلوب، ابن تيمية، ص: 10.

فمن أذنب ذنباً فليسرع بالتوبة والإنابة والذل والانكسار، فإنها سبب الوصول إلى الله وأول مقامات السائرين إليه، وإن فعلت طاعة فإياك أن تغتر بها وتمتلئ عجباً وكبراً فإن ذلك من أسباب القطيعة عن الله عز وجل.

* * *

علاج القلب من الهوى أفضل ممن يكثر الصلاة والصيام

يقول ابن عطاء الله: كثرة العمل مع عدم الحسن فيه كالثياب الكثيرة الوضيعة الثمن، وقلة العمل مع حسنه كالثياب القليلة الرفيعة الثمن، كالياقوتة: صغير حجمها[1] كثير ثمنها، فمن اشتغل[2] قلبه بالله وعالجه مما يطرأ عليه من الهوى، كان أفضل ممن يُكثر من الصلاة والصوم.

الحسن في العمل والطاعات هو الإخلاص فيها، بأن يبتغي بها رضا الله فقط، ولا تكون فيها أي شائبة من شوائب الرياء والسمعة وحب مدح الناس والخوف من ذمهم، فهذه الشوائب هفي في الحقيقة أمراض في القلب بسبب اتباع الهوى يجب التخلص منها، لذلك كان من يطهر قلبه من هذه الأمراض وإن قل عمله خير ممن لا يطهر قلبه ويكثر من العمل لأن العمل القليل المقبول عند الله أفضل من العمل الكثير غير المقبول قال تعالى: ﴿إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلۡعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرۡفَعُهُۥۚ وَٱلَّذِينَ يَمۡكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞۖ وَمَكۡرُ أُوْلَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ﴾ [فاطر: 10].

هب أنك ترغب في تقديم هدية لرجل ساعدك كثيراً فأيها أفضل أن تهديه ثياباً كثيرة حقيرة الثمن. أم تهديه ثوباً رفيع الثمن أو ياقوتة حجمها صغير لكن ثمنها كبير. من الواضح أن الياقوتة تدخل السرور والرضا في قلب المهدي أكثر من الثياب الكثيرة الوضيعة الثمن.

* * *

(1) في المخطوط: جرمها.

(2) في المخطوط: من أشغل.

عزلة القلب

ما نفع شيءٌ، مثل عزلة يدخل بها ميدان فكرة، كيف يُشرق قلب صور الأكوان منطبعةٌ في مرآته أم كيف يرحل إلى الله وهو منكب على شهواته، أم كيف يطمع أن يدخل حضرة الله وهو لم يطهر من جنابة غفلاته، أم كيف يرجو أن يفهم دقائق الأسرار وهو لم يتب من هفواته؟.

هذه إحدى الحكم العطائية.

يركز ابن عطاء الله في هذه الفقرة على ضرورة اتخاذ الإنسان ساعات من العزلة بين الحين والآخر، يخلو فيها إلى نفسه.

وقد جاءت كلمة (عزلة) منكرة، ولم يعبر بكلمة (العزلة) معرفة وبين النكرة والمعرفة فرق دقيق المعنى.

كلمة (عزلة) منكرة تدل على التقليل، بينما المعرفة بـ «أل» تدل على التكثير. فعندما يقول: «ما نفع القلب مثل عزلة» يعني مثل شيء من العزلة الدائمة. وهو إنما يريد التنبيه إلى أن المشروع والمطلوب إنما هو شيء من العزلة لا أن يتخذ الإنسان منها منهجاً لحياته كلها، فيبتعد عن المجتمع ويقصي نفسه عن الدنيا في كهف من الغربة والابتعاد عن الناس وشؤونهم.

إن هذا الثاني يتنافى مع الفطرة الإنسانية، إذ الإنسان اجتماعي بطبعه [1].

إذاً ما نفع القلب شيء يطهره من الغفلة مثل عزلة عن الخلق يتفكر فيها في مخلوقات الله عز وجل، وفي الحديث قال ﷺ: «تفكر ساعة خير من عبادة سبعين سنة» [2].

---

(1) الحكم العطائية: شرح وتحليل د. محمد سعيد رمضان البوطي: 1/ 169.

(2) قال في كشف الخفاء: ذكره الفاكهاني بلفظ: «فكر ساعة» وقال إنه من كلام سري السقطي. وذكره في الجامع الصغير بلفظ: فكر ساعة خير من عبادة سنين سنة: 10/ 270.

لأن التفكر يوصل إلى معرفة حقائق الأشياء، وتزداد به معرفة الله سبحانه، ويكتشف به خفايا آفات النفس ومكائد الشيطان وغرور الدنيا.

وقد تكون العزلة بالقلب والقالب، بأن يبتعد الإنسان عن الخلق. وقد تكون بالقلب فقط، بأن يختلط معهم مع تعلق القلب بالحق سبحانه، لذلك قالوا: «كن ظاهراً مع الخلق باطناً مع الحق».

لكن مراد ابن عطاء الله هو المعنى الأول إذ لا ينفرد القلب غالباً إلا إذ ابتعد صاحبه عن الخلق.

إن الابتعاد عن الناس بعزلة يتفكر فيها يشبه الحمية بالنسبة إلى المريض، وكذلك القلب لا ينفعه إلا الحمية والفرار من الخلق ليتخلص من الخواطر والوساوس والغفلة التي تستحوذ عليه وربما سببت موته.

وساعة الخلوة يجب أن تستثمر لازدياد الإيمان ومعرفة الحقيقة الكونية كقراءة كتاب الله عز وجل، والتفكر في عمره كيف أمضاه وفي تقصيره مع ربه وفي المآب يوم القيامة، لا موضوعاً يستهوي النفس كالتفكر في شيء محرم أو قراءة كتاب مليء بالدجل والخرافات.

والتفكر أمر ندبنا الله إليه بقوله: ﴿ ۞ قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ ۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴾[سبأ: 46].

وندبنا إليه المصطفى ﷺ من حديث عقبة بن أبي عامر أنه سأل رسول الله ﷺ: ما النجاة؟ فقال له: «أمسك عليك لسانك، وليسعك بيتك، وابك على خطيئتك»[1].

ثم إنه حبب إليه الخلاء قبيل بعثته، فكان يتعبد الليالي ذوات العدد في غار حراء[2].

(1) الترمذي، الزهد عن رسول الله، ما جاء في حفظ اللسان، رقم (2330). وقال حديث حسن. وأحمد، باقي مسند الأنصار، حديث أبي أمامة الباهلي، رقم (21206).

(2) البخاري، بدء الوحي، رقم (3). ومسلم، الإيمان، بدء الوحي إلى رسول الله، رقم (231)

واستمرت هذه الخلوة بعد البعثة عندما أمر النبي ﷺ بقيام الليل لقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ۝٢ نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ۝٣ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ﴾[المزمل: 1 - 4].

فوائد الخلوة:

أما فوائد الخلوة فهي:

1- السلامة من آفات اللسان، فإن من كان وحده لا يجد معه من يتكلم.

2- حفظ البصر والسلامة من آفات النظر.

3- حفظ القلب وصونه عن الرياء والمداهنة وغيرهما من الأمراض.

4- حصول الزهد في الدنيا والقناعة منها وفي ذلك شرف العبد وكماله وسبب محبته عند مولاه لقوله ﷺ: «ازهد في الدنيا يحبك الله وازهد فيما في أيدي الناس يحبك الناس» (1).

5- السلامة من صحبة الأشرار ومخالطة الأرذال، وفي مخالطتهم فساد عظيم وخطر جسيم. قال وهيب بن الورد: خالطت الناس خمسين سنة فما وجدت رجلاً غفر لي ذنباً فيما بيني وبينه، ولا وصلني إذا قطعته ولا ستر علي عورة، ولا أمنته إذا غضب فالاشتغال بهؤلاء حمق.

6- التفرغ للعبادة والذكر والعزم على التقوى والبر.

7- وجدان حلاوة الطاعات وتمكن لذيذ المناجاة لفراغ سره، وهذه مجرب صحيح.

8- راحة القلب والبدن، فإن في مخالطة الناس ما يوجب تعب القلب بالاهتمام بأمرهم وتعب البدن بالسعي في أغراضهم وتكميل مرادهم وإن كان في ذلك ثواب فقد يفوته ما هو أعظم وأهم وهو جمع القلب في حضرة الرب.

---

(1) سبق تخريجه، ص 154.

9- صيانة نفسه ودينه من التعرض للشرور والخصومات التي توجبها الخلطة فإن للنفس تولعاً وتسارعاً للخوض في مثل هذا إذا اجتمعت بأرباب الدنيا.

10- التمكن من عبادة التفكر والاعتبار وهو المقصود الأعظم من الخلوة(1).

كيف يشرق قلب صور الأكوان منطبعة في مرآته:

ثم يقول ابن عطاء الله: «كيف يشرق قلب صور الأكوان منطبعة في مرآته، أم كيف يرحل إلى الله وهو مكبل بشهواته، أم كيف يطمع أن يدخل حضرة الله، وهو لم يتطهر من جنابة غفلاته، أم كيف يرجو أن يفهم دقائق الأسرار وهو لم يتب من هفواته».

وهو الحكمة مرتبطة بالتي قبلها ومتممة لها.

فالقلب يشبه المرآة الصقيلة، إذ تنعكس عليها مشاعر الإنسان وأحاسيسه وليس لها إلا جهة واحدة.

أرأيت إلى المرأة إذ توجهها إلى بئر مظلمة كيف يغدو مسطحها أسود مظلماً، وإذ توجهها إلى الشمس الساطعة، كيف تتلألأ بمثل ضياء الشمس، كذلك القلب، إن هو إلا مرآة تنعكس عليها صور من أحوال صاحبه.

فإذا كان الإنسان متجهاً دائماً برغباته إلى الدنيا التي تتمثل بالدرهم والدينار والدور والأثاث والمتع والزوجة والأولاد والمجد والشهرة ونحو ذلك، فلابد أن ينطبع ذلك كله على مرآة قلبه، فأنى لوجود الله وسلطانه أن يجد متسعاً على صفحة القلب وأنى يجد متسعاً للشعور بمحبة الله أو للشعور بتعظيمه والمخافة منه؟. هما ظلام وضياء إن احتل أحدهما القلب غاب عنه الآخر، إذ هما نقيضان لا يجتمعان(2). قال تعالى: ﴿ مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِۦ ﴾

---

(1) إيقاظ الهمم، ابن عجيبة، ص 30 وما بعدها.

(2) الحكم العطائية، شرح وتحليل، د. محمد سعيد رمضان البوطي، ص: 1/ 181.

[الأحزاب: 4] فمالك أيها العبد إلا قلب واحد إذا أقبلت به على الخلق أدبرت عن الحق والعكس صحيح.

ثم يقول ابن عطاء الله: «أم كيف يرحل إلى الله وهو مكبل بشهواته».

فالقلب المكبل بالشهوات لا يتجه إلى الله سبحانه، إن هذه الشهوات كبلتك وجعلتك تثاقل إلى الأرض، فأنستك المكون سبحانه. فالعلاج بمحو صور الأكوان من فؤادك، ليتهيأ لاستقبال صفات المكون وآلاته.

كيف السبيل إلى التحرر من أسر الشهوات؟.

السبيل إلى ذلك يتبين من المشكلة التي تضمنتها الفقرة الثالثة من هذه الحكمة وهي قوله: «أم كيف يطمع أن يدخل حضرة الله وهو لم يتطهر من جنابة غفلاته؟».

فالمشكلة هي غفلتك عن الله الذي بيده الخلق والأمر كله، وبيده النعم التي ترنو إليها، والشهوات التي تحلم دائماً بها، هو الذي يشعرك بلذاتها إن أقبلت إليك، ويبتليك منها بالآلام والمنغصات إن أدبرت عنك.

والتحرر من هذه المشكلة يكون بالتخلص من الغفلة والاتجاه إلى الإله الذي بيده كل شيء فتتعلق آمالك به، ويصفو حبك له، عندئذ تتحرر من أسر الشهوات التي كبلتك.

ولكن ما العلاج الذي يعينك على التخلص من الغفلة؟ العلاج هو الابتعاد عن الآثام والهفوات، وهو ما تضمنته الفقرة الأخيرة التي يقول فيها: «أم كيف يرجو أن يفهم دقائق الأسرار وهو لم يتب من هفواته؟»[1].

* * *

(1) المرجع السابق: 187، 188.

مثال العبد مع اللّه

إن أردت شفاء قلبك فاخرج إلى صحراء التوبة

يقول ابن عطاء الله: القلب الحسن هو الذي لا يشغله عن الله حسن، إن أردت شفاء قلبك فاخرج إلى صحراء النوبة، وحول حالك من الغيبة إلى الحضور، وألبس ثياب الذلة والمسكنة، فإن القلب يشفى، ولكنك تحشر بطنك وتتفاخر بالسمن، فمثالك كالخروف الذي يسمن للذبح، ألا فقد ذبحت نفسك، وأنت لا تشعر.

قد ينشغل القلب بأمر ما ويفزع مما سواه، فقد ينشغل القلب بالمال أو المنصب أو بأي من مغريات الحياة الدنيا وينشغل عن الله ويتفرغ لشهواته وهذا أمر خطير على القلب، فالقلب يجب أن يكون مشغولاً بالله نابذا أهواءه وشهواته غير ملتفت إليها هذا هو النجاة للقلب.

فمن أراد النجاة وشفاء قلبه فليتب إلى الله من انشغاله عنه سبحانه وليستبدل غيبته عنه سبحانه بالحضور معه، ولينتقل من التكبر والغفلة إلى الذلة والمسكنة، ومن أراد ذلك فعليه بتقليل الطعام فإن النفس إذا شبعت طلبت المعصية، وإذا جاعت تعرفت على ربها قال ﷺ: «يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة[1]. فليتزوج ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء[2]»[3].

وقد مر الكلام عن أهمية تقليل الطعام وفوائدها فليرجع إليه[4].

* * *

---

(1) الباءة: تكاليف الزواج والقدرة عليه.

(2) وجاء: وقاية ومنع من الوقوع في الزلل.

(3) البخاري، النكاح، قول النبي: من استطاع منكم الباءة فليتزوج، رقم (4778): 5/ 195.

(4) انظر، ص: 172.

إنما الأنوار مطايا القلوب والأسرار

يقول ابن عطاء الله: إنما الأنوار مطايا القلوب والأسرار، النور جند القلب، كما أن الظلمة جند النفس، فإذا أراد الله أن ينصر عبده أمده بجنود الأنوار، وقطع عنه مدد الظلم والأغيار، النور له الكشف والبصيرة لها الحكم، والقلب له الإقبال والإدبار، الأكوان ظاهرها غرة وباطنها عبرة، فالنفس تنظر إلى غرتها والقلب ينظر إلى باطن عبرتها.

هذه إحدى الحكم العطائية بلفظ مغاير وهو: «مطالع الأنوار القلوب والأسرار».

ومعنى هذا[1]: أن نجوم المعرفة والعلم وشموس التوحيد مطالعها وموضع شروقها قلوب العارفين وأسرارهم، هذه هي الأنوار الحقيقية بخلاف الأنوار الحسية. فإذا تولى الله سبحانه عبداً صان قلبه من الأغيار، وحرسه بدوام الأنوار.

أما الأسرار فهي هذه الروح التي تشرفت بخطاب الله لها في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدْنَآ﴾ [الأعراف: 172]. والتي نسبها الله عز وجل إلى ذاته العلية في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾[الحجر: 29].

غدت بذلك معيناً للأسرار من بعضها أسرار المعارف والعلوم، وأسرار المكاشفات العلوية، وأسرار الشفافية الوجدانية وإنما مصدرها جميعاً تجليات الله عز وجل. هذا هو المراد بالأسرار التي تعد مطلعاً أو مشرقاً للأنوار[2].

والنور نكتة تقع في قلب العبد حتى يبصر الحق والباطل، والمطايا، جمع مطية وهي: الناقة المهيأة للركوب، فإذا أراد الله أن يوصل عبده إلى حضرة قدسه ويحمله إلى محل أنسه أمده بواردات الأنوار كالمطايا، فترحل الروح من عوالم البشرية إلى عوالم الروحانية حتى تصير سراً من أسرار الله. ثم بين ابن عطاء الله كيفية السير على هذه المطايا وما يعوقها عن السير فقال:

---

(1) إيقاظ الهمم، ابن عجيبة، ص: 87 وما بعدها.

(2) شرح الحكم، د. محمد سعيد رمضان البوطي: 4/ 76.

«النور جند القلب كما أن الظلمة جند النفس، فإذا أراد الله أن ينصر عبده أمده بجنود الأنوار وقطع عنه مدد الظلم والأغيار».

فالظلمة نكتة تقع من الهوى في النفس فتوجب العمى عن الحق فيأتي العبد ويذر على غير بصيرة.

وإمداد الظلم ثلاثة:

أولها: ضعف اليقين، بسبب ضعف الثقة بما عند الله والاعتماد على العمل والأسباب.

الثاني: غلبة الجهل على النفس.

الثالث: الشفقة على النفس وذلك كله أصل الرضا عن النفس.

ثم قال: «النور له الكشف، والبصيرة لها الحكم، والقلب له الإقبال والإدبار».

فالنور يكشف الأمور ويوضحها حتى يظهر حسنها من قبيحها، ومن شأن البصيرة المفتوحة أن تحكم على الحسن بحسنه وعلى القبيح بقبحه، والقلب يقبل ما يثبت حسنه ويدبر عما يثبت قبحه.

ومثال ذلك: رجل دخل بيتاً مظلماً فيه عقارب وحيات وفيه سبائك ذهب وفضة، فلا يدري ما يأخذ ولا يذر ولا ما فيه نفع ولا ضرر، فإذا أدخل فيه مصباحاً رأى ما ينفعه وما يضره وما يأمنه وما يحذره، كذلك قلب المؤمن العاصي لا يفرق بين مرارة المعصية وحلاوة الطاعة، فإذا استضاء بنور التقوى عرف ما يضره وما ينفعه وفرق بين الحق والباطل، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا ﴾ [الأنفال: 29] أي نوراً يفرق بين الحق والباطل. وقال سبحانه: ﴿ أَوَمَن كَانَ مَيۡتٗا فَأَحۡيَيۡنَٰهُ وَجَعَلۡنَا لَهُۥ نُورٗا يَمۡشِي بِهِۦ فِي ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ لَيۡسَ بِخَارِجٖ مِّنۡهَاۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلۡكَٰفِرِينَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴾[الأنعام: 122].

وقال تعالى: ﴿ أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٖ مِّن رَّبِّهِۦۚ ﴾[الزمر: 22].

ثم قال: «الأكوان ظاهرها غرة، وباطنا عبرة، فالنفس تنظر إلى ظاهر غرتها، والقلب ينظر إلى باطن عبرتها».

الأكوان هي متاع الحياة الدنيا وزينتها، فالنفس تنظر إلى زينتها الظاهرة فتغتر بها، فتهلك صاحبها، والقلب ينظر إلى قبائحها الباطنية فيعتبر بها فيسلم من شرها.

والمراد بالنفس هنا الغريزة الحيوانية التي نلتقي نحن وسائر الحيوانات العجماوات على جامع مشترك فيها. . والمراد بالقلب مهبط الأنوار العلوية، ومهبط التجليات الربانية، وربما تمثل ذلك في العقل الذي هو من أثر تجليات الله على الدماغ، وربما تمثل في العضلة التي وراء الصدر، والتي هي معين العواطف والوجدان.

والدنيا التي تتحدث عنها هذه الحكمة، هي ما تجاوز حاجة المسلم في طريقه إلى الله، فهذا القدر الزائد الذي ليس له أي دور في تقريبك إلى الله لابد أن يكون له دور كبير في شغلك عنه.

والخلاصة أن كل ما شغلك بالله أو أعانك في التقرب منه، فهو من الدين أو من ملحقاته، وكل ما شغلك عن الله أو حجبك عنه فهو من الدنيا أو ملحقاتها.

وهذا الذي يشغل عن الله من الدنيا أشار إليه ﷺ بقوله: «يقول ابن آدم: مالي مالي، وهل لك من مالك إلا ما أكلت فأفنيت ولبست فأبليت وتصدقت فأبقيت» [1].

فلا تجعل من الدنيا أثقالاً على ظهرك، تقطعك عن بلوغ الغاية بدلاً من أن توصلك إليها، وتعاني الأتعاب الجسمية من حملها بدلاً من التمتع بها. واذكر أن مآلك بعد طول المعاناة بحملها أن تضعها أرضاً وترحل إلى الله حاملاً تبعاتها مثقلاً بذيولها وعقابيلها. لا أنت بها في دنياك تمتعت. ولا من أثقالها وأكدارها تخلصت» [2].

* * *

---

(1) مسلم في الزهد والرقائق، رقم (5258).

(2) شرح الحكم العطائية، د. محمد سعيد رمضان البوطي: 3/ 48 وما بعدها.

أنوار أذن لها في الدخول إلى القلب وأنوار أذن لها في الوصول

يقول ابن عطاء الله: أنوار أذن لها في الدخول، وأنوار أذن لها في الوصول. ربما وردت عليك الأنوار فوجدت القلب محشواً بصور الآثار، فارتحلت من حيث نزلت، فرغ قلبك من الأغيار يملأه بالمعارف والأسرار.

هذه إحدى الحكم العطائية:

النور محله القلب حتى يبصر الحق والباطل، فالأنوار الواردة من تجليات الله على قلب المؤمن تنقسم إلى قسمين:

أنوار أذن لها في الدخول إلى صميم القلب وسويدائه لا يظهر فيها إلا وجود الله عز وجل، فلذلك لا يحب سواه، ولا يعبد إلا إياه.

وأنوار أذن لها في الوصول إلى ظاهر القلب دون الدخول إلى سويدائه فيشاهد العبد معها نفسه وربه، ودنياه وآخرته، فيكون تارة مع نفسه وتارة مع ربه، وطوراً يسعى في العمل لآخرته، وطوراً يعمل في أمور دنياه (1).

ثم قال ابن عطاء الله: «ربما وردت عليك الأنوار فوجدت القلب محشواً بصور الآثار، فارتحلت من حيث نزلت فرغ قلبك من الأغيار يملأه بالمعارف والأسرار».

فالأنوار الإلهية قد ترد على القلب فلا تجد فيه موضعاً لاستقرارها، لما غلب عليه من رعونات البشرية واستحكم فيه من صور الآثار الكونية، فترتحل من حيث تنزل لأنها مقدسة

(1) غيث المواهب العلية في شرح الحكم العطائية، الرندي: 2/ 91، 92.

مطهرة، فإذا أردت حلول الأنوار فيه وتجلي المعارف والأسرار له ففرّغه من الأغيار، وامنع عنه صور الآثار [1].

إن كثرة الهفوات هي السبب في الوقوع في الغفلات والاستغراق في الغفلات هو السبب في الاستسلام لأسر الشهوات، والاستسلام لأسر الشهوات هو السبب في هيمنة صور الأكوان على القلب وانتشار الران عليه.

فإذا تحرر القلب من الغفلة التي كان مكبلاً بها، فقد آن له أن يدخل حضرة الله تعالى، ويتحقق بقول الرسول ﷺ عندما عرف الإحسان: «أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك».

إن فراغ القلب من الأغيار يملؤه بالمعارف والأسرار التي لا يتأتى للعقل إدراكها عن طريق التعلم ومعاناته الفكرية. وإنما يتأتى الوصول إليها عن طريق العواطف القلبية، إذ تتمخض لله عز وجل وحده، فيكون هو المخصوص دون غيره بالتعظيم وبالمهابة والحب.

ولعلك تسأل: فمن أين استقى ابن عطاء الله هذا الذي يقول عن ورود الأنوار، ودخولها أو رجوعها؟.

والجواب: إنه استقاء مما دل عليه قول الله تعالى: ﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾[الأنعام: 125].

وقد فصل ذلك رسول الله ﷺ، وبين أثر النور الرباني المتوجه إلى القلب، في الحديث الذي يرويه عبد الله بن مسعود، قال: تلا رسول الله ﷺ قول الله: ﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ

(1) المرجع السابق: 2/ 92.

صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِۖ﴾. قالوا: يا رسول الله، فهل لذلك من أمارة تعرف؟ . قال: «التجافي عن دار الغرور والإنابة إلى دار الخلود والاستعداد للموت قبل الموت»[1].

فانشراح الصدر إنما يكون ثمرة لدخول الأنوار العلوية الآتية من تجليات الله على عباده في سويداء القلب، ودخول هذه الأنوار رهن باستعداد الأفئدة لها.

وضيق الصدر إنما يكون ثمرة للأسباب التي حالت دون دخول هذه الأنوار إلى القلب، وإنما تتمثل هذه الأسباب في أن يكون محشواً كما قال ابن عطاء الله بصور الآثار، أي بزخارف الدنيا وأهوائها وكل ما من شأن النفس الأمارة أن تتعلق به.

ومن أراد أن يعود بقلبه إلى سابق نقائه وطهره من صور الآثار فعليه بصدق الالتحاء إلى الله بأن تسأله أن يطهر قلبك من الشوائب، وأن يفتح نوافذه أمام الأنوار القدسية الهابطة إليك من علياء ربوبيته. واجعل من هذا الدعاء الذي كان رسول الله ﷺ يدعو به ربه كلما خرج إلى المسجد للصلاة، ورداً تداوم عليه دون انقطاع: «اللهم اجعل في قلبي نوراً وفي لساني نوراً، واجعل في سمعي نوراً وفي بصري نوراً، واجعل من خلفي نوراً ومن أمامي نوراً، واجعل من فوقي نوراً ومن تحتي نوراً، اللهم أعطني نوراً[2]»[3].

* * *

(1) أخرجه الحاكم في مستدركه، رقم (7863): 4/ 346. وابن أبي شيبة، رقم (34314): 7/ 77.

(2) البخاري في الدعوات، باب: الدعاء إذا انتبه بالليل، رقم (5841)، ومسلم في صلاة المسافرين وقصرها، باب: الدعاء في صلاة الليل وقيامه. رقم (1279).

(3) شرح الحكم العطائية، د. محمد سعيد رمضان البوطي: 4/ 392.

القلب السليم وحقيقته

يقول ابن عطاء الله: وافهم ها هنا قوله تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: 88- 89]. والقلب السليم هو الذي لا تعلق له بشيء غير الله تعالى، وقوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ﴾ [الأنعام: 94] يفهم منه أنه لا يصح مجيئك إلى الله ولا الوصول إليه إلا إذا كنت فرداً مما سواء، وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ﴾ [الضحى: 6]. يفهم من أنه لا يأويك الله إلا إذا صح يتمك مما سواه، وقوله: «إن الله وتر يحب الوتر»[1]. أي يحب القلب الذي لا يشفع بمثنيات الآثار، فكانت هذه القلوب لله، وبالله فهم أهل الحضرة المخاطبون بعين المنَّة، فكيف يمكنهم أن يكونوا لسواه مستندين؟ وهم لوجود الأحدية مشاهدون؟!

القلوب السليمة هي التي تقطع يأسها من الخلق وتتعلق بالخالق سبحانه، القلوب السليمة تعتقد أن كل وجود غير الله هباء في الهواء، فاترك الخلق وانس مدحهم وذمهم ولا ترجو النفع منهم ولا تخف من الضرر منهم، فبمقدار ما تقبل على الله تدبر عن الخلق والعكس صحيح.

فالعطاء لا يكون إلا لله، لا ليقول الناس عني كريم، والمنع لا يكون إلا لله، لا لأشبع انتقامي وحقدي وبخلي. والحب لا يكون إلا لله لا لمصلحة دنيوية رخيصة، والبغض لا يكون إلا لله، لا حسداً وغلاً، قال ﷺ: «من أحب لله وأبغض لله وأعطى لله ومنع لله فقد استكمل الإيمان»[2].

(1) الترمذي، الصلاة، ما جاء في أن الوتر ليس بحتم، رقم (415).

(2) أبو داود في السنة، كتاب: الدليل على زيادة الإيمان ونقصانه، رقم (4061).

فرغ قلبك من كل ما سـواه مـن المغريـات والشـهوات والمـال والمنصـب تجـد رحمـة الله وتوفيقه ومعونته ترعاك وتحرسك كل لحظة ﴿إِنَّ وَلِـِّۧىَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ ۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [الأعراف: 196].

فالقلب يفسد إذا كان فيه معبود غير الله، كما أن السموات والأرض لـو كـان فـيهما آلهـة غيره سبحانه لفسدتا كما قال تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: 22]. فكذلك القلب إذا كان فيه معبود غير الله تعالى فسد فساداً لا يُرجى صلاحه إلا بأن يخرج ذلك المعبـود منه ويكون الله تعالى وحده إلهه ومعبوده الذي يحبه ويرجوه ويخافه ويتوكل عليه وينيب إليه.

* * *

الحكمة من الابتلاءات
في الدنيا

مجاهدة النفس

يقول ابن عطاء الله: أتريد أن تجاهد نفسك وأنت تقويها بالشهوات حتى تغلبك؟!.

لا تكن كالعليل يقول: لا أتداوى حتى أجد الشفاء، فيقال له لا تجد الشفاء حتى تتداوى. فالجهاد ليس معه حلاوة، وما معه إلا رؤوس الأسنة، فجاهد نفسك هذا هو الجهاد الأكبر، واعلم أن الثكلى لا عيد لها، بل العيد لمن قهر نفسه، لا عيد إلا لمن جمع شمله.

تعريف النفس:

النفس: هي المعنى الجامع لقوة الغضب والشهوة في الإنسان، فيقولون: لابد من مجاهدة النفس وكسرها [1].

معنى جهاد النفس:

عندما يمرض الإنسان فعليه أن يطلب الدواء، ولا يجوز أن ينتظر حتى يجد الشفاء، لأن الشفاء متعلق على تناول الدواء.

وكذلك حال الإنسان مع نفسه دواؤها هو المجاهدة وتضييق السبل عليها ويكون ذلك بتزكيتها بطاعة الله سبحانه.

لكن الملاحظ عند أهل زماننا أنهم راضون عن أنفسهم مسارعون في أهوائها، ومجاهدة النفس أمر صعب، كيف والجهاد هو تحمل الأمر الشاق.

فالصلاة مثلاً عمل ينبغي له قهر كل عذر، وترك كل شغل، وهذا أمر شاق على عشاق الحياة فالصلاة تنتزعهم مما يأنسون به بين الحين والآخر، ولذلك قال الله في وصفها:

(1) إحياء علوم الدين، الغزالي: 3/ 5.

﴿ وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴾[البقرة: 45- 46].

إن المغريات والشهوات الدنيوية تحتاج إلى ضبط ورقابة وهذا يحتاج إلى صبر ومجاهدة.

«فهناك حب النفس، وحب النساء، وحب المال، وحب الظهور، هذه مثلاً غرائز ما يخلو البشر من مباديها.

وقد تجد البعض في حبه لنفسه لا يبصر غيرها، ولا يتحرك إلا بهواجس الأثرة وحدها.

وقد تجد آخر مفتوناً بالثراء، يدأب ليله ونهاره في جمع المال، يعشقه لذاته دون رغبة في بذلك مهما تطلبت الحقوق.

ومن الناس من يهيم وراء الغيد كأنه ظمآن لا يجد الري أبداً.

ومن طيش هذه الغرائز تفسد الأرض، وينتشر الهرج والمرج وتصاب الأعراض، وتُسفك الدماء. . .

وعلى طول الخط الطويل الممتد من المهد إلى اللحد يواجه الإنسان أموراً شتى تحتاج إلى فؤاد صاح وبصيرة نيرة، فإن اشتباك النفس بهموم الرزق، وفتون الناس وتلقيها ألوان الوساوس، وتأرجحها بين جواذب اليمين واليسار، وفقرها إلى استجماع قوى كثيرة كي تحقق الخير، وكي تصد الشر، ذلك كله يستدعي جهاداً جاداً متصل الحلقات.

ولن ينجح الإنسان في هذا الجهاد إلا إذا مرن على عصيان هواه ومضى قدماً على الصراط المستقيم جلداً مثابراً لا يقعده إعياء ولا يرده استرخاء[1].

وجهاد النفس يحتاج إلى نية صادقة وهدف واحد وهو مرضاة الله سبحانه، ولا ينظر إلى مقدار ما يبذل من تعب إلا بشرط النية الصحيحة.

---

(1) الجانب العاطفي من الإسلام، محمد الغزالي، ص: 106 وما بعدها.

إن اللص يسهر الليل ليختل النائمين، والشرطي يسهر الليل يحرس الأمن لقاء راتب معهود، والمتهجد يهجر فراشه ويدع لذيذ الرقاد لا لشيء إلا ليعبد ربه في هدوء وصفاء، ويتدبر آياته في خشوع ورجاء.

إن سهر هؤلاء الثلاثة واحد والفرق بينهم شاسع.

فأما الأول فمجرم يستحق العقوبة، بما بيت من إثم.

وأما الثاني فأجير يؤدي واجبه بثمن لو تأخر عنه قليلاً لسخط وترك ما كُلف به، وأما الأخير فرجلٌ مؤمن بالغيب والشهادة، يعرف ما يعمل، ولمن يعمل؟. . .

إنك تسمع عن فقراء الهنود، وعن ساستهم، قصص الصيام الطويل المضني وهذا من غير شك إرهاق للبدن تسانده عزيمة شديدة، وإرادة غالبة ومع تقديرنا المجرد لقوة العزم وتماسك الإرادة لا نرى في هذا المسلك ما يستحق التنويه والحمد.

ولو أن أحدهم دفن نفسه في الرغام شهوراً -كما يروون- ما أبهنا كثيراً ولا قليلا لهذه الحكايات.

وهي عندنا تساوي استعراض العضلات الذي يقوم به فتيان الرياضة البدنية غاية ما هناك من فرق أن هذا بالزائد، وذاك بالناقص. . .

وهذا وذاك ليسا الجهاد النفسي الذي أقره الإسلام [1].

كلام ابن الجوزي حول جهاد النفس:

ومن المعاني الدقيقة لجهاد النفس وكيفية التعامل معها بدقة وحكمة ما ذكره ابن الجوزي في «صيد الخاطر» فقال: «تأملت جهاد النفس، فرأيته أعظم الجهاد، ورأيت خلقاً من العلماء

(1) المرجع السابق، ص: 110، 111.

والزهاد لا يفهمون معناه، لأنه فيهم من منعها حظوظها على الإطلاق، وذلك غلط من وجهين:

أحدهما: أنه رب مانع لها شهوةً أعطاها بالمنع أوفى منها، مثل أن يمنعها مباحاً، فيشتهر بمنعه إياها ذلك، فيرضي النفس بالمنع، لأنها قد استبدلت به المدح. وأخفى من ذلك أن يرى بمنعه إياها ما منع أنه قد فضل عن سواه ممن لم يمنعها ذلك، وهذه دقائق تحتاج إلى منقاش [1]. فهم يخلصها.

الوجه الثاني: أننا قد كلفنا حفظها، ومن أسباب حفظها ميلها إلى الأشياء التي تقيمها، فلابد من إعطائها ما يقيمها، وأكثر ذلك أوكله ما تشتهيه، ونحن كالوكلاء في حفظها، لأنها ليست لنا، بل هي وديعة عندنا، فمنعها حقوقها على الإطلاق خطر، ثم رب شد أوجب استرخاء، ورب مضيق على نفسه فرت منه فصعب عليه تلافيها، وإنما الجهاد لها كجهاد المريض العاقل، يحملها على مكروهها في تناول ما ترجو به العافية، ويذوب في المرارة قليلاً من الحلاوة، ويتناول من الأغذية مقدار ما يصفه الطبيب، ولا تحمله شهوته على موافقة غرضها من مطعم ربما جر جوعاً، ومن لقمة ربما حرمت لقمات، فكذلك المؤمن العاقل لا يترك لجامها، ولا يُهمل مقودها، بل يرخي لها في وقت الطول[2]. بيده، فما دامت على الجادة لم يضايقها في التضييق عليها، فإذا رآها قد مالت ردها بلطف، فإن ونت[3]. وأبت، وإلا فبالعنف، ويحبسها في مقام المداراة، كالزوجة التي مبنى عقلها على الضعف والقلة، فهي تداري عند نشوزها بالوعظ، فإن لم تصلح فبالهجر، فإن لم تستقم فبالضرب»[4].

---

(1) منقاش: ما ينقش به أي: تحتاج إلى تعب في استخراج تلك الدقائق.

(2) الطول: الحبل الطويل يربط إلى وتد ونحوه، ويطول للدابة فترعى مقيدة به. المعجم الوسيط، ص 593.

(3) ونت: ضعفت وتعبت.

(4) صيد الخاطر، ابن الجوزي، ص: 102، 103.

ثم يقول ابن عطاء الله: «واعلم أن الثكلى لا عيد لها، بل العيد لمن قهر نفسه، لا عيد إلا لمن جمع شمله».

الثكلى هي المرأة التي فقدت ولدها أو عزيزاً عليها، وهذه الحزن يملأ قلبها فهي لا تفرح بالعيد، وهذا مثال من يمشي مع هوى نفسه فيطيعها فيما تأمره به، إنه يسير إلى الهاوية إلى حتفه الذي ينتظره ثم إلى نار جهنم في الآخرة، فيبقى دائم الحزن مما أصابه كالثكلى التي لا عيد لها.

أما الذي يقهر نفسه بالمجاهدة فهو من جُمع شمله وحاز على رضا الله في الدنيا والجنة في الآخرة كما في الآية السابقة، فهذا هو الذي يفرح بالعيد.

قال تعالى: ﴿ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴾[النازعات: 37: 41].

وعن أنس بن مالك قال، قال رسول الله ﷺ: «من كانت الدنيا همُّه جعل الله فقره بين عينيه وفرق عليه شمله ولم يأته من الدنيا إلا ما قدر له»[1].

* * *

(1) الترمذي في صفة القيامة والورع عن رسول الله، رقم (2389). وابن ماجه في الزهد، كتاب: الهم بالدنيا، رقم (4095). وأحمد، مسند الأنصار، حديث زيد ابن ثابت، رقم (20608).

مثالك مع نفسك

يقول ابن عطاء الله: ما مثالك مع نفسك إلا كمن وجد زوجته في حانة خمار، فأتاها بالملابس الحسنة والمآكل الطيبة، وإذا تركت الصلاة أصبحت تطعمها الهرائس والألوان.

أي من وجد نفسه تطلب الشهوات وتنغمس فيها فعليه أن يجاهدها لتضعف. والمجاهدة تكون بالطاعات وتنفيذ أوامر الله سبحانه، والأحمق من يوافق هوى نفسه فيقويها على المعصية ويكون ذلك بترك العبادة وشغل النفس بالدنيا وأهوائها فمثاله كمن وجد زوجته (أي نفسه) في حانة خمار، فبدل أن يزجرها ويخرجها من تلك الحانة ويغار عليها فإذا هو يأتيها بالملابس الحسنة والمآكل الطيبة فبدل أن يكفها كافأها وتركها على حالها.

وهذا مثال من يهتم بإشباع شهواته من الطعام وملذات الدنيا إنه ينسى عبادة الخالق سبحانه فينسى الصلاة، لأن عقله وقلبه شغلا بالدنيا قال تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾ الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ ﴿٦﴾ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ﴾[الماعون: 4- 7].

وانظر كيف يصف النبي ﷺ متع الدنيا وأهمها المال، فعن حكيم بن حزام قال: سألت رسول الله ﷺ عن هذا المال، فقال: «ما أكثر مسألتك يا حكيم، إن هذا المال خضرةٌ حلوة وإنما هو مع ذلك أوساخ في أيدي الناس ويد الله فوق يد المعطي، ويد المعطي فوق يد المعطى وأسفل الأيدي يد المعطى»[1].

* * *

(1) أحمد، مسند المكيين، مسند حكيم بن حزام، رقم (14782).

خيانة بالنفس

يقول ابن عطاء الله: من وكل وكيلاً واطلع على خيانته عزله، كذلك نفسك قد اطلعت على خيانتها فاعزلها وضيق عليها المسالك.

إذا اطلعت على زوجتك بخيانة فإنك تغضب عليها، فكذلك نفسك قد خانتك في عمرك وأجمع العقلاء على أن الزوجة إذا خانت لا يؤويها زوجها بل يطلقها، فطلق نفسك.

وتطليقها يكون بمخالفتها وتضييق المسالك عليها فإن دعتك إلى لذة المعصية، فخالفها بحلاوة الطاعة، وإن دعتك إلى رفقة السوء فاختر من المعصية، فخالفها بحلاوة الطاعة، وإن دعتك إلى رفقة السوء فاختر من الأصدقاء من ينهضك حاله ويدلك على الله تعالى. وإن دعتك إلى الغيبة فاشغل لسانك بذكر الله وبالتقليل من الكلام ما أمكن. . . الخ.

والمقصود بالنفس هنا أي الأمارة بالسوء فاحذر هذه النفس فإن الله حذرنا منها بآيات كثيرة منها:

قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾[يوسف: 53].

وقال: ﴿ فَطَوَّعَتۡ لَهُۥ نَفۡسُهُۥ قَتۡلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصۡبَحَ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴾[المائدة: 30].

وقال: ﴿ وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ وَنَعۡلَمُ مَا تُوَسۡوِسُ بِهِۦ نَفۡسُهُۥۖ ﴾[ق: 16].

وقال: ﴿ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلۡهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ ﴾[ص: 26].

* * *

الرجل من صاح على نفسه وردها إلى الله تعالى

يقول ابن عطاء الله، ليس الرجل من صاح بين الناس في المجلس، وإنما الرجل من صـاح على نفسه وردها إلى الله تعالى.

تحذير آخر من خطر النفس إن شردت عن صراط الله فإن نهاية صاحبها وخيمة، فاعرف حقيقتها وردها إلى الله قبل فوات الأوان وقبل أن يأتي يوم لا ينفع فيه عض الأنامل من الندم.

فلا يغرنك صياح الرجل بين الناس موهماً إياهم بصلاحه وتقواه، بل الرجل من عـرف حقيقة نفسه وعرف شرودها عن الله فردها إليه سبحانه وألزمها بطاعته وتنفيذ منهجه في هـذه الحياة الدنيا.

يقول الحارث المحاسبي مبيناً كيف يقهر الإنسان نفسه على طلـب الآخـرة: «فـإذا قطـع عليها العبد الطمع من أسباب الدنيا، وغلب بعقله هواها، رجعت بطمعها إلى أسباب الآخرة لا محالة، لأنها بنيت على الطمع.

فإذا تجردت من أسباب الدنيا، وأقبلت على نفسه بالإياس من المخلوقين رجعت برغبتها وطمعها إلى أسباب الآخرة، فجدت في طلبها واجتهدت، وعزفت عن الدنيا، وباينت الهوى، وخالفت العدو، وتبعت العلم، وكانت مطية العقل، صابرة على مر ما يدل عليه الحق، فنجت وأنجت»[1].

* * *

---

(1) آداب النفوس، ص: 39.

اجعل نفسك كدابتك

يقول ابن عطاء الله: يا هذا اجعل نفسك كـدابتك، كلـما عـدلت عـن الطريـق ضربتهـا فرجعت إلى الطريق، ولو فعلت مع نفسك مثل ما تفعل بجبتك كلما توسخت غسلتها، وكلما تقطع منها شيء رقعته، وجددته، كانت لك السعادة، فرب رجل ابيضت لحيته وما جلس مـع الله جلسة يحاسب نفسه فيها.

ما أجمل أن يعيد الإنسان تنظيم نفسه بـين الحـين والحـين، وأن يرسـل نظـرات نافـذة في جوانبها ليتعرف عيوبها وآفاتها. . .

وأن يرسم السياسات القصيرة المدى، والطويلة المدى، ليتخلص من هـذه الهنـات التـي تزري به. . .

في البيت إن غرفه وصالاته تصبح مشعثة مرتبكة عقب أعمال يـوم كامـل، فـإذا الأيـدي الدائبة تجول هنا وهنا لتنظف الأثاث المغبر وتطرد القمامة الزائدة وتعيد إلى كل شيء رواءه [1].

ونظامه.

ألا تستحق حياة الإنسان مثل هذا الجهد؟ ألا تستحق نفسك أن تتعهد شؤونها بين الحين والحين لترى ما عراها من اضطراب فتزيله، وما لحقها من إثم فتنفيه عنها مـثلما تنفـي القمامـة من الساحات الطهور؟ . . .

إن الإنسان أحوج الخلائق إلى التنقيب في أرجاء نفسه، وتعهد حياته الخاصة والعامة بـما يصونها من العلل والتفكك.

ذلك أن الكيان العاطفي والعقلي للإنسان قلما يبقى متماسك اللبنات مع حدة الاحتكـاك بصنوف الشهوات وضروب المغريات. . فإذا ترك لعوامل الهدم تنال منه فهـي آتيـة عليـه لا

---

(1) الرواء: المنظر الحسن. المعجم الوسيط، ص397.

محالة، وعندئذٍ تنفرط المشاعر العاطفية والعقلية كما تنفرط حبات العقد إذا انقطع سلكه. . . وهذا شأن من قال الله عنه: ﴿ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴾ [الكهف: 28].

فالنفس الإنسانية إذا تقطعت أواصرها ولم يربطها نظام ينسق شؤونها، ويركز قواها أصبحت مشاعرها وأفكارها كهذه الحبات المنفرطة السائبة لا خير فيها ولا حركة لها [1].

* * *

(1) الجانب العاطفي من الإسلام، محمد الغزالي، ص: 157، 158.

مخاطر صحبة النفس

يقول ابن عطاء الله: من صحبك يوماً أو يومين، ولم ير منك نفعاً تركك وصحب غيرك، وأنت تصحب نفسك أربعين سنة ولم تر منها نفعاً فقل لها: ارجعي يا نفس إلى رضا ربك، طالما وافقتك في الشهوات، فتبدلي بعد البطالة بالاشتغال بالله، وبعد الكلام بالصمت، وبعد قرناء السوء: معاشرة أهل الخير والصلاح.

اجعل أحوالك على ضد ما كنت عليه، اجعل بدل السهر في معصية الله السهر في طاعة الله، وبعد الإقبال على أهل الدنيا الإعراض عنهم والإقبال على الله، وبعد الإصغاء لكلامهم: الإصغاء والاستماع لكلام الله عز وجل وذكره، بعد الأكل بالشره والشهوة، الأكل القليل الذي يعينك على الطاعة.

والعجب كل العجب من عبد يقبل على صحبة نفسه ولا يأتيه الشر إلا منها، ويترك الله ولا يأتيه الخير إلا منه.

هذه حال التائب إلى الله والصادق بتوبته، إن من علامات قبول التوبة تغير الحال وإعادة تنظيم الحياة من حياة ليس لها هدف إلا مُتع الدنيا، إلى حياة تكون وسيلة إلى غاية وهي الآخرة ورضا الله سبحانه وتعالى، يقول لك ابن عطاء الله: بما أنك عرفت حقيقة نفسك وأنها تجرك إلى غضب الله وعقابه فينبغي أن تستعملها في طاعة الله بعد كل تلك السنين التي عصيت الله فيها بسببها.

وفي المجتمع كثير من الناس التائهين المنحرفين عندما يصحو عقلهم ويبصروا الحقيقة تتبدل حياتهم فتراهم على ما وصفهم ابن عطاء الله كانوا ينفقون الساعات على اللهو الفارغ ولغلو الكلام وبذاءة اللسان لا يتورعون عن معصية. تراهم بعد توبتهم يقرؤون القرآن ويذكرون الله ويسبحونه بصدق وكانوا يأنسون بالمخلوقين ويرجون نفعهم ويخافون أذاهم فتراهم الآن لا يأنسون إلا بربهم ولا يطلبون إلا منه ولا يخافون إلا الله سبحانه. كانوا يجالسون أسوأ الناس فتراهم يبحثون عن أهل الخير عن أهل التقوى فيتخذونهم أصحاباً،

كانوا يسهرون في معصية الله فتراهم يقبلون على الله ويستغفرون بالأسحار، وكانوا يتفننون في أصناف الطعام لا يبدؤونه بالبسملة ولا يختمونه بالحمد. فتراهم قد قل أكلهم ورافق ذكـر الله كل لقمة.

وصدق رسول الله ﷺ : «الكافر يأكل في سبعة أمعاء والمؤمن يأكل في معي واحد»[1].

❊ ❊ ❊

---

(1) البخاري في الأطعمة، باب: المؤمن يأكل في معي واحد، رقم (4974).

الحكمة من وجود القلب والروح والنفس والهوى

يقول ابن عطاء الله: إذا أعطيت نفسك كل ما تشتهي وتطلب من الشهوات كنت كمن في بيته حية يسمنها كل يوم حتى تقتله!.

ولو جعل فيك الروح من غير نفس لأطعت وما عصيت، ولو جعل فيك النفس من غير روح لعصيت وما أطعت، فلذلك جعل فيك القلب، والروح، والنفس والهوى. كالنحلة جعل فيها اللسعة والعسل فلذلك تتلون، فالعسل ببره واللسع بقهره، فأراد الله أن يكسر دعوة النفس بوجود القلب، ودعوة القلب بوجود النفس.

الروح هي اللطيفة العالمة المدركة من الإنسان، وهو الذي أراده الله تعالى بقوله: ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي﴾[الإسراء: 85].

وهو أمر عجيب رباني تعجز أكثر العقول والأفهام عن إدراك حقيقته.

وأرجع لشرح هذه الفقرة فأقول: احذر نفسك فإنها أضر الأعداء، إنها عدو من داخل الجسد، واللص إذا كان من داخل البيت عزت الحيلة فيه وعظم الضرر، فإذا استحسن الإنسان من نفسه كل قبيح، ولا يكاد يطلع على عيب لها وهي في عداوتها وأضرارها، فما أوشك ما توقعه في كل فضيحة وهلاك وهو لا يشعر، إلا أن يحفظه الله تعالى بفضله ويعينه عليها برحمته[1].

ثم قال ابن عطاء الله: «لو جعل فيك الروح من غير نفس لأطعت وما عصيت» فروحنا من روح الله، قال تعالى: ﴿فَإِذَا سَوَّيۡتُهُۥ وَنَفَخۡتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾[الحجر: 29].

وهذه الروح مشتاقة إلى المكان الذي أهبطت منه يوم كانت بقرب بارئها. وتنتظر الساعة التي تخرج من هذا الجسد الذي حبست فيه إلى ذلك المكان؟!

---

(1) منهاج العابدين، الغزالي، ص: 60.

فالروح تطيع خالقها وتلتذ بعبادته على الدوام.

ثم قال: «ولو جعل فيك النفس من غير روح لعصيت وما أطعت».

لأن النفس محل الشهوات والأهواء المحرمة وهذه قد نهانا الله عن اقترافها وأمرنا بالابتعاد عنها، فلو تركت النفس تتصرف كما تريد لعصت دائماً وما أطاعت أبداً.

والعبد في حال المجاهدة بين أن يقوي روحه بالطاعات ويمنع نفسه من الشهوات، وهذا ما قصده ابن عطاء الله حين قال: «العسل ببره واللسع بقهره، فأراد الله أن يكسر دعوة النفس بوجود القلب، ودعوة القلب بوجود النفس».

إذ من أسمائه سبحانه وتعالى اللطيف الرحيم، فإذا أعطى العباد وبسطهم أشهدهم بره وإحسانه فعرفوا أنه سبحانه بارٌ بعباده لطيف بخلقه رحيم كريم جواد، فيعظم محبتهم فيه ويكثر شوقهم إليه ويكثر شكرهم فيزداد نعيمهم.

وإن منعهم أو قبضهم ومن ذلك المصائب والمحن أشهدهم قهره وكبرياءه لعلموا أنه تعالى قهار كبير عظيم جليل فخافوا من سطوته وذابوا من خشيته وخضعوا تحت قهره فدامت عبادتهم وقلت ذنوبهم ولذلك قال ابن عطاء الله في إحدى حكمه: «متى أعطاك أشهدك بره، ومتى منعك أشهدك قهره، فهو في كل ذلك متعرف إليك ومقبل بوجود لطفه عليك»[1].

فما وافق الهوى والطبع يسمى «عطاءً ومنحاً» وما خالفهما يسمى «منعاً» وذلك لاختبار العبد في صدق عبوديته لله سبحانه فإن كان عاقلاً علم أن العطاء والمنع هو لمصلحته فإن العطاء سبب للشكر وإن المنع للصبر ورجوع العبد إلى ربه بعد غفلته.

* * *

(1) إيقاظ الهمم، ابن عجيبة، ص: 140.

احذر نفسك التي بين جنبيك

يقول ابن عطاء الله: إياك أن تتهاون في أعمالك وتختار الطيبات لمرحاضك، واحذر نفسك التي بين جنبيك فهي التي تحطب عليك، ثم لا تفارق صاحبها إلى المات، والشيطان يفارق في رمضان لأنه تغل فيه الشياطين، وربما تجد من يقتل فيه ويسرق، فهذا من النفس، فإذا مالت إلى المعصية فذكرها بعذاب الله، والقطيعة عن الله بسببه، والعسل المسموم يترك مع العلم بحلاوته، لما فيه من وجود الأذى، لقوله ﷺ: «الدنيا حلوة خضرة»[1]. ويروى أيضاً: «جيفة قذرة»[2]. حلوة خضرة عند أهل الغفلة، وجيفة قذرة عند العقلاء، حلوة خضرة عند النفوس، وجيفة قذرة عند مرايا القلوب، حلوة خضرة للتحذير، وجيفة قذرة للتنفير، فلا تخدعنكم بحلاوتها، فإن عاقبتها مرة.

إياك أن يكون همك إشباع شهواتك ورغبات نفسك على حساب أوامر دينك وواجباتك تجاه الله سبحانه، إن ذلك من تدبير النفس التي بين جنبيك والتي تحب الركون إلى الدنيا ونسيان الآخرة، وإذا أردت معرفة خطر النفس فراقبها في شهر رمضان الذي تغل فيه الشياطين كما قال ﷺ؟.

فكل المعاصي والذنوب هي من النفس بسبب ميلها إلى المعصية. إن النفس بهذا تجر صاحبها إلى عذاب الله وسخطه فذكرها بعذاب الله لعلها ترجع وتهتدي إلى الصواب. وذكرها بأن لذة الدنيا نهايتها مرة وخيمة، فالعسل المسموم يترك مع لذته كذلك لذة الدنيا تترك لأنها لذة زائلة تكون وبالأعلى صاحبها يوم القيامة؟!.

---

(1) جزء من حديث أخرجه مسلم في الذكر والدعاء، كتاب: أكثر أهل الجنة الفقراء وأكثر أهل النار النساء، رقم (4925).

(2) لم يوجد بهذا اللفظ ولكن روي عن علي قال: «الدنيا جيفة فمن أرادها فليصبر على مخالطة الكلاب». فيض القدير، المناوي: 6/ 63.

إن هذه الدنيا جيفة قذرة للعقلاء، حلوة خضرة عند العقلاء إنما متاع الغرور كما قال سبحانه: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴾[آل عمران: 185].

وأمر الله نبيه ﷺ بالإعراض عن أهل الدنيا بقوله تعالى: ﴿ فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴾[النجم: 29].

* * *

النفس كالمرآة كلما أكثرت خصامها أكثرت خصامك

يقول ابن عطاء الله: كنت مرة عند الشيخ أبي العباس المرسي ﵁، فقلت في نفسي أشياء، فقال الشيخ: إن كانت النفس لك فاصنع بها ما شئت، ولن تستطيع ذلك.

ثم قال: النفس كالمرآة، كلما أكثرت خصامها أكثرت خصامك، فسلمها إلى ربها يفعل بها ما يشاء، فربما تعبت في تربيتها فلا تنقاد لك. فالمسلم من أسلم نفسه إلى الله، بدليل قوله تعالى: ﴿ ۞إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَۚ ﴾[التوبة: 111].

أنت تعمل وتكسب رزقك، ولكن هذا الكسب لا يكفي طموحاتك، فتخاطبك نفسك قائلة: زد ساعات العمل وضاعف الجهد والنشاط تكسب أكثر. في اليوم التالي يزيد نشاطك فإن لم تكسب عاتبتك نفسك وشككتك في رزقك وما قسم لك، وإن كسبت أكثر طلبت منك تزويدها بالمتع واللذات من تحسين الطعام واللباس والمسكن. . . الخ.

«فالنفس كالمرآة كلما أكثرت خصامها أكثرت خصامك. فسلمها إلى ربها يفعل بها ما يشاء فربما تعبت في تربيتها فلا تنقاد لك».

والتسليم هو الانقياد والإذعان لرب العالمين، ومنه جاءت كلمة «الإسلام».

معنى تسليم النفس لله:

وتسليم النفس إلى الله يعني: الرضا بقضاء الله سبحانه والرضا بحكم الله عز وجل قال تعالى: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيۡنَهُمۡ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَرَجٗا مِّمَّا قَضَيۡتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسۡلِيمٗا ﴾[النساء: 65].

والرضا بقضاء الله هو ثمرة التوكل على الله، وهذا معنى قول النبي ﷺ في دعاء الاستخارة: «اللهم إني أستخيرك بعلمك واستقدرك بقدرتك وأسألك من فضلك العظيم فإنك تقدر ولا أقدر وتعلم ولا أعلم وأنت علام الغيوب، اللهم إن كنت تعلم أن هذا الأمر خير لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري فاقدره لي ويسره لي ثم بارك لي فيه، وإن كنت تعلم أن

هذا الأمر شر لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري فاصرفه عني واصرفني عنه واقدر لي الخير حيث كان ثم أرضني (رضني به) »(1).

إن تسليم النفس لله يتحقق بتخليصها من الشهوة التي تعارض الأمر الإلهي، ومن إرادة النفس التي تعارض الإخلاص لله، ومن الاعتراض على أحكام الشرع، فإذا تخلص العبد من ذلك بلغ أجل مقامات الإيمان.

فتطمئن النفس إلى أن ما يصيبها من الله وأن رزقها على الله فلا تعد لخصام صاحبها إذ وثقت بها عند الله سبحانه؟!.

فاللهم اجعلنا ممن يسلمون أنفسهم لك يا رب العالمين كما أسلم سيدنا إبراهيم عليه السلام نفسه لله، قال تعالى: ﴿ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [البقرة: 130 131] وكما أسلم سيدنا يوسف عليه السلام لله بقوله تعالى: ﴿ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴾[يوسف: 101].

فالمسلم من أسلم نفسه إلى الله، فكان ظاهراً بامتثال أمره وباطناً بالاستسلام لحكمه وقهره.

قال الإمام الشافعي رحمه الله:

إذا أصبحت عندي قوت يومي   فخل الهمَّ عني يا سعيد
ولا تخطر هموم غدٍ ببالي   فإن غداً له رزقٌ جديد
أسلم إن أراد الله أمراً   فأترك ما أريد لما يريد
وما لإرادتي وجهُ إذا ما   أراد الله ما لا أريد

* * *

---

(1) البخاري في الجمعة، باب: ما جاء في التطوع مثنى مثنى، رقم (1096).

إنما تحتاج إلى معالجة نفسك في الابتداء

يقول ابن عطاء الله: إنما تحتاج إلى معالجة نفسك في الابتداء، فإذا ذاقت المنّةِ جاءت اختياراً، فالحلاوة التي كانت تجدها في المعصية ترجع تجدها في الطاعة.

عندما تمرض النفس تحتاج إلى معالجة، ومرض النفس سببه لذة المعاصي والشهوات التي سببت بعد العيد عن ربه سبحانه وتعالى. هذا الداء يحتاج إلى دواء فإذا عولجت النفس بتطهيرها من الذنوب والأهواء وأحست بقربها من الله ولطف الله بها إذ ستر معاصيها عن الخلق وأحست برحمة الله ولطفه إذ قبل توبتها فإنها تجيء اختياراً لطاعة ربها فقد أحست أن حلاوة الطاعة ألذ من حلاوة المعصية.

وهذا هو الفلاح الحقيقي، قال تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾[الشمس: 7- 10].

* * *

خطر اتباع هوى النفس

يقول ابن عطاء الله: ما أهون الغرابة التي فيها هوى نفسك عليك، وما أثقل ما ليس فيه هوى، مثاله أن تحج نفلاً، فإن قيل لك: تصدق بذلك شق عليك، لأن أمر الحج يُرى فللنفس فيه حظ والصدقة تُطوى وتنسى، وكذلك درسك العلم لغير الله، فإنك تدرس الليل كله ونفسك طيبة بذلك، فإذا قيل لك: صل بالليل ركعتين شق ذلك عليك، لأن الركعتين بينك وبين الله، ليس فيهما للنفس حظ، والقراءة والدرس للنفس فيها حظ مشاركة الناس، فلأجل ذلك خف عليها.

وهذا من علامات اتباع الهوى الذي أكده ابن عطاء الله في حكمه بقوله: «من علامة اتباع الهوى المسارعة إلى نوافل الخيرات، والتكاسل عن القيام بالواجبات».

يقول الشيخ محمد الغزالي رحمه الله في شرح هذه الحكمة: «الفروض التي يجب أداؤها كثيرة منوعة، وهي في العبادات محدودة كماً وكيفاً ولكنها في العادات مفتوحة الدائرة متطورة الأداء، والمسلم مطالب بكل الواجبات التي ارتبطت بعنفه، ولا يجوز أن يوجه نشاطه إلى نافلة ما قبل أن يستكمل هذه الواجبات أولاً.

إن الواجبات والنوافل أشبه بالضرورات والمرفَّهات، والمرء لا يشتري لنفسه عدة زجاجات من العطور وهو وأهله بحاجة إلى أرغفة من الخبز، سد الجوع أولى من هذه الزينات[1].

إن كثيراً من الناس يذهلون عن هذه الحقيقة، فتراهم يحجون عدة مرات ويعتمرون كل سنة وهذا خطأ، إن في المجتمع ثغرات يجب سدها هي أولى وأقرب لمرضاة الله من حج النفل وعمرة النفل.

---

(1) الجانب العاطفي من الإسلام، محمد الغزالي، ص: 138.

إن نفقة واحدة من هذه النوافل تكفي لأداء دين عن مدين معسر، وتكفي لدفع نفقات الدراسة لطلاب فقراء، وتكفي لسد رمق عائلة فقيرة.

وهناك الكثير من المسلمين يصومون يومي الاثنين والخميس، ويجتهدون في التقرب إلى الله بهذا العمل الكريم. ولكن إذا كان الصيام سيوهن القوى عن العمل في المدرسة إن مدرساً، أو العمل في الديوان إن كان موظفاً، فالفطر أولى به.

إن تعليم المعلم للطلاب، والقيام بمصالح الجمهور فرض وصوم غير رمضان نفل.

إن فقه الأولويات يجب أن يأخذ دوره في مجتمعنا حتى لا تضيع الحقوق وتختل الموازين وحتى لا يضطرب المجتمع بسبب الاهتمام بنوافل الطاعات وترك الأهم وهي الفرائض.

* * *

النفس في وقت الرضا كالبعير المعقول

يقول ابن عطاء الله: ما شأن نفسك وقت الرضا إلا كالبعير المعقول، فإذا سيبته انطلق، قال رسول الله ﷺ: «لقلب ابن آدم أشد تقلباً من القدر على النار إذا غلت»[1].

لعلك تقول: كيف يتحد ابن عطاء الله عن شأن النفس ثم يأتي بالحديث الذي يتكلم عن شأن القلب؟.

الجواب: النفس تجتمع مع القلب في معنى واحد وهو: اللطيفة الربانية الروحانية وهي حقيقة الإنسان، وهي المخاطبة والمعاقبة والمعاتبة والمطالبة. فهذه اللطيفة تطلق على القلب والنفس معاً[2].

إذاً شأن النفس وقت الرضا عنها والمراقبة لتصرفاتها كالبعير المعقول، يمسك صاحبها بعقالها كيلا تقع في المعصية، فإذا غفل الإنسان عن نفسه ونسي العقال فإن النفس تنطلق وتتحرر فيما لا يرضي الله سبحانه، لأن من شأن النفس محبة اللذات والتقلب فيها، فإياك أن تترك عقالها. بل ألجمها بلجام الطاعة.

* * *

---

(1) أحمد، باقي مسند الأنصار، حديث المقداد بن الأسود، رقم (22699). ورجاله ثقات وإسناده صحيح. مجمع الزوائد: 4/ 211.

(2) إحياء علوم الدين، الغزالي: 3/ 6.

حب الدنيا من عيوب النفس

يقول ابن عطاء الله: ما يطلع على الأسرار إلا أمين، وأنت تعطي نفسك حظها من المآكل والمشارب، حتى تملأ بيت الخلاء، أو يكفيك حب الدنيا؟! ومن أحب الدنيا فقد خان، ومن خان فهل يطلعه الملك على أسراره؟!.

حب الدنيا من عيوب النفس، فاتهم نفسك ولا تستحسن شيئاً من أحوالها، فإنك إذا رضيت عنها واستحسنت أحوالها لدغتك وأنت لا تشعر، وحجبتك عن حضرة الله وأنت لا تنظر [1].

وقد علمت أن حب الدنيا رأس كل خطيئة، فكيف تكتفي بحب الدنيا وهي ظل زائل هي إلا أنفاس معدودة ستنتهي وتنتقل إلى حياة برزخية في قبرك ثم تكون القيامة لتعرف مصيرك الذي ينتظرك!.

فمن شغله حب الدنيا عن الآخرة فقد خان الأمانة التي تكفل بها الله سبحانه، وهي أن لا ينسى الآخرة والقدوم على الله عز وجل، والخائن للأمانة لا يعلم شيئاً من الأسرار التي أودعها الله في هذه المكونات وكيف يفهم سر الإيجاد في هذه الدار؟. إن الاستسلام لأسر الشهوات هو الذي يحجبه عن فهم أن المكونات تدل على المكون من ثم تهيمن على العبد حالة من الشهود وهو يعني شهود صفات الله، وآلائه ومظاهر فضله ورحمته. فهو لا يستقبل نعمة إلا ويربطها بالمنعم المتفضل وهو الله عز وجل، وأن لا محسن في هذا الوجود إلا الله فيتجه القلب إلى محبة الله وحده لأن القلوب جبلت على حب من أحسن إليها.

* * *

(1) إيقاظ الهمم، ابن عجيبة، ص: 66.

لولا هوان نفسك عليك ما عرضتها لعذاب الله تعالى

يقول إن عطاء الله: تكون في وسط النهر وأنت عطشان، تكون معه في الحضرة وأنت تطلب الاتصال، كأن العباد لم يتواصلوا للآخرة إلا بكثرة المآكل والمشرب، أو قيل لهم هذه توصلكم إلى الآخرة، ولكن ما أرخص نفسك عليك! لولا هوانها عليك ما عرضتها لعذاب الله تعالى، وما غلاها في طلب الدنيا وجمعها، والعجب كل العجب فيمن يسأل المنجِّم [1]. ولا يسأل كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ.

إن العبد إذا أطاع ربه فإنه يقربه ويدخله حضرته، فالصلاة والذكر والدعاء وقراءة القرآن كلها دخول في حضرة الله، فكيف تغفل عن هذا؟.

إن الغافل عن هذا قد حُرم لذة القرب والمناجاة مثاله مثال من هو في وسط النهر لكنه عطشان؟!.

وإن من شأن من يهتم بشهواته من المآكل والمشرب أن تحجبه هذه عن حضرة الله سبحانه. إنه بذلك يعرض نفسه لعذاب الله وسخطه.

إن من شأن العبد الطائع أن يفهم كلام الله ويلتزم بسنة رسول الله ولكن الذي يعطي نفسه هواها في طلب الدنيا فهو لا يدري ماذا يفعل وماذا يفعل له. إن شأنه شأن من يسأل المنجِّم عن حاله والمنجم من عادته أن يكذب مئة كذبة حتى يصدق مرة واحدة.

فارجع بنفسك إلى كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ واتبع أوامر الله وابتعد عما نهى عنه فهذا هو الصواب.

* * *

(1) المنجم: هو الكاهن وهو الذي يتعلم النجوم للحكم بها وعليها، وينسب التأثيرات من الخير والشر إليها. انظر: المعجم الوسيط، ص 941.

من لم يلزم نفسه لزمته

يقول ابن عطاء الله: من لم يلزم نفسه لزمنه، ومن لم يطالبها طالبته، فلو جعلت عليها الأثقال بالطاعة لما طالبتك بالمعصية، ولما كانت تتفرع لها، هل رأيت الصالحين والعباد يتفرجون في الأعياد؟. من شغل نفسه بالفرح [1]. والمباحات شُغل عن قيام الليل، فيقال له: شغلت نفسك عنا فشغلناك عن عبادتنا.

هذا تأكيد على ضرورة مجاهدة النفس حتى يستطيع صاحبها السيطرة عليها والإمساك بعقالها، فإذا شغلتها بالطاعات ابتعدت عن المعاصي، وإذا ألهيتها بحب الآخرة التهت عن التعلق بالدنيا وملذاتها.

أما التفرج على المباحات فليس بحرام، لأن الله تعالى أحل لنا ذلك، ولكن عندما يزداد الانشغال بالمباحات حتى تؤخر الصلاة عن وقتها عندئذ ينبغي للإنسان أن يبتعد عن ذلك أو يقلل منه ما أمكن.

وهذا ما أشار إليه ابن عطاء الله حين قال: «من شغل نفسه بالفرح والمباحات شغل عن قيام الليل».

وهذا الأمر أشار إليه ابن عطاء الله في إحدى حكمه حين قال: «ربما أعطاك فمنعك وربما منعك فأعطاك».

أي ربما أعطاك ما تشتهيه النفوس فمنعك بذلك حضرة القدوس، وربما منعك ما تشتهيه نفسك فيتم بذلك حضورك وأنسك، وربما أعطاك متعة الدنيا وزهرتها فمنعك جمال الحضرة وبهجتها [2].

* * *

---

(1) في المطبوع: بالفرج.

(2) إيقاظ الهمم، ابن عجيبة، ص: 128.

أصل كل معصية وغفلة وشهوة

الرضا عن النفس

يقول ابن عطاء الله: أصل كل معصية وغفلة وشهوة: الرضا عن النفس، وأصل كل طاعة ويقظة وعفة عدم الرضا عنها.

لا يبحث عن الشفاء إلا من أحس المرض، أما من أصيب بعلة فلم يشعر بها ولم يستشف منها، فإن جرائمها تستشري في أوصاله حتى تأتي عليه، وكذلك النفس الإنسانية لا يطلب لها العافية إلا من أدرك ما بها من أدواء، والشعور بالنقص أول مراحل الكمال.

فإذا وجدت أمراً راضياً عن نفسه فافقد منه الأمل، لأنه ينطوي على ركام من العيوب والنقائص وهو لا يلتمس الخلاص منها، بل إنه فاقد الشعور بوضاعتها وهيهات لمثل هذا اكتمال أو نجاة [1].

إذاً : «أصل كل معصية وغفلة وشهوة الرضا عن النفس» لأن من رضى عن نفسه استحسن أحوالها وغطى مساويها ولذلك قال الشاعر:

وعين الرضا عن كل عيب كليلة ....

«وأصل كل طاعة ويقظة وعفة، عدم الرضا عنها» لأن من اتهم نفسه وأساء الظن بها ونظر إليها بعين السخط بحث عن عيوبها واستخرج مساوئها، قال الشاعر: تتمة للبيت السابق:

.... ولكن عين السخط تبدي المساويا

(1) الجانب العاطفي من الإسلام، محمد الغزالي، ص: 122، 123.098

ولذلك قال ابن عطاء الله في إحدى حكمه: «لأن تصحب جاهلاً لا يرضى عن نفسه خير من أن تصحب عالماً يرضى عن نفسه».

لأن من لا يرضى عن نفسه فقد تحقق بالإخلاص لله تعالى. ثم قال ابن عطاء الله «فأي علم لعالم يرضى عن نفسه».

لأن الرضا عن النفس أصبح حجاباً له عن ربه، ثم قال: «وأي جهل لجاهل ولا يرضى عن نفسه» إذ بعدم الرضا عن نفسه بحث عنها وتخلص من رقها فصار عبداً حقيقة الله فحينئذٍ أحبه سيده واصطفاه لحضرته واجتباه لمحبته وأطلعه على مكنون علمه فكان أعلم خلقه؟[1].

ومصدر هذا الذي يقول ابن عطاء الله قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم ۚ بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴾[النساء: 49].

والاستفهام هنا استنكاري، أي ألا ترى إلى قباحة شأنهم، إذ يمدحون أنفسهم ويعبرون عن إعجابهم بها ورضاهم عنها!!.

وأصرح من هذا التعبير ذاته قول الله عز وجل: ﴿ فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمْ ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴾ [النجم: 32].

أي لا تحكموا لها بالصلاح والسمو عن الزغل والشوائب، ولا تمدحوها وتثنوا عليها بما قد تتوهمون؛ فإن الله أعلم بما في نفوسكم منكم.

وتعبيراً عن هذا المعنى ذاته يقول رسول الله ﷺ: «إذا رأيت شُحاً مُطاعاً وهوى مُتبعاً، ودنيا مؤثرة وإعجاب كل ذي رأي برأيه، فعليك بخاصةِ نفسك[2]»[1].

(1) إيقاظ الهمم، ابن عجيبة، ص: 67.

(2) الترمذي في تفسير القرآن، باب: ومن سورة المائدة، رقم (2984). وأبو داود في الملاحم، باب: الأمر والنهي، رقم (3778). وابن ماجه في الفتن، باب: قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ ۖ ﴾، رقم (4004).

وإليك عدداً من آيات القرآن تحذر من طاعة النفس والرضا عنها:

قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾[يوسف: 53].

وقال: ﴿ وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتۡ لِي نَفۡسِي ﴾[طه: 96].

وقال: ﴿ فَطَوَّعَتۡ لَهُۥ نَفۡسُهُۥ قَتۡلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصۡبَحَ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴾[المائدة :30].

وقال: ﴿ قَالَ بَلۡ سَوَّلَتۡ لَكُمۡ أَنفُسُكُمۡ أَمۡرٗاۖ فَصَبۡرٞ جَمِيلٞۖ ﴾[يوسف: 83].

وقال: ﴿ وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ وَنَعۡلَمُ مَا تُوَسۡوِسُ بِهِۦ نَفۡسُهُۥۖ ﴾[ق: 16].

وقال: ﴿ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلۡهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ ﴾[ص: 26].

* * *

(1) الحكم العطائية، شرح د. محمد سعيد رمضان البوطي: 2/ 68، 69.

أجهل الناس من ترك يقين ما عنده لظن ما عند الناس

يقول ابن عطاء الله: الناس يمدحونك بما يظنون فيك، فكن أنت ذاماً لنفسك لما تعلمه منها [1]. ، فإن أجهل الناس من ترك يقين ما عنده لظن ما عند الناس.

هذه إحدى الحكم العطائية وتعني:

هل أغش نفسي لأن الله سترني فانطلقت ألسنة الناس تمدحني؟

ما يعمل هذا عاقل. . . فإذا قال الناس: هو كامل، فلا أنخدع بمقالتهم عن حقيقة ما أعرف من نفسي: «فإن أجهل الناس من ترك يقين ما عنده لظن ما عند الناس». والعجب أن أناساً يكذبون ثم يصدقون هم أنفسهم ما اختلقوه على الناس، كما روي عن أشعب أن الأطفال تبعوه يوماً بزياطهم [2]، فأراد أن يصرفهم عنه فزعم لهم أن عرساً بمكان كذا توزع فيه الحلوى !!. فلما جروا إلى العرس المزعوم تبعهم أشعب هو الآخر يجري !!.

إن ذلك مثل من يسمع المدائح فيه فيصدقها، وهو يدري من باطن أمره أنه غير ما قيل فيه [3].

إن المرائي نيته في أول عمله وآخره: طلب الثناء والمحمدة، والرفعة عند الناس، وعلامة من لا يركن إلى المدح أن يزداد تواضعاً، وخوفاً من الاستدراج وما يخفى من عمله فهو أحب مما يظهره، مع ما يلزمه من الخوف من الفتنة مما يلزم أهل الثناء والمحمدة إذا أثني عليهم أو

---

(1) في المطبوع: لما تعلم منها.

(2) زياطهم: الزياط هو الجلجل، وهو الجرس الصغيرة. المعجم الوسيط، ص 424.

(3) الجانب العاطفي من الإسلام، محمد الغزالي، ص: 141.

مدحوا مثل قول سيدنا عمر ﷺ لمن مدح آخر في وجهه: «عقرت الرجل»[1]. ، وقوله : «قطعت عنق أخيك» [2].

وعلامة من يركن إلى المدح ويحبه، أنه إذا سمع الثناء أحب ذلك، وازداد عزة وإعجاباً بنفسه، وغفلة عن الاستدراج، وتمادى وتمنى وطمع أن ما ظهر عليه من أعماله كان أحب إليه مما خفي، ولم يخاف من فتنة ولا من آفة.

وكذلك إذا كره المذمة، إنما كرهها لأنه أحب أن يكون مكانها مكانها مدحة وثناء، لينال بذلك الجاه والقدر، والمنزلة والرفعة عند الناس، فهي كراهية سقيمة مذمومة وصاحبها مغرور ومخدوع[3].

ولذلك كان بعضهم يقول: «اللهم اجعلني خيراً مما يظنون ولا تؤاخذني بما يقولون واغفر لي ما لا يعلمون».

فمن مُدح بشيء نظر فإذا كان فيه علم أنه تنبيه له على مقام الشكر. وإن لم يجده فيه علم أنه تنبيه له على تحصيل ذلك المقام؛ ولهذا لما سمع أبو حنيفة قوماً يمدحوا بما لم ما يفعلوا فقال : ﴿ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُواْ بِمَا لَمْ يَفْعَلُواْ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ ﴾[4][آل عمران: 188].

ثم إن ذمك لنفسك إذا توجه الخلق إليك بالمدح إنما هو حياء من ربك حيث ستر عيوبك وأظهر محاسنك.

---

(1) أخرجه البخاري في الأدب المفرد، رقم (335): 1/ 133.

(2) البخاري، الشهادات، إذا زكى رجل رجلاً كفاه، رقم (2468). ومسلم في الزهد والرقائق، باب: النهي عن المدح إذا كان فيه إفراط وخيف منه فتنة، رقم (5319).

(3) آداب النفوس، الحارث المحاسبي، ص: 73، 74.

(1) إيقاظ الهمم، ابن عجيبة، ص: 211.

ثم يقول ابن عطاء الله: «فإن أجهل الناس من ترك يقين ما عنده لظن ما عند الناس». فاليقين هو علمه بمساويه وخفايا عيوبه وما انطوت عليه سرائره من النقائص والتقصير. وظن ما عند الناس هو ما يرون على ظاهره من الكمالات وأنوار الطاعات التي تصحبها العلل الباطنية والحظوظ النفسانية فيتوجهون إليك بالمدح والثناء، فإذا قنع بذلك وفرح بها هنالك فهو أجهل الناس وأحمق الناس والمطلوب عكس هذا وهو أن ينقبض عند المدح وينبسط عند الذم حتى يستويا عنده.

ويقول ابن عطاء الله في إحدى حكمه: «إذا أطلق الثناء عليك ولست بأهل له فأثن عليه بما هو أهله». أي من مدح بما لا يعلمه من نفسه وليس أهلاً له، فعليه أن يثني على الله بما يستحقه من التعظيم ليكون ذلك شكراً لنعمة إطلاق الألسنة بالثناء عليك وأيضاً فإنه هو الذي ستر عنهم مساوئك وأظهر لهم محاسنك ولو أظهر لهم ذرة من مساوئك لمقتوك وأبغضوك[1].

لذلك قال الشاعر:

إذا المرء لم يمدحه حسن فعاله فمادحه يهذي وإن كان مفصحاً

* * *

(1) المرجع السابق، ص: 213.

المؤمن يشغله الثناء على الله عن أن يكون لنفسه شاكرا

يقول ابن عطاء الله: المؤمن يشغله الثناء على الله عن أن يكون لنفسه شاكراً، وتشغله حقوق الله عن أن يكون لحظوظه ذاكراً.

لو كنت كيساً فطناً لكانت حقوق الله عندك أحظى من حظوظ نفسك.

هذه إحدى الحكم العطائية ومعناها:

ما قيمة حظوظ النفس أمام نعم الله سبحانه وتوفيقه، فالذي يوفق لشكر الله وحمده على نعمه ماذا يبقى لنفسه من حظوظ؟!!.

إذ كل نعمة تتقلب فيها منه سبحانه وقيامك بحقوق الله ينسيك نفسك التي بين جنبيك.

إن النعم تحتاج إلى شكر واعتراف بالجميل، فالكل من نعمه سبحانه خلقنا ورزقنا وصحتنا وعقلنا وكل ما نتمتع به من نعم هي من إحسان الله ورحمته بنا وتكريمه إيانا، فماذا يبقى للنفس من حظوظ؟!.

ولكن عندما تغيب هذه الحقيقة عن النفس، تنسى أن المنعم هو الله سبحانه، فتستخدم الصحة في معصية الله، والرزق لإنفاقه في الحرام وكسبه من الحرام؟!.

فأف لعبد ينعم الله عليه بالصحة فيستعملها في معصيته؟!.

* * *

الغفلة عن الله

الغفلة عن الله

﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴾[المطففين: 14- 15].

يقول ابن عطاء الله: «طالما تمرغت في مواطن المحن. . . » فعصيت الله سبحانه وأعطيت نفسك ما تشتهي، لقد فشلت في الامتحان، لأن هذه الدنيا دار بلاء وامتحان.

والفوز بالامتحان يعني التغلب على الشهوات والتوجه بالطاعة لله وحده سبحانه.

إن من مات قلبه من الغفلة لن ترده المحن والمصائب لأن الميت لا يتألم ولو قُطع بالسيوف، فترى الغافل شارداً عن صراط الله لا يقوم الليل ولا يصوم النهار ولا يشعر بالخوف من الله عز وجل.

فحتى تتطهر من تلك الغفلة ابحث عن مجلس علم، كل يقول ابن عطاء الله لعالم صادق علك تأخذ نفحة من نفحات الإيمان تردك إلى الله سبحانه.

وربما لم تستفد من الجلسة الأولى بسبب سماكة الران على قلبك فتحتاج إلى تكرار الجلوس حتى تكون لكل جلسة صقلة.

* * *

من علامات الغفلة انشغال القلب بالدنيا

يقول ابن عطاء الله: أهل الغفلة إذا أصبحوا يتفقدون أموالهم، وأهل الزهد والعبادة يتفقدون أحوالهم، وأهل المعرفة يتفقدون قلوبهم مع الله عز وجل.

من لم يترك المحرمات لم ينفعه القيام بالواجبات، من لم يحتم لم ينفعه الدواء، ما أقل بركة مال وقعت فيه أيدي الناهبين، فهذا والله عمر الغافلين منهوب.

من علامة الغفلة انشغال القلب بالدنيا، فينام ويستيقظ الغافل وهمه جمع المال بأي طريق وحساب ربحه من خسارته، ألهذا خلق الإنسان؟.

أما أهل الزهد فيتفقدون أحوالهم مع الله ويتداركون التقصير.

أما أهل المعرفة بالله فيتفقدون قلوبهم مع الله عز وجل. فينفون عنها الأغيار ويملئونها بحب الله وطاعته.

يقول ابن عطاء الله في إحدى حكمه: «الغافل إذا أصبح نظر في ماذا يفعل والعاقل ينظر ماذا يفعل الله به».

فالجاهل إذا أصبح نظر ماذا يفعل بنفسه فيدبر شؤونه ومآربه بعقله وحدسه فهو ناظر لفعله معتمد على حوله وقوته، فإذا قضى الله على غير ما يتوقعه من كسب مال أو غيره غضب وسخط وقنط وأساء أدبه مع ربه فلا جرم أنه يستحق من الله البعد.

وأما العاقل وهو العارف فقد تحققت في قلبه عظمة ربه وانجمع إليه بكلية قلبه فأشرقت في قلبه شموس العرفان وطوى من نظره وجوه الأكوان فليس له عن نفسه أخبار ولا مع غير الله قرار، تصرفه بالله ومن الله وإلى الله فقد فني بنفسه وبقي بربه فلم ير لها تركاً ولا فعلاً ولا قوة ولا حولاً فإذا أصبح نظر ماذا يفعل الله به فيتلقى كل ما يرد عليه بالفرح والسرور والبهجة والحبور لما هجم عليه من حق اليقين والغنى برب العالمين [1].

* * *

(1) إيقاظ الهمم، ابن عجيبة، ص: 164، 165.

علاج الغفلة

يقول ابن عطاء الله: للظاهر جنابةٌ تمنعك من دخول بيته، وتلاوة كتابه، وللباطن جنابةٌ تمنعك من دخول حضرته، وفهم كلامه، وهي الغفلة، فإذا طلبت النفس الشهوات فألجمها بلجام الشرع، فمثالها كالدابة إذا مالت لزرع غيرك، فغض الأبصار من ميلها إلى المستحسنات والقلوب عن ميلها إلى الشهوات، وليكن قلبك معموراً على الدوام، والحق سبحانه وتعالى اختار لحضرته من يصلح لها ومن لا يصلح رماه للكائنات، فمثالهم كالعبيد يعرضون على الملك، فمن أخذه الملك عز ومن لا يصلح بقي للرعية.

يقول الإمام المحاسبي رحمه الله: «أما أنا فلا أعرف خصلة أكثر في الناس، ولا أغلب عليهم، ولا أكثر ضرراً، ولا أشد عليهم تركاً، على الخاص والعام، والعالم والمتعلم والجاهل، من الغفلة» (1).

إن من شأن الغفلة أن تمنعك من دخول حضرته سبحانه، وبالتالي أن تفهم كلامه ولن تفلح بالدعاء له، فعليك أن تلجم نفسك بلجام الشرع حتى تتطهر من غفلاتها وحبها للشهوات.

وميل النفس للشهوات فيه لذة ولكن ذلك غالباً ما يترافق مع الغفلة عن الله سبحانه، فاترك تلك اللذة وادخل حضرة الله منيباً إليه فإنه لذة لا تضاهي وتفوق لذة الشهود بكثير، فإن من وفقه الله للطاعة فقد اجتباه وأحبه وأعزه، ومن لم يوفق وكل إلى نفسه وشغل بالكائنات عن المكون، قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾ [الشورى: 13].

* * *

(1) آداب النفوس، ص 85.

الغفلة والشهوة والإعراض من صفات النفس

يقول ابن عطاء الله: إذا رأيت فيك الإعراض والشهوة والغفلة فهذا وصفك، وإذا رأيت فيك الإنابة والخشية والزهد فهذا من صنائع الله، مثال ذلك: إذا رأيت ببلدك الحلفاء [1] والشوك والعوسج [2]. فهذا نبات أرض بلدك، وإذا رأيت بها العود الرطب والمسك والعنبر فاعلم أنه مجلوب من صنائع الله ليس من نبات أرضك، فالمسك من غزلان عراقها، والعنبر من بحر عندها.

الشهوة والغفلة من صفات الجسد الترابي فيطلب الطعام والشراب واللذة، ويطلب الراحة من الطاعة ولا يحب الالتزام بها بل يبقى غافلاً عن ربه سبحانه وتعالى.

ثم قال: «أما إذا رأيت فيك الإنابة والخشية والزهد فهذا من صنائع الله» فهذا تفضل من الله سبحانه أن صان عبده عما يغضبه، وتأمل في قوله تعالى: ﴿إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا وَيُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ﴾[الأنفال: 29].

فقد جعل لهم فرقاناً يفرقون به بين الحق والباطل وبين طاعته ومعصيته. وهذا الفرقان هو للمتقين الذين يراقبون الله في السر والعلن والذين ينفذون أوامر الله ويبتعدون عن نواهيه.

فالشوك والعوسج والحلفاء مثال للشهوة والغفلة وهذه تنشأ في النفس، والمسك والعنبر هي من صنائع الله وتوفيقه لعبده سبحانه وهي فضل من الله ذي الرحمة الواسعة.

* * *

(1) الحلفاء: الواحدة حليفة وهي: نبت من الفصيلة النجيلية، أطرافه محددة كأطراف سعف النخل، تُصنع من أوراقه الحصر والحبال. المعجم الوسيط، ص: 199.

(2) العوسج: نبات شائك من الفصيلة الباذنجية، له ثمر مدور كأنه خرز العقيق. المعجم الوسيط، ص: 621.

حقيقـــة المؤمـــن

المؤمن والمخذول

يقول ابن عطاء الله: إذا قيل لك من المؤمن؟ فقل: الذي اطلع على عيب نفسه ولم ينسب أحداً من العباد إلى عيب، وإذا قيل لك: من المخذول؟. فقل: الذي ينسب العباد إلى العيب ويبرئ نفسه منه.

كفى بك جهلاً نظرك إلى صغير إساءة غيرك، وتعاميك عن كبير إساءتك. إن من لطف الله بك أن يكشف لك عن عيوب نفسك، ويشترها عن الناس.

قال الإمام الشافعي رحمه الله:

عجبت لمن يبكي على عيب غيره دُموعاً ولا يبكي على عيبه دماً

وأعجب من هذا يرى عيب غيره صغيراً وفي عينيه من عيبه عمى

إن العاقل هو الذي يهتم بعيوب نفسه ويبتعد عن مراقبة غيره.

والمؤمن هو الذي يخجل من الله عز وجل بسبب عيوبه ويسأله دائماً أن يعينه على نفسه بإصلاحها، هذا هو التواضع لله عز وجل. أما المخذول المتكبر فهو الذي لا يرى عيوب نفسه ويرى عيب غيره.

وكان الأحرى به أن يراقب نفسه فيعرف مواطن ضعفها وتقصيرها ويحمد الله أن سترها عن الناس، ثم إنه يلتمس الأعذار للغير فلا ينسب أحداً إلى عيب، إذ كيف ينسب غيره إلى عيب وهو مليء بالعيوب؟!.

يقول الحارث المحاسبي: «إن المخدوع يشغل بعيوب غيره عن عيوب نفسه، والخداع النفسي لا يمكن أن ينكشف لصاحبه إلا إذا نظر إلى غيره، أما أن يكتشفه في ذاته دون أن يكتشفه في غيره فهو عسير. إن الإنسان عند معرفة عيبه أبله وعند معرفة عيب غيره جهبذ. وعند التماس العذر لغيره أبله وعند التماس العذر لنفسه جهبذ وينبه إلى أن الإنسان حين

يكتشف عثرة من غيره يجب عليه أن يعود إلى نفسه على الفور ليكتشف نفس العثرة في نفسه»[1].

* * *

(1) آداب النفوس، المحاسبي، ص: 97.

كيفية التعامل
مع العصاة والمذنبين

خطر مباسطة ومؤانسة العاصين

يقول ابن عطاء الله: ومما تمادى عليه أهل الزمان، مباسطتهم ومؤانستهم للعاصين، ولو أنهم عبسوا في وجوههم لكان ذلك زجراً لهم عن المعصية.

إذا عصى ولدك فأدبه بالشرع ولا تقطعه بل قابله بالعبوسة ليكف عن المعصية، وأكثر ما يدخل على المؤمن من الدخل(1). إذا كان عاصياً، فإما أن يفضحوه وإما أن يستهزئوا به، فإذا فعلوا ذلك فقد أخطئوا الطريق.

إذا عصى المؤمن فقد وقع في ورطة عظيمة، وطريقه أن تفعل معه كما فعلت مع ولدك عند عصيانه، تعرض عنه في الظاهر، وتكون له راحماً في الباطن وتطلب له الدعاء بالغيب.

لقد ضرب الله لنا مثلاً في القرآن عن بني إسرائيل أنهم لعنوا بسبب كفرهم وبسبب رؤيتهم للمنكر وعدم الاعتراض عليه، وجلوسهم مع العصاة على مائدة واحدة فقال سبحانه: ﴿ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ٧٨ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوۡنَ عَن مُّنكَرٖ فَعَلُوهُۚ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ﴾[المائدة: 78- 79].

والحديث الآتي يبين كيف حدث ذلك فيقول ﷺ: «إن أول ما دخل النقص على بني إسرائيل أنه كان الرجل يلقى الرجل فيقول: يا هذا اتق الله ودع ما تصنع فإنه لا يحل لك، ثم يلقاه من الغد وهو على حاله فلا يمنعه ذلك أن يكون أكيله وشريبه وقعيده فلما فعلوا ذلك ضرب الله قلوب بعضهم ببعض»(2).

---

(1) الدخل: العيب والغش والفساد، ويعني أن إيمانه كان متزلزلاً فيه نفاق.

(2) أبو داود في الملاحم، باب: الأمر والنهي، رقم (3774)، والترمذي، تفسير القرآن عن رسول الله، ومن سورة المائدة، رقم (2973) وقال: حسن غريب ومرسل. وابن ماجه في الفتنة، باب: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، رقم (3996).

وعلى هذا لا يجوز مباسطة العاصين ومؤانستهم، بل يجب العبوس في وجههم لعل ذلك يكون زجراً لهم عن المعصية كما تفعل مع ولدك.

إن الاستهزاء بالعصاة والمذنبين والسخرية منهم قد يزلزل إيمانهم فلا ينبغي للمسلم أن يكون السبب في ذلك؛ لأن العاصي قد وقع في ورطة فعليك بتخليصه منها لا أن تكون عوناً للشيطان على أخيك ولذلك لما شتم رجل صاحب فاحشة أمام النبي ﷺ زجره وقال: «لا تكونوا عوناً للشيطان على أخيكم»[1].

وطريق ذلك أن تعرض عن العاصي في الظاهر دو استهزاء وسخرية، وتكون له راحماً في قلبك وتطلب له الدعاء بالغيب أن يهديه الله إلى الصراط المستقيم، لأن دعاء المؤمن لأخيه في الغيب مستجاب، قال ﷺ: «دعوة المرء المسلم لأخيه في ظهر الغيب مستجابة، عند رأسه ملك موكل كلما دعا لأخيه بخير قال الملك الموكل به: آمين ولك بمثل»[2].

يقول ابن عطاء الله في إحدى حكمه: «من اطلع على أسرار العباد ولم يتخلق بالرحمة الإلهية كان اطلاعه فتنة عليه وسبباً لجر الوبال عليه».

فالمطلع على أسرار العباد التي تقتضي وجود العيب، إذا لم يتخلق صاحبه بالرحمة الإلهية فيرحم المذنبين ويحلم على الظالمين ويصفح عن الجاهلين، ويحسن إلى المسيئين، فإنه يكون ذلك الاطلاع فتنة عليه، لأن ذلك يؤديه إلى رؤية نفسه واستعظام أمرها، والعجب بعمله والتكبر على غيره، وهاذ هو أعظم الفتنة ويكون ذلك سبباً لجر الوبال إليه، قال ﷺ: «ما نُزعت الرحمة إلا من قلب شقي»[3].

---

(1) البخاري في الحدود، باب: ما يكره من لعن شارب الخمر. . . ، رقم (6283).

(2) مسلم، الذكر والدعاء، فضل الدعاء للمسلمين بظهر الغيب، رقم (4914).

(3) الحاكم في المستدرك وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه، 4/ 277.

وقال ﷺ: «الراحمون يرحمهم الرحمن ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء»[1].

قال الشاعر:

وأغفر عوراء الكريم ادّخاره　　　وأعرض عن شتم اللئيم تكرماً

والفقرة الآتية هي تكرار لهذا المعنى.

* * *

(1) الترمذي في البر والصلة، باب: ما جاء في رحمة الناس، رقم (1847).

الرحمة بالعصاة

يقول ابن عطاء الله: شتان بين أهل السعادة وأهل الشقاوة، فأهل السعادة إذا رأوا إنساناً على معصية أنكروا عليه في الظاهر ودعوا له في الباطن، وأهل الشقاوة ينكرون عليه تشفياً فيه، وربما للموا [1]. عليه عرضه، فالمؤمن من كان ناصحاً لأخيه في الخلوة. سائراً له في الجلوة، وأهل الشقاوة بالعكس: إذا رأوا إنساناً على معصية أغلقوا عليه الباب وفضحوه فيها، فهؤلاء لا تنور بصائرهم، وهم عند الله مبعدون.

من ذا الذي ما ساء قسط ومن الذي يملك الحسن فقط

فالبعيد عن الله هو الذي يعير أخاه بالمعصية ناسياً أنه ربما وقع في الذنب نفسه؟! لذلك قالوا: «كل معصية عيرت بها أخاك فهي إليك».

أي صائرة إليك ولابد أن تعملها، وهي مأخوذة من الحديث الذي رواه الترمذي عن النبي ﷺ أنه قال: «من عير أخاه بذنب لم يمت حتى يعمله»[2].

وفي التعيير ضرب خفي من الشماتة بالمعير، وفي الترمذي أيضاً مرفوعاً: «لا تظهر الشماتة لأخيك، فيرحمه الله ويبتليك»[3].

إن الله سبحانه أمر بالستر على العاصين وأمر العاصين بالتوبة الصادقة وبذلك ينتهي الأمر وكأن شيئاً لم يكن، أما الفضيحة فلا تجر إلا المصائب، لأن الناس لا يرحمون المخطئ، ومع أن الله قد قبل توبة العاصي فإن الناس يعرضون عنه ولا يصفحون عن خطئه، خذ مثالاً على ذلك البنت إذا فعلت فاحشة وتابت إلى الله توبة نصوحاً؛ فإن أهلها لا يقبلون توبتها ولا

---

(1) في نسخة ثلبوا من باب ثلب يثلبه ثلباً: أي لامه وعابه وصرح بالعيب وقال فيه وتنقصه. المعجم الوسيط، ص: 103.

(2) الترمذي في صفة القيامة والرقائق، رقم (2429).

(3) التخريج السابق، رقم (2430).

يكفرون عن ذلك العار إلا بقتلها؟! إنهم ارتكبوا جريمة أعظم من جريمة الزنى !!!. في الوقت نفسه إذا زنى الشاب وتاب غفر له أهله ذلك الذنب والتمسوا له الأعذار. أما البنت فليس لها أي عذر على ما يظنونه خطأ.

المؤمن عندما يعصي قد وقع في ورطة يريد من يخلصه منها لا من يؤجج نارها، يريد من يأخذ بيده إلى الطريق المستقيم الذي حاد عنه. فهلا مدّدت يدك إلى العاصي بكل رحمة وشفقة لترده إلى حظيرة الإسلام وتكون سبباً في هدايته ولك الأجر العظيم على ذلك.

* * *

الإعراض عن العصاة والدعوة لهم في الغيبة

يقول ابن عطاء الله: كما أُمرت أن تُعرض عن المعصية، أمرت أن تعـرض عمـن عصى، وتدعو له في الغيبة، والناس اليوم على العكس، وما عسى أن ينفعك صومك وصلاتك وأنـت تقع في عرض أخيك المسلم.

هناك جهلة من المسلمين يشتمون بالعصاة، ويرون أنهم أفضل حالاً منهم، وربما أساؤوا إليهم بألسنتهم وفضحوهم أمام الناس، وهذا خطأ فادح.

إن المسلم يستر أخاه، ولا يظهر الشماتة له. وفي الهدي النبوي يقول ﷺ: «لا تظهر الشـماتة لأخيك فيرحمه الله ويبتليك»[1].

ويقول ﷺ : «من ستر مسلماً – أي في الدنيا – ستره الله يوم القيامة»[2].

ويقول ابن عباس رضي الله عنهما: «إن الله حليم رحيم يحب الستر»[3].

إذاً ما من إنسان إلا ويخطئ ويذنب ولا عصمة إلا للأنبياء والرسل. فكلنا معرضون للخطأ، فكن عوناً لأخيك العاصي، بأن تنصحه وتدعو له في غيبته بالهداية رحمة به.

يقول ﷺ: «دعوة المرء المسلم لأخيه في ظهر الغيب مستجابة، عند رأسه ملك موكل كلما دعا لأخيه بخير قال الملك الموكل به: آمين، ولك بمثل»[4].

---

(1) سبق تخريجه، ص 278.

(2) البخاري في المظالم والغصب، باب، لا يظلم المسلم المسلم ولا يسلمه، رقم (2262). ومسلم في البر والصلة، باب: تحريم الظلم، رقم (4677).

(3) أبو داود في الأدب، باب: الاستئذان في العورات الثلاث، رقم (4518).

(4) سبق تخريجه ص 276.

وانظر إلى النبي ﷺ حين انتهى من غزوة حنين وحاصر ثقيفاً في الطائف بضعة عشر يوماً. ثم أمر أصحابه بالعودة إلى ديارهم دون أن تُفتح الطائف، فقال بعض الصحابة: يا رسول الله ادع الله على ثقيف فقال: «اللهم اهد ثقيفاً وائت بهم»[1].

وتحقق ذلك وهدى الله ثقيفاً بعد ذلك بقليل، فقد جاء وفدهم إلى رسول الله ﷺ بالمدينة لإعلان إسلامهم.

إن نبينا محمداً ﷺ ينهانا عن تتبع عورات المسلمين بقوله ﷺ: «يا معشر من آمن بلسانه ولم يدخل الإيمان في قلبه ! لا تغتابوا المسلمين ولا تتبعوا عوراتهم فإنهم من اتبع عوراتهم تتبع الله عورته ومن تتبع عورته يفضحه في بيته»[2].

فإياك أن تفضح العاصي أو تتبع عورته، ولو كنت تصلي وتصوم فإن صلاتك ينبغي أن تنهاك عن الفحشاء والمنكر، ومن المنكر أن تفضح أخاك الذي تورط في معصية وزلت قدمه.

أما أن تصلي وتصوم وتقع في عرض أخيك المسلم بالشماتة والفضيحة والتعيير، فاعلم أنه ليس لك من صلاتك إلا التعب ومن صومك إلا الجوع والعطش.

* * *

(1) الترمذي في المناقب، باب: في ثقيف وبني حنيفة، رقم (3877).

(2) أبو داود، في الأدب، باب: في الغيبة، رقم (4236). وأحمد، أول مسند البصريين، حديث أبي برزة الأسلمي، رقم (18940). قال في مجمع الزوائد: رجاله ثقات وإسناده حسن.

لا تنتقد على الناس بظاهر الشرع ولا تنكر عليهم

يقول ابن عطاء الله: لا تنتقد على الناس بظاهر الشرع ولا تنكر عليهم، فلو خوطبوا اليوم بما كانت عليه الصحابة والسلف الصالح، لم يستطيعوا لأن أولئك حجج الله على خلقه.

فالداعي إلى الله يجب أن يكون رحيماً بالخلق، حكيماً في أمره بالمعروف ونهيه عن المنكر.

إننا في عصر شغل الناس فيه بحياتهم الدنيا، وغلبت عليهم النزعة المادية البغيضة، وللشيطان في الناس سوق نافقة، وبضاعة رائجة وعملاء مدربون وعلى معلمي الدين والدعاة إلى الله أن يشحذوا أسلحتهم لجهاد الشيطان ومطاردته، وتنفير أتباعه من بضاعته، وإغرائهم ببضاعتهم وجذبهم إلى سوقهم، ولن يكون ذلك أبداً بالتعنت والتزمت، والإحراج والتشديد، والتعسير والتنفير، وليس معنى ذلك ابتكار دين سهل خالص سائغ للشاربين، وإنما دين الله نفسه يسر لا عسر فيه، قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: 78]. وحين بعث النبي ﷺ أبا موسى ومعاذاً إلى اليمن أوصاهما بقوله: «يسرا ولا تعسرا، وبشرا ولا تنفرا، وتطاوعا ولا تختلفا»[1].

* * *

(1) البخاري في الجهاد والسير، باب: ما يكره من التنازع والاختلاف في الحرب، رقم (2811). ومسلم في الجهاد والسير، باب: في الأمر بالتيسير وترك التنفير، رقم (3263).

لا تقنط الناس من رحمة الله

يقول ابن عطاء الله: إياك أن تقول: ذهب الخير وانطوى بساطه، فلسنا نريد من يُقنط الناس من رحمة الله، ويؤيسهم منه تعالى، ففي زبور داود عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام: أرحم ما أكون بعبدي إذا أعرض عني. قرب مطيع هلك بالعجب، ورب مذنب غفر له بسبب كسر قلبه.

عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «إذا قال الرجل هلك الناس فهو أهلكهم»[1].

وقال ﷺ: «يسروا ولا تعسروا وسكنوا ولا تنفروا»[2].

فمن يملك الحق أن يقنط الناس من رحمة الله ويؤيسهم منه تعالى بعد ما أعلن سبحانه أنه يغفر الذنوب جميعاً، قال تعالى: ﴿ ۞ قُلْ يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ ﴾[الزمر: 53].

ومن يجرؤ أن يدعي أنه أحسن حالاً من ذلك المذنب، ألا يخشى أن تكون طاعته سبب هلاكه إذا أعجب فيها، وأن يكون الذنب سبب لمغفرة الله بسبب كسر قلبه!!.

ولذلك قال ابن عطاء الله في إحدى حكمه: «معصية أورثت ذلاً انكساراً خير من طاعة أورثت عزاً واستكباراً».

وقال ﷺ: «قال رجل: والله لا يغفر الله لفلان ! فقال الله عز وجل من ذا الذي يتألى علي ألا أغفر لفلان؟ إني قد غفرت له وأحبطت عملك»[3].

* * *

---

(1) مسلم في البر والصلة والآداب، باب: النهي عن قول: هلك الناس، رقم (4755).

(2) البخاري في الأدب، باب: قول النبي : يسروا ولا تعسروا، رقم (5660).

(3) مسلم في البر والصلة والآداب، باب: النهي عن تقنيط الإنسان من رحمة الله تعالى، رقم (4753).

كيف تكون
الطاعة لله وحده

ليتك لو أطعت مولاك كما يطيعك عبدك

يقول ابن عطاء الله: ليتك لو أطعت مولاك كما يطيعك عبدك، فإنك تحبه ناهضاً في خدمتك دائماً، وأنت تحب الطاعة وتطلب أن تفرغ منها مسرعاً، كأنك تنقر بالمناقير، فيا ليت بصراً نظرت به محاسن غيره عوضت عنه العمى.

انظر إلى الناس من حولك تجدهم يجلسون الساعات والساعات مستأنسين لحديث ويجعلون الغيبة والنميمة فاكهة المجلس، فإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى متثاقلين همهم أن ينقضي وقت الصلاة. لذلك تراهم ينقرون نقر الديك ليعودوا بعدها لما كانوا عليه، هذه طبيعة النفس الإنسانية، فكيف تحب الطاعة وتطلب أن تفرغ منها مسرعاً؟.

ثم يقول: «فيا ليت بصراً نظرت به محاسن غيره عوضت عنه العمى».

أي لو أنك تعلم حقيقة العبادة لما أسرعت في الهروب منها، فالصلاة هي لحظات يقضيها المسلم كل يوم في رحاب الله الواسعة، وهي توجه النفس الوجهة الصحيحة نحو خالقها وبارئها، فتجدد في النفس نشاطها الروحاني، وتقوي إيمانها، وتهديها إلى الصراط المستقيم بعد أن تاهت في فجاج الدنيا مدة طويلة قبل الصلاة.

ومع ذلك نُصلِّي بلا خشوع، نُصلِّي ولا نعلم كم نُصلِّي، ثلاثاً أم أربعاً وسجود السهو كثيراً ما يرافق صلاتنا لنجبر الشرود والنسيان، جسدنا في الصلاة وخيالنا يسرح في متاهات الدنيا اللامتناهية»[1].

إن لذة الدنيا فانية وإن كانت مستحسنة فما ينبغي أن تصرف بصرك إلى المتع والشهوات وتنسى عبادة الله التي من أجلها خلقت؟!.

* * *

---

(1) الخشوع في الصلاة، المؤلف، ص: 908.

إفراد الله بالعبادة

يقول ابن عطاء الله: إقبالك على الله إفرادك له بالعبادة، فكيف يرضى لك أن تعبد غيره؟! فلو أتيتنا تطلب العطاء منا ما أنصفتنا، فكيف يرضى إذا أقبلت على سوانا.

العبادة والطاعة لا تكون إلا لله وحده، قال سبحانه: ﴿ وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴾ [الأنبياء: 92]. وقال: ﴿ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴾[الحجر: 99].

إن الله وتر يحب الوتر(1)، أي يجب أن تكون العبادة والسؤال له وحده سبحانه وتعالى، يجب أن لا يتعلق قلب العبد إلا به وينسى ما سواه!.

ويأبى الإنسان إلا أن يشرك بالله ويعبد الأصنام؟!. وإن عبد الله وحده تراه يلتفت إلى شهواته وأهوائه فيتخذها إلهاً، قال تعالى: ﴿ أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ ﴾ [الجاثية: 23].

وقال ﷺ واصفاً من يكون عبداً لبعض المتع الدنيوية التافهة: «تعس عبد الدينار والدرهم والقطيفة والخميصة إن أعطي رضي وإن لم يُعط لم يرض»(2).

* * *

(1) الترمذي في الصلاة، باب: ما جاء أن الوتر ليس بحتم، رقم (415) وقال: حديث حسن.

(2) البخاري في الجهاد والسير، باب: الحراسة في الغزو في سبيل الله، رقم (2673).

قصة سيدنا إبراهيم الخليل مع النمرود

من التزم بطاعة الله واجتناب نواهيه رغبة في الحصول على نعيم الجنة الخالد الذي أخبرنا الله عنه. بحيث لو علم العبد أن طاعته ستذهب هدراً ولن ينال من ورائها ما يحلم به فلن يلقي بالاً لها، ول يستجيب لأوامر الله.

إن هذا دليل على قلة حياء العبد من الله عز وجل بل دليل على جرأته عليه!.

إذ العبادة تكون لله وحده طلباً لرضاه ولأنه ربنا ونحن عبيده، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾[البينة: 5].

وهذا المعنى كانت رابعة العدوية تناجي به ربها قائلة: «اللهم إني ما عبدتك خوفاً من نارك ولا طمعاً في جنتك ولكني علمت أنك رب تستحق العبادة فعبدتك»[1].

* * *

(1) المرجع السابق، ص: 308 وما بعدها.

التقرب إلى الله

يقول ابن عطاء الله: لو تقربت إلى الله لسمعت مخاطبته على الدوام في سوقك وبيتك، ولكن من استيقظ شهد، ومن نام لم تسمع أذنا قلبه، ولم تشهد بصيرته، ولكن الحجاب مرخي.

التقرب إلى الله يكون بالالتزام بفرائض الله ثم بالنوافل، إن من يفعل ذلك يحس بقربه من الله عز وجل ويشعر بعنايته وحفظه له في سوقه وفي بيته وفي كل مكان، يقول الله تعالى في الحديث القدسي: «ما تقرب إلى عبدي بشيء أحب إلي مما افترضته عليه ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها ولئن سألني لأعطينه، ولأن استعاذني لأعيذنه»(1).

وقد يلتبس على البعض كيف يكون الباري جل وعلا سمع العبد وبصره إلى آخر الحديث.

والجواب: إن الذي يتقرب إلى الله بالفرائض ثم بالنوافل ينال محبة الله عز وجل له. ومن شأن محبة الله العناية والحفظ لهذا العبد فيوفق الله تعالى عبده في الأعمال التي يباشرها بأعضائه المذكورة في الحديث السابق. فيحفظ الله له جوارحه ويعصمه عن مواقعة ما يكرهه الله تعالى من الإصغاء إلى اللهو بسمعه ومن النظر إلى ما نهى عنه تعالى ببصره، ومن البطش فيما لا يحل له بيده، ومن السعي إلى الباطل برجله.

أما الذي يبتعد عن الله ويقترف الذنوب والمعاصي فهذا معرض عن حب الله له والعياذ بالله. كثرت ذنوبه حتى أصبحت حجاباً يحجب قلبه وبصيرته عن معرفة الحقيقة فكيف يسمع مخاطبة الله له على الدوام؟!.

* * *

---

(1) البخاري في الرقاق، باب: التواضع، رقم (6021).

جوارحك غنمك وقلبك الراعي والله هو المالك

يقول ابن عطاء الله: جوارحك غنمك وقلبك الراعي، والله هو المالك، فإن رعيتها في المرعى الخصيب حتى أرضيت المالك، استوجبت الرضا، وإن رعيتها في المرعى الوخيم حتى أعجف[1]. أكثرها، ثم جاء الذئب فأخذ بعضها استوجبت العقوبة من المالك، فإن شاء انتقم منك، وإن شاء منك عفا عنك، فجوارحك إما أبواب إلى الجنة، وإما أبواب إلى النار، فإن صرفتها فيما يرضاه كنت ساعياً في طريق الجنة، وإلا كنت ساعياً في طريق النار، فهذه موازين الحكمة، فزن بها عقلك، كما تزن بها الأشياء المحسوسات.

وقد مر سابقاً عند الكلام عن أحوال القلب أن القلب ملك مُتبع، والجوارح تبع له وهو الحاكم عليها[2]، فإن استعملت جوارحك في طاعة الله فقد حزت على رضا الله سبحانه ودخلت جنته، وإن استعملت جوارحك في معصية الله فقد حق عليك غضب الله وعقابه ودخول ناره فإن شاء عاقبك وإن شاء عفا عنك.

* * *

---

(1) أعجف: صار هزيلاً ونحيلاً.

(2) انظر، ص: 164.

صنائع الله للعبد

يقول ابن عطاء الله: كم يرسل لك المولى الصنائع وأنت عبد شرود [1]، فمثالك كالطفل في المهد: كلما حرك نام. ولو أرسل لك الملك خلعة[2]. ، ما أصبحت إلا على بابه، فاغتنم أوقات الطاعات واصطبر عليها.

إن الله يتحبب إلى عباده ليطيعوه وهو غني عنهم، ويغدق عليهم النعم ليشكروه، ويبتليهم ليرجعوا إليه.

لكن المسلم شارد عن كل هذا لا يحس بالنعمة ولا بعظمة المنعم ولا يتوجه بالدعاء إليه عند المصائب. إنه كالطفل كلما حرك نام.

وكان الأولى به عندما يرسل له الله العطايا أو يبتليه بالمحن أن يتحرك لسانه بشكره ويتوجه قلبه له وحده سبحانه، وأن يقف على بابه متصفاً بذل العبودية له.

ولو أن غنياً أو ملكاً أرسل لك عطية لكنت عبد إحسانه واقفاً على بابه ساعياً لمرضاته، وأنت تعلم أن المحسن الأوحد هو الله والضار والنافع هو الباري سبحانه، استمع لسيدنا إبراهيم الخليل عليه السلام وهو يجادل قومه وأباه في مسألة الأصنام التي يعبدونها: ﴿ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴾[الشعراء: 77: 82].

* * *

(1) شرود: يقال شرد البعير أي: نفر، وشرود: كثير النفور والفرار.

(2) الخلعة: العطية.

حلاوة محبة اللّه والتودد له
واليأس من التودد للمخلوقين

حلاوة محبة الله

يقول ابن عطاء الله: من عاملته بالدنايا وعاملك بالمنن، كيف لا تحبه؟!. من عاملك بالكرم وعاملته باللؤم كيف لا تحبه؟.

إيَّاك أن تخرج من هذه الدار وما ذقت حلاوة حبه، ليس حلاوة حبه في المآكل والمشارب، لأنه يشاركك فيها الكافر والدابة، بل شارك الملائكة في حلاوة الذكر والجمع على الله تعالى لأن الأرواح لا تحمل رشاش النفوس.

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان: من كان الله ورسوله أحب إليه من سواهما، ومن أحب عبداً لا يحبه إلا لله، ومن يكره أن يعود في الكفر بعد إذ أنقذه الله كما يكره أن يُلقى في النار»[1].

كلما أوغلت المفهوم في معرفة الخالق، فشاهدت عظمته، ولطفه ورفعته، تاهت في محبته فخرجت عن حد الثبوت.

محبة الله فرض على كل مخلوق، لأن النفس الإنسانية إما أن تحب محسناً والمحسن الأوحد هو الله عز وجل، وإما أن تحب عظيماً وليس شيء أعظم من الله سبحانه، وإما أن تحب جميلاً أسرها جماله والجميل الأوحد في هذا الكون هو الله سبحانه.

كيف لا أحب من وهب لي ملذوذات حسي، وعرفني ملذوذات علمي. فإن التذاذي بالعمل وإدراك العلوم أولى من جميع اللذات الحسية، فهو الذي علمني، وخلق لي إدراكاً، وهداني لما أدركته.

كيف لا أحب من أنا به وبقائي منه، وتدبيري بيده، ورجوعي إليه، وكل مستحسن محبوب هو صنعة وحسنه، وزينه، وعطف النفوس إليه. . . .

---

(1) البخاري في الإيمان، باب: حلاوة الإيمان، رقم (15). ومسلم في الإيمان، باب: بيان خصال من اتصف بهن وجد حلاوة الإيمان، رقم (60).

وعلى قدر رؤية الصانع في المصنوع يقع الحب له، فإن قوي أوجب قلقاً، وشوقاً، وإن مال بالعارف إلى مقام الهيبة أوجب خوفاً، وإن انحرف به إلى تلمح الكرم أوجب رجاء قوياً، ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ﴾[1] [البقرة: 60].

فمن أعجب الأشياء أن تعرفه ثم لا تحبه، وأن تسمع داعيه ثم تتأخر عن الإجابة ؟!.

وأن تعرف قدر الربح في معاملته ثم تعامل غيره، وأن تعرف قدر غضبه ثم تتعرض له، وأن تذوق ألم الوحشة في معصيته، ثم لا تطلب الأنس بطاعته، وأن تذوق عصرة القلب عن الخوض في غير حديثه ثم لا تشتاق إلى انشراح الصدر بذكره ومناجاته، وأن تذوق العذاب عند تعلق القلب بغيره، ولا تهرب منه إلى نعيم الإقبال عليه والإنابة إليه، وأعجب من هذا علمك أنك لابد لك منه، وأنك أحوج شيء إليه وأنت عنه معرض، وفيما يبعدك عنه راغب[2].

إن الله سبحانه أهل لكل حب، وأولى بتعلق القلب من حب المرء لوالده وولده ونفسه التي بين جنبيه.

ثم قال ابن عطاء الله: «إيَّاك أن تخرج من هذه الدار وما ذقت حلاوة حبه، ليس حلاوة حبه في المآكل والمشارب، لأنه يشاركك فيها الكافر والدابة، بل شارك الملائكة في حلاوة الذكر والجمع على الله تعالى، لأن الأرواح لا تحمل رشاش النفوس».

إن حلاوة حب الله هي حظ من آمن بالله رباً وتحقق بذل عبوديته له سبحانه، ومن أحب شيئاً أكثر من ذكره فعلامة المحبة كثرة ذكر الله بالقلب واللسان لا بالمآكل والمشارب فإنها حظ الكافر والدابة.

---

(1) صيد الخاطر، ص: 78.

(2) الفوائد، ابن القيم، ص: 67.

بل شارك الملائكة في حلاوة الذكر والجمع على الله تعالى بأن تجعل قلبك لله لا يشاركه فيها حب شيء آخر من ملذات الدنيا وأهوائها، قال تعالى واصفاً الملائكة: ﴿ وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴾[الأنبياء: 19- 20].

وقال سبحانه: ﴿ وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ۖ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[الزمر: 75].

استمع لهذه الأبيات لتعجب كيف لا نحب الله:

أنت الذي صورتني وخلقتني ... وهديتني لشرائع الإيمان
أنت الذي علمتني ورحمتني ... وجعلت صدري واعي القرآن
أنت الذي أطعمتني وسقيتني ... من غير كسب ولا دكان
وجبرتني وسترتني ونصرتني ... وغمرتني بالفضل والإحسان
أنت الذي آويتني وحبوتني ... وهديتني من حيرة الخذلان
وزرعت لي بين القلوب مودة ... والعطف منك برحمة وحنان
ونشرت لي في العالمين محاسناً ... وسترت عن أبصارهم عصياني
وجعلت مثلي في البرية شائعاً ... حتى جعلت جميعهم إخواني
والله لو علموا قبيح سريرتي ... لأبي على السلام من يلقاني
ولأعرضوا عني وملوا صحبتي ... ولبؤت بعد كرامة بهوان
لكن سترت معايبي ومثالبي ... وحلمت عن سخطي وعن طغياني
فلك المحامد والمدائح كلها ... بخواطري وجوارحي ولساني

* * *

التودد للخلق والتودد للحق سبحانه

يقول ابن عطاء الله: ما أكثر توددك[1]. للخلق وما أقل توددك للحق، لو فتح لك باب التودد لرأيت العجائب، ركعتان في جوف الليل: تودد، عبادتك للمرضى تودد، صلاتك على الجنائز تودد، الصدقة على المساكين تودد، إعانتك لأخيك المسلم: تودد، إماطتك الأذى عن الطريق: تودد، ولكن السيف المطروح يحتاج إلى ساعد.

إن التودد والتحبب للخلق سببه قلة الثقة بما عند الله، والاعتماد على ما في أيدي الناس من عرض دنيوي بسيط، فترى كثيراً من الناس يصاحبون الأغنياء طمعاً في مالهم، ويتقربون لذوي الجاه والسلطان طمعاً في سلطانهم، وفي المقابل يبتعدون عن الفقراء ويهربون منهم.

يا هذا ماذا يملك المخلوق أمام قدرة الخالق؟ . بدل أن تتودد إلى الخلق الذين لا يملكون شيئاً، تودد إلى الله المعطي والمانع والضار والنافع، قال تعالى: ﴿ مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾[فاطر: 2].

ثم يدلنا ابن عطاء الله على بعض الأفعال التي توجب محبة الله للعبد، وبها يتقرب العبد إلى خالقه:

أ- ركعتان في جوف الليل: تقف بها بين يدي الله سبحانه تناجيه وتدعوه بكل صدق وإخلاص إذ لا مجال للرياء هنا لأن الناس نيام!.

قال ﷺ: «أقرب ما يكون العبد من ربه في جوف الليل»[2].

---

(1) الود والوداد: الحب، وتودد إليه: تحبب.

(2) الترمذي في الدعوات عن رسول الله، باب: في دعاء الضيف، رقم (3503) وقال: حسن صحيح غريب من هذا الوجه. والنسائي في المواقيت، باب: النهي عن الصلاة بعد العصر، رقم (568).

قالوا: قيام الليل يحط الذنوب كما تحط الريح العاصفة الورق اليابس من الشجرة. ينور القلب، ويحسن الوجه. موضعه تراه الملائكة من السماء، إذ يتراءى مثل الكوكب الدري لأهل الأرض، ونفحة من نفحات القيام تعود على صاحبها بالبركات والأنوار التي يعجز عنها الوصف.

ب- عيادة المرضى: يقول الله تعالى في حديث قدسي يرغبنا في زيارة المرضى: «عبدي مرضت فلم تعدني، قال يا رب كيف أعودك وأنت رب العالمين؟!. قال: أما علمت أن عبدي فلاناً مرض فلم تعده، أما إنك لو عدته لوجدتني عنده. . . . »[1].

ج- الصلاة على الجنائز: قال ﷺ: «حق المسلم على المسلم خمسٌ رد السلام [2]. وعيادة المريض واتباع الجنائز وإجابة الدعوة وتشميت العاطس»[3].

د- الصدقة على المساكين: الصدقة برهان على صحة الإيمان والثقة بما في يد الله عز وجل لذلك كان جزاء الصدقة عظيماً، قال ﷺ: «الصلاة نور والصدقة برهان»[4].

وقال ﷺ: «إن الصدقة لتطفئ غضب الرب وتدفع عن ميتة السوء»[5].

هـ- إعانتك لأخيك المسلم: فإنه نوع من أنواع الصدقة التي تقرب العبد من خالقه، فعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «على كل مسلم صدقة». قيل: أرأيت إن لم يجد؟. قال: «يعتمل بيديه فينفع نفسه ويتصدق». قال: أرأيت إن لم يستطع. قال: «يعين

---

(1) مسلم في البر والصلة والآداب، باب: فضل عيادة المريض، رقم (4661).

(2) مسلم في البر والصلة والآداب، باب: فضل عيادة المريض، رقم (4661).

(3) البخاري في الجنائز، باب: الأمر باتباع الجنائز، رقم (1164).

(4) مسلم في الطهارة، باب: فضل الوضوء، رقم (328).

(5) الترمذي في الزكاة عن رسول الله، باب: ما جاء في فضل الصدقة، رقم (600). وقال: حسن غريب من هذا الوجه.

ذا الحاجة الملهوف». قال: أرأيت إن لم يستطع. قال: «يأمر بالمعروف أو الخير». قال: قيل: أرأيت إن لم يفعل؟. قال: «يمسك عن الشر فإنها صدقة»[1].

فالصدقة لا تقتصر على المال فقط بل تتعداه إلى كل أعمال الخير.

و- إماطتك الأذى عن الطريق: وهذا أيضاً من أنواع الصدقة، عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «الإيمان بضع وستون شعبة: فأفضلها قول لا إله إلا الله، وأدناها إماطة[2] الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان»[3].

فإماطة الأذى عن الطريق عمل بسيط لا يلتفت لأهميته لكنه في الحقيقة خصلة مهمة لأنها تدل على سمو الخلق وحب الخير.

ثم يقول ابن عطاء الله: «ولكن السيف المطروح يحتاج إلى ساعد».

فلا يكفي علمك بالخير ولا قربة منك ولا حبك له، حتى يكون فيك وتكون من أهله، إن الجائع يحب الخبز، وإن العطشان يحب الماء، ولو جعل الخبز والماء بين أيديهما على مائدة، أو علق في أعناقهما، ما نفعهما علمهما بأن الخبز والماء معهما، حتى يأكلا من الطعام ويشربا من الشراب لأن «السيف المطروح يحتاج إلى ساعد».

* * *

---

(1) البخاري في الزكاة، باب: على كل مسلم صدقة. . . ، رقم (1353). ومسلم في الزكاة، باب: بيان أن اسم الصدقة يقع على كل نوع من المعروف، رقم (1676).

(2) الإماطة: الإزالة.

(3) البخاري في الإيمان، باب: أمور الإيمان، رقم (8). ومسلم في الإيمان، باب: بيان عدد شعب الإيمان . . .، رقم (50) بلفظ «بضع وسبعون شعبة».

اقطع يأسك من المخلوقين

يقول ابن عطاء الله: كم حصل لك الهوان بالوقوف على أبواب المخلوقين، وكم أهانوك وأنت لا ترجع إلى مولاك!!.

إذا أحبك مولاك أعرض عنك أصحابك حتى لا تشتغل بهم عنه، وقطع علاقتك من المخلوقين حتى ترجع إليه.

لو فتح لك باب الأنس بينك وبينه ما طلبت من تأنس به، ولو اختارك لربوبيته ما قطعك عنه، ولو كرمت ما رماك لغيره، إذا عزل عنك محبة مخلوق فافرح فهذا من عنايته بك.

إن المسلم يقبل على الله وحده الذي بيده كل شيء، ويترك الخلق لأنهم مثله يشعرون بما يشعر ويذنبون كما يذنب.

إن من ينظر حوله يرى الذل والهوان من الخلق لبعضهم. إن من يستدين مبلغاً بسيطاً من المال من غني موسر يشعر بذله أمامه ويهرب من الطريق الذي يمشي عليه. فقد حان موعد السداد ولم يستطع الدائن بسبب إعساره تأمين المبلغ فتراه مهموماً مغموماً وكما قالوا: «الدين ذل بالنهار وهم بالليل». والغني لا يرحمه وربما أودعه السجن؟!

والعكس قد يحدث إذ المدين قادر على السداد ويماطل في دفع الدين لصاحبه. وهكذا علاقات الناس ببعضهم كلها ذل وهوان وبغض وحسد وكره. فمتى تقطع يأسك من الخلق وترجع إلى خالقك؟!

ويا أيتها النفس قد اطلعت على نعم الله وبعض حكمه وتدبيره، قبيح بك والله الإقبال على غيره ! ثم العجب كيف تقبلين على فقير مثلك، ينادي لسان حاله: بي مثل ما بك،

فارجعي إلى الأصل الأول واطلبي من المسبب، ويا طوبى لك إن عرفتيه، فإن عرفانه ملك الدنيا والآخرة[1].

ثم يقول ابن عطاء الله: «إذا أحبك مولاك أعرض عنك أصحابك حتى لا تشتغل بهم وقطع علاقتك من المخلوقين حتى ترجع إليه».

فيا من يشكو إلى الخالق مصائبه ماذا ينفعك شكواك إلى الخلق إنهم لا ينفعونك ولا يضرونك، وإذا اعتمدت عليهم وقعت في سخط الله عليك وكانوا حجاباً عنه سبحانه.

وبعبارة أخرى قال ابن عطاء الله في إحدى حكمه: «إذا أوحشك من خلقه فاعلم أنه يريد أن يفتح لك باب الأنس به».

ولذلك قيل: «الاستئناس بالناس من علامات الإفلاس».

فالغالب من الأصحاب أن صحبتهم لغرض دنيوي أو للتسلية وإمضاء الساعات في اللغو في الكلام وإظهار المقدرة والمعرفة العلمية والتغلب على الخصوم، فمن أحب الله انشغل بحبه عن كل هذا اللغو فتراه يعرض عن تلك الجلسات كريماً كما قال سبحانه: ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾[الفرقان: 72].

إنه لا يحب الغيبة ولا السب ولا الشتم والنميمة والكلام الفارغ، والأصحاب والأهل والأقارب لا يمكن إلا أن يتعرضوا لهذه الخصال السيئة، فتراه يقلل من تلك المجالس أو ينقطع عنها بالمرة، علاقته مع أصحابه تقوم على الصدق والإخلاص لكن كثيراً من الأصحاب يكذب ويغش ويخلف الموعد.

إذاً من أحبه الله أعرض عن أصحابه لماذا؟! حتى لا ينشغل بالأصحاب عن حب الله، يريد الله أن يفرغ قلبه وعقله عن كل الشواغل لتتهيأ لقبول ما تتحمله من الأسرار والمواهب.

---

(1) صيد الخاطر، ابن الجوزي، ص: 116.

فاقطع يأسك مما في أيدي الناس كما قال ﷺ لذلك الرجل: «إذا قمت إلى صلاتك فصلِّ صلاة مودع ولا تكلم بكلام تعتذر منه واجمع الإياس مما في أيدي الناس»(1).

وقوله ﷺ: «ازهد في الدنيا يحبك الله وازهد فيما في أيدي الناس يحبونك»(2).

إن الله وحده هو المشتكي إليه، عليه التوكل وبه الثقة واليقين.

وإذا عرفت بلية فاصبر لها ... صبر الكريم فإنه بك أرحمُ

وإذا شكوت إلى ابن آدم فإنما ... تشكو الرحيم إلى الذي لا يرحمُ

ألم نسمع عن أناس كانوا يشكون إلى الله حتى انقطاع شسع نعلهم. نعم حتى سير النعل كانوا يشكون إلى الله. بل كانوا يسألون الله حتى الملح.

فيا أيها المرضى يا أصحاب الحاجات أيها المدينون أيها المكروب والمظلوم أيها المعسر والمهموم أيها الفقير والمحروم يا من يبحث عن السعادة الزوجية، يا من يشكو العقم ويبحث عن الذرية يا من يريد التوفيق في الدراسة والوظيفة يا من يهتم لأمر المسلمين يا كل محتاج يا من ضاقت عليه الأرض بما رحبت لماذا لا نشكو إلى الله أمرنا، وهو القائل: ﴿ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ﴾ [غافر: 60]. لماذا لا نرفع أكف الضراعة إلى الله وهو القائل: ﴿فَإِنِّي قَرِيبٌۖ أُجِيبُ دَعۡوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِۖ﴾ [البقرة: 186]. لماذا هذا الضعف في الصلة بالله والقلة في الاعتماد عليه وهو القائل: ﴿قُلۡ مَا يَعۡبَؤُاْ بِكُمۡ رَبِّي لَوۡلَا دُعَآؤُكُمۡۖ﴾ [الفرقان: 77] ألم نقرأ قوله تعالى: ﴿فَأَخَذۡنَٰهُم بِٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ﴾ لماذا ﴿لَعَلَّهُمۡ يَتَضَرَّعُونَ﴾ [الأنعام: 42] فأين نحن من الشكوى لله أين نحن من الإلحاح والتضرع لله سبحانه ألسنا بحاجة إلى ربنا؟ أنعتمد على قوتنا وحولنا ووالله لا حول لنا ولا قوة إلا بالله، ولا شفاء إلا بيد الله ولا كاشف للبلوى إلا الله ولا توفيق ولا فلاح ولا سعادة ولا نجاح إلا من الله، العجيب أن كل مسلم يعلم هذا ويعترف بهذا بل ويقسم على

---

(1) مسند الإمام أحمد، حديث أبي أيوب الأنصاري، رقم (23545): 5/ 412.

(2) سبق تخريجه، ص: 154.

هـذا فلـماذا إذاً تتعلـق القلـوب بالضـعفاء والعـاجزين ولمـاذا نشـكو إلى النـاس ونلجـأ إلى المخلوقين؟!.

كان ﷺ يربي أصحابه على الاعتماد واللجوء إلى الله، فهذا عـثمان بـن أبي العـاص يشـكو لرسول الله ﷺ وجعاً يجده في جسده منذ أسلم فقـال لـه ﷺ: «ضـع يـدك عـلى الـذي تـألم مـن جسدك وقل: بسم الله بسم الله بسم الله ثم قل سبعاً: أعوذ بعزة الله وقدرتـه مـن شر مـا أجـد وأحاذر»[1].

فقد أرشده للتعلق بالله أولاً ولم يرشده أولاً لطبيب حاذق ولا بأس بهـذا ولكـن التعلـق بالله أولاً.

* * *

(1) مسلم في الإسلام، باب: استحباب وضع يده على موضع الألم مع الدعاء، رقم (4082).

قد هان كل الهوان من احتاج إلى الخلق

يقول ابن عطاء الله: كفى بك جهلاً أن تتردد إلى مخلوق، وتترك باب الخالق، فقد ارتكبت المعاصي من كل جانب، أفلا تكون محزوناً على نفسك.

متى أوحشك من خلقه فاعلم أنه يريد أن يفتح لك باب الأنس؟ لو انقطعت عن الخلق لفتح لك باب الأنس به تعالى، لأن الأولياء قهروا أنفسهم بالخلوة والعزلة، فسمعوا من الله وأنسوا به. فإن أردت أن تستخرج مرآة قلبك من الأكدار، فارفض ما رفضوا، وهو الأنس بالخلق، فمن استعد استمد، فإذا هيأ لك الاستعداد، فتح لك باب الاستمداد، ومن أحسن قرع الباب يفتح له، فرب طالب أساء قرع الباب، فرد لسوء أدبه ولم يفتح له.

قول ابن عطاء الله: «متى أوحشك من خلقه فاعلم أنه يريد أن يفتح لك باب الأنس به». هذه إحدى الحكم العطائية.

لا يمكن أن يجتمع الأنس بالناس مع الأنس بالله في حالة واحدة قط. كما لا يمكن أن تجتمع الوحشة من الناس مع الوحشة من الله في حالة واحدة قط. إنهما كالكفتين إن رجحت إحداهما طاشت الأخرى.

والمراد بكلمة خلقه في قوله: «متى أوحشك من خلقه» عوام الناس بسائر فئاتهم وأخلاقهم. . فلا جرم أن الاستئناس بالنخبة الصالحة من الناس، لا يدخل في عموم هذا الحكم.

ثم إن الشأن بالنسبة لأكثر الناس، هم الاستئناس بأمثالهم، بأبناء جلدتهم، وسبب ذلك أن الإنسان مفطور على الشعور بما هو محتاج إليه من مقومات عيشه وأسباب رزقه. وتحقيق هذه الاحتياجات يتطلب التعرف على الآخرين، والاستعانة بهم.

وليس في أمر التعارف والتلاقي والتعاون أي إشكال. ألم يقل الله عز وجل: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ ﴾ [الحجرات: 13]. ألم يقول رسول الله

ﷺ: «أقربكم مني مجلساً يوم القيامة، أحاسنكم أخلاقاً، الموطؤون أكنافاً، الذين يألفون ويُؤلفون»[1].

ولكن الاستئناس بالناس ما ينبغي أن يبعث على الوحشة من ربه عز وجل؟ . إن المسلم حق، حتى وهو في غمرة التعارف والتعاون والتآلف مع أخوانه، إنما يكون أنسه بالله.

فالمؤمن مهما تعامل مع الأسباب. في غدوه ورواحه وعلاقاته مع الناس، فإنه لا يبصر فيها إلا يد الله، هي التي تحرك وتوجه وتخلق النتائج وتوصل إلى الغايات[2].

❊ ❊ ❊

(1) المعجم الأوسط، الطبراني، رقم (4422): 4/ 357.

(2) شرح الحكم، د. محمد سعيد رمضان البوطي: 3/ 193، 194، 195 مع تصرف في العبارة.

عليك بالحوالة على مولاك

يقول ابن عطاء الله: عليك بالحوالة على مولاك، واترك من لا يستطيع أن ينفع غيره، اقطع يأسك من الخلق، ووجه رجاءك إلى الملك الحق، وانظر ماذا عملك وماذا عمل معك من أول نشأتك، ما صنع معك إلا جوداً وإحساناً، وانظر ماذا صنعت معه، فلا ترى إلا جفاء وعصياناً.

ما أكثر موالاتك للمخلوقين، وما أقل موالاتك لله.

كان ابن عباس خلق النبي ﷺ يوماً فقال له: «يا غلام إني أعلمك كلمات: احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فاسأل الله وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأُمَّةَ لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام وجفت الصحف»[1].

هذا يدل على أن الله سبحانه وحده القادر على الإعطاء والمنع ودفع الضرر وجلب النفع، وأن غيره لا يملك شيئاً، إذاً قد هان كل الهوان من احتاج إلى الخلق ثم يقول ابن عطاء الله: «وانظر ماذا عملك وماذا عمل معك من أول نشأتك ما صنع معك إلا جوداً وإحساناً، وانظر ماذا صنعت معه، فلا ترى إلا جفاء وعصياناً».

فهو سبحانه المنعم المتفضل الذي وهبنا كل هذه النعم فقابلناها بالكفر والعصيان توالي الخلق وتترك موالاة الله ترجو النفع من الناس وتنسى الله سبحانه.

لذلك أيها المسلم عليك باليأس مما في أيدي الناس وثق بما عند الله سبحانه، فعن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه أن رجلاً قال: يا رسول الله أوصني وأوجز فقال: «عليك باليأس مما في

(1) سبق تخريجه، ص: 189.

أيدي الناس فإنه الغني، وإيَّاك والطمع فإن الفقر الحاضر، وصلِّ صلاتك وأنت مودع، وإياك وما يعتذر منه»[1].

وقال الحسن البصري رحمه الله: «لا يزال الرجل كريماً على الناس حتى يطمع في دنياهم فإذا فعل ذلك استخفوا به، وكرهوا حديثه، وأبغضوه».

وروي أن أعرابياً سأل أهل البصرة: من سيدكم؟. قالوا: الحسن. قال: بم سادكم؟. قالوا: احتاج الناس إلى علمه واستغنى هو عن دنياهم. فقال: ما أحسن هذا.

وقال «علي بن عبد العزيز» رحمه الله تعالى:

يقولون لي فيك انقباض وإنما ... رأوا رجلاً عن موقف الذل أحجما

أرى الناس من داناهم هان عندهم ... ومن أكرمته عزة النفس أكرما

إن الشجاعة هي في إيثار ما عند الله وترجيح جنابه على جبروت الجبارين، وعلى أعطية المغدقين، ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾[الأنعام: 18].

يقول ابن عطاء الله في إحدى حكمه: «لا ترفعن إلى غيره حاجة هو موردها عليك فكيف يرفع غيره ما كان له واضعاً؟. من لا يستطيع أن يرفع حاجة عن نفسه فكيف يستطيع أن يكون لها عن غيره رافعاً؟.

وقال في حكمة أخرى: «العطاء من الخلق حرمان والمنع من الله إحسان».

لأن عطاء الخلق فيه رؤية غير الله والوقوف مع الحظوظ والشهوات. ومنع الله للعبيد إحسان لأنه ألزمه الوقوف ببابه؟!.

* * *

---

(1) أحمد، باقي مسند الأنصار، حديث أبي أيوب الأنصاري، رقم (22400). والحاكم في المستدرك وصحح إسناده: 4/ 362.

إذا ظلمك الغوي فارجع إلى القوي

يقول ابن عطاء الله: إذا ظلمك الغوي فارجع إلى القوي، ولا تخف منه فيُسلط عليك. مثال من يشهد الضرر من المخلوقين كمن ضرب الكلب بحجر، فأقبل الكلب على الحجر يعضه، ولا يعرف أن الحجر ليس بفاعل، فيكون هو والكلب سواء.

مثال من يشهد الإحسان من المخلوقين: كالدابة إذا رأت سايسها بصبصت[1]، ويدنو إليها مالكها فلا تلقي إليه بالاً، فإن كنت عاقلاً فاشهد الأشياء من الله عز وجل ولا تشهدها من غيره.

الخوف لا يكون إلا من الله سبحانه، والظلم عاقبته وخيمة، فإذا ظلمك ظالم فلا تخف منه فيسلط عليك بل التجأ إلى الله ليأخذ لك حقك منه.

وقد بين لنا رسول الله ﷺ أن الضرر الذي يُصيبك إنما كتبه الله عليك فلماذا تخاف من المخلوقين، استعن بالله واطلب منه وحده وخف منه وحده، لأن بيده كل شيء أما المخلوقون فلا يملكون شيئاً، قال ﷺ: «يا غلام إني أعلمك كلمات: احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فاسأل الله وإذا استعنت فاستعن بالله. . .»[2].

فاشهد الأشياء من الله عز وجل لأنه النافع والضار والمعطي والمانع فإن فعلت ذلك عشت مرتاح البال عالماً بحقائق الأمور،

إن من يشهد الإحسان والنفع والضرر من المخلوقين وينسى الخالق قد أخطأ الفهم. مثاله كالدابة التي تقبل على من يدربها ولا تلقي بالاً لمالكها.

---

(1) بصبصت: حركت ذيلها، كناية عن إقبالها عليه.

(2) سبق تخريجه، ص: 189.

يقول ابن عطاء الله في إحدى حكمه: «إنما أجرى الأذى على أيديهم كيلا تكون ساكناً إليهم، أراد أن يزعجك عن كل شيء حتى لا يشغلك عنه شيء».

فوجود الأذى من الناس نعمة عظيمة للعبد، لا سيما ممن اعتاد منه الملاطفة والإكرام، لأن ذلك يفيده عدم السكون إليهم، وترك الاعتماد عليهم، وفقد الأنس بهم، فتتحقق بذلك عبوديته لربه عز وجل.

* * *

من هو التائه

يقول ابن عطاء الله: ليس التائه من تاه في البرية، بل التائه من تاه عن سبيل الهدى. تطلب العز من الناس، ولا تطلبه من الله، فمن طلبه من الناس أخطأ الطريق، ومن أخطأ الطريق لم يزده سيره إلا بعداً، فهذا هو التائه حقاً.

ينبهنا ابن عطاء الله –رحمه الله– في هذه الفقرة ومثيلاتها إلى حقيقة الأمور، فالمعروف عند الناس أن التائه هو الذي ضل طريقه في الصحراء ولم يعد يهتدي إليه. ولكن هناك تائه أشد من هذا، إنه الذي يتيه عن طريق الهدى. عن صراط الله عز وجل، فبدل أن يمشي على النهج الذي أمره الله به تراه سلك الطريق الخطأ الذي عاقبته وخيمة. وبدل أن يشكر الله على نعمه تراه يكفر بها وصدق الله حين قال: ﴿قُتِلَ ٱلۡإِنسَٰنُ مَآ أَكۡفَرَهُۥ﴾[عبس: 17].

وقال سبحانه: ﴿إِنَّا هَدَيۡنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرٗا وَإِمَّا كَفُورًا﴾[الإنسان: 3].

وقال سبحانه: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦۚ﴾[الأنعام: 153] هذا والله هو المهتدي الذي اتبع الصراط المستقيم والذي كل صلاة نسأله سبحانه أن يهدينا إليه بقولنا: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾[الفاتحة: 6]. فمن حاد عن هذا الطريق فهو التائه حقاً!!.

والذي يطلب العز من الناس ولا يطلبه من الله فهو تائه عن الطريق لا يزيده سيره إلا بعداً عن الله.

أما طلب العز من الناس فقد ذكر في القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۚ أَيَبۡتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلۡعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلۡعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعٗا﴾[النساء: 139].

إن العزة هي القوة الكاملة والقدرة التامة وهذه لا يتكون إلا لله وحده وهو الذي ينصر ويعين أولياءه، وهو الذي يمنع عنهم الضر والأذى إن شاء سبحانه.

* * *

غيب نظر الخلق إليك بنظر الله إليك

يقول ابن عطاء الله: غيب نظر الخلق[1]. إليك بنظر الله إليك، وغب عن إقبالهم عليك بشهود إقباله عليك. اعلم أن العباد يتشوقون إلا ظهور سر العناية، فقال تعالى: ﴿يَخۡتَصُّ بِرَحۡمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۚ﴾[البقرة: 105].

هذا جزء من إحدى الحكم العطائية وتمامها: «وعلم أنه لو خلاهم وذلك لتركوا العمل اعتماداً على الأزل فقال: ﴿إِنَّ رَحۡمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ مِّنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾[الأعراف: 56]».

إن وجود غير الله هباء في الهواء، فغيب عنك نظر الخلق إليك اكتفاء بنظر الحق إليه، إذ لا نظر لسواء، وغب عن إقبالهم عليك بالتعظيم والتكريم بشهود إقبال الملك الكريم، فإقبالك على الخلق إدبارك عن الحق وإدبارك عن الخلق إقبالك على الحق لا يجتمعان.

ثم يقول ابن عطاء الله : «اعلم أن العباد يتشوفون [2]. إلى سر العناية، فقال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَخۡتَصُّ بِرَحۡمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۚ﴾[البقرة: 105].

أي من سبقت له العناية من الله سبحانه فاتجه الله إلى العبد ويُسمى طريق الاجتباء، يكون الإنسان مستغرقاً في شروده وبعده عن الله، منصرفاً إلى أهوائه وفجأة تدركه رحمة الله تعالى لسبب من الأسباب التي لا يعلمها إلا الله، ويتجلى الله عليه تجلي لطف وإيقاظ، فيجذبه إليه، وقد تم ذلك كله في لحظة واحدة.

وهذه الرحمة يختص بها الله من يشاء من عباده.

فالعباد كلهم تشوفوا إلى ظهور سر هذه العناية، إذ كل واحد يظن أنه من أهلها، فأخبرهم الحق تعالى أن ذلك السر إنما هو للبعض دون البعض فقال: ﴿وَٱللَّهُ يَخۡتَصُّ بِرَحۡمَتِهِۦ

---

(1) في الحكم العطائية: غب عن نظر الخلق.

(2) يتشوفون: يتطلعون ويطمحون له. المعجم الوسيط، ص: 519.

مَن يَشَآءُۚ ﴾[البقرة: 105]. فأسندها إلى مشيئته دون مشيئتهم، فعلموا أن ذلك إنما هو للبعض دون الكل، لأن كل واحد يطمع أنه من ذلك البعض فربما يتركون العمل ويعتمدون على سابق الأزل، فأخبرهم الحق تعالى أن ذلك السر له علامات تدل على من هو من أهله ومختص به فقال: ﴿إِنَّ رَحۡمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ [الأعراف: 56] الذين أحسنوا عبادة ربهم وأخلصوا في عبوديتهم له.

* * *

رفع الهمة عن الخلق

يقول ابن عطاء الله: سمعت الشيخ أبا العباس المرسي يقول: والله ما رأيت العز إلا في رفع الهمة عن الخلق. واذكر رحمك الله ها هنا قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾[المنافقون: 8]. فمن العز الذي أعز الله به المؤمن: رفع همته إلى مولاه وثقته به دون ما سواه. واستح من الله بعد أن يكون كساك حلة الإيمان، وزينك بزينة العرفان أن تستولي عليك الغفلة والنسيان، حتى تميل إلى الأكوان، أو تطلب من غيره وجود الإحسان.

الهمة: فعلة من الهم. وهو مبدأ الإرادة. ولكن خصوها بنهاية الإرادة. فالهم مبدؤها والهمة نهايتها[1].

ومن علامات زهد القلب بالدنيا وأهلها أن تكون همة العبد متعلقة بالحق سبحانه لا بأحد من خلقه، وقد فسر بعضهم قوله تعالى: ﴿مَا زَاغَ ٱلۡبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ﴾[النجم: 17] بأن همة النبي ﷺ ما تعلقت في ذلك المقام وفي تلك الحضرة إلا بشهود الله وعظمته. ولو تجاوزت الهمة ذلك لتبعها البصر.

إذاً العز يكون – كما يقول ابن عطاء الله – في رفع الهمة عن الخلق.. والطمع في إحسان الخلق والرجاء في نفعهم وتعلق القلب بما في أيدي الخلق هو أصل الذل، لأن صاحب الطمع ترك رباً عزيزاً وتعلق بعبد حقير مثله.

وهذا هو معنى قوله قوله ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾[المنافقون: 8].

والعز يكون أيضاً بالثقة بما عند الله وبما قضاء الله في الأزل من الرزق والصحة والمرض والنفع والضرر. . . الخ.

فالعاقل من يميل إلى المكون وينسى الأكوان، ويطلب الإحسان من المحسن الأوحد سبحانه وتعالى لا من غيره ممن لا يملك شيئاً ؟!!.

* * *

---

(1) المعجم الوسيط: ص: 1036.

لا ترفع حوائجك إلا إليه سبحانه

يقول ابن عطاء الله: وقبيح بالمؤمن أن ينزل حاجته بغير مولاه، مع علمه بوحدانيته وانفراده بربوبيته، وهو يسمع قول الله تعالى: ﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ﴾ [الزمر: 36]. وليذكر قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوْفُواْ بِٱلْعُقُودِ ﴾ [المائدة: 1]. ومن العقود التي عاقدته عليها أن لا ترفع حوائجك إلا إليه، ولا تتوكل إلا عليه. ورفع الهمة عن الخلق هو ميزان الفقراء ﴿ وَأَقِيمُواْ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ ﴾[الرحمن: 9]. فيظهر الصادق بصدقه والمدعي بكذبه.

من علم أن الله هو وحده الرازق والضار والنافع، وهو وحده الذي يستجيب الدعاء وأن سبحانه كافٍ عبده، من علم ذلك كيف يتجه بالسؤال إلى الخلق وينسى الخالق، أليس ذلك قلة أدب؟!.

اترك من لا يملك شيئاً واتجه إلى الذي بيده كل شيء وهو على كل شيء قدير.

وارفع همتك عن الخلق وتعلق بالخالق سبحانه فإن التعلق بالخلق ضرر عليك في دينك، أما التعلق بالحق سبحانه فهو الربح الحقيقي وهو الميزان القسط الذي قال عنه سبحانه وتعالى: ﴿ وَأَقِيمُواْ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ ﴾[الرحمن: 9].

* * *

خطر التعلق بالزوجة والأولاد

يقول ابن عطاء الله: ما أحد يصحبك فينفعك، وكل من يصحبك إنما يصحبك لنفسه، وإنما تحبك الزوجة لتجتني منك مطايب العيش والملابس، وكذلك الولد يقول: أشد بك ظهري، فإذا كبرت ولم تبق فيك قوة ولا بغية، رفضوك!!.

قال الله تعالى: ﴿ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞ ﴾ [الأنفال: 28]. وقال سبحانه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجِكُمۡ وَأَوۡلَٰدِكُمۡ عَدُوّٗا لَّكُمۡ فَٱحۡذَرُوهُمۡۚ ﴾ [التغابن: 14].

كثير من النساء تحترم زوجها وتطيعه طالما هو في قوته وينفق عليها من ماله، ولكن عندما يكبر ويضعف فإنهن يتركنه وهذا هو كفران العشير.

فالزوجة والأولاد إذا مال الزوج لهما واشتغل القلب بهما ربما كانوا حاجزاً يحجزه عن طاعة ربه وربما منعوه من الجهاد في سبيل الله إذا رق قلبه إليهم.

ومع ذلك عندما يكبر تتركه الزوجة ويعامله أولاده بالجفاء، فيكون قد فسر بدينه عندما انشغل بهم.

وربما كسب الزوج الحرام إرضاء لزوجته وأولاده وربما أطاع زوجته فلم يخرج زكاة ماله، فينبغي أن لا يطيعها في معصية الله.

إن حب الله وحب رسوله يجب أن يطغى فوق كل حب، قال ﷺ: «ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان: من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما...»[1].

---

(1) البخاري في الإيمان، باب: حلاوة الإيمان، رقم (15) ومسلم في الإيمان، باب بيان خصال من اتصف بهن وجد حلاوة الإيمان، رقم (60).

وقال ﷺ: «والذي نفسي بيده لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين»[1].

ويظهر ذلك جلياً عندما يصطدم في نفس المرء شعوران متناقضان فقد تجيش في قلبه رغبة القعود في بيته مع ولده وأهله، وقد يسمع المؤذن أو يهتف به نداء الواجب أن يدع ذلك كله، وينطلق إلى المسجد أو إلى ميدان الجهاد.

ومصير الإيمان مرتبط بنتيجة هذا الصراع العاطفي، فإن غلبت محبة الله ورجحت كفة أمره فبها ونعمت، وإلا فالهزيمة فسق عن أمر الله ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾[التوبة: 24].

* * *

(1) البخاري في الإيمان، باب: حب الرسول من الإيمان، رقم (14). ومسلم في الإيمان، باب: وجوب محبة رسول الله أكثر من الأهل والولد والوالد. رقم (63).

استفت قلبك

يقول ابن عطاء الله: لو أن العباد فطنوا لم يقبلوا إلا على الله، ولم يجلسوا إلا بين يديه، ولم يستفتوا غيره، لقوله ﷺ: «استفت قلبك، وإن أفتاك الناس وأفتوك»[1]. لأن الخواطر الإلهية تأتي من الله تعالى فهي موافقة، وربما أخطأ المفتي، والقلب يخطئ. وهذا مخصوص بالقلوب الطاهرة، وإنما يستفتي عالم ولا علم لمن غفل عن الله تعالى.

قال ﷺ: «الحلال بين والحرام بين وبينهما أمور مشتبهات فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام كالراعي يرعى حول الحمى يوشك أن يقع فيه»[2].

وقال ﷺ لأحد أصحابه في الحديث: «استفت نفسك البر ما اطمأن إليه القلب، واطمأنت إليه النفس، والإثم ما حاك في القلب وتردد في الصدر وإن أفتاك الناس وأفتوك».

فهذا الإثم طالما يتردد في صدرك وتحس بضيق بسببه فلماذا تسأل عن حكمه؟.

وطالما أن القلب يضيق وينفر ويكره هذا الأمر، فهل يزول ذلك بفتيا العلماء؟!.

فإذا وجد قابض مال مثلاً في نفسه شيئاً فيه وأحس بشبهة الحرام، فليتق الله ولا يترخص بالفتوى من العالم الذي يحكم بالظاهر والله سبحانه مطلع على السرائر، إن سالكي طريق الآخرة يستفتون قلوبهم لأنهم لا تخطئ وربما أخطأ المفتي لعدم درايته أو لجهله بحقائق الأمور.

* * *

---

(1) أحمد، مسند الشاميين، حديث واصبة بن معبد الأسدي، رقم (17315) بلفظ «استفت نفسك». وأبو يعلى، رقم (1586): 3/ 161. والدارمي، رقم (2533): 2/ 320: وإسناده حسن. جامع العلوم والحكم، ابن رجب، ص: 942.

(2) البخاري في الإيمان، باب: فضل من استبرأ لدينه، رقم (50). ومسلم في المساقاة، باب: أخذ الحلال وترك الشبهات، رقم (2996).

الحسد المحمود والمذموم

يقول ابن عطاء الله: كفى بك جهلاً أن تحسد أهل الدنيا على ما أُعطوا، وتُشغل قلبك بما عندهم، فتكون أجهل منهم، لأنهم اشتغلوا بما أعطوا واشتغلت أنت بما لم تعط.

الحسد مذموم ومحمود.

فالمذموم هو: كراهة النعمة –سواء كانت نعمة دين أو دنيا – على المحسود وتمني زوالها عنه، وهي من نتائج النفس الخبيثة التي لا تثق بالله أبداً. والمحمود: هو حسد الغبطة ويعني: تمني أن أكون مثل فلان في التقوى وعمل الخير. وليس فيه كراهة النعمة.

طبيعة الإنسان أنه لا يحب أن يرتفع عليه أحد، فإذا رأى صديقه قد علا وتميز عليه تأثر بذلك، ولم يحب أن يرتفع عليه، بل ود أن لم ينل صديقه ما ينال، أو ينال هو ما نال ذاك، لئلا يرتفع عليه وهذا معجون في طينة الإنسان ولا لوم على ذلك، إنما اللوم أن يعمل بمقتضاه بقول أو فعل.

إن من الجهل أن تشغل قلبك وتمضي الساعات والليالي تفكر بشيء رزقه الله لغيرك؟!..، هم اشتغلوا بما أعطوا فلم تشتغل بما أعطوا ولم تعط.

إن من يتأمل أحوال الفضلاء يجد أن أغلبهم قد بخسوا من حظوظ الدنيا، وأن الدنيا – غالباً– في أيدي أهل النقائص، وقد يتأسف الفضلاء على ما فاتهم مما ناله أولو النقص وهذا غلط من وجهين:

أحدهما: إن كانت لك همة في طلب الدنيا، فاجتهد في طلبها تربح التأسف على فوتها، فإن قعودك متأسفاً على ما ناله غيرك مع قصور اجتهادك غاية العجز.

والثاني: إن الدنيا إنما تراد لتعبر لا لتعمر، وهذا الذي يدلك عليه علمك ويبلغه فهمك، وما يناله أهل النقص من فضولها يؤذي أبدانهم وأديانهم[1].

إذاً ما رزقك الله من علم أو مال أو حكمة هو الخير لك في حياتك ومماتك فاشغل نفسك به ولا تلفت إلى غيرك أبداً فمن راقب الناس مات هماً. من أجل ذلك كان النهي في القرآن والسنة عن الحسد والتحاسد بين الناس.

فقد تعوذ الله من شر الحاسد وقرنه مع السحر بقوله تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۝١ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝٢ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ۝٣ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ۝٤ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ [الفلق: 1- 5] فالنفاثات في العقد هي السحر. ولا يأمر الله نبيه بالاستعاذة إلا من أمر خطير جداً. ويقول سبحانه: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ [النساء: 54].

يقول هشام الأصم: إني رأيت الناس يذم بعضهم بعضاً، ويغتاب بعضهم بعضاً فوجدت ذلك من الحسد في المال والجاه والعلم، فتأملت قوله تعالى: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾[الزخرف: 32]. فعلمت أن القسمة من الله تعالى في الأزل وأن الضيق بها حمق فما حسدت أحداً ورضيت بقسمة الله تعالى.

ولا يمكن أن يجتمع إيمان بالله وحسد في قلب المؤمن، كما أن الحسد يأكل الحسنات، فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «إيَّاكم والحسد، فإن الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب»[2].

---

(1) صيد الخاطر، ابن الجوزي، ص: 54، 55.

(2) أبو داود في الأدب، باب: في الحسد، رقم (4903): 4/ 276.

وعن أنس ﷺ أن النبي ﷺ قال: «لا تباغضوا ولا تحاسدوا، ولا تدابروا،ولا تقاطعوا، وكونوا عباد الله إخواناً، ولا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث»(1).

قال أبو تمام الطائي موضحاً أن الحاسد إذا عمل بمقتضى حسده فإنه ينبه الناس إلى فضل المحسود ومكانته ويبوء هو بالنقص والخسران:

وإذا أراد الله نشر فضيلة طويت أتاح لها لسان حسود
لولا اشتعال النار فيما جاورت ما كان يُعرف طيب عرف العود

وقال شاعر موضحاً أن الحسد فيه إساءة أدب لأن المسلم يجب عليه الرضا بقضاء الله وقدره:

ألا قلت لم بات حاسداً أتدري على من أسأت الأدب
أسأت على الله في فعله كأنك لم ترض لي ما قد وهب

ويقول الإمام الشافعي –رحمه الله – مبيناً أن الحاسد همه زوال النعمة عن المحسود:

وداريت كل الناس لكن حاسدي مداراته عزت وعز منالها
وكيف يداري المرء حاسد نعمةٍ إذا كان لا يرضيه إلا زوالها

* * *

(1) البخاري في الأدب، باب: ما ينهى عن التحاسد والتدابر، رقم (5718): 5/ 2253. ومسلم في البر والصلة، باب: تحريم التحاسد والتباغض، رقم (2559): 4/ 1983.

لا تحسد إلا عبدا قد لف في ملابس التقوى

يقول ابن عطاء الله: لا تحسد إلا عبداً قد لفت في ملابس التقوى.

بعد بيان خطر الحسد على الإيمان، يبين لنا ابن عطاء الله أن من الحسد ما هو محمود ويسمى «حسد الغبطة» الذي يعني: أن أتمنى أن أكون مثل فلان في العلم أو التقوى وعمل الخير. وهذا من التنافس المحمود الذي أشار إليه الباري سبحانه بقوله: ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ﴾[المطففين: 26].

وأشار إليه نبينا محمد ﷺ بقوله: «لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله مالا فسلط على هلكته بالحق، ورجل آتاه الله الحكمة فهو يقضي بها ويعلمها»[1].

رجل آتاه الله مالاً: إنه الغني الشاكر الذي ينفق في الخير، أما الرجل الثاني فهو «آتاه الله الحكمة» التي تمنع من الجهل وسوء التصرف، وهي تشمل الحكمة القرآنية، قال تعالى: ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾[البقرة: 269].

فإن قيل: إذاً لم سمي حسداً وإنما أحب أن يُنعم الله عليه؟.

الجواب: مبدأ هذا الحب هو نظره إلى إنعامه على الغير وكراهته أن يفضل عليه، ولولا ذلك لم يحب ذلك، فلما كان مبدأ ذلك كراهته أن يفضل عليه الغير كان حسداً، لأنه كراهة تتبعها محبة[2].

* * *

---

(1) البخاري في الأحكام، باب: أجر من قضى بالحكمة، رقم (6608). ومسلم في صلاة المسافرين وقصرها، باب: فضل من يقوم بالقرآن ويعلمه، رقم (1352).

(2) أمراض القلوب، ابن تيمية، ص: 43.

ضياع العمر واستدراك ما فات منه

يقول ابن عطاء الله: ترمد عينك فتعالجها، وما سبب ذلك إلا أنك ذقت بها لـذة الـدنيا، فتعالجها حتى لا يفوتك النظر إلى مستحسناتها، وترمد بصـيرتك أربعـين سـنة فـلا تعالجهـا، واعلم أن عمراً ضيع أوله حري أن تحفظ آخره. كامرأة كان لها عشرة أولاد مات مـنهم تسـعة وبقي واحد، أليست ترد وجدها على ذلك الواحد؟!. وأنت قد ضيعت أكثر عمـرك فـاحفظ بقيته وهي صبابة يسيرة. والله ما عمرك من أول يوم ولدت بل عمرك من أول يوم عرفـت الله تعالى.

العاقل هو من يعرف قيمة الوقت والجاهل هـو مـن ضـيع عمـره في أشـياء لا تنفعـه في آخرته، وإن الملاحظ –وللأسف– أن الناس جميعاً يمضون الساعات الطوال إما بالنوم العميق أو بحديث لا ينفع أو بالأسواق أو بالكلام عن الطعام وأصنافه وكيفية تحضيره فيمضي العمر هكذا وكأنهم يتحدثون في سفينة وهي تجري بهم وما عندهم خبر.

يقول ابن الجوزي –رحمه الله– : «تأملت أحوال الناس في حالة علو شأنهم، فرأيت أكثـر الخلق تبين خسارهم حينئذٍ، فمنهم من بـالغ في المعـاصي مـن الشـباب، ومـنهم مـن فـرط في اكتساب العلم، ومنهم من أكثر من الاستمتاع باللذات، حينئـذ فكلهـم نـادم في حالـة الكـبر حين فوات الاستدراك لذنوب سلفت، أو قوى ضعفت، أو فضيلة فاتت، فيمضي زمان الكبر في حسرات، فإن كانت للشيخ إفاقة من ذنوب قد سلفت وقال:

وا أسفاً على ما جنيت ! وإن لم يكن له إفاقة صار متأسفاً على فوات ما كان يلتذ به، فأمـا من أنفق عصر الشباب في العلم، فإنه في زمن الشيخوخة يحمد جنى ما غرس، ويلتذ بتصنيف ما جمع. . . »[1].

---

(1) صيد الخاطر، ص: 267.

فيا من ضاع أكثر عمره هباء، ولم يتعرف على الله عز وجل، استدرك ما فاتك وتب إلى الله منيباً إليه، واعلم أن عمرك يبدأ من أول يوم عرفت الله تعالى.

يقول الإمام الشافعي رحمه الله:

خبت نار نفسي باشتعال مفارقي ... وأظلم ليلي إذ أضاء شهابها
أيا بومة قد عششت فوق هامتي ... على الرغم مني حين طار غرابها
رأيت خراب العمر مني فرزتني ... ومأواك من كل الديار خرابها
أأنعم عيشاً بعد ما كل عارضي ... طلائع شيب ليس يغني خضابها
وعزة عمر المرء قبل مشيبه ... وقد فنيت نفسٌ تولى شبابها
وكيف يداري المرء حاسد نعمةٍ ... إذا كان لا يرضيه إلا زوالها
إذا أصفر لون المرء وأبيض شعره ... تنغص من أيامه مستطابها
فدع عنك سوءات الأمور فإنها ... حرامٌ على نفس التقي ارتكابها

* * *

فوائد الأذكار الجامعة

يقول ابن عطاء الله: من قارب فراغ عمره يريد أن يستدرك ما فاته، فليذكر بالأذكار الجامعة، فإنه إذا فعل ذلك صار العمر القصير طويلاً، كقوله: «سبحان الله العظيم وبحمده، عدد خلقه، ورضا نفسه، وزنة عرضه ومداد كلماته»[1]. وكذلك من فاته كثرة الصيام والقيام، أن يشغل نفسه بالصلاة على رسول الله، فإنك لو فعلت في جميع عمرك كل طاعة ثم صلى الله عليك صلاة واحدة، رجحت تلك الصلاة الواحدة على كل ما عملته في عمرك كله من جميع الطاعات، لأنك تصلي على قدر وسعك، وهو يصلي على حسب ربوبيته، هذا إذا كانت صلاة واحدة، فكيف إذا صلى عليك عشراً بكل صلاة؟!. كما جاء في الحديث الصحيح[2]، فما أحسن العيش إذا أطعت الله فيه بذكر الله تعالى أو الصلاة على رسول الله ﷺ، يُروى أنه ما من صيد يصاد ولا شجرة تقطع إلا بغفلتها عن ذكر الله تعالى، لأن السارق لا يسرق بيتاً وأهله أيقاظ بل على غفلة أو نوم.

كثير من المسلمين يمضون فترة الشباب والكهولة بأشياء لا تقربهم إلى الله سبحانه، يهدرون السنين في الغفلة، ربما أفطروا في رمضان بعض الأيام، وتركوا الصلاة كلها أو بعضها، وسعوا في الأرض فساداً فآذوا الناس وهجموا على المحرمات، كل ذلك عندما كانوا أقوياء استخدموا جوارحهم في معصية الله، ثم لما ضعفوا، ولما خارت قواهم، واستسلموا للشيب والمرض والهم. وردوا إلى أرذل العمر، تفتح ذهنهم على الحقيقة المرة. لقد ضاع عمرهم سدى. ما العمل؟!. فتراهم يذهبون للحج ويرتادون المساجد التي نسوها طيلة فترة الشباب وعندئذٍ يفطنون لقراءة القرآن.

هنا ينصحهم ابن عطاء الله بالالتزام بالأذكار الجامعة التي تتصف بالعدة اللامتناهي وبالصلاة على النبي ﷺ، وطبعاً لا يكون ذلك إلا بعد التوبة الصادقة الخالصة لله سبحانه.

---

(1) هذا حديث أخرجه مسلم في الذكر والدعاء، باب: التسبيح أول النهار وعند النوم، رقم (4905).

(2) مسلم في الصلاة، باب: الصلاة على النبي ﷺ بعد التشهد، رقم (408): 1/ 206.

أما الأذكار فإنها علاج ودواء وعلاج للهموم والأحزان، لأنها إعلان بالرجوع إلى الله الحي القيوم والشعور بالاتصال الدائم لله سبحانه وتعالى.

إن الذاكر بلسانه وقلبه يلجأ إلى كهف الله الحصين، فيشعر بالقوة والأمان، وينزل ضيفاً على مائدة الله الكريم، فيحسن وفادته وضيافته، ويجزل له في العطاء فيزول فقره، ويتلاشى ضعفه، ويصبح غنياً عزيزاً، لا يهاب ظلماً، ولا يخشى فقراً، أليس الله جل شأنه هو القائل: ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾[الرعد: 28].

ولن يتأتى للمؤمن هذا إلا إذا كان على اتصال دائم مع باريه والمنعم عليه، لا يغفل عن ذكره طرفة عين، ولا يسأم من الثناء عليه، والاعتراف بجوده وفضله، وهو القائل: ﴿وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾[الأحزاب: 35][1].

ومن أمثلة الأذكار الجامعة ما رُوي عن جويرية رضي الله عنها أن النبي ﷺ خرج من عندها ثم رجع بعد أن أضحى وهي جالسة، فقال ﷺ: «ما زلت على الحال التي فارقتك عليها»؟ أي: تسبحين الله تعالى وتحمدينه.

قالت: نعم. فقال ﷺ: «لقد قلت بعدك أربع كلمات، ثلاث مرات لو وزنت بما قلت منذ اليوم لوزنتهن قلت: سبحان الله وبحمده عدد خلقه، ورضاء نفسه، وزنة عرشه، ومداد كلماته»[2].

وغير ذلك من الأذكار الجامعة المروية عن المصطفى ﷺ.

---

(1) الأذكار: النووي، ص: 4.

(2) أخرجه مسلم في الذكر والدعاء، باب: التسبيح أول النهار وعند النوم، رقم (4905).

فضل الصلاة على النبي ﷺ :

أما الصلاة على النبي ﷺ فهي أيضاً علاج للهموم والأحـزان الفرديـة والجماعيـة وعـلاج لمغفرة الذنوب.

فقد نـدبنا الله لهـذا الأمـر بقولـه: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَـٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ ۚ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴾[الأحزاب: 56].

وعن جزاء من يصلي على النبي ﷺ قال ﷺ: «من صلَّى علي واحدة صلَّى الله عليه عشراً»(1).

وصلاة الله على العبد هي الرحمة والمغفرة، فإذا علمـت أن معنـى ذلـك أن الله عـز وجـل يرحمك ثم لا يزال يرحمك أضعافاً مضاعفة ويغفر لك ذنبك فـتعلم أن مـن آثـار هـذه الرحمـة زوال الهموم والغموم.

وعن عبد الرحمن بن عوف قال: «كنت أتبع رسول الله ﷺ يومـاً فرأيتـه دخـل حائطـاً – بستاناً– فيه نخيل، فتبعته فإذا هو سجد وانتظرت فأطال السجود وأطاله حتى خشيت أنه قـد قُبض، فجئت أنظر إليه، فرفع رأسه ثم قال لي: ما بك يا عبد الـرحمن؟. قلـت: يـا رسـول الله وضعت رأسك هنا وأطلت خشيت أنك قد قبضت، وقلت في نفسي: لن أرى رسول الله بعـد اليوم أبداً، قال: لقد أتاني آتٍ من ربي فقال: ألا أبشرك؟. إن الله يقول لك من صلَّى عليك مـرة صلى الله عليه بها عشرة»(2).

فكان ذلك سبباً لسجوده ﷺ، ووضع جبهته الشريفة على الأرض المتربة ليس بينها وبـين جبهته حجاب، لماذا فعل ذلك ولماذا كل هذه الفرحة لرسول الله ﷺ؟!.

(1) سبق تخريجه ص335.

(2) أخرجه الإمام أحمد، مسند العشرة المبشرين بالجنة، حديث عبد الرحمن بن عوف، رقم (1574).

ليست الفرحة فرحة الصلاة عليه، ولكنها فرحة الجزاء، فرحة صلاة الله عز وجل بذلك علينا، ولو كانت هذه الصلاة أمراً مستهاناً يُستخف به كما هي الصورة عند كثير من المسلمين اليوم. أفكان يحفل رسول الله ﷺ بذلك إلى هذا الحد؟ . .

ويروي أبي بن كعب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قام مرة من نصف فقال: «أيها الناس جاءت الراجفة[1]. تتبعها الرادفة[2]، جاء الموت بما فيه، جاء الموت بما فيه، ينهض رسول الله بذلك الناس إلى القيام من جوف الليل للإقبال على الله عز وجل بما يستطيعون من ذكر وصلاة ودعاء واستغفار، قال فقلت له: يا رسول الله إني أكثر من الصلاة عليك، فكم أجعل من الصلاة عليك، قال: ما شئت، قلت: الربع. قال: ما شئت وإن زدت فخير. قلت: فالثلث. قال: ما شئت وإن زدت فخير. قلت: فالنصف. قال: ما شئت وإن زدت فخير. قلت: أجعل لك صلاتي كلها. قال: إذا تُكفى همك ويُغفر ذنبك»[3].

فهل من إنسان وقرت حقائق الإيمان في قلبه وأيقن بنبوة رسول الله ﷺ ثم لا يستعين بهذا العلاج الذي يذكره لنا رسول الله. وهذا ليس علاجاً للفرد فقط بل هو علاج اجتماعي أيضاً.

فالفرد الذي عالج نفسه بهذا الذي ذكره رسول الله ستجلى عنه همومه وسيحقق الله سبحانه وتعالى له الخير الذي يريد. والمجتمع الذي يأخذ نفسه أيضاً بهذا العلاج عندما تدلهم المصائب وتكثر الخطوب فإن الله عز وج لينجي هذا المجتمع من مصائبه.

ورب قائل: ما فائدة الإكثار من الصلاة على رسول الله ﷺ؟. ونحن نعلم أن الله عز وجل قد أكرم رسوله بالدرجات العلى، ولسوف يكرمه يوم القيامة بالمقام المحمود صلينا عليه أو لم نصل، وما مصدر هذه الخطورة التي تجعل للصلاة عليه هذه الأهمية؟.

---

(1) الراجفة: النفخة الأولى في الصور التي يموت بها الخلائق.

(2) الرادفة: النفخة الثانية في الصور التي يحيا بها الناس.

(3) الترمذي في صفة القيامة، باب: منه، رقم (2381). وقال: حديث حسن صحيح.

الجواب: صلاتنا على رسول الله ﷺ لا تزيده رفعة عند ربه، ولكن هو الوفاء ينبغي أن نتحلى به تجاه من كانت هدايتنا على يده، تجاه من كان رشدنا ومعرفتنا لله بواسطته، فعندما يصلي عز وجل علينا صلاة الرحمة والمغفرة إنما يكون ذلك لأننا بصلاتنا عبرنا عن وفائنا لرسول الله ﷺ وكأننا نقول: جزى الله عنا محمداً ﷺ ما هو أهله.

بعد هذا كله أليس من الغريب أن يزهد الناس اليوم بالصلاة على رسول الله ﷺ ؟!.

* * *

تحصيل الزاد للرحيل للآخرة

يقول ابن عطاء الله: من علم قرب رحيله أسرع في تحصيل الزاد، ومن علم أن إحسان غيره لا ينفعه جد في الإحسان، ومن أخرج ولم يحسب خسر ولم يدر.

فالواجب على العاقل أخذ العدة لرحيله، لأنه لا يعرف متى يفجؤه الموت، فكم من شاب غره شبابه، وألهاه طول الأمل جاءه الموت فجأة مع غير استعداد له، فيا حسرته وندمه، فالعاقل من أعطى كل لحظة حقها من الواجب عليه فلا يؤخر توبته، ويتحاشى الغيبة أو سماعها ويبتعد دائماً عن الكسب الحرام أو الشبهة فيه، فإن فاجأه الموت وُجد مستعداً وإن نال الأمل ازدادت خيراته.

وانظر كيف يأمرنا الله باغتنام الوقت وبإنفاق المال في سبيل الله في حال الصحة والقوة قبل أن يأتي الموت الذي ينتهي مع العمل فيقول سبحانه: ﴿ وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ١٠ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾[المنافقون: 10- 11].

* * *

ترقيع العبادة بالبكاء والتضرع لمن كبرت سنه

يقو ابن عطاء الله: يا أيها الشيخ: قد أفنيت عمرك، فاستدرك ما فاتك، قد لبست البياض وهو الشيب، والبياض لا يحمل الدنس.

إذا ضعفت عن العبادة، فرقع عبادتك بالبكاء والتضرع، إن قيل لك: من يُبكى عليه؟ فقل: عبد عوفي فأنفق عافيته في معصية الله.

إنها دعوة لمن كبرت سنه أن يستدرك ما فاته، ويكون ذلك بالندم على ما فات والبكاء والتضرع لله سبحانه أن يعفو عما مضى، فقد ظهرت شمس الحقيقة ووضح قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ﴾[فاطر: 37].

وقوله: ﷺ: «أعذر الله إلى امرئ أخر أجله حتى بلغه ستين سنة»[1].

أي ليس له عذر عند الله إن لم يتب ويصلح حاله مع الله بعد أن بلغ ستين سنة، بعد ذلك ليس له إلا العذاب في نار جهنم.

فابك على نفسك أيها الشيخ ورقع عبادتك بالبكاء فإن أظلم الناس من عافاه الله فاستعمل عافيته في معصية الله.

ولكن لا تيأس فإن الله يقبل توبتك ويمحو ما فات من عمرك الذي أمضيته في الغفلة والبعد عنه سبحانه.

لا تيأس فإن الترحاب عامر من الله لمن يتوب إليه، بل يبسط يديه كما قال ﷺ: «إن الله يبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل، ويبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار حتى تطلع الشمس من مغربها»[2].

---

(1) البخاري في الرقاق، باب: من بلغ سنين سنة فقد أعذر الله إليه في العمر، رقم (5940).

(2) مسلم في التوبة، باب: قبول التوبة من الذنوب وإن تكررت الذنوب، رقم (4954).

روي أنه لما حضرت معاوية بن أبي سفيان الوفاة قال: أقعدوني فأقعدوه، فجعل يذكر الله تعالى ويسبحه ويقدسه، ثم قال مخاصماً نفسه: الآن تذكر ربك يا معاوية بعد الانحطام والانهدام، ألا كان ذلك وغصن الشباب نضر ريان، وبكى حتى علا بكاؤه ثم قال: هو الموت لا منجى من الموت والذي أحاذر منه الموت أدهى وأفظع، ثم قال: يا رب ارحم الشيخ العاصي ذا القلب القاسي، اللهم أقل العثرة واغفر الزلة، وجد بحلمك على من لم يرج غيرك ولا وثق بأحد سواك [1].

* * *

(1) تنبيه الغافلين، ص: 32.

من بلغ أربعين سنة فقد اقترب من لقاء الله

يقول ابن عطاء الله: أنشد إنسان:

إذا العشرون من شعبان ولت فواصل شرب ليلك بالنهار

ولا تشرب بأقداح صغار فقد ضاق الزمان على الصغار

ومعناه عنده: إذا مضت العشرون من شعبان، فقد قرب رمضان، يقطع علينا الشراب.

ومعناه عند أهل الطريق: إذا خلفت أربعين سنة وراء ظهرك فواصل العمل الصالح بالليل والنهار، لأن الوقت قد قرب إلى لقاء الله عز وجل، فليس عملك كعمل من كان شاباً ولم يضيع شبابه ونشاطه، وأنت قد ضيعت شبابك ونشاطك.

إن من اقترب رحيله، تزود لهذه الرحلة. ومن مضى عليه أربعون سنة [1]. وقد ضاع شبابه باللهو والشهوات عليه أن يحس بفداحة ما هو مقدم عليه، إذ إنه قد قرب إلى لقاء الله عز وجل فليتب مما هو فيه من التقصير، وليشمر ساعد الجد للعمل الصالح بالليل والنهار لعله يستدرك ما فاته ويلقى الله وهو عنه راضي.

* * *

(1) ذكرت الحكمة من اختيار سن الأربعين سابقاً، انظر، ص: 79.

فائدة ذكر الله تعالى

يقول ابن عطاء الله: هب أنك تريد الجد ولكن لا تساعدك القوى، فاعمل على قدر حالك ورقع الباقي بالذكر، فإنه لا شيء أسهل منه، يمكنك في حال القيام والقعود والمرض والاضطجاع، فهذا أسهل العبادات وهي التي قال فيها رسول الله ﷺ: «وليكن لسانك رطباً بذكر الله»(1). وأي دعاءٍ أو ذكرٍ سهل عليك فواظب عليه، فإن مدده من الله عز وجل. فما ذكرته إلا ببره، وما أعرضت عنه إلا بسطوته وقهره، فاعمل واجتهد، فالغفلة في العمل خيرٌ من الغفلة عنه، ترى حالك حال الزاهدين في الفضل، لأن الطالب لا ينقطع عن الأبواب بل تجده واقفاً عليها فمثاله كالثكلى التي مات ولدها، أتراها تحضر الأعراس والأفراح والولائم؟! بل هي مشغولة بفقد ولدها.

فائدة أخرى لذكر الله تعالى وهي: أنه يمكنك أن تذكر الله في كل أوقاتك وحالاتك كما قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ ﴾ [آل عمران: 191]. وهي العبادة التي تمكنك المواظبة عليها عندما تضعف عن باقي العبادات لسن أو مرضٍ.

والمواظبة على الذكر سبب لمدد الله سبحانه لعبده الذاكر، كما قال سبحانه: ﴿ فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ ﴾ [البقرة: 152]. وذكر الله يعني: الرحمة والمغفرة والمعونة والنصرة لعبده الذاكر في الحياة الدنيا وفي الآخرة.

ومعنى قوله: «فما ذكرته إلا ببره، وما أعرضت عنه إلا بسطوته وقهره».

إذ كل شيء في الكون دال على عظيم صنع الله ولا يوجد شيء يصلح أن يقوم حاجز أيقصيك عن شهود الله لأن كل ما هو موجود مستنير بنور الله ودال على عظيم صنع الله كل شيء يدعو لذكر الله، فمن هداه الله لذلك فقد حاز نعمة عظيمة وهذا هو البر المقصود

(1) الترمذي في الدعوات، باب: ما جاء في فضل الذكر، رقم (3297) وقال: حسن غريب. وابن ماجه في الأدب، باب: فضل الذكر، رقم: (3783).

بالعبارة السابقة، ولكن الأعراض عنه سبحانه يكون بقهره، إذ إن قاهرية الله عز وجل تجعل من اللاشيء شيئاً، وتريك حال كثيرين من الناس وقد حجبوا عن الله عز وجل فأعرضوا عنه بما ليس له وجود حقيقي أي بما ليست له كثافة ذاتية تغالب النور الإلهي الساري في كل شيء، فتغلبه وتغيبه عن البصائر والعقول. وهذا ما يعنيه ابن عطاء الله بقوله في حكمه: «مما يدلك على وجود قهره سبحانه أن حجبك عنه بما ليس موجوداً معه». . . .

تأمل في حال الملاحدة والمعاندين والمستكبرين تجد أنهم محجوبون فعلاً عن شهود الله ولكن بأي شيء حجبوا عنه؟. . إنما حجبوا عنه بقهره وبطشه. وقاهرية الله لا تحتاج إلى أداة يستعان بها للستر أو الحجب. وإنما يتوقف الأمر على القرار الإلهي فقط، الدال عليه قول الله تعالى: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَقَلۡبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ﴾[الأنفال: 24]. وقول الله عز وجل: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمۡ عَن رَّبِّهِمۡ يَوۡمَئِذٖ لَّمَحۡجُوبُونَ﴾[المطففين: 15].

ولكن من هم أولئك الذين قهرهم الله بحجبهم عنه دون حاجب؟.

هم الذين حاق عليهم غضب الله ومقته. وإنما يحيق مقته وغضبه بالمعاندين والمستكبرين عليه فقط، دون بقية الناس جميعاً.

في الناس من يستبد بهم الكبر والفساد، فيتجاهلون النور الإلهي الذي تفيض به المكونات كلها، والذي يشع مرآه في أبصارهم وبصائرهم، ثم إنهم يصرون إصرارهم المستكبر على تجاهلهم الكاذب، فيحيق بهم غضب الله العاجل في الدنيا، ويحجبتهم عن شهود ذاته العلية دونما حجاب!. . . . فهؤلاء هم الذين قال الله عنهم: ﴿وَلَقَدۡ ذَرَأۡنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِۖ لَهُمۡ قُلُوبٞ لَّا يَفۡقَهُونَ بِهَا وَلَهُمۡ أَعۡيُنٞ لَّا يُبۡصِرُونَ بِهَا وَلَهُمۡ ءَاذَانٞ لَّا يَسۡمَعُونَ بِهَآۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلۡأَنۡعَٰمِ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّۚ﴾[الأعراف: 179] (1).

ثم يقول ابن عطاء الله: «فاعمل واجتهد فالغفلة في العمل خير من الغفلة عنه».

---

(1) شرح الحكم العطائية، د. محمد سعيد رمضان البوطي، ص: 215، 216.

فمن يصلي وعقله شارد عن بعض صلاته أو عن كلها أفضل ممن لا يصلي، والذي يزكي وزكاته مشوبة بشيء من الرياء أفضل ممن لا يزكي إذ الغفلة في العمل خير من الغفلة عنه.

يقول ابن عطاء الله في إحدى حكمه: «لا تترك الذكر لعدم حضور قلبك مع الله فيه، فإن غفلتك عن وجود ذكره أشد من غفلتك في وجود ذكره فعسى أن يرفعك من ذكر مع وجود غفلة إلى ذكر مع وجود يقظة.

ومن ذكر مع وجود يقظة إلى ذكر مع وجود حضور.

ومن ذكر مع وجود حضور إلى ذكر مع غيبة عما سوى المذكور، وما ذلك على الله بعزيز».

ثم قال ابن عطاء الله –رحمه الله– : «ترى حالك حال الزاهدين في الفضل، لأن الطالب لا ينقطع عن الأبواب بل تجده واقفاً عليها مثاله كالثكلى التي مات ولدها، أتراها تحضر الأعراس والأفراح والولائم ؟! بل هي مشغولة بفقد ولدها».

أي من الغفلة أنك لا تقرع باب التوبة والإنابة لله عز وجل وترى أنك مستغنٍ عن ذلك كله، وهذا خطأ فادح؟!

فنحن في كل لحظة محتاجون لرحمة الله ولفضله وإنعامه وتوفيقه ونصره، ونحن في كل لحظة يجب أن نتوب إلى الله ونقرع الباب لأننا مقصرون في حق ربنا عز وجل، ذنوبنا كثيرة ولم نؤد شكر النعم التي أنعمها علينا سبحانه.

أما الناس اليوم فقد ظنوا –بسبب غفلتهم– أنهم مستغنون عن رحمة الله حالهم حال الذي زهد في فضل الله عليه ورحمته به، لذلك جاء الخطاب الإلهي: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ [سبأ: 13] أي الذي يؤدي حق الشكر على حقيقته.

فالعاقل هو الذي يقف على باب الله سبحانه راجياً رحمته ومغفرته، وهو مشغول البال هل قبلت توبته أم لا ؟!. هل هو من الأشقياء أم الأتقياء ؟! هل عمله كان خالصاً لله أم تشوبه شوائب الدنيا من السمعة والرياء والكبر والعجب؟!

هذا حاله كحال الثكلى التي مات ولدها لا تذهب إلى الأعراس بل هي مشغولة بفقد ولدها، كذلك المؤمن التقي ترك زينة الحياة الدنيا فلم تشغله لذاتها وأهواؤها وإنما له هم واحد وهو أن يكون ربه راضياً عنه ؟!.

* * *

التماس الأعذار

يقول ابن عطاء الله: إذا أردت أن تختبر عقل الرجل فانظر إليه: إذا ذكرت له شخصاً فإن وجدته يطوف على محمل سوءٍ حتى يقول لك: خلنا منه، ذاك فعل كذا وكذا، فاعلم أن باطنه خراب وليس له معرفة، وإذا رأيته يذكره بخير أو يذكر له ما يوصف بالذم ويحمله على محملٍ حسن، ويقول: لعله سها، أو له عذر أو ما أشبه ذلك، فاعلم أن باطنه معمور، فإن المؤمن يعمل على سلامة عرض أخيه المسلم.

التماس الأعذار معناه: رفق الإنسان بالمخطئ، وعدم مقابلة سيئته بمثلها، بل يلتمس عذراً.

والتماس الأعذار أمر مهم جداً إذ إنه يدل على سلامة الصدر من الحقد والحسد ويدل أيضاً على المحبة المتبادلة. فالمسلم يحب لأخيه ما يحب لنفسه، والمسلم يعمل على سلامة عرض أخيه المسلم ولا يطعن به ولا يفضحه، وعندما يطوف المسلم على محمل سوء لينتقص من أخيه ويظهر للناس نقصه أو عيبه فهذا يدل على آفات خطيرة استولت على القلب جعلته يفرح لمصيبة غيره وهذا أيضاً من الحسد الذميم المنافي للإيمان.

هذا الرجل باطنه خراب لأنه تجرأ على انتقاص أخيه بغيبة ذميمة فهذا دليل على بعد هذا الرجل عن الخوف من ربه عز وجل.

أما الذي يلتمس العذر لأخيه ويعمل على سلامة عرض أخيه المسلم من الانتقاص والغيبة فاعلم أن باطنه عامر بالتقوى والخوف من الله والحب له سبحانه.

قيل: ينبغي أن تستنبط لزلة أخيك سبعين عذراً، فإن لم يقبله قلبك فرد اللوم على نفسك، فتقول لقلبك: ما أقساك! يعتذر إليك أخوك سبعين عذراً فلا تقبله، فأنت المعيب لا أخوك.

ومهما اعتذر إليك أخوك كاذباً أو صادقاً فاقبل عذره.

قال الشاعر:

ولست بمستبقٍ أخاً لا تلمه   على شعثٍ أي الرجال المهـذب[1]؟

* * *

(1) إحياء علوم الدين، الغزالي: 2/ 257، 258.

خطر التكبر

يقول ابن عطاء الله: لا يدفع المدد الهابط مثل الكبر، لأن الغيث لا يقر إلا على الأرض المنخفضة لا فوق رؤوس الجبال، فكذلك قلوب المتكبرين تنقل عنها الرحمة وتنزل إلى قلوب المتواضعين، والمراد بالمتكبرين: من يرد الحق، لا من يكون ثوبه حسناً، ولكن الكبر: بطر الحق، يعني: دمغه واحتقار الناس، ولا تعتقد أن الكبر لا يكون إلا في وزير أو صاحب دنيا بل قد يكون فيمن لا يملك عشاء ليلة، وهو يفسد ولا يصلح لأنه تكبر على خلق الله تعالى.

قال الشاعر:

من عظم الناس عظموه ... وفاز بالفضل والرئاسة

ومزدريهم لو كان مسكاً ... لقيل في أصله نجاسه

والتكبر هو: بطر الحق وغمط الخلق.

إذا التكبر هو التعالي على الناس واحتقارهم، فتعالوا نرى هل يحق للإنسان أن يتكبر؟.

يقول ابن الجوزي: «عجبت لمن يعجب بصورته، ويختال في مشيته، وينسى مبدأ أمره، إنما أوله لقمةٌ ضمت إليها جرعة ماء، فإن شئت، كسرة خبز، معها تمرات، وقطعةٌ من لحم، ومذقةٌ من لبن وجرعةٌ من ماء، ونحو ذلك طبخته الكبد، فأخرجت منه قطرات مني، فاستقر في الأنثيين، فحركتها الشهوة، فصبت في بطن الأم مدة حتى تكاملت صورتها، فخرجت طفلاً تتقلب في خرق البول.

وأما آخره فإنه يُلقى في التراب، فيأكله الدود، ويصير رفاتاً تسفيه السواقي، وكم يخرج تراب بدنه من مكانه إلى آخر، ويقلب في أحوال إلى أن يعود فيُجمع، هذا خبر البدن.

إنما الروح عليها العمل، فإن تجوهرت بالأدب، وتقومت بالعلم، وعرفت الصانع، وقامت بحقه، فما يضرها نقض المركب، وإن هي بقيت على صفتها من الجهالة شابهت الطين، بل صارت إلى أخس حالةٍ منه»[1].

---

(1) صيد الخاطر، ابن الجوزي، ص 386.

إن الله يكره التكبر ويحب التواضع، لأن المتكبر هو الله سبحانه ولا يريد لأحد أن يشاركه في هذه الصفة، لذلك يقول ﷺ فيما يرويه عن ربه عز وجل: «العز إزاره والكبرياء رداؤه فمن ينازعني عذبته»(1).

لذلك كانت عقوبة المتكبر أن تنقل الرحمة عنه وتنزل إلى قلوب المتواضعين لأن الغيث (الرحمة) لا تقر إلا على الأرض المنخفضة لا فوق رؤوس الجبال، قال الشاعر:

ملأى السنابل تنحني بتواضع والفارغات رؤوسهن شوامخ

إن المتكبر صرف عن آيات الله بقرار من الله سبحانه إذ يقول: ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَـٰتِىَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلْغَىِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَـٰفِلِينَ ﴾[الأعراف: 146].

فإذا عوفي الإنسان من حجاب كبره وعناده والركون إلى عصبيته، لم يجد بينه وبين الله أي حجاب يصده عن معرفته وشهوده، بل إنه لا يرى المكونات على اختلافها إلا سطوراً هادية إلى الله، وآيات تنطق بباهر صفات الله(2).

وانظر إلى الكبر كيف كان سبباً لغضب النبي ﷺ ودعائه على صاحبه مع أنه نبي الرحمة ﷺ، إذ جلس معه رجل على الطعام فأكل بشماله فقال له النبي ﷺ: «كل بيمينك، قال: لا أستطيع، قال: لا استطعت ما منعه إلا الكبر، قال: فما رفعها إلى فيه»(3).

وكأن النبي ﷺ يقول: إن كنت كاذباً فيما تقول فأدعو الله أن يحقق ما تقول. فشلت يمينه -والعياذ بالله-.

---

(1) مسلم في البر والصلة والآداب، باب: تحريم الكبر، رقم (4752).

(2) الحكم العطائية، شر وتحليل، د. محمد سعيد رمضان البوطي، ص: 251، 252.

(3) مسلم في الأشربة، آداب الطعام والشراب، رقم (3766).

التكبر هو رد الحق، وهو داء خطير ومرض من أمراض القلب كالكفر والشرك والنفاق، قال تعالى: ﴿ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۚ فَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴾ [النحل: 22].

ثم يقول ابن عطاء الله: «والمراد بالمتكبرين: من يرد الحق، لا من يكون ثوبه حسناً، ولكن الكبر: بطر الحق. . . ».

وهذا الكلام أصله حديث نبوي شريف أخرجه الإمام مسلم رحمه الله فعن عبد الله ابن مسعود ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرةٍ من كبر». قال رجل: «إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسناً ونعله حسناً؟» قال: «إن الله جميل يحب الجمال، الكبر بطر[1] الحق وغمط الناس»[2][3].

وفي رواية للبخاري ومسلم: «قالت النار: أوثرت بالمتكبرين والمتجبرين»[4].

فالتكبر سبب للحرمان من دخول الجنة لماذا؟. لأن اغترار المرء بنفسه وحبه للتعاظم يجعله يرى في التزام الحق والإقرار به غضاضة تنقص من قدره العظيم في زعمه وتحط من مكانته في وهمه ! حتى إنه قد يؤدي ذلك إلى التعالي على كبرى الحقائق العقلية التي تشهد بها بداهة العقول، حقيقة الإيمان بخالق الأكوان، مع هذه الشواهد القاطعة التي بثها الخالق في كل ذرة من هذا الكون تشهد بوجوده وعظمته؟. . . ومن قبل كان الكبر رائداً لأسلاف هؤلاء، فكذبوا الأنبياء مع يقينهم بصدقهم، علواً واستكباراً، فقالوا: ليس عندنا دليل: ﴿ وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ﴾[النمل: 14].

---

(1) بطر الحق: دفعه وإنكاره بالتعالي عليه.

(2) غمط الناس: احتقارهم وازدراؤهم.

(3) مسلم في الإيمان، باب: تحريم الكبر وبيانه، رقم (132).

(4) البخاري في تفسير القرآن، باب: قوله وتقول هل من مزيد، رقم (4472). ومسلم في الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب: النار يدخلها الجبارون والجنة يدخلها الضعفاء، رقم (5082).

والحديث السابق جاء في غاية التحذير من الكبر، إذ جعل الكبر شيئاً مادياً يوزن وعبر عن ذلك بقوله: «مثال ذرة». لأن الجنة لا يدخلها إلا الطاهرون ظاهراً وباطناً، وكان من الحكمة الله تعالى في إنزال البشر إلى الدنيا لتكون غربالاً يصفي الناس، فيجعل كل شخص في مكانه، لذلك كان القليل من الكبر مضراً(1).

ثم إن الحديث قد بين الكبر المذموم وجلاه جلاء واضحاً، فعندما سأل السائل «إن الرجل يحب أن يكون ثوبه ونعله حسناً» بين النبي ﷺ أن هذا ليس من الكبر بل على العكس إنه شيء يحض عليه الإسلام لذلك قال: «إن الله جميل يحب الجمال».

فما معنى «الله جميل». قال تعالى ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى:11] فكل صفة من صفاته ليست كمثل المخلوقات، ولا تشابهها أبداً. ووصفه بأنه جميل معناه أنه متصف بالكمال، والجمال بالنسبة للإنسان معناه أنه لا ينقصه شيء، أما بالنسبة إلى الله فمعنى الجمال أنه كامل، ولكونه كاملاً فهو يحب ظهور النعمة والكمال على عبده. فحسن مظهر المؤمن وعنايته بنفسه ليست من المحظورات ما دامت لا تحمل أي إسراف أو كبرياء أو افتخار على خلق الله، وهذا مما حض عليه النبي ﷺ صراحة في أحاديث أخرى، لأن المسلم يجب أن يكون معبراً عن ذوق الإسلام، حتى في الملبس والهندام، لذلك قال النبي ﷺ لأصحابه وقد عادوا من السفر: «أصلحوا رحالهم وأصلحوا ثيابكم حتى تكونوا كأنكم شامة في الناس» والشامة هي رمز للزينة، وكذلك نجد أن الكثير من العلماء من سلف هذه الأمة كانوا يعتنون بمظهرهم ويعتبرون ذلك من إظهار نعم الله عليهم، وكان الحسن بن علي رضي الله عنهما يلبس الحلة بمائة ألف درهم ولا يرد سائلاً، والمعنى في هذا أن يلاحظ الإنسان صفاء قلبه من الكبر أو الإعجاب بنفسه(2).

---

(1) في ظلال الحديث النبوي، د. نور الدين عتر، ص: 247 وما بعدها.

(2) المرجع السابق: ص: 250، 251.

إن عقاب المتكبر في الآخرة عظيم، إنه يحرم من دخول الجنة ويعاقب بعكس ما كان يفعله في الدنيا من احتقار الناس وازدرائهم، إنه يوم القيامة حقير ومن حقارته: أن يدوسه الناس بأقدامهم، قال ﷺ: «يُحشر المتكبرون يوم القيامة أمثال الذر. في صور الرجال يغشاهم الذل من كل مكان»(1).

ثم إن الكبر ليس صفة صاحب السلطة أو صفة الغني، إنما قد يتصف به الفقير الذي لا يملك عشاء ليلة، وقد يرفض الفقير زكاة المال أو الصدقة بسبب تكبره، وهذا يدل على خطورة هذه الآفة وأنها صفة لا تظهر إلا بالتعامل مع الناس وهل رأيتم من تكبر على نفسه؟!.

من أجل ذلك جاء الخطاب من الله بقوله تعالى: ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا ﴾[الفرقان: 63]. أي سكينة ووقاراً متواضعين غير متكبرين ولا مرحين.

وفي صحيح مسلم قال الله تبارك وتعالى: «إن الله أوحى إلي أن تواضعوا حتى لا يفخر أحد على أحد ولا يبغي أحد على أحد»(2).

وقد طبق النبي ﷺ ذلك في حياته كلها فكان ﷺ يمر على الصبيان فيسلم عليهم(3).

وكانت الأمة تأخذ بيده ﷺ فتنطلق به حيث شاءت(4).

---

(1) الترمذي في صفة القيامة والرقائق والورع عن رسول الله، رقم (2416).

(2) مسلم في الجنة وصفة نعيمها، باب: الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة، رقم (5109).

(3) البخاري في الاستئذان، باب: التسليم على الصبيان، رقم (5778).

ومسلم في السلام، باب: استحباب التسليم على الصبيان، رقم (4031).

(4) البخاري في الأدب، باب: الكبر، رقم (5610).

وكان ﷺ إذا أكل لعق أصابعه الثلاث[1]. وسألته عائشة رضي الله عنها ما كان النبي ﷺ يصنع في بيته؟ قالت: كان يكون في مهنة أهله. تعني: خدمة أهله فإذا حضرت الصلاة خرج إلى الصلاة [2].

وكان ﷺ يخصف نعله ويرقع ثوبه ويحلب الشاة لأهله، ويعلف البعير ويأكل مع الخادم، ويجالس المساكين، ويمشي مع الأرملة واليتيم في حاجتهما، ويبدأ من لقيه بالسلام ويجيب دعوة من دعاه ولو إلى أيسر شيء.

وكان ﷺ هين المؤنة، لين الخلق، كريم الطبع، جميل المعاشرة، طلق الوجه، بساماً متواضعاً من غير ذلة، جواداً من غير سرف، رقيق القلب رحيماً بكل مسلم خافض الجناح للمؤمنين لين الجانب لهم.

وكان يقول ﷺ: «لو دُعيت إلى ذراع – أو كراعٍ [3]. – لأجبت، ولو أهدي إلى ذراع – أو كراع – لقبلت»[4].

وكان ﷺ يوم قريظة على حمار مخطوم[5]. بحبل من ليف عليه إكاف [6]. من ليف [7].

* * *

---

(1) مسلم في الأشربة، باب: استحباب لعق الأصابع، رقم (3795).

(2) البخاري في الأذان، باب: من كان في حاجة أهله، رقم (635).

(3) الكراع من البقر والغنم ما دون الركبة من الساق.

(4) البخاري في النكاح، باب: من أجاب إلى كراع، رقم (4780).

(5) الخطام: حبل تقاد به الدابة.

(6) الإكاف: ما يوضع على ظهر الحمار كالبرذعة.

(7) الترمذي في الجنائز، رقم (938). وقال: هذا حديث لا نعرفه إلا من حديث مسلم عن أنس ومسلم الأعور يُضعف وهو مسلم بن كيسان تكلم فيه. وابن ماجه في الزهد، البراءة من الكبر، رقم (4168).

الإعجاب بالطاعة

يقول ابن عطاء الله: يصلي الرجل ركعتين فيعتمد عليهما، ويركن إليهما، ويعجب بهما، فهذه حسنة أحاطت بها سيئات، وآخر يفعل المعصية فتكسبه الذلة والانكسار ويديم المسكنة والافتقار، فهذه سيئة أحاطت بها حسنات.

إن ابن عطاء الله يشرح هذه الحقيقة في إحدى حكمه بقوله: «ربما فتح لك باب الطاعة وما فتح لك باب القبول، وربما قضى عليك بالذنب فكان سبب الوصول، معصية أورثت ذلاً وانكساراً خير من طاعة أورثت عزاً واستكباراً».

فكثير من المسلمين –للأسف– يصلون وصلاتهم تدعو عليهم بالضياع، قال ﷺ: «من صلَّى الصلوات لوقتها وأسبغ وضوءها وأتمَّ لها قيامها وخشوعها وركوعها وسجودها خرجت بيضاء مسفرة، تقول: حفظك الله كما حفظتني. ومن صلَّى لغير وقتها ولم يسبغ لها وضوءها ولم يتم لها خشوعها ولا ركوها ولا سجودها خرجت وهي سوداء مظلمة تقول: ضيعك الله كما ضيعتني حتى إذا كانت حيث شاء الله لفت كما يلف الثوب الخلق ثم ضرب بها وجهه»[1]. ويصومون فما قيمة صيامهم؟. قال ﷺ: «ربَّ صائم ليس له من صيامه إلا الجوع وربَّ قائم ليس له من قيامه إلا السهر»[2].

إن العبادة جسم وروح والقبول الإلهي يكون لمن قدمها حية لا ميتة كذلك الطاعات التي يؤديها بعض الناس بهذا الأسلوب ربما استكملت المظاهر الشكلية، ولكنها فقدت حقيقتها وثمرتها، ومن ثم لا تحظى بشيء طائل عند الله.

يقول ابن عطاء الله في إحدى حكمه: «كما لا يقبل العمل المشترك لا يحب القلب المشترك، العمل المشترك لا يقبله والقلب المشترك لا يُقبل عليه».

---

(1) الترمذي في المعجم الأوسط، رقم (3095): 3/ 263. وفيه عباد بن كثير وقد أجمعوا على ضعفه. مجمع الزوائد: 1/ 302.

(2) ابن ماجه في الصيام، باب: ما جاء في الغيبة والرفث في الصائم، رقم (1690). 1/ 539.

فالعمل المشترك هو الذي تضمن الحظوظ النفسانية من رياء وعجب، والقلب المشترك هو الذي يكون فيه حب السوي.

وكمثال على العمل المشترك والقلب المشترك ما قاله ﷺ: «ثلاث مهلكات شُح مُطاع وهوى متبع وإعجاب المرء بنفسه»(1).

إن الأساس في الطاعة أنها تجعل الإنسان يتحقق بأوصاف عبوديته بين يدي ربه، ومع صنوف الخلق. والعبودية تنافي الصلف والغطرسة والخبرة، لأنها تواضع ولين جانب وسهولة خلق.

وقد تجد أناساً من الموسومين بالعبادة بما يؤدون من طاعات للاستعلاء على الخلق، والغض من الآخرين، على حين تجد ناساً ليسوا على غرارهم أسلس قياداً وألين عريكة.

وربما ارتكب أحدهم الذنب فيفزع لارتكابه، وينكسر فؤاده مع الله لما فرط في جنبه.

ولعل استشعاره الخزي على فعلته، وإكنانه الألم في أوبته يجعلانه أدنى إلى الحق وأقرب إلى مئوية الله –بهذا الذنب– من أولئك الذين لم يستفيدوا من طاعتهم إلا الجلافة والقسوة.

إن تهيب هذا العاصي أفضل من كبرياء ذلكم العابد (2).

وعلى ضوء هذا الكلام تفهم ما حدث به رسول الله ﷺ: «قال رجل: والله لا يغفر الله لفلان ! فقال الله عز وجل: من ذا الذي يتألى علي ألا أغفر لفلان ؟ . إني قد غفرت له وأحبطت عملك»(3).

* * *

(1) الطبراني بسند ضعيف، رقم (5452): 5/ 328. انظر: كشف الخفاء: 1/ 386.

(2) انظر: الجانب العاطفي من الإسلام، محمد الغزالي، ص: 125.

(3) مسلم في البر والصلة والآداب، باب: النهي عن تقنيط الإنسان من رحمة الله تعالى رقم (4753).

آفات التكبر

يقول ابن عطاء الله: ما لبس أحد لباساً أنتن من لباس الدعوى بأن يقول في المخاصمة أنت مثلي، وأنت يصلح لك أن تكلمني، ومن أنت حتى أكلمك، فأول من هلك بذلك إبليس، فإياك وهذا ولو كان أعرج أجذم [1]. فلا تحقره، لحرمة لا إله إلا الله في قلبه، وحسن ظنك بكل أحد تفلح.

قسم العلماء آفة الكبر على ثلاث درجات [2]:

الأولى: أن يكون مستقراً في قلب الإنسان منهم، فهو يرى نفسه خيراً من غيره، إلا أنه يجتهد ويتواضع، فهذا في قلبه شجرة الكبر مغروسة، إلا أنه قد قطع أغصانها.

الثانية: أن يظهر لك بأفعاله من الترفع في المجالس، والتقدم على الأقران، والإنكار على من يقصر في حقه، فترى العالم يصعر خده للناس، كأنه معرض عنهم، والعابد يعيش ووجهه كأنه مستقذر لهم، وهذان قد جهلا ما أدب الله به نبيه ﷺ، حين قال: ﴿ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾[الشعراء: 214].

الدرجة الثالثة: أن يظهر الكبر بلسانه، كالدعاوى والمفاخر، وتزكية النفس، وحكايات الأحوال في معرض المفاخرة لغيره.

قال ابن عباس: يقول الرجل للرجل: أنا أكرم منك، وليس أحد أكرم من أحد إلا بالتقوى قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾[الحجرات: 13].

ثم إن التكبر يظهر في شمائل الإنسان كصعر وجهه، ونظره شزراً، وإطراق رأسه، وجلوسه متربعاً ومتكئاً، وفي أقواله، حتى في صورته ونغمته، وصيغة إيراده الكلام، ويظهر ذلك أيضاً في مشيه وتبختره، وقيامه وقعوده وحركاته وسكناته وسائر تقلباته.

---

(1) الجذام: داء يصيب الجلد والأعصاب الطرفية، يسبب فقداً بقعياً، وقد تتساقط منه الأطراف. المعجم الوسيط، ص 118.

(2) مختصر منهاج القاصدين، ابن قدامة، ص: 254، 255.

وأول من هلك بالدعوى إبليس عندما أمره الله بالسجود لآدم فاعتذر تكبراً قائلاً: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾ [الإسراء: 61] وفي آية أخرى قال إبليس: ﴿خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ [الأعراف: 12].

ثم يطلب ابن عطاء من هؤلاء المتكبرين أن يحترموا كل الناس مهما كان شكلهم وعملهم ونسبهم، لحرمة لا إله إلا الله في قلوبهم، فالإسلام لا يهتم بالمظهر ولا يعطيه أي قيمة، بدليل الأحاديث الآتية:

أ- قال ﷺ: «إن الله لا ينظر إلى صوركم ولا إلى أجسادكم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم»[1].

ب- قوله ﷺ: «كم من أشعث[2]. أغبر ذي طمرين[3]. لا يؤبه له لو أقسم على الله لأبره منهم البراء بن مالك»[4].

ج- مر رجل أمام النبي ﷺ فقال لأصحابه: «ما تقولون في هذا؟ قالوا: حريٌّ إن خطب أن يُنكح وإن شفع أن يشفع وإن قال أن يستمع. قال: ثم سكت. فمر رجل من فقراء المسلمين فقال: ما تقولون في هذا؟ قالوا: حري أن لا ينكح وإن شفع أن لا يشفع وإن قال أن لا يستمع فقال رسول الله ﷺ: هذا خيرٌ من ملء الأرض مثل هذا»[5].

* * *

(1) سبق تخريجه، ص: 168.

(2) أشعث الشعر: ملبد مغير الشعر غير ممشط.

(3) ذي طمرين: صاحب ثوبين باليين.

(4) الترمذي في المناقب عن رسول الله، باب: مناقب البراء بن مالك، رقم (3789).

(5) البخاري في النكاح، باب: الأكفاء في الدين، رقم (4701).

حقيقـــة الدنيا والآخرة

مثل من عال هم الدنيا وترك هم الآخرة

يقول ابن عطاء الله: من عام هم الدنيا وترك هم الآخرة كان كمن جاءه أسدٌ يفترسه ثـم قرصه برغوث، فاشتغل به عن الأسد، فإن من غفل عن الله اشتغل بـالحقير، ومـن لم يغفـل لم يشتغل إلا به، فأحسن أحوالك، أن تفوتك الدنيا لتحصيل الآخـرة، يـا طالما فاتتـك الآخـرة لتحصيل الدنيا، وما أقبح الخوف بالجندي، وما أقبح اللحن بالنحوي[1]. وما أقبح طلب الدنيا لمن يُظهر الزهد فيها.

لا تكن كأرباب الدنيا الذين طلقتهم الدنيا، بل كن من الـذين طلقوهـا وفارقوهـا قبـل افتراقهم، فمثالك إذا آثرت ألدنيا عـلى الآخـرة كمـن لـه زوجتـان، أحـدهما عجـوز خائنـة، والأخرى شابة وفيه، فإذا أثرت العجوز الخائنة على الشابة الوفية أفما تكون أحمق؟!.

قال الشاعر:

هـب الـدنيا تسـاق إليـك عفـواً ... ألـــيس مصـــير ذاك إلى زوال

فـما ترجـو بعـيش لـيس يبقـى ... وشـــيكاً قـــد تغـــيره الليـــالي

ومـــا دنيـــاك إلا مثـــل ظـــل ... أظلـــك ثـــم آذن بارتحـــال

الدنيا مليئة بالمغريات والملهيات والمنسيات التي من شأنها أن تقطع العبد من الله عز وجل. وصدق الله جل جلاله إذ يقول: ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴾[آل عمران: 14]، ومهما حاول الإنسان أن ينتقي لنفسه حياة صافية نظيفة من هذه الشواغل فلن يعثر عليها، ما دام يتقلب في فجاج هذه الحياة الدنيا[2].

---

(1) النحوي: العالم بالنحو وحركات الإعراب.

(2) الحكم العطائية: شرح وتحليل، د. محمد سعيد رمضان البوطي، ص: 327.

إن هذه الشواغل هي بمثابة امتحان لهذا الإنسان فإذا ترفع عنها وتغلب على آفاتها كان له المثوبة والأجر عند الله، وإن ركن إليها أنسته طاعة الله وتنفيذ أوامره قضى الله عليه بشقاء عظيم لا نهاية له.

ولا يعني الحذر من الدنيا بغضها وتركها بالمرة، بل المطلوب من الإنسان أن يعمل ليصلح حاله وحال أولاده، وأن يكسب المال لأنه سبب بقائه دليل قوله تعالى: ﴿ وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَـٰمًا ﴾[النساء: 5] أي: قواماً لمعاشكم.

وقال : ﷺ: «نعم المال الصالح للمرء الصالح»[1].

وقال: «ما نفعني مال كمال أبي بكر»[2]. وكان أبو بكر ﷺ يخرج إلى التجارة ويترك رسول الله ﷺ، فلا ينهاه عن ذلك.

وكان جماعة من الصحابة رضي الله عنهم يتجرون، ومن سادات التابعين سعيد بن المسيب مات وخلف مالاً، وكان يبيع الزيت.

وقد تعرض نوائب كالمرض يحتاج فيها إلى شيء من المال، وللنفس قوة بدنية عند وجود المال، ولذلك قال ﷺ: «اليد العليا خير من اليد السفلى واليد العليا هي المنفقة»[3].

فدعوى بغض الدنيا وتركها والعيش عالة على المجتمع وعلى فئات الناس، أمر مناقض لمبادئ الإسلام.

---

(1) أحمد، مسند الشاميين، حديث عمرو بن العاص، رقم (17096).

(2) الترمذي في المناقب: باب: مناقب أبي بكر الصديق، رقم (3594) وقال: حسن غريب من هذا الوجه. وابن ماجه في المقدمة، باب: فضل أبي بكر الصديق، رقم (91)، وأحمد، باقي مسند المكثرين، مسند أبي هريرة، رقم (7134).

(3) البخاري في الزكاة، باب: لا صدقة إلا عن ظهر غنى، رقم (1339). ومسلم في الزكاة، باب: بيان أن اليد العليا خير من اليد السفلى. . ، رقم (1715).

وإنما التحذير أن تستولي الدنيا على القلب فينسى الآخرة هذا هو الخطر قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ ﴾[فاطر: 5].

ثم يقول ابن عطاء الله: «وما أقبح طلب الدنيا لمن يظهر الزهد فيها».

إن هؤلاء يخادعون الله ويخادعون الناس يظهرون الزهد في الدنيا فإذا لاح لهم شيء من مغرياتها ركضوا وراءه، ويدخل في ذلك الدعاة إلى الله ممن يظهرون للناس زهدهم في الدنيا ومن ثم يكون همهم حب المال وحب الجاه وحب الرياسة.

يقول الأديب مصطفى صادق الرافعي واصفاً هذه الفئة: «والفقيه الذي يتعلق بالمال وشهوات النفس، ولا يجعل همه إلا زيادة الرزق وحظ الدنيا هو الفقيه الفاسد الصورة في خيال الناس، يُفهمهم أول شيء ألا يفهموا عنه، إذ حرصه فوق بصيرته، وله في النفوس رائحة الخبز، وله معنى خمس وخمس عشرة. . . وكأن دنياه وضعت فيه شيئاً فاسداً غريباً يفسد الحقيقة التي يتكلم بها، ولست أدري ما هو هذا الشيء، ولكني رأيت فقهاء يعظون ويتكلمون على الناس في الحرام والحلال وفي نص كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، ثم لم أجد لكلامهم نفعاً ولا رداً، إذا يُلهمون الناس بأرواحهم غير المعنى الذي يتكلمون فيه، وتسخر الحقيقة منهم، على خطرهم وجلال شأنهم وبذات الأسلوب الذي تسخر به من لص يعظ لصاً آخر»(1).

والفقرة الآتية تكملة لهذه الفقرة ومتشابهة معها في اللفظ.

* * *

---

(1) وحي القلم: 2/ 186.

الدنيا أحقر من أن يُعال همها

يقول ابن عطاء الله: الدنيا أحق رمن أن يُعال [1]. همها، صغرت الهمم فعالت صغيراً، فلو كنت كبيراً لعلت الكبير. من عال الهم الصغير وترك الهم الكبير استقللنا عقله.

قم أنت بما يلزمك من وظائف العبودية، وهو يقوم بما التزمه. أيرزق الجعل والوزع وبنات وردان [2]. وينسى أن يرزقك ؟! قال الله تعالى: ﴿ وَأۡمُرۡ أَهۡلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصۡطَبِرۡ عَلَيۡهَاۖ لَا نَسۡـَٔلُكَ رِزۡقٗاۖ نَّحۡنُ نَرۡزُقُكَۗ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلتَّقۡوَىٰ ﴾[طه: 132].

قال ﷺ: «الدنيا ملعونة ملعون ما فيها إلا ذكر الله»[3].

وقال ﷺ : «مالي وللدنيا ! ما أنا في الدنيا إلا كراكب استظل تحت شجرة ثم راح وتركها»[4].

فالدنيا إذا لم تكن مطية للآخرة فلا خير فيها، إن الكافر والغافل الذي يطلب الدنيا لذاتها ويعتبرها الفرصة التي إن ضاعت ضاع كل شيء. إنه لا يصدق أن وراء هذه الحياة حياة أخرى أعظم منها، أما المؤمن فإن الدنيا عنده وسيلة لا غاية، وسيلة لما بعدها، هنا الغرس وهناك الحصاد، هنا العمل وهناك الجزاء، هنا الامتحان وهناك النتيجة.

---

(1) يعال: يحمل.

(2) الجعل والوزغ وبنات وردان: أنواع من الحشرات.

(3) الترمذي في الزهد، رقم (2244). وقال: حسن غريب. وابن ماجه في الزهد، باب: مثل الدنيا، رقم (4102).

(4) الترمذي في الزهد، باب: ما جاء في أخذ المال بحقه، رقم (2299). وقال: حسن صحيح. وابن ماجه في الزهد، باب: مثل الدنيا، رقم (4099).

إن الإسلام يلح في إفهام الناس أن الدنيا لا تطلب لذاتها ولا تستحق كل هذا التنافس عليها بل يريد الإسلام أن تجعل الدنيا وسيلة للآخرة، وسيلة لرضوان الله سبحانه، وهذا لا ينافي التملك والتمتع بما فيها، بل امتلك الدنيا كلها إن استطعت لكن على هذا الأساس!!.

إن الله سبحانه لم يقل لقارون صاحب الكنوز الهائلة: انخلع من مالك كي أرضى عنك، لا، ابق فيه ولكن: ﴿ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ ﴾ [القصص: 77] إن الإسلام يحتقر الدنيا هدفاً، ولكنه يحتفي بها وسيلة.. وعلى هذا جاءت آيات كثيرة منها قوله تعالى: ﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴾[الكهف: 45] فالدنيا تتبخر بين أيدي عبادها، كما يتبخر الماء من الهشيم، فإذا هم يقبضون أيديهم على وهم.

ماذا كسب خزان المال، وماذا ربحوا من نسيان رازقه ورفض وصاياه فيه؟.

ماذا نال عباد الأثرة والجاه والاستعلاء عندما يُسلون من الحياة الدنيا سلاً، مخلفين بعدهم أملاكاً، ذهب اسمهم عنها، وآثاراً كحركة الريح في صفحة الماء لا استقرار لها ولا بقاء.

ماذا يكون موقفهم عندما يقول الله لهم: ﴿ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ ۖ ﴾[الأنعام: 94].

ثم جاءت الأحاديث الكثيرة تبين حقارة الدنيا لمن ينشد الحياة للحياة فعن ابن عباس رضي الله عنهما: مر رسول الله ﷺ بشاة ميتة قد ألقاها أهلها، فقال: «والذي نفسي بيده للدنيا أهون على الله من هذه على أهلها»[1].

---

(1) أحمد، من مسند بني هاشم، باقي المسند السابق، رقم (2890).

وعن الضحاك بن سفيان أن رسول الله ﷺ قال له: «يا ضحاك ما طعامك؟ قال: يا رسول الله اللحم واللبن، قال: لم يصير إلى ماذا؟. قال: إلى ما قد علمت قال: فإن الله تعالى ضرب ما يخرج من ابن آدم مثلاً للدنيا»(1).

وعلى هذا لا يجوز شغل القلب بالدنيا بحجة الرزق وهم العيال، فالله سبحانه طلب منك القيام بوظائف العبودية وهي: طاعة الله في نفسك وزوجتك وعيالك، والتزام أوامره وتنفيذ وصاياه، وبالمقابل فإنه سبحانه قد تكفل برزقك فقال سبحانه: ﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَوٰةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَّحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾[طه: 132].

وفي هذا المعنى يقول ﷺ: «يابن آدم تفرغ لعبادتي أملأ قلبك غنى وأملأ يديك رزقاً، يابن آدم لا تباعد مني أملأ قلبك فقراً، وأملأ يديك شغلاً»(2).

وهذا الحديث ليس دعوة للعطل والبطالة، إنما هو دعوة لتغليب الله على هموم الرزق ومتاعب العيش.

والكد في الدنيا للاستعفاف والغنى من حقائق العبادة، ومن معاني الجهاد(3). والفقرة الآتية تحمل المعنى نفسه فنذكرها اكتفاء بالشرح الموجود هنا.

يقول ابن عطاء الله: من فرح بالدنيا إذا جاءته فلقد ثبت حمقه، وأحمق منه من إذا فاتته حزن عليها. فمثالك كمن جاءته حيةٌ لتلدغه، ثم مضت وسلمه الله منها فحزن عليها أن لم تضره.

---

(1) أحمد، مسند المكيين، حديث الضحاك بن سفيان، رقم (15187).

(2) الترمذي في صفة القيامة، رقم (2390). وقال: حديث . حسن غريب. والحاكم في مستدركه، رقم (3657): 2/ 481. وقال: حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

(3) الجانب العاطفي من الإسلام، محمد الغزالي، ص: 182 وما بعدها.

من علامات الغفلة، وصغر العقل، أن تعول هماً هل يقع أم لا وتترك أن تعول هماً لابد من وقوعه، وتصبح وتقول: كيف يكون السعر غداً وكيف يكون الحال في هذه السنة، وألطاف الله تأتي من حيث لا تعلم، والشك في الرزق شك في الرازق، وما سرق السارق، وما غصب الغاصب إلا رزقه، فما دمت حياً لا ينقص من رزقك شيء.

وهذه الفقرة متممة للسابقة وبالمعنى نفسه كما ذكرت.

* * *

كفاك من الإدبار أن تفتح عينيك في هذه الدار

يقول ابن عطاء الله: كفاك من الإدبار أن تفتح عينيك في هذه الدار، قال الله تعالى: ﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ﴾[طه: 131].

جواذب الطبع إلى الدنيا كثيرة، مثالها كالماء الجاري فإنه يطلب الهبوط وإنما رفعه إلى فوق يحتاج إلى التكلف، ورفعه يكون بالترفع عن زهرة الدنيا ومجاهدة النفس التي تجر صاحبها إلى الانغماس في شهوات الدنيا.

إن زهرة الدنيا هي فتنة تلبس لباساً جميلاً والفتنة يراد منها بيان صدق الإنسان في تعامله مع الدنيا والآخرة، فمن غلب عليه حب الدنيا خاب وخسر ومن غلب عليه حب الآخرة فاز ونجا، قال تعالى: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْءَاخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ﴾[الشورى: 20].

وقال تعالى: ﴿ مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴾[النساء: 134].

لذلك قال العلماء: الدنيا تسحرك وتكتمك فتنتها فتدعوك إلى الحرص عليها والتنافس فيها والجمع لها والمنع حتى تفرق بينك وبين طاعة الله تعالى. وتفرق بينك وبين رؤية الحق ورعايته، فالدنيا أسحر من هاروت وماروت تأخذ بقلبك عن الله وعن القيام بحقوقه وعن وعده ووعيده، وسحر الدنيا محبتها وتلذذك بشهواتها وتمنيك بأمانيها الكاذبة حتى تأخذ بقلبك إذ حب الشيء يعمي ويصم[1].

هكذا فهم الصحابة رضوان الله عليهم الدنيا على حقيقتها.

---

(1) تفسير القرطبي: 2/ 53.

يقول ضرار بن ضمرة واصفاً علياً رضي الله عنه: وأشهد بالله لقد رأيته في بعض مواقفه وقد أرخى الليل سجوفه[1]. وغارت نجومه، وقد مثل في محرابه قابضاً على لحيتهن يتململ تململ السليم[2]، ويبكي بكاء الحزين، وكأني أسمعه وهو يقول: يا دنيا، أبي تعرضت؟ أم لي تشوقت؟ هيهات هيهات، غري غيري، قد بتتك ثلاثاً لا رجعة لي فيك، فعمرك قصير، وعيشك حقير، وخطرك كبير، آه من قلة الزاد وبعد السفر، ووحشة الطريق»[3].

* * *

(1) سجوفه، ستره.

(2) اللذيع أو الجريح المشرف على الموت، سموه به تفاؤلاً بالسلامة.

(3) صفة الصفوة، ابن الجوزي.

إنما تأكل لتعيش ولا تعيش لتأكل

يقول ابن عطاء الله: إنما تأكل لتعيش، ولا تعيش لتأكل، فإن فعلت ذلك فمثالك على المداود[1]. كثير، ومثلك في الدواب كثير، فإن فعلت ذلك فإن أسبق الخيل ما ضمر[2]. تقول: هذه الليلة أقلل الأكل، فإذا حضر الطعام فكأنه حبيب مفارق، ومن لم يرد الله صلاحه تعبت فيه الأقاويل، قال الله تعالى: ﴿وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ [المائدة:41].

يا عبد الله تنتخب لنفسك الطيبات، بل تنتخب لدابتك العلف، وتعامل الله بالمجازفة !! وربما قلبت عشرين بطيخة حتى تصلح لك واحدةً لدهليز مرحاض، وتقعد عند الأكل متربعاً، وربما طولت في الأكل، وإذا جئت إلى الصلاة نقرتها نقر الديك، والوساوس والخواطر الرديئة تأتيك في صلاتك، مثال من هذه حاله كمن نصب نفسه للهدف وقعد والرماح والسهام تقصده من كل جانب، أفما هذا أحمق ؟!.

هل الغاية من خلق الإنسان فوق الثرى أكل الطعام وسماع الأغاني وطلب المتع واستخدام آخر ما أنتجته الحضارة من أدوات الترويح والنعم؟.

أما إعدادهم للدار الآخرة فصفر، أو قليل لا يُذكر، لأنهم بين مرتاب فيها، أو مكذب لها، أو غافل!! إن انتهاء العالم إلى هذا المصير في تفكيره وشعوره، وإلى هذا الوضع في يقظته ومنامه، معناه أن العالم صرعه الإلحاد وغطته غواشي الكفر والعصيان.

وهذا لا يمكن أن يهادنه الدين أو يعيش بجواره هادئاً.

---

(1) المداود: مكان الدود.

(2) ضمر: هزل وقل لحمه. المعجم الوسيط، ص 564.

وهذه السكرة الزائفة عن الحق وتبعاته، هذه الدنيا التي اشتهيت لـذاتها ولم يحسب فيها حسب الآخرة ولم يُعرف فيها حق الله، هي التي لعنها الإسلام وصب عليها جام غضبه وحقرها وحقر أصحابها معها.

قال تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ ﴾[الأحقاف: 20].

إن طلاب الدنيا الذين حصروا نشاطهم وعقلهم للتلذذ بالمآكل والملبس والمسكن والتنافس مع غيرهم في ذلك قال الله عنهم: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾[هود: 15- 16].

وقال عنهم: ﴿ مَّن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰؤُلَاءِ وَهَٰؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴾[الإسراء: 18- 20].

والقرآن الكريم يتناول عشاق الحياة من هذا القبيل، فيقرر أن مصيرهم إلى سقر، ويندد بما كانوا عليه في الدنيا من تشبع وطيش. . . ﴿ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ ﴿١٠﴾ فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا ﴿١١﴾ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ﴿١٢﴾ إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا ﴿١٣﴾ إِنَّهُ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ﴾[الانشقاق: 10- 14] والإسلام إنما يستنكر السرور الجاحد المستغرق في العاجلة دون سواها.

وهو إذا كان قد نص في الآية السابقة على الكافرين إذهابهم طيباتهم في حياتهم الدنيا فليس معنى هذا أنه حرم الطيبات على المؤمنين.

كيف؟ وهو ما أحل لهم إلا هذه الطيبات !! ﴿ يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ ۖ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ ۙ ﴾[1]. [المائدة: 4].

* * *

(1) الجانب العاطفي من الإسلام، محمد الغزالي، ص: 190، 191.

قيمتك قيمة ما أنت مشغول به

يقول ابن عطاء الله: ألا فقد حصل النداء على سلعتنا فهل من مشتر؟ قيمتك قيمة ما أنت مشغول به، فإن اشتغلت في الدنيا فلا قيمة لك لأن الدنيا كالجيفة لا قيمة لها.

وقفت الدنيا في طريق الآخرة، فصرفت الوصول إليها. ووقفت الآخرة في طريق الحق، فمنعت الوصول إليه.

إذا أعطيت الدنيا ومنعت الشكر فيها فهي محنة في حقك، قال رسول الله ﷺ: «قليل الدنيا يُلهي عن طريق الآخرة»[1].

من طلب الدنيا بطريق الآخرة، كان كمن أخذ ملعقة ياقوت يغرف بها القذر، أفما يعد هذا أحمق.

وهذا تأكيد لما سبق من أن الدنيا لا ينبغي أن تلهي عن الآخرة، وإنما الدنيا يجب أن تكون مطية للوصول إلى نعيم الآخرة.

فالدنيا لا قيمة لها لأنها سريعة الفناء قريبة الانقضاء، تنظر إليها فتراها ساكنة مستقرة، وهي سائرة سيراً عنيفاً ومرتحلة ارتحالاً سريعاً، ومثالها الظل فإنه متحرك ساكن، متحرك في الحقيقة ساكن الظاهر، لا تدرك حركته بالبصر الظاهر، بل بالبصيرة الباطنة.

إذاً الدنيا لا يجوز أن تلهي عن الآخرة والآخرة أيضاً ما ينبغي أن تنسيك الله سبحانه فليكن همك الوصول إلى مرضاة الله سبحانه فقط !!.

وهذا معنى قول ابن عطاء الله: «وقفت الدنيا في طريق الآخرة، فصرفت الوصول إليها، ووقفت الآخرة في طريق الحق، فمنعت الوصول إليه».

* * *

(1) لم أجده في ما رجعت إليه من المصادر.

العاقل بما هو أبقى أفرح منه بما هو يفنى

يقول ابن عطاء الله: العاقل بما هو أبقى أفرح منه بما هو يفنى، قد أشرق نوره وظهرت تباشيره، فصد عن هذه الدار مولياً، وأعرض عنها مغضياً، فلم يتخذها موطناً، ولا جعلها سكناً، بل أنهض فيها الهمة إلى الله تعالى، وسار إليه مستعيناً به في القدوم عليه، فما زالت مطية عزمه لا يقر قرارها، دائماً تسايرها إلى أن أناخت بحضرة القدس[1]. وبساط الأنس، محل المفاتحة والمواجهة والمجالسة، والمحادثة والمشاهدة والملاطفة، وصارت الحضرة معشش[2]. قلوبهم إليها يأوون، وفيها يستوطنون، فإن نزلوا إلى سماء الحقوق، وأرض الحظوظ فبالإذن والتمكين، والرسوخ في اليقين، فلم ينزلوا إلى الحقوق بسوء الأدب والغفلة، ولا إلى الحظوظ بالشهوة والمتعة، بل دخلوا في ذلك كله بالله، ومن الله، فإياك يا أخي أن تصغي إلى الواقعين في هذه الطائفة، لئلا تسقط من عين الله، وتستوجب المقت[3]. من الله، فإن هؤلاء القوم جلسوا مع الله على حقيقة الصدق وإخلاص الوفاء، ومراقبة الأنفاس مع الله، قد سلموا قيادهم إليه، وألقوا أنفسهم سلماً بين يديه، وتركوا الانتصار لأنفسهم حياة من ربهم، فكان هو المحارب عنهم لمن حاربهم، والغالب لمن غالبهم.

ولقد ابتلى الله هذه الطائفة بالخلق خصوصاً، ولا سيما أهل العلم، فقل أن تجد منهم من شرح صدره للتصديق بولي معين بل يقول لك: نعم إن الأولياء موجودون ولكن أين هم؟ فلا يذكر له أحد إلا وأخذ يدفع خصوصية الله فيه، طلق اللسان بالاحتجاج، عارياً من التصديق، فاحذر من هذا وصفه، وفر منه فرارك من الأسد.

---

(1) القدس: الطهر.

(2) معشش قلوبهم: مكان تعشيشها.

(3) المقت: الغضب.

هذه إحدى الحكم العطائية ومعناها: أن فرح العبد بالأشياء الفانية موجب للزيادة في همه وغمه إذا فقدها. فالعاقل لا يفرح بذلك ولا يحبه، وإنما يكون فرحه بالأمور الباقية التي لا تفنى، قد أشرق نور ذلك في قلبه وظهرت تباشيره على وجهه.

«فصدف عن هذه الدار مولياً، وأعرض عنها مغضباً، فلم يتخذها موطناً، ولا جعلها سكناً».

فمن فرح بالأمور الباقية أعرض عن هذه الدنيا مغضياً جفنه عن أقذائها معرضاً عنها بوجه قلبه، فلم يتوطنها بظاهره على سبيل الخلود فيها بل نزلها منزلة السجن قال ﷺ: «الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر»[1].

ثم يقول ابن عطاء الله: «بل أنهض فيها الهمة إلى الله تعالى، وسار إليه مستعيناً به في القدوم عليه فما زالت مطية عزمه.. . وفيها يستوطنون».

هذه هي قصة سفر القلب إلى حضرة الباري سبحانه والأنس به وهما موضع محط الرحال، وبلوغ الآمال، فلما وصل العبد هذه الحضرة العلية، قوبل بأنواع الكرامات والألطاف، ولا تعرف إلا بالذوق.

ثم قال: «فإذا نزلوا إلى سماء الحقوق. . . بل دخلوا في ذلك بالله».

هذا ما يسمى بسفر التدلي والنزول، وبه يتحقق العبد بمقام الصحو فإن نزلوا من ذلك القرب من الحضرة الإلهية إلى سماء الحقوق، وهي حقوق الله عليهم مما أمرهم به أو نهاهم عنه، ليقوموا بذلك فعلاً أو تركاً أو إلى أرض الحظوظ، وهي: حظوظ نفوسهم التي تلابسهم، ويحصل لهم الارتفاع بها، فإنما يكون نزولهم إلى ذلك بالإذن والتمكين والرسوخ في اليقين.

ومعنى ذلك: أن يدخلوا في الأشياء بمراد الله، لا بمراد أنفسهم[2].

* * *

---

(1) مسلم في الزهد والرقائق، رقم (5256).

(2) غيث المواهب العلية، الرندي: 2/ 203.

كفى بك جهلاً أن تعول الهم الصغير وتترك الهم الكبير

يقول ابن عطاء الله: كفى بك جهلاً أن تعول الهم الصغير، وتترك الهم الكبير، عل هم هل تموت مسلماً أو كافراً، عل هم: أنت شقي أو سعيد؟، عل هم النار الموصوفة بالأبدية التي لا انتهاء لها، عل هم أخذ الكتاب باليمين أو بالشمال، هذا هو الهم الذي يُعال، لا تعل هم لقمة تأكلها، أو شربة تشربها، أيستخدمك الملك ولا يطعمك ؟! أتكون في دار الضيافة وتضيع؟! إن أحب ما يطاع الله به: الثقة به. لأن تكون خاملاً [1]. في الدنيا خيرٌ لك من أن تكون خاملاً يوم القيامة.

قال الحارث المحاسبي: «من علم ما بين يديه، هان عليه ما في يديه» [2]. أي من علم ما ينتظره من الحساب يوم القيامة وأنواع العذاب التي أعدها الله للطغاة المستكبرين هانت عليه الدنيا وزينتها.

فبدل شغل النفس بهم الرزق الذي ضمنه لك ربك بقوله تعالى: ﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَوٰةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَالْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾[طه: 132].

بدل هذا فكر في حياتك وموتك، فكر في الجنة والنار، فكر في الحساب والعرض على الله عز وجل.

ذلك هو الهم. قال تعالى: ﴿ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ وَمَا الْحَيَوٰةُ الدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ الْغُرُورِ ﴾[آل عمران: 185] وارجع إلى ما كتبه الحارث المحاسبي في كتابه «التوهم» لتزداد معرفة بنفسك وبحقيقة ما أنت قادم عليه.

وإليك بعض ما جاء فيه: «توهم نفسك وقد صرعت للموت صرعة لا تقوم منها إلا إلى الحشر إلى ربك، فتوهم نفسك في نزع الموت وكربه وغصصه وسكراته وغمه وقلقه. . .

---

(1) الخمول: الخفاء هو الذي لا يعرف ولا يذكر، وأخمله الله تعالى فهو خامل أي: ساقط لا نباهة له.

(2) آداب النفوس، المحاسبي، ص: 130.

وتوهم أصوات الملكين حين يناديانك لتجلس لسؤالهما إياك ليوقفاك على مساءلتهما، فتوهم جلستك في ضيق لحدك. . . ثم شخوصك ببصرك إلى صورتهما وعظم أجسامهما، فإن رأيتهما بحسن الصورة أيقن قلبك بالفوز والنجاة، وإن رأيتهما بقبح الصورة أيقن قلبك بالهلاك والعطب. . .» الخ ما يذكره من مواقف الحساب والجنة والنار (1).

ثم يقول ابن عطاء الله: «لا تعل هم لقمة تأكلها، أو شربة تشربها، أيستخدمك الملك ولا يطعمك ؟! أتكون في دار الضيافة وتضيع ؟! إن أحب ما يطاع الله به: الثقة به».

ثق أن رزقك على الله ولا تعل هم الرزق، فإن الذي خلقك كفل لك رزقك، أيخلقك ويتركك تموت جوعاً؟!.

ويسوق القرآن إلينا نموذجاً رائعاً للثقة في قصة أم موسى حيث يقول سبحانه. . ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾[القصص: 7].

ثم يقول ابن عطاء الله: «لأن تكون خاملاً في الدنيا خير لك من أن تكون خاملاً يوم القيامة».

الخمول هنا يعني الابتعاد عن الأضواء وعن أسباب الشهرة فمن ابتعد عن مسرح الأحداث متوارياً عن الأضواء، وكان همه في ذلك السعي إلى تربية نفسه وتصفية سريرته من الشوائب ومن ثم الاجتهاد في عبادة ربه والسعي لمرضاته فهذا أفضل له من أن يأتي خاملاً ذليلاً يوم القيامة وقد أحاطت به ذنوبه وشهواته.

ولننه هذه الفقرة بهذه الأبيات الرائعة للإمام الشافعي يصف فيها حال الدنيا وأنه لا راحة فيها فيقول:

من ذا الذي قد نال راحة سره   في عسره إن كان أو في يسره

---

(1) آداب النفوس، المحاسبي، ص: 153 وما بعدها.

فلــــربما يلقـــى الغنـــي بمالـــه		أضعاف ما يلقى الفقير بفقـره
فـأخو التجـارة خـائفٌ مترقـب		ممـا يلاقـي مـن خسـارة أمـره
تـا الله لـو عـاش الفتـى في دهـره		ألفاً مـن الأعـوام مالـك أمـره
متلـــذذاً فيهـــا بكـــل مليحـــة		متـنعماً فيهـا بنعمـى عصرــه
وصــفت لــه الأيــام حتــى إنــه		لا تنطق الأصوات عند مقـره
مــا كــان ذلــك كلــه ممــا يفــي		بمبيـــت أول ليلـــةٍ في قـــبره

* * *

مثال الدنيا كعجوز جذماء برصاء

يقول ابن عطاء الله: مثال الدنيا كعجوز جذماء[1] برصاء[2]، سترت بثوب حرير، فالمؤمن نافرٌ ومنفرٌ عنها، لانكشافها له.

من أحب الدنيا بقلبه كان كمن بنى بناءً حسناً فوقه مرحاض فرشح عليه، فلا يزال كذلك حتى يُرى ظاهره كباطنه، ومنهم من ينقيه فلا يزال قلبه أبيض، وتنقيته بالتوبة والأذكار، والندم والاستغفار.

الدنيا خداعة مزينة الظواهر قبيحة السرائر كالعجوز التي سترت بثوب حرير. فالمؤمن ينفر من الدنيا لأنه عرف حقيقتها، إنها جميلة في الظاهر سترت بثوب حرير تجذب أصحابها، لكن وراء ثوب الحرير عجوز جذماء برصاء، والمؤمن يعرف ذلك فلا يغتر بها بعد أن حذره الله من ذلك بقوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا ﴾ [فاطر: 5].

فمن أحب الدنيا بقلبه تراكمت عليه أوساخ الذنوب والمعاصي والغفلة عن الله عز وجل، فاجهد على تنقية هذا القلب من تلك الأقدار وتنقيته تكون بتوبة صادقة إلى الله وبالإكثار من ذكره تعالى والندم على ما فات من عمره في الغفلة واستغفار مما اقترفته الجوارح من الذنوب والمعاصي.

قال الإمام الغزالي: «اعلم أن الدنيا مزينة الظواهر قبيحة السرائر وهي شبه عجوز متزينة تخدع الناس بظاهرها، فإذا وقفوا على باطنها وكشفوا القناع عن وجهها تمثل لهم قبائحها فندموا على اتباعها وخجلوا من ضعف عقولهم في الاغترار بظاهرها. قال أبو بكر بن عياش:

---

(1) الجذام هو: داء يصيب الجلد والأعصاب الطرفية، يسبب فقداً بقعياً، وقد تتساقط منه الأطراف. المعجم الوسيط، ص 118.

(2) برصاء: أي مصابة بداء البرص وهو بياض يصيب الجلد. المعجم الوسيط، ص 51.

رأيت الدنيا في النوم عجوزاً مشوهة شمطاء تصفق بيديها وخلفها خلـق يتبعونهـا ويصـفقون ويرقصون. . . »[1].

وبذلك ينتهي الكلام عن أحوال الدنيا والآخرة.

* * *

(1) إحياء علوم الدين: 3/ 310، 311.

وحدانية الله سبحانه وتعالى

يقول ابن عطاء الله: إياك وذهول القلب عن وحدانية الله تعالى، فأول درجات الذاكرين استحضار وحدانيته تعالى، وما ذكره الذاكرون، وفتح عليهم إلا باستحضارهم ذلك، وما طردوا إلا بذكرهم مع غلبة الذهول عليهم.

قال تعالى: ﴿ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ﴾[البقرة: 163].

الوحدانية هي قولنا: لا إله إلا الله وحده لا شريك له الحمد وهو على كل شيء قدير، الواحد في صفاته والواحد في أفعاله لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد، ليس كمثله شيء وهو السميع البصير.

هذا هو المعنى العام، أما المعنى المقصود في كلام ابن عطاء الله فهو: أن يرى العبد أن لا فاعل سوى الله، فلم ينظر إلى غيره، بل يكون منه الخوف وله الرجاء وبه الثقة وعليه التوكل.

واستحضار وحدانية الله تعني كذلك اعتقاد أنه هو الرزاق فلا خوف ولا قلق من الفقر، وأنه سبحانه هو المعطي وهو المانع وهو الحي وهو المميت والشافي والممرض كل شيء بيده وهو على كل شيء قدير.

فإياك وذهول القلب عن معاني وحدانية الله سبحانه.

قال الشاعر:

الله قل وذر الوجود وما حوى ... إن كنت مرتاداً بلوغ كمال

فالكل دون الله إن حققته ... عدم على التفصيل والإجمال

واعلم بأنك والعوالم كلها ... لولاه في محو وفي اضمحلال

فإن أردت أن يفتح الله عليك بالفهم والمعرفـة والمواهـب فاستحضر وحدانيتـه عنـدما تذكره، وإلا ربما طردت عن بابه ومنعت من الـدخول إلى حضرـته إن كنـت ذاكـراً بلسـانك ذاهلاً عن وحدانيته؟!.

* * *

التوسل بالأنبياء والأولياء والصالحين

يقول ابن عطاء الله: إياك أن تعتقد أن لا يتوسل بالأنبياء والأولياء والصالحين، فإنهم وسيلة جعلها الله إليه. لأن كل كرامة للولي هي شهادة بصدق النبي ﷺ لأنها جرت على أيدي الأولياء. مثل: خرق العادات، والمشي على الماء، والطيران في الهواء، وأخبار المغيبات، ونبع الماء، ونحو ذلك، لأنهم لم يعطوا ذلك إلا لأجلهم.

ما هي حقيقة التوسل؟

قال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبۡتَغُوٓاْ إِلَيۡهِ ٱلۡوَسِيلَةَ ﴾[المائدة: 35] والمراد بالوسيلة ثلاثة أمور:

الأمر الأول: القربة كما فسرها ابن جرير الطبري رحمه الله عند شرحه لهذه الآية (1). أي: تقربوا إليه بطاعته والعمل بما يرضيه !

الأمر الثاني: الوسيلة هي أعلى منزلة في الجنة، وهي منزلة سيدنا محمد ﷺ والدليل على ذلك قوله: «وسلوا الله لي الوسيلة فإنها منزلة في الجنة لا تنبغي إلا لعبد من عباد الله وأرجو أن أكون أنا هو فمن سأل لي الوسيلة حلت له شفاعتي»(2).

الأمر الثالث: الوسيلة هي: ما يتوصل به إلى تحصيل المقصود، أي كل ما هو محبوب عند الله ومشروع بكتابه وسنة نبيه ﷺ يجوز التوسل به ولا حرج. ويدخل تحت هذا التوسل بالأنبياء المرسلين والأولياء الصالحين رضوان الله عليهم، وكذلك التوسل بالأعمال الصالحة.

---

(1) جامع البيان في تفسير القرآن، الطبري: 15/ 104.

(2) مسلم في الصلاة، باب: استحباب القول مثل قول المؤذن، رقم (577).

الأدلة:

عن عثمان بن حنيف أن رجلاً أعمى أتى إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله ادع الله أن يكشف لي عن بصري، قال: أو تصبر، قال: «يا رسول الله إنه شق علي ذهاب بصري، قال: فانطلق فتوضأ ثم صل ركعتين ثم قل: اللهم إني أسألك وأتوجه إليه بنبيك محمد نبي الرحمة، يا محمد إني أتوجه بك إلى ربي في حاجتي لتقضي، اللهم شفعه في. فرجع وقد كشف الله عن بصره»[1].

وقد يظن من هذا أنه لا يجوز التوسل بالأموات بل بالأحياء فقط! وهذا غير صحيح.

فقد روى البيهقي وابن أبي شيبة بإسناد صحيح: «أن الناس أصابهم قحط في خلافة عمر رضي الله عنه فجاء بلال بن الحارث رضي الله عنه إلى قبر رسول الله ﷺ وقال: يا رسول الله استسق لأمتك فإنهم هلكوا فأتاه رسول الله في المنام فقال له: ائت عمر فأقرته السلام وأخبره أنكم مسقيون وقل له: عليك الكيس عليك الكيس، فأتى عمر فأخبره فبكى عمر، ثم استشار صحابته فأشاروا عليه أن يستسقي بالعباس عم النبي فاستسقى به فسقوا»[2].

وروى البخاري رحمه الله هذا الحديث بلفظ «أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان إذا قحطوا استسقى بالعباس بن عبد المطلب فقال: «اللهم إنا كنا نتوسل إليك بنبينا فتسقينا وإنا نتوسل إليك بعم نبينا فاسقنا. قال: فيسقون»[3].ولم يذكر البخاري مرور بلال بن الحارث إلى قبر النبي

---

(1) الترمذي في الدعوات عن رسول الله، باب: في دعاء الضيف، رقم (3502) وقال: حديث حسن صحيح غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه، وابن ماجه في إقامة الصلاة، باب: ما جاء في صلاة الحاجة، رقم (1375). وأحمد في مسند الشاميين، حديث عثمان بن عفان، رقم (16604).

(2) مصنف ابن أبي شيبة، رقم (32002): 6/ 356. انظر: فتح الباري لابن حجر: 2/ 594.

(3) البخاري في الجمعة، باب: سؤال الناس الإمام الاستسقاء إذا قحطوا، رقم (954).

ﷺ لكن ابن حجر في فتح الباري ذكر تلك الزيادة وعلق عليها بجواز التوسل بالأموات والأحياء»[1].

ومن الأدلة على عموم التوسل توسله هو نفسه ﷺ بالأنبياء من قبله في قصة فاطمة بنت أسد رضي الله عنها التي رواها الطبراني في «الكبير والأوسط» والحاكم وغيرهما وصححوه عن أنبس بن مالك رضي الله عنه قال: «لما ماتت فاطمة بنت أسد رضي الله عنها – وكانت ربت النبي ﷺ وهي أم علي بن أبي طالب رضي الله عنه –دخل عليها رسول الله ﷺ فجلس عند رأسها، فقال: رحمك الله يا أمي بعد أمي وذكر ثناءه عليها وتكفينها ببرده وأمره بحفر قبرها، قال فلما بلغوا اللحد حفره ﷺ بيده وأخرج ترابه بيده فاضطجع فيه ثم قال: الله الذي يحيي ويميت وهو حي لا يموت اغفر لأمي فاطمة بنت أسد ووسع عليها مدخلها بحق نبيك والأنبياء الذين من قبلي فإنك أرحم الراحمين»[2].

وأما التوسل بالأولياء والصالحين فهو جائز بمثل جوازه بالأنبياء والمرسلين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

وقد بين الله عز وجل ذلك وأوضحه غاية الوضوح على يد عمر رضي الله عنه في توسله بالعباس رضي الله عنهم النبي ﷺ إذ قال في الاستسقاء: «اللهم إنا كنا نتوسل إليك بنبينا فتسقينا وإنا نتوسل إليك بعم نبينا فاسقنا قال: فيسقون»[3].

وإنما استسقى عمر رضي الله عنه بالعباس ولم يستسق بالنبي ﷺ ليبين للناس أن التوسل بغير النبي ﷺ جائز ولا حرج فيه، لأن الاستسقاء بالنبي ﷺ كان معلوماً عندهم.

---

(1) فتح الباري: 2/ 495.

(2) رواه الطبراني في المعجم الأوسط، رقم (189): 1/ 67. والحاكم في المستدرك رقم (4574): 3/ 116.

(3) سبق تخريجه في الصفحة السابقة.

قال الشيخ يوسف النبهاني: «والحاصل أن مذهب أهل السنة والجماعة على صحة التوسل وجوازه بالنبي ﷺ في حياته وبعد وفاته، وكذا بغيره من الأنبياء والمرسلين والأولياء الصالحين كما دلت عليه الأحاديث السابقة لأننا معاشر أهل السنة لا نعتقد تأثيراً ولا خلقاً ولا إيجاداً ولا إعداماً ولا نفعاً ولا ضراً إلا لله وحده لا شريك له: فلا نعتقد تأثيراً ولا نفعاً ولا ضراً للنبي ﷺ ولا لغيره من الأحياء والأموات. . . وإنما يتبرك بهم لكونهم أحباء الله تعالى والخلق والتأثير لله وحده لا شريك له».

ومن الأدلة على صحة التوسل منه ﷺ بعد وفاته ما رواه الدارمي في مسنده عن أبي الجوزاء قال: «قحط أهل المدينة قحطاً شديداً، فشكوا إلى عائشة – رضي الله عنها – فقالت: انظروا إلى قبر رسول الله ﷺ فاجعلوا منه كوة إلى السماء حتى لا يكون بينه وبين السماء سقف ففعلوا فمطروا حتى نبت العشب وسمنت الإبل حتى تفتقت من الشحم فسمي عام الفتق»[1].

ومن أدلة التوسل ما ذكره ابن حجر في كتابه المسمى «الصواعق المحرقة لأهل الضلال والزندقة» أن الإمام الشافعي رضي الله عنه توسل بأهل البيت حيث قال:

آل البيت ذريعتي ... وهم إليه وسيلتي
أرجو بهم أعطى غداً ... بيد اليمين صحيفتي

التوسل بالعمل الصالح:

وهذا جائز وقد ثبت العمل به وتحقق نفعه وفائدته فقد روى البخاري ومسلم في صحيحيهما عن عبد الله بن عمر رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «بينما ثلاثة نفر يمشون أخذهم المطر، فأووا إلى غار في جبل فانحطت على فم غارهم صخرة من الجبل فانطبقت

---

(1) أخرجه الدارمي في مسنده، باب: ما أكرم الله تعالى نبيه ﷺ، (93): 1/ 227.

عليهم، فقال بعضهم لبعض: انظروا أعمالاً عملتموها صالحة لله فادعوا الله بها لعله يفرجها عنكم، قال أحدهم: اللهم إنه كان لي والدان شيخان كبيران ولي صبية صغار، كنت أرعى عليهم، فإذا رحت عليهم حلبت، فبدأت بوالدي أسقيهما قبل بني، وإني استأخرت ذات يوم، فلم آت حتى أمسيت، فوجدتهما ناما، فحلبت كما كنت أحلب، فقمت عند رؤوسهما، أكره أو أوقظهما، وأكره أن أسقي الصبية، والصبية يتضاغون عند قدمي حتى طلع الفجر، فإن كنت تعلم أني فعلته ابتغاء وجهك فافرج لنا فرجة نرى منها السماء، ففرج الله فرأوا السماء... إلخ الحديث»[1].

ثم يقول ابن عطاء الله: «لأن كل كرامة للولي هي شهادة بصدق النبي ﷺ. . . ».

فقد اتفق العلماء على أن كل معجزة لنبي هي كرامة لولي.

أما الفرق بين المعجزة والكرامة، فالمعجزة لا تجري إلا على يد الأنبياء ويقصد بها تحدي الكافرين وإفحامهم بالمعجزة.

أما الكرامة فتجري على يد الأولياء والصالحين، ولا يقصد بها التحدي كالمعجزة.

أما الحكمة من إجراء الكرامات على يد الأولياء. فإن حكمة الله اقتضت أن يكرم أحبابه وأولياءه بأنواع من خوارق العادات، تكريماً لهم على إيمانهم وإخلاصهم، وتأييداً لهم في جهادهم ونصرتهم لدين الله، وإظهاراً لقدرة الله تعالى، ليزداد الذين آمنوا إيماناً، وبياناً للناس أن القوانين الطبيعية والنواميس الكونية إنما هي من صنع الله وتقديره وأن الأسباب لا تؤثر بذاتها، بل الله تعالى يخلق النتائج عند الأسباب لا بها، كما هو مذهب أهل السنة والجماعة.

وقد يقول معترض: إن تأييد الحق ونشر دين الله لا يكون بخوارق العادات، بل يكون بإقامة الدليل المنطقي والبرهان العقلي.

---

(1) انظر: البخاري في المزارعة، باب: إذا زرع بمال قوم بغير إذنهم، وكان في ذلك صلاح لهم، رقم (2208).

فنقول: نعم لابد من نشر تعاليم الإسلام بتأييد العقل السليم والمنطق الصحيح والحجة الدامغة، ولكن التعصب والعناد يدعو إلى أن تخرق العادات بالكرامات كما اقتضت حكمة الله أن يؤيد أنبياءه، ورسله بالمعجزات إظهاراً لصدقهم وتأييداً لهم في دعوتهم، وحملاً للعقول المتحجرة والقلوب المقفلة أن تخرج من جمودها، وتتحرر من تعصبها، فتفكر تفكيراً سليماً مستقيماً يوصلها إلى الإيمان الراسخ، واليقين الجازم[1].

* * *

---

(1) حقائق عن التصوف، عبد القادر عيسى، ص: 460، 461.

أسرار الصلاة

من أراد أن يعرف حقيقته فلينظر إلى صلاته

يقول ابن عطاء الله: عن الشيخ أبي الحسن الشاذلي رضي الله عنه أنه قال: كل نفسك وزنها بالصلاة، فإن انتهت عن الحظوظ فاعمل أنك سعدت، وإلا فابك على نفسك إذا جررت رجلك إلى الصلاة جراً، فهل رأيت حبيباً لا يريد لقاء حبيبه؟! قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ [العنكبوت: 45] فمن أراد أن يعرف حقيقته عند الله، وينظر حاله مع الله فلينظر إلى صلاته، إما بالسكون والخشوع وإما بالغفلة والعجلة فإن لم تكن بالوصفين السابقين، فاحث التراب على رأسك، فإن من جالس صاحب المسك عبق عليه من ريحه، فإن الصلاة مجالسة الله تعالى، فإذا جالسته ولم يحصل لك منه شيء، دل ذلك على مرض فيك، وهو إما كبر، أو عجب، أم عدم أدب، قال الله تعالى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ [الأعراف: 146] فلا ينبغي لمن صلى أن يسرع الخروج، بل يذكر الله تعالى، ويستغفره من تقصيره فيها، فرب صلاة لا تصلح للقبول، فإن استغفرت الله بعدها قبلت، كان النبي ﷺ إذا صلى استغفر الله ثلاث مرات[1].

يؤكد ابن عطاء الله هنا وفي حكمه العطائية على أهمية الصلاة في الإسلام وأن لها أسراراً عظيمة خفيت عن المسلمين مما يجعلهم يتهاونون في أدائها، ويتمنون انقضاءها حتى يرجعوا مسرعين إلى دنياهم فتراهم ينقرونها نقر الديك أو الغراب لا يستغفرون الله بعد انتهائها...إلخ.

إن إقامة الصلاة هو القيام بأركانها وسننها ثم الغيبة عن شهودها برؤية من يصلي له. فليس المهم وجود الصلاة في الظاهر وقيام الجوارح فيها، وإنما المهم إقامة الصلاة على حقيقتها[2].

يقول ابن عطاء الله في إحدى حكمه: «الصلاة مطهرة للقلوب واستفتاح لباب الغيوب» تطهرها من المساوئ والعيوب لما فيها من الخضوع والانكسار والذل والافتقار، واستفتاح

---

(1) سيأتي تخريجه، ص 350.

(2) إيقاظ الهمم، ابن عجيبة ، ص: 170.

لباب الغيوب لما اشتملت عليه من تطهير الظاهر والباطن فيستحق المصلي الدخول إلى الحضرة القدسية.

إن الصلاة مناجاة العبد ربه بقلبه ولسانه، أما تحريك اللسان بالقراءة والدعاء، والقلب ساه فهذه هي الغفلة بعينها.

ومع الزمن تصبح القراءة اعتيادية كأي عمل نقوم به دون أن نتأثر بما نقرأ وهذه – للأسف – صلاة الكثيرين منا.

والركوع والسجود المقصود بهما تعظيم الله، وإذا خرج عن كونه تعظيماً لم يبق إلا مجرد حركة الظهر والرأس وليس فيه من المشقة ما يقصد الامتحان به.

إذاً كما يقول لك ابن عطاء الله: كل نفسك وزنها بالصلاة، فإن انتهت عن الحظوظ وعن الفحشاء والمنكر فقد تحقق المطلوب وكنت من السعداء يوم القيامة. وإلا فابك على نفسك.

ثم يقول ابن عطاء الله: «إذا جررت رجلك إلى الصلاة جراً فهل رأيت حبيباً لا يريد لقاء حبيبه؟!».

فإذا تثاقلت عن الصلاة فاعلم أنك لا تريد لقاء الله؛ لأن الصلاة وقوف بين يدي الله وكلها مناجاة لله سبحانه، مناجاة الحاضر للحاضر، لأنك عندما تقول: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾[الفاتحة: 5] فإن الكاف هنا لمخاطب حاضر لا غائب.

لذلك جاء في الحديث الصحيح أن الله سبحانه وتعالى إذا قال العبد ذلك قال: هذا بيني وبين عبدي، ولعبدي ما سأل[1].

ثم يقول ابن عطاء الله: «فمن أراد أن يعرف حقيقته عند الله، وينظر حاله مع الله، فلينظر إلى صلاته، إما بالسكون والخشوع وإما بالغفلة والعجلة».

الخشوع في الصلاة يعني[2]: شغل القلب واللسان والجوارح بها، وهيمنة شعور المصلي أنه يقف بين يدي الله سبحانه وتعالى.

---

(1) أخرجه مسلم، كتاب: الصلاة، باب: وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة، رقم (395): 1/ 296.

(2) انظر: الخشوع في الصلاة، للمؤلف، ص: 93.

والداخل في الصلاة يجب أن يعلم ما يقول في صلاته، ولا يتلهى بمشاغل الدنيا الكثيرة، قال تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِيٓ﴾[طه: 14] والغفلة تضاد الذكر.

وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقْرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُواْ مَا تَقُولُونَ ﴾ [النساء: 43].

قيل سكارى من كثرة الهم وقيل يحتمل المعنيين الظاهر والباطن، وكم من مصل لم يشرب خمراً وهو لا يعلم ما يقول في صلاته.

وخشوع القلب يأتي من المعرفة، فكلما كان القلب أوفر حظاً من العلم بالله والمعرفة بآلائه كان أخشع، وكلما كان القلب غافلاً كان أبعد ما يكون عن الخشوع.

أخي المصلي إن اليوم مقسم إلى أربع وعشرين ساعة، والحق سبحانه يتركك أكثر من ثلاث وعشرين ساعة في اليوم، ولا يأخذ منك وقت الصلوات الخمس أكثر من نصف ساعة، ففي هذا الوقت القصير الذي يستحضرك الله فيه لصالحك حتى تكون في خلوة معه، لتأخذ طاقة الإمداد والمعونة وإشراقات النور أتستكثر هذا الوقت القصير، وتنشغل فيه عن ربك؟! فلماذا كل هذه العجلة في الصلاة التي هي كما يقول ابن عطاء الله:

«فإن الصلاة مجالسة الله تعالى، فإذا جالسته ولم يحصل لك منه شيء، دل ذلك على مرض فيك، وهو إما كبر، أو عجب، أو عدم أدب، قال الله تعالى: ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ﴾[الأعراف: 146].

فلا ينبغي للمصلي أن يسرع الخروج، بل عليه أن يجلس بعدها يستغفر من تقصيره فيها عل الله أن يقبل صلاته، كان النبي ﷺ إذا صلى استغفر الله ثلاث مرات[1].

* * *

(1) أخرجه مسلم، كتاب: المساجد ومواضع الصلاة، باب: استحباب الذكر بعد الصلاة وبيان صفته، رقم (591): 1/ 414.

كل صلاة لا تنهى صاحبها عن الفحشاء والمنكر لا تسمى صلاة

يقول ابن عطاء الله: واعلم أن كل صلاة ل تنهى صاحبها عن الفحشاء النكر لا تسمى صلاة لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ [العنكبوت: 45]. وأنت تخرج من الصلاة ومن مناجاة الحق سبحانه وتعالى في قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: 5]. ومناجاة الرسول ﷺ بقولك: «السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته، وهذا في كل صلاة، ثم تخرج إلى الذنوب بعد هذه النعم التي أنعم الله بها عليك؟!.

ألا فليعلم المصلي أن صلاته إن لم تنهه عن الفحشاء والمنكر فإنها غير مقبولة عند الله وإن سقط الفرض بها، إذ كيف يقع في الذنوب بعد كل المعاني العظيمة التي واجهته في الصلاة إنه يسأل الله الهداية ويسلم على النبي ﷺ ولو شعر بلذة هذه المناجاة لما اقترف الذنوب والمعاصي بعد الصلاة.

* * *

من فوائد الصلاة

يقول ابن عطاء الله: عن الشيخ أبي الحسن الشاذلي ﷺ، أنه كان يحضر عند فقهاء الإسكندرية، فجاءوا مرة مختبرين للشيخ، فتفرس فيهم، وقال: يا فقهاء هل صليتم قط، فقالوا: يا شيخ وهل يترك أحدنا الصلاة؟. فقال لهم: قال الله تعالى: ﴿ ۞ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ١٩ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ٢٠ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ٢١ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴾[المعارج: 19- 22].

فهل أنتم كذلك؟ إذا مسَّكم الشر لا تجزعوا، وإذا مسَّكم الخير لا تمنعوا ؟ قال: فسكتوا جميعاً، فقال الشيخ: فما صلَّيتم هذه الصلاة قط.

هذه من فوائد الصلاة أيضاً لأن قلب المصلي مرتبط بربه جل وعلا لا يسأل غيره ولا يخاف غير ويحمد الله في السراء والضراء.

فإذا أصابته مصيبة قال: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ [البقرة: 156] ففوض الأمر إليه سبحانه إذ كل شيء بيده، وإذا أنعم الله عليه لم يحرم المساكين والفقراء حقهم بل أدى زكاة المال وأنفق في سبيل الله من الصدقات كل ذلك ليحظى بمرضاة الله سبحانه وتعالى.

* * *

مثال الصلاة بغير حضور قلب

يقول ابن عطاء الله: مثل من صلى الصلاة بغير حضور قل: كان كمن أهدى للملك مائة صندوقٍ فارغةً فيستحق العقوبة من الملك، ومن صلاها بحضور القلب كان كمن أهدى له ياقوتة تساوي ألف دينار. فإن الملك يذكره عليها دائماً.

إذا دخلت في الصلاة فإنك تناجي الله سبحانه وتعالى، وتكون رسول الله ﷺ، لأنك تقول: السلام عليك أيها النبي رحمة الله وبركاته ولا يقال أيها الرجل عند العرب إلا لمن يكون حاضراً.

شتان بين من يصِلّي بحضور قلب وبين من يصِلّي وقلبه لاهٍ ساهٍ فإن لا يقبل دعاءه قال ﷺ: «إن الله لا يستجيب دعاء من قلب غافلٍ لاهٍ»(1).

إن الذي يصلي بغير حضور قلب صلاته فارغة، يستحق عليها الذي بدل الثواب فيا حسرته توضأ وصلى وتعب ثم استحق العقاب أليس أحمق ؟.

وهل حضور القلب شرطاً في صحة الصلاة أم شرطاً عنده فقط، يقول الإمام الغزالي: فإن قلت: إن حكمت ببطلان وجعلت حضور القلب شرطاً في صحتها خالفت إجماع الفقهاء، يشترطوا إلا حضور القلب عند التكبير؟. فاعلم أنه قد تقدم العلم، أن الفقهاء لا يتصرفون بالباطن ولا يشقون عن القلوب طريق الآخرة، بل يبنون أحكام الدين على ظاهر أعمال الجوارح... على أنه لا يمكن أن يدعى الإجماع. فقد نقل عن بشر بن الحارث فيما رواه عنه أبو طالب المكي عن سفيان الثوري أنه قال: «من لم يخشع فسدت صلاته». وروي عن الحسن البصري أنه قال: «كل صلاة لا يحضر فيها القلب فهي إلى العقوبة أسرع».

---

(1) الترمذي في الدعوات، باب: ما جاء في جامع الدعوات عن النبي رضي الله عنه وقال حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه.

وروي أيضاً مسنداً قال رسول الله ﷺ «إن العبد ليصِلّي لا يُكتب له سدسها ولا عشرها، وإنما يكتب للعبد من صلاته ما عقل منها»[1]... إلا أننا لا نفتي بهذا الشرط، ولا يشترط الفقهاء إحضار القلب في جميع الصلاة، فإن ذلك يعجز عنه كل البشر إلا الأقلين، وإذا لم يكن اشتراط الاستيعاب للضرورة فلا مرد له إلا أن يشترط منه ما يطلق عليه الاسم ولو في اللحظة الواحدة، وأولى اللحظات بها لحظة التكبير، فاقتصرنا على التكليف بذلك، ونحن مع ذلك نرجو أن لا يكون حال الغافل في جميع صلاته مثل حال التارك بالكلية فإنه على الجملة أقدم على العمل ظاهراً وأحضر القلب لحظة»[2].

أما الدواء النافع في إحضار القلب [3]:

فهو دفع الخواطر، وسبب موارد الخواطر إما أن يكون أمراً خارجاً أو أمراً في ذاته باطناً.

1ـ **الأسباب الخارجية**: وهي ما يقرع السمع أو يظهر للبصر، وعلاجه ما يلي:

1- أن يغض بصره.

2- يصلي في بيت مظلم.

3- لا يترك بين يديه ما يشغل حسه.

4- يقرب من حائط عند صلاته حتى لا تتسع مسافة بصره.

---

(1) أخرجه النسائي، كتاب: الصلاة، باب: تطفيف الصلاة، رقم (611): 1/ 211. وابن حبان، كتاب: الصلاة، باب: ذكر البيان بأن المرء يكتب له بعض صلاته إذا قصر في البعض الآخر. رقم (1889): 5/ 211. بلفظ: «إن الرجل ليصلي ولعله أن لا يكون له من صلاته إلا عشرها أو تسعها أو سبعها، حتى انتهى إلى آخر العدد». وأما عبارة: «يكتب للعبد من صلاته ما عقل منها». فهي من كلام سفيان الثوري رحمه الله كما سبق.

(2) إحياء علوم الدين، الغزالي: 1/ 190، 191.

(3) انظر كتاب: الخشوع في الصلاة للمؤلف ص: 104 وما بعدها.

5- يحترز من الصلاة على الشوارع وفي المواضع المنقوشة المصنوعة وعلى الفرش المصبوغة.

2ـ الأسباب الباطنة: وهي أشد وعلاجه:

1 –أن يرد النفس قهراً إلى فهم ما يقرؤه في الصلاة، ويشغلها به عن غيره، ويعينه على ذلك أن يستعد له قبل التحريم بأن يجدد على نفسه ذكر الآخرة، وموقف المناجاة، وخطر المقام بين يدي الله سبحانه وهو المطلع عليه، ويفرغ قلبه قبل التحريم بالصلاة عما يهمه، فلا يترك لنفسه شغلاً يلتفت إليه خاطره.

2 – فإن كان لا يسكن هوائج أفكاره بهذا الدواء المسكن فلا ينجيه إلا المسهل الذي يقمع مادة الداء من أعماق العروق.

وهو: أن ينظر في الأمور الصارفة الشاغلة عن إحضار القلب، ولا شك أنها تعود إلى ما يهتم به، فيعاقب نفسه بالنزوع عن تلك الشهوات وقطع تلك العلائق.

فكل ما يشغله عن صلاته فهو ضد دينه، فإمساكه أضر عليه من إخراجه فيتخلص منه بإخراجه ، كما روي أنه ﷺ: «لما ليس الخميصة[1]. التي أتاه بها أبو جهم، وعليها علم [2]، وصلى بها، نزعها بعد صلاته، وقال ﷺ: «اذهبوا بها إلى أبي جهم فإنها ألهتني آنفاً عن صلاتي وائتوني بأنبجانية[3] أبي جهم»[4].

---

(1) الخميصة: ثوب مخطط من حرير أو صوف.

(2) العلم: النقوش والزخارف.

(3) أنبجانية: كساء غليظ لا زخارف فيه ولا تطريز.

(4) البخاري في الصلاة، باب: إذا صلى في ثوب له أعلام، رقم (366): 1/ 146. ومسلم في المساجد ومواضع الصلاة، باب: كراهية الصلاة في ثوب له أعلام، رقم (566): 1/ 391.

ثم إن الداخل في صلاته يناجي ربه سبحانه، ويكلم رسوله ﷺ لأنك بقولك في دعاء التحيات: «السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته» فكلمة «أيها» لا تقال إلا لمن يكون حاضراً فكأن النبي ﷺ حاضر معك وأنت تكلمه، فاستح أن تخاطبه وقلبك منشغل عنه شارد في ملذات الدنيا، إنك تخاطب الله ملك الملوك وتخاطب رسوله فكن مخاطباً بجسدك وقلبك وروحك. وانظر لنفسك إذا قابلت وزيراً أو رئيس عملك كيف تستعد لهذه المقابلة بزيك وثيابك وتهتم بها بفكرك وقلبك، وأنت تستعد لذلك أكثر مما تستعد للصلاة؟..

واعلم أن حركات الأعضاء كالجسد من الصلاة، وحضور القلب مع الله والخشوع في الصلاة هو الروح، فكيف تصعد صلاتنا إلى الله وهي جسد بلا روح؟ وهل تطير جثة لا حياة فيها؟!.

* * *

ركعتان بالليل خير من ألف بالنهار

يقول ابن عطاء الله: «ركعتان بالليل خيرٌ من ألف بالنهار، وأنت لا تصلي فيه ركعتين إلا لتجد ذلك ميزانك، وهل تشتري عبداً إلا للخدمة».

هل رأيت عبداً يُشترى ليأكل وينام، ما أنت إلا عبدٌ اشتريت، قال الله تعالى: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَۚ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقۡتُلُونَ وَيُقۡتَلُونَۖ ﴾[التوبة: 111].

هاذ حضٌّ على قيام الليل، إذ إن الصلاة في الليل أبعد ما تكون عن الرياء والعجب، إنه يصلي وحده صلاة خاشعة راجياً من الله أن يثقل بها ميزانه، وأن يكون ممن وصفهم الله بقوله تعالى: ﴿ كَانُواْ قَلِيلٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مَا يَهۡجَعُونَ ١٧ وَبِٱلۡأَسۡحَارِ هُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ ﴾ [الذاريات: 17- 18] وممن قال عنهم سبحانه: ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمۡ عَنِ ٱلۡمَضَاجِعِ ﴾[السجد: 16].

وقد حض النبي ﷺ على قيام الليل، كيف وقد قام هو من الليل حتى تفطرت قدماه الشريفتان(1).

عن علي رضي الله عنه أن النبي ﷺ طرقه وفاطمة ليلاً، فقال: «ألا تصليان»(2).

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «نعم الرجل عبد الله لو كان يصلي من الليل» فكان عبد الله بن عمر بعد ذلك لا ينام من الليل إلا قليلاً(3).

---

(1) البخاري في الجمعة، باب: قيام النبي الليل حتى ترم قدماه. ومسلم في صفة القيامة والجنة والنار، باب: إكثار الأعمال والاجتهاد في العبادة، رقم (5046).

(2) البخاري في الجمعة، باب: تحريض النبي على صلاة الليل والنوافل، رقم (1059). ومسلم في صلاة المسافرين وقصرها، باب: ما روي فيمن نام الليل أجمع حتى أصبح، رقم (1294).

(3) البخاري في الجمعة، باب: فضل قيام الليل، رقم (1054) ومسلم في فضائل الصحابة، باب: قصة فضائل عبد الله بن عمر، رقم (4528).

وقال ﷺ: «أفضل الصيام بعد رمضان شهر الله الحرام، وأفضل الصلاة بعد الفريضة صلاة الليل»[1].

فلماذا نسهر أول الليل نلهو ونمرح وننسى الله، ولا نستيقظ منتصف الليل أو آخره لنكون مع الله »؟!.

* * *

(1) مسلم في الصيام، باب: فضل صوم المحرم، رقم (1982).

الصلاة محل المناجاة ومعدن المصافاة

يقول ابن عطاء الله: الصلاة محل المناجاة ومعدن المصافاة، تتسع فيها ميادين الأسرار وتشرق فيها شوارق الأنوار، علم وجود الضعف منك فقلل أعدادها، وعلم احتياجك إلى فضله فكثر أمدادها.

هذه إحدى الحكم العطائية.

فالصلاة محل المناجاة: والمناجاة هي المكالمة، فمناجاة العبد ربه بالتلاوة والأذكار ومناجاة الرب لعبده بالتفهم والفتح ورفع الأستار، وفي الحديث الصحيح: «المصلِّي يناجي ربه»[1].

وقال أيضاً ﷺ: «يقول الله تعالى: قسمت الصلاة بيني وبين عبدي، ولعبدي ما سأل، فإذا قال العبد: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾. قال الله تعالى حمدني عبدي. وإذ قال: ﴿ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ قال الله تعالى: أثنى علي عبدي. وإذ قال. ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾. قال: هذا بيني وبين عبدي، ولعبدي ما سأل، فإذا قال: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾.

قال تعالى: هذا لعبدي ولعبدي ما سأل»[2].

ومعدن المصافاة: تصفي الأرواح من لوث الأشباح، وتصفي المناجاة من تشويش الحس وكدر الهواجس. ويمكن أن يقال: مصافاة مأخوذة في تصفية وتستعمل عادة في التعبير عن تصفية حساب بين اثنين.

---

(1) البخاري في الصلاة، باب: حك البزاق باليد من المسجد، رقم (390).

(2) مسلم في الصلاة، باب: وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة، رقم (395).

وإنما استعير هذا المعنى للطلب الذي يتجه به العبد في الصلاة أن يصفح عنه فيتجاوز عما تورط فيه من سيئات، معلناً له توبته عنها، وعزمه على عدم الرجوع إليها، فيستجيب الله طلبه ويصفح عنه ويمحو ما قد ثبتته الملائكة على صحائفه من سيئات.

الخاصة الثالثة: يتسع فيها ميادين الأسرار العلوية تهبط إلى قلبه وتشرق فيها شوارق الأنوار الربانية تسري في كيان المصلي وتمتزج بروحه.

فالمصلي إذ يكون خارج الصلاة معرض لأنواع الغفلات والكثير من أسباب اللهو والنسيان. ولكن إذا أقبل يلبي النداء إلى الصلاة، واتجه إلى القبلة ودخل حضرة الله مكبراً فإن الله يقبل عليه ويتجلى على قلبه ومشاعره الروحية، باللطف والرحمة والقبول. وعندئذ تتنزل من الأسرار العلوية ما لا يعلمه إلا الله على قلب المصلي وتفيض مشاعره بأنوار التجليات الإلهية، المتمثلة في الخشوع والمهابة والتعظيم والحب[1].

«علم وجود الضعف منك فقلل أعدادها». فهي خمس صلوات بعد أن كانت خمسين.

«وعلم احتياجك لفضله فكثر أمدادها». إذ جعل كل صلاة بعشر فهي خمس وهي خمسون، خمس في الحس وخمسون في المعنى والثواب وإذا فعلت في الجماعة كانت كل واحدة بخمس وعشرين وكل درجة بعشر فكان عدد صلاة الجماعة مئتين وخمسين في كل صلاة والله ذو الفضل العظيم.

وبذلك ينتهي الكلام عن أسرار الصلاة التي أشار إليها ابن عطاء الله رحمه الله.

* * *

---

(1) شرح الحكم، د. محمد سعيد رمضان البوطي: 3/ 342.

الشك في الرزق

يقول ابن عطاء الله: كم فيك من الكوامن، فإذا أوردت عليها الواردات أظهرتها، وأعظمها ذنب الشك في الله، والشك في الرزق شك في الرازق.

إذا رأيت من يصبح مهموماً لأجل الرزق، فاعلم أنه بعيد من الله، فإنه لو قال لك مخلوق لا تشتغل غداً بسبب وأنا أعطيك خمسة دراهم وثقت به، وهو مخلوق فقير، فما تكتفي بالغني الكريم الذي ضمن رزقك مع أجلك؟!.

عن بعض النباشين أنه تاب إلى الله تعالى، فقال يوماً لشيخه: يا سيدي نبشت ألف قبر، فوجدت وجوههم محولة عن القبلة؟!. فقال الشيخ: يا ولدي ذاك من شكهم في رزقهم.

قال تعالى: ﴿ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثۡلَ مَآ أَنَّكُمۡ تَنطِقُونَ ﴾[الذاريات: 23].

فبعدما بين الله سبحانه أن الرزق مقسوم من عنده للعباد أقسم بذاته وأكد بمثال نعرفه جميعاً. فالشك في أن الرزق من عند الله كالشك في نطقك، هل يشك أحد بقدرته على الكلام ؟!. لكن الله علم أن العباد يشكون في الرزق، لذلك تراهم يلهثون وراء الخبز على حساب دينهم وواجباتهم تجاه خالقهم سبحانه وتعالى.

فالشك في الرزق من كوامن النفس وإن أظهرت عكسها ودليل ذلك حرصها على كسب العيش أكثر من حرصها على دينها، تنشط في أمر ضمنه الله سبحانه وتتقاعس عندما يحتاج الأمر لهمة ونشاط.

ثم يضرب ابن عطاء الله لنا مثلاً واقعياً، فلو قال لك إنسان غني: لا تشتغل غداً وأنا أعطيك خمسة دراهم وثقت به وتركت العمل، مع أنه مخلوق فقير، أما إذا أخبرك الله أنه متكفل برزقك شككت بذلك، أليس هذا دليلاً على انطماس البصيرة؟!.

هذا ما بينه ابن عطاء الله في إحدى حكمه حين قال: «اجتهادك فيما ضمن لك وتقصيرك فيما طلب منك، دليل على انطماس البصيرة».

يقول الشيخ محمد الغزالي رحمه الله: «الناس وراء لقمة الخبز، يكاد يصيبهم مس، مع أن الله لو وكل رزق الخلائق إلى قواها لبادت إنه ضمن الأرزاق لعباده، وأجرى مصادرها بين أيديهم رخاء، ومع هذا فهم مكروبون في طلب العيش الذي كفل لهم، أما إحسان الصلة بالله وتوجيه الفكرة إليه، والتعاون مع الآخرين على إقامة دينه والتزام حدوده فهو ما يقصرون فيه، أو ينصرفون عنه.

إن الله أرواحهم من هموم الرزق، وكلفهم بشؤون العبادة، فتكلفوا هم هموم الرزق، واستراحوا من شؤون العبادة.

الله يقول: ﴿ وَأۡمُرۡ أَهۡلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصۡطَبِرۡ عَلَيۡهَاۖ لَا نَسۡـَٔلُكَ رِزۡقٗاۖ نَّحۡنُ نَرۡزُقُكَۗ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلتَّقۡوَىٰ ﴾ [طه: 132]. وهؤلاء يصيحون، وأهلوهم معهم: الخبز الخبز !!، ناسين الله وناسين وعده بالإغناء والتيسير، لا شغل لهم إلا طلب الدنيا.

وهذه الدنيا نفسها لا تجيء إلا من لدن الله الذي تركوه !!.

ما تقول في امرئ يتقاعس عندما يحتاج الأمر إلى همة ونشاط، ويهتم ونشط عندما يكون الأمر قريباً من أصابعه؟ إن هذا المسلك مع الله دليل انطماس البصيرة»[1].

* * *

(1) الجانب العاطفي من الإسلام، محمد الغزالي، ص: 115، 116.

فوائد الذكر

لا عبادة أنفع لك من الذكر، لأنه يمكن الشيخ الكبير والمريض الذي لا يستطيع القيام والركوع والسجود.

فاصقل مرآة قلبك بالخلوة والذكر، حتى تلقى الله تعالى، وليكن قلبك ذاكراً (1). فتنبع لك الأنوار، ولا تكن كمن يريد أن يحفر بئراً فيحفر ذراعاً هنا وذراعاً هنا، فلا ينبغ له ماء أبداً، بل احفر في مكان واحد فينبغ لك الماء.

يا عبد الله: دينك هو رأس مالك، فإن ضيعت رأس مالك فاشغل لسانك بذكره، وقلبك بمحبته، وجوارحك بخدمته، واحرث وجودك بالمحارث، حتى يجيء البذر فينبت، ومن فعل بقلبه كما يفعل الفلاح بأرضه أنار قلبه.

اهتم القرآن كثيراً بذكر الله وهذه بعض الآيات: قال الله تعالى: ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [العنكبوت: 45]. أي أفضل من كل شيء.

وقال تعالى: ﴿فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ﴾ [البقرة: 152]. أذكركم أي: بالرحمة والمغفرة والمعونة والنصرة.

وقال سبحانه: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْـَٔاصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾[الأعراف: 205].

وقال تعالى: ﴿وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأنفال: 45].

وقال سبحانه: ﴿إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾[الأنفال: 2].

وقال عز وجل: ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾[الرعد: 28].

أما الأحاديث فكثيرة أيضاً أختار منها ما يأتي:

---

(1) الترمذي في صفة القيامة، باب: منه، رقم (2381). وقال: حديث حسن صحيح.

أ-عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «كلمتان خفيفتان على اللسان ثقيلتان في الميزان، حبيبتان إلى الرحمن: سبحان الله العظيم، سبحان الله وبحمده»[1].

ب- وعنه رضي الله عنه قال:: قال رسول الله ﷺ: «لأن أقول: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله، والله أكبر، أحب إلي مما طلعت عليه الشمس»[2].

ج- وعنه رضي الله عنه أن فقراء المهاجرين أتوا رسول الله ﷺ فقالوا: ذهب أهل الدثور بالدرجات العلى، والنعيم المقيم: يصلون كما نصلي، ويصومون كما نصوم ولهم فضل من أموال: يحجون، ويعتمرون، ويجاهدون، ويتصدقون. فقال: «ألا أعلمكم شيئاً تدركون به من سبقكم، وتسبقون من بعدكم، ولا يكون أحدٌ أفضل منكم إلا من صنع مثل ما صنعتم؟» قالوا : بلى يا رسول الله، قال: «تُسبحّون، وتحمدون وتُكبِّرون خلف كل صلاة ثالثاً وثلاثين»[3].

ما أكثر اليوم من يعرض عن ذكر الله، يصحو وينام على شهواته وغفلته، ذلك لأنه لم يعرف أهمية ذكر الله، بل ربما لأنه رأى الذين يذكرون الله بطريقة معينة يقعون في المخالفات، فيصده ذلك عن ذكر الله ويزهد فيه، وهذه حال أغلب الناس وهذا خطأ فادح، ألم يقل الله: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الإسراء: 15]. وإليك بيان لأهمية ذكر الله تعالى حتى تلتزم به صباح مساء.

---

(1) البخاري في الدعوات، باب: فضل التسبيح، رقم (5927). ومسلم في الذكر والدعاء، باب: فضل التهليل والتسبيح والدعاء، رقم (4860).

(2) مسلم في الذكر والدعاء، باب: فضل التهليل والتسبيح والدعاء، رقم (4861).

(3) البخاري في الأذان، باب: الذكر بعد الصلاة، رقم (798). ومسلم في المساجد ومواضع الصلاة، باب: استحباب الذكر بعد الصلاة وبيان صفته، رقم (936).

عندما كان النبي ﷺ يقع في ضائقة وتنتابه شدة، تنزل الآيات يواسي الله عز وجل فيها رسوله ويدعوه إلى علاج هو ذكر الله تعالى:

اسمع لقوله تعالى: ﴿ فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ﴾ [طه: 130] وقوله تعالى: ﴿ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا ﴿٢٤﴾ وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾[الإنسان: 24- 25].

وعندما يلتقي جيش المسلمين وجيش المشركين الوسيلة التي تثبت المؤمنين وتقوي عزيمتهم هي: ذكر الله. قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾[الأنفال: 45].

ثم إن الله سبحانه يأمر عباده بالمداومة على ذكره حتى يتخلصوا من الغفلة عنه سبحانه فيقول عز وجل: ﴿ وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴾[الأعراف: 205].

ذكر الله نوع من التربية للنفوس وبيان ذلك أن الإنسان مكون من عقل وعاطفة وغالباً ما ينقاد الإنسان لعواطفه الإنسانية أكثر مما ينقاد لقراراته العقلية، ولو وقف أحدنا على مفترق طرق بين يقين عقلي يدعوه إلى اتباع صراط الله عز وجل، وبين أهواء وعواطف وشهوات تجنح به عن ذلك الصراط فما السبيل إلى أن يتحرر من عواطفه، لينقاد إلى قرار عقله؟.

السبيل هو: ذكر الله عز وجل!.

وليس المقصود بذكر الله تعالى كلمة يرددها الإنسان، وإن كان ذلك يسمى ذكراً ويثاب الإنسان عليه. وعلى هذا يحمل قوله ﷺ: «لا يزال لسانك رطباً بذكر الله»(1).

---

(1) سبق تخريجه، ص: 162.

ولكن تحريك اللسان بالذكر إنما هو سبيل إلى غاية، والغاية هي يقظة العقل والقلب وتوجه كل منهما إلى التأمل في عظمة الله عز وجل، وامتلاء وجدانه بصفات الربوبية في ذاته عز وجل (1).

هذه الحقيقة يبينها الباري سبحانه عندما جعل للذكر ثمرتين قد تبدوان متناقضتين وهما: الاطمئنان والخوف.

يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ ﴾[الرعد: 28]. ويقول في آية أخرى: ﴿ إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ ﴾[الأنفال: 2].

أما الاطمئنان فإن الإكثار من ذكر الله تعالى يجعل الإنسان مطمئناً بالنسبة لحياته الدنيوية التي يعيشها، لا يقلق فيها من أجل رزق، على الرغم من أنه يسعى للحصول عليه. ألم يقل الله عز وجل: ﴿ وَأۡمُرۡ أَهۡلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصۡطَبِرۡ عَلَيۡهَاۖ لَا نَسۡـَٔلُكَ رِزۡقٗاۖ نَّحۡنُ نَرۡزُقُكَۗ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلتَّقۡوَىٰ ﴾[طه: 132].

وقال سبحانه: ﴿ مَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَنُحۡيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةٗ طَيِّبَةٗۖ ﴾ [النحل: 97].

أما الخوف والقلق فإن ذكر الله يفجر في كيانه القلق من المآل والخوف من العاقبة التي هو آيل إليها. وفي ذلك يقول سبحانه: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤۡتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمۡ وَجِلَةٌ أَنَّهُمۡ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ رَٰجِعُونَ ﴾ [المؤمنون: 60].

إنهم يقدمون الطاعات والمبرات لكنهم خائفون من أن تكون شائبة رياء أو هوى قد تسربت إلى عمل أحدهم فأحبطته.

---

(1) هذا ما قلته أمام الرؤساء والملوك، د. محمد سعيد رمضان البوطي، ص: 152.

إن شغل اللسان بذكر الله تزيين جارحة بطاعة الله وفي فقده تعرض لاشتغالها بالمعصية وابن عطاء الله يغري بالذكر، ويطمع رجاله في مقام الإحسان فيقول في إحدى حكمه: «لا تترك الذكر لعدم حضور قلبك مع الله فيه، فإن غفلتك عن وجود ذكره أشد من غفلتك في وجود ذكره فعسى أن يرفعك من ذكر مع وجود غفلة إلى ذكر مع وجود يقظة ومن ذكر مع وجود يقظة إلى ذكر مع وجود حضور. ومن ذكر مع وجود حضور إلى ذكر مع غيبة عما سوى المذكور، وما ذلك على الله بعزيز».

ثم يقول ابن عطاء الله: «لأنه – أي الذكر – يمكن الشيخ والمريض الذي لا يستطيع القيام والركوع والسجود».

أي بالذكر يستدرك الشيخ ما فاته من سنوات الغفلة والتقصير، فيبقى قلبه حاضراً مع الله سبحانه فيمده الله بالعون والمغفرة والرحمة، جاء رجل إلى النبي ﷺ وقال له: يا رسول الله كثرت علي شعائر الإسلام فأوصني بأمر أدرك به ما فاتني وأوجز فقال: «لا يزال لسانك رطباً من ذكر الله»[1].

ثم يقول ابن عطاء الله: «فاصقل مرآة قلبك بالخلوة والذكر، حتى تلقى الله تعالى».

أما الخلوة فقد تكلمت عنها سابقا[2].

إن الخلوة والذكر والدوام عليهما يخلصان القلب من أوساخ الذنوب والمعاصي بسبب هيمنة الخوف من الله عليه، فيراقب العبد ربه فإن كان هناك ذنب أو تقصير أو غفلة تاب من ذلك واستغفر، وإن كانت هناك طاعة أخلص فيها وأبعدها عن السمعة والرياء، فيبقى القلب نيراً مصقولاً.

---

(1) سبق تخريجه، ص: 162.

(2) انظر ص: 25، 204.

يقول ابن قيم الجوزية: «لا ريب أن القلب يصدأ كما يصدأ النحاس والفضة وغيرهما، وجلاؤه بالذكر فإنه يجلوه حتى يدعه كالمرآة البيضاء، فإذا ترك صدى، فإذا ذكر جلاه. وصدأ القلب بأمرين: بالغفلة، والذنب، وجلاؤه بشيئين: بالاستغفار والذكر»[1].

ثم يقول ابن عطاء الله: «وليكن قلبك ذاكراً فتنبع لك الأنوار، ولا تكن كمن يريد أن يحفر بئراً فيحفر ذراعاً هنا وذراعاً هنا، فلا ينبع له ماء أبداً، بل أحفر في مكان واحد فينبع لك الماء».

ومعنى هذا: إذا أردت أن تجني ثمار الذكر فعليك بالمداومة عليه لا أن تذكره يوماً وتنساه أيام !!. إذا أردت أن تنبع لك الأنوار في قلبك فعليك بالمداومة على ذكره سبحانه وهذا ما قصده النبي ﷺ بقوله: «لا يزال لسانك رطباً من ذكر الله»[2].

ثم يقول ابن عطاء الله: «دينك هو رأس مالك، فإن ضيعت رأس مالك فاشغل لسانك بذكره، وقلبك بمحبته وجوارحك بخدمته».

وهذا تأكيد لمن فاته العمر بالغفلة أن يستدرك ذلك بهذه الأشياء الثلاثة.

ويختم ابن عطاء الله هذه الفقرة بقوله: «واحرث وجودك بالمحارث، حتى يجيء البذر فينبت، ومن فعل بقلبه كما يفعل الفلاح بأرضه أنار قلبه».

أي أثبت على ذكر واحد بصيغة واحدة ولا تتشتت في صيغ كثيرة فيتشتت ذهنك بل أثبت على ذكر واحد حتى تنبع لك أنوار هذا الذكر ثم انتقل إلى صيغة أخرى. فقد ورد في نسخة أخرى أن ابن عطاء الله قال: «وليكن ذكرك واحداً فتنبع لك الأنوار. . ».

---

(1) الوابل الصيب، ص: 52.

(2) سبق تخريجه، ص: 162.

وحراثة القلب تعني: تنقيته من الأمراض والشبهات والأهواء. فهذه ظلمات تحيط بالقلب فتمنع نوره، وعلاجها يكون بالمداومة على ذكر الله واستغفاره فيشعر القلب بعظمة الخالق فيتجه إليه بالعبادة ويترك ما سواه فيتنور القلب بذلك.

* * *

مهمة الشيخ المربي

يقول ابن عطاء الله: واعلم أن العلماء والحكماء يعرفونك كيف تدخل إلى الله تعالى. هل رأيت مملوكاً أول ما يشترى يصلح للخدمة؟،

بل يعطى لمن يربيه ويعلمه الأدب، فإن صلح وعرف الأدب قدمه للملك، كذلك الأولياء رضي الله عنهم، يصحبهم المريدون حتى يترقوا بهم إلى الحضرة، كالعوام إذا أراد أن يعلم الصبي العوم يحاذيه إلى أن يصلح للعوم وحده، فإذا صلح زجه في اللجنة وتركه.

إذا مهمة الشيخ المربي الصادق مع الله هي أن يكشف للمريد عن عيوب نفسه ويكشف له عن حقيقة حاله ويسير به إلى حضرة الله سبحانه، ولكن لا يمكن للشيخ أن ينجح في ذلك حتى يكون أحسن حالاً من التلميذ وأصدق مع الله وأقوم خلقاً وأقوى إيماناً إذ «لن تكون مكملاً حتى تكون كاملاً» والكمال لله لكن فاقد الشيء لا يعطيه، فمن لم يزك نفسه كيف كيف يزكي غيره، ومن لم يحسن خلقه كيف يحسن خلق غيره؟!.

ولهذا قال ﷺ: «المؤمن مرآة المؤمن»[1]. فكما أن المرء لا يرى عيوب وجهه إلا بمرآة صافية مستوية فكذلك لابد للمؤمن من أخ مؤمن مخلص وصادق.

إن مهمة المربي كالزارع الذي يربي الزرع، فكلما رأى حجراً أو نباتاً مضراً بالزرع قلعه وطرحه خارجاً، ويسقي الزرع مراراً إلى أن ينمو ويتربى، ليكون أحسن من غيره؟!

إن الشيخ الكامل يربي بحاله مع الله أكثر من مقاله ولذلك قالوا: حال رجل في ألف رجل أنفع من وعظ ألف رجل في رجل.

---

(1) أبو داود في الأدب، باب: في النصيحة والحياطة، رقم (4272). والبخاري في الأدب المفرد، باب: المسلم مرآة أخيه، رقم (239)، ص 93.

صفات المربي والمرشد:

والمربي والمرشد الذي هو مرشد حقاً، ذاك الذي تبصر بعلوم الشريعة الإسلامية بحيث أُتيح له أن يجعل منها ضابطاً لسلوكه وتصرفاته، ثم إنه فرغ قلبه من حب الدنيا والتعلق بها، فزهد فيها، وترفع فوق متعها وأهوائها ولم يكن همه كسب المال والمكانة والشهرة بين الناس لا، كل ذلك لا يخطر في باله بل لا يبتغي في شيء من أعماله إلا مرضاة ربه.

المرشد هو الذي تساوى لديه ثناء الناس عليه، مع انتقاصهم له. إذ كانت معاملته مع الله لا مع الناس، وكانت قرة عينه متمثلة في رضا الله، لا في مديح الناس.

إذا صادفك هذا المرشد، عليك به وتشبث بأذياله، إذ ما من شك أنه سييسر لك سبيل القرب إلى الله. وأسباب الابتعاد عن مزالق الشيطان.

سيحبب إليك اتباع السنة ويجنبك الوقوع في البدع.

ولكن لا تجعل سيرك إلى الله متوقفاً على عثورك عليه، إن صادفته سرت وإن لم تجده أعرضت وتوقفت. يغنيك عن المرشد الحقيقي الذي قد لا تعثر عليه الإخوة الصالحون والناصحون، وما أكثرهم بحمد الله في كل مدينة وصقع.

ثم أين أنت من المرشد الأعظم رسول الله ﷺ؟ اقرأ سيرته بتدبر، وداوم على الصلاة عليه، يقيض الله لك منه مرشداً يدلك إن ضللت ويقومك إن اعوججت ويحبب إليك الإيمان، بفضل من الله ويزينه في قلبك ويكره إليك الفسوق والعصيان [1].

وإن الأتقياء يحسون بآثار هذه التربية تمام الإحساس، إن الصلاة على النبي ﷺ هي الموصلة إلى الله تعالى عند فقد المرشد الكامل.

---

(1) الحكم العطائية، شرح وتحليل د. محمد سعيد رمضان البوطي، ص: 1/ 177، 178.

وينبغي أن يعلم المريد أن الشيخ المرشد ليس معصوماً، لأن العصمة لا تكون لغير الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، ومن هنا تكون صحبة الشيخ المرشد شاقة، لأن المرشد قد يجري عليه على غيره من القضاء والقدر فإن كان الشيخ صادقاً مع ربه فإنه سريع التوبة إلى الله سبحانه.

إن المطلوب من المريد أن يبتعد عن الغلو في شخص الشيخ حتى لا يجره ذلك إلى خلل في العقيدة.

* * *

ليس الرجل من يربيك لفظه إنما الرجل من يربيك لحظه

يقول ابن عطاء الله: ليس الرجل من يربيك لفظه، إنما الرجل من يربيك لحظه. عن الشيخ أبي العباس المرسي ﷺ، أنه قال: إذا كانت السلحفاة تربي أفراخها بالنظر، كذلك الشيخ يربي مريده بالنظر، لأن السلحفاة تبيض في البر، وتتوجه إلى جانب النهر، وتنظر إلى بيضها، فيربيهم الله لها بنظرها إليهم[1].

إن المرشد والمربي الذي زكى نفسه والتزم الكتاب والسنة يربي بحاله مع الله أكثر من مقاله، لذلك قالوا: حال رجل في ألف رجل أنفع من وعظ ألف رجل في رجل.

فالحال هو ما عبر عنه ابن عطاء الله باللحظ. فما هو الحال؟.

إنه وضع يتلبس كيان الإنسان من جراء ما انتهى إليه باطنه من تزكية النفس، وطهارة القلب، وتحوله إلى وعاء يفيض بمراقبة الله وتعظيمه والخوف منه والحب له، وبالجملة فالحال المعني بها هنا هي تخلص الإنسان مما سماه الله باطن الإثم.

صاحب هذه الحال، ينبعث تأثير من كيانه، من نظراته، من قسمات وجهه، من سر ينبعث من عموم وضعه، إلى جليسه القريب منه والمقابل له، دون حاجة إلى أن يتكلم وينصح ويناقش. . وإذ إن هذا السر تنبعث آثاره من باطن الكيان إلى ظاهره، ويترك في نفس الجليس من النتائج مالاً تستطيع المواعظ الكلامية أن تحققه. وما أكثر الأعراب الذين انتقلوا خلال دقائق معدودة، من أقصى أودية التيه إلى أعلى درجات الهداية، عندما ضمهم مجلس فيه رسول الله ﷺ وصافحت أعينهم قسمات وجهه، فسرى من حاله القلبية مع الله عز وجل إلى نفوسهم،

---

(1) جاء في حياة الحيوان الكبرى للدميري، عند كلامه عن السلحفاة البحرية التي تبيض على الشاطئ: «وهي إذا باضت صرفت همتها إلى بيضها بالنظر إليه ولا تزال كذلك حتى يخلق الله تعالى الولد منها، إذ ليس لها أن تحضنه حتى يكمل بحرارتها، لأن أسفلها صلب لا حرارة فيه»: 2/ 33.

ما أيقظ فيها كوامن الفطرة، وألهب فيها مشاعر الحنين إلى الحق وأسقط منها ركام الأهواء والعصبيات.

وأما المقال فيتمثل في أن يكون هذا الذي تصحبه وتجالسه، ممن لا يألو جهداً في نصيحتك، يأمرك بالمعروف إن نسيته أو أعرضت عنه، وينهاك عن المنكر الذي تلبست به، متقيداً بالحكمة الحسنة.

فلا يكفي في الصاحب الذي تركن إليه أن يكون ذا حال صامتة، لا يذكرك بأخطائك ولا ينهاك عن عثراتك. كما لا يكفي أن يكون ذا منطق متوهج بالنصح والموعظة والإرشاد، إن لم يكن قبل ذلك أو مع ذلك ذا حال مما قد وصفت لك [1].

والقصة الآتية تؤكد أن التربية تكون بالحال وأنها تنقل الإنسان من الغفلة والشرود إلى اليقظة، ومن حال المعصية إلى حال التوبة.

قصة الشيخ محمد الحامد مع شيخه أبي النصر خلف:

كان الشيخ محمد الحامد رحمه الله وهو من علماء حماة وكان يدرس العلم في مدينة حلب، وكان الشيخ أبو النصر خلف رحمة الله متربعاً فيها على عرش قلوب أكثر علمائها وجمهرة عامتها، وكان يتردد عليها كثيراً، وكان الشيخ محمد الحامد على معرفة بالشيخ وثيقة، وقد سبق أن تلقى الذكر منه، إلا أن أفكار خاله الشيخ سعيد الجابي الذي كان يخالف أهل الذكر والطرق وشن عليهم حملات عنيفة، لم تقف عند البدع، بل كان فيها إفراط وتحامل كبيران من الشيخ رحمه الله تعالى.

هذه الأفكار كانت لا تزال متمكنّة من قلب الشيخ محمد الحامد. . . وفي إحدى الليالي العامرة بالذكر، التي كانت تشهدها حلب حين مجيء الشيخ إليها، ذهب الشيخ محمد الحامد

---

(1) شرح الحكم، د. محمد سعيد رمضان البوطي: 2/ 156 وما بعدها.

مع رفيق دراسته الشيخ أحمد الحصري رحمه الله لرؤية الشيخ أبي النصر والسلام عليه، ولما دخل الدار، خشي رفاقه في المدرسة من أتباع الشيخ أن يسبب لهم بعض المشاكل، لكن الشيخ أبا النصر ما إن وقع بصره عليه حتى استدعاه، وأجلسه أمامه مع صاحبه، وأمر المنشد بالإنشاد، وبدأ المنشد بقصيدة مطلعها:

كان لي ظل رسوم — فاستوت شمسي فزالا
عشت بالمحبوب حقاً — بعد ما كنت خيالاً
وتخفى عن عياني — بي عزاً وكمالاً
لست بعد اليوم أخشى — منه والله انفصالاً
أنا مقعد صدق — أجتني منه وصالاً
كل أوقاتي منه — فرحات تتوالى
هكذا العشق وإلا — كان والله انفعالاً

وأخذ الشيخ يتوجه بقلبه إلى الشيخ محمد الحامد، وما مرت فترة حتى اشتعل القلب بالذكر وطغت عليه حال عجيبة وقام مأخوذاً هو ورفيقه يصيحان ثم أكبا على حجر الشيخ، فتلقاهما بهدوء وسرور كما تتلقى الأم أطفالها وكان الشيخ محمد الحامد بعد ذلك اليوم يقول: «إنه الذي أخرجني الله تعالى به من ظلمات الغفلة والقسوة والشرود، إلى نور الذكر والرقة والوقوف بباب الله سبحانه في ذلة وضراعة لهذا الرب الكريم، إنه الذي ملأني بتوجهات قلبه الشريف. . . »[1].

وفي هذا المعنى يقول ابن عطاء الله في إحدى حكمه: «تسبق أنوار الحكماء أقوالهم، فحيثما صار التنوير وصل التعبير».

---

(1) الشيخ المجاهد، محمد الحامد، عبد الحميد طهماز، ص: 198، 199، 200.

والحكيم هو الذي أصاب الحق في العمل والقول.

فهؤلاء الحكماء يسري من أفئدتهم نور إلى أفئدة من يتوجهون إليهم بالخطاب، فتبعث فيها تأثيراً يعرفه جيداً أصحاب تلك القلوب التي تتلقى هذا التأثير وهذا النور يفتح طريقاً للكلام الذي ينطقون به، ولقد ظلت العرب تقول، دون وجود أي مناقش أو معارض: «ليست النائحة كالثكلى». فول مضت النائحة -التي تمتهن من النياحة- تصيح من الصباح إلى المساء لن يصل من نواحها إلى آذان الناس ونفوسهم إلا الضجيج، ولو زفرت الثكلى زفرة واحدة على وليدها الذي فقدته، ألهبت أفئدة السامعين بضرام الحزن والأسى.

فمثل النائحة مثل كل من يمتهن النصح وأحاديث الدعوة إلى الله وتحبيب دينه إلى قلوب الناس، ابتغاء مغنم من المال أو الشهرة أو القيادة والرئاسة أو مصلحة ما من مصالح الدنيا. . . ومثل الثكلى مثل الحكماء الذين هيمن وجود الحق سبحانه وتعالى على أفئدتهم ومشاعرهم، بعد أن استقر يقيناً في عقولهم، فأورثهم ذلك نوراً تجلى به الله على قلوبهم، فانتشر منه سر أخاذ إلى وجوههم ونظراتهم، وامتزج في أحاديثهم وأقوالهم[1].

* * *

(1) شرح الحكم العطائية، د. محمد سعيد رمضان البوطي: 4/ 246، 247.

أبناء الدنيا وأبناء الآخرة

عليك بأبناء الآخرة

يقول ابن عطاء الله: كما أن للدنيا أبناء، من استند إليهم كفوه، فكذلك إن للآخرة أبناء، من استند إليهم أغنوه. ولا تقل: طلبنا فلم نجد، فلو طلبت بصدق لوجدت، وسبب عدم وجدانك عدم استعدادك، فإن العروس لا تجلى على فاجر، فلو طلبت رؤية العروس لتركت الفجور، ولو تركت الفجور لرأيت الأولياء، والأولياء كثيرون، لا ينقص عددهم ولا مددهم، ولو نقص واحد منهم لنقص نور النبوة.

قال الشاعر:

انت في الناس تقاس   بالذي اخترت خليلاً
فاصحب الأخيار تعلو   وتنل ذكراً جميلاً

فالإنسان مدني بطبعه لابد أن يختلط مع الناس ويقيم علاقات معهم، ولابد للمسلم أن يجعل هذه العلاقات مع الأخيار من الناس حتى يُعان على الخير.

وقد اختار الله سبحانه لنبيه ﷺ صحابته رضوان الله عليهم، واختار النبي ﷺ أن يكون معهم ويترك أهل الدنيا من الشرفاء والعظماء لأنه قد أمر بذلك بقوله سبحانه: ﴿وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥۖ وَلَا تَعۡدُ عَيۡنَاكَ عَنۡهُمۡ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ﴾[الكهف: 28].

وقد حثنا النبي ﷺ على مصاحبة الأخيار بقوله: «لا تصاحب إلا مؤمناً ولا يأكل طعامك إلا تقي»[1]. والله سبحانه وتعالى قد جعل لنا شعاراً دائماً في هذه الحياة ينبغي أن نجعله ديدناً وهو قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾[التوبة: 119].

---

(1) الترمذي في الزهد، باب: ما جاء في صحبة المؤمن، رقم (2318). وقال: حديث إنما نعرفه من هذا الوجه، وأبو داود في الأدب، باب: من يؤمن أن يجالس، رقم (4192).

إن الصحبة الصالحة يمتد أثرها إلى اليوم الآخر، قال تعالى: ﴿ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴾[الزخرف: 67].

ولقد كان الصحابة رضي الله عنهم يعرفون أهمية الأخ في الله، فكان عمر بن الخطاب ﷺ يقول: «لولا ثلاث لكان بطن الأرض خير وأحب إلي من ظهرها، وذكر منها مجالسته إخوانه ينتقون اطايب الكلام، كما ينتقى أطايب الثمر».

وهذا فقه عظيم لأن الصديق والأخ في الله سبحانه له منافع كثيرة منها: أن يذكرك إذا نسيت أمراً من أمور الخير. أو يذكرك بالخوف من الله إذا نسيت ورآك على معصية.

والأخ في الله يكسبك سمعة حسنة بين الناس، وتستزيد علماً دائماً فإن أهل الخير كلامهم مرتبط بكلام الله عز وجل ومواعظهم متصلة بهدي رسول الله ﷺ وأخبارهم تجول في سير الصحابة والعلماء والأئمة، فأنت لا تسمع إلا خيراً يزيدك علماً وإيماناً بالله سبحانه.

ومن حقوق الأخوة في الله أن يستر المسلم على أخيه المسلم فإن الإنسان لا يسلم من هفوة وقد تمر به بعض الظروف فيذنب ويخطئ، فهذا يجب أن يقابل بالستر من أخيه المسلم مع النصح والتقويم بالحسنى «والمؤمن مرآة المؤمن»[1]. كما ورد لأنه يرى فيه عيوبه ويبصر فيه تقصيره فيقع التكامل بين المسلم وأخيه المسلم، والمسلم للمسلم كاليدين تغسل إحداهما الأخرى.

فيا أخي المسلم أنت في هذا العصر الذي اختلطت فيه الأمور، ووقع الناس فيه بالشرور، وأصبح اختلاط الناس صالحاً وطالحاً يحير الإنسان فيمن يصحب، وكذلك لأنك تجتمع بكثير من الناس في عملك وفي دراستك فليكن عندك دائماً نبراسٌ تهتدي به وتقويم تلجأ إليه وهو التقويم الذي ذكره الله في قرآنه: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾[الحجرات: 13].

---

(1) أبو داود في الأدب، باب: في النصيحة والحياطة، رقم (4272). والترمذي في البر والصلة، باب: ما جاء في شفقة المسلم على المسلم، رقم (1852).

فلا تغتر بكثرة ما عند بعض الناس من الجاه، أو ما عندهم من الأموال، أو ما عندهم من أمور يخطفون بها الأبصار من بعض العلوم وغير ذلك فإن هذا كله ليس وراء شيء.

فاحرص يا أخي المسلم على هذا الاختيار واحرص على الانتفاع واعلم أن مثل هذا الأمر يغفل عنه كثير من الناس ويجعلون للمجاملات وبعض الأساليب التي قد لا ترضي الله عز وجل مدخلاً في مثل هذا، فاحذر كل ما حرم الله عز وجل من صحبة أهل الفساد أو أهل الكفر فإن هذا دين تحرص عليه وخلق تحافظ عليه فاجعل له صيانة وحياطاً من أولئك الأخيار.

ولا تقل: طلبنا فلم نجد، فما أكثر الأخيار، ولكن عدم وجدانك سببه عدم استعدادك بسبب كثرة معاصيك وذنوبك، إذ كيف ترى النور وأمام عينيك وحول قلبك حجاب سميك، اترك الفجور وأطع الله تر أولياء الله والأخيار من حولك وما أكثرهم.

* * *

صحبة أبناء الدنيا وأبناء الآخرة

يقول ابن عطاء الله: إذا صحبت أبناء الدنيا جذبوك إليها، وإذا صحبت أبناء الآخرة جذبوك إلى الله، قال رسول ﷺ: «يُحشر المرء على دين خليله، فلينظر أحدكم من يخالل»(1). كما نختار لنفسك المآكل الطيبة التي لا ضرر فيها والزوجة الحسنة لتتزوجها، فكذلك لا توادد إلا من يعرفك الطريق إلى الله سبحانه وتعالى.

يقول ابن عطاء الله في إحدى حكمه: «لا تصحب إلا من ينهضك حاله ويدلك على الله مقاله».

وقد بين الله لنا أهمية الصحبة بقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾[التوبة: 119].

ويحذرنا من أبناء الدنيا الذين يُضلّون عن طاعة الله سبحانه بقوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِي ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِي وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ﴾[الفرقان: 27- 29].

أما الأحاديث فكثيرة منها ما ذكره ابن عطاء الله في الفقرة أعلاه، ومنها ما يأتي:

عن أبي ذر رضي الله عنه قلت: يا رسول الله، الرجل يحب القوم ولا يستطيع أن يعمل عملهم؟ قال: «أنت يا أبا ذر مع من أحببت»(2).

---

(1) الترمذي في الزهدي، باب: ما جاء في أخذ المال بحقه، رقم (2300) وقال: حديث حسن غريب. وأبو داود في الأدب، باب: من يؤمر أن يجالس، رقم (4193) وأحمد، باقي مسند المكثرين، مسند أبي هريرة، رقم (7685).

(2) أبو داود في الأدب، باب: إخبار الرجل بمحبته إياه، رقم (4461).

إن هذه الآيات والأحاديث السابقة الذكر وغيرها كثير تبين بمجموعها أهمية صحبة الأخيار، وترك صحبة الأشرار وأن صحبة الأخيار من أبناء الآخرة هي السبيل العملي للإصلاح والتربية وتزكية النفوس لأنهم يجذبون إلى الآخرة على عكس أبناء الدنيا فإنهم منغمسون في لذاتها ويجذبون كل من يصاحبهم إلى الانغماس في تلك اللذات.

المرء على دين خليله كما قال ﷺ، هذا الاهتمام من النبي ﷺ في اختيار الصديق لأن الصحبة يتبعها المحبة والموافقة، فإن صحبت الأشرار فإنك قد تودهم وتحبهم ثم تندفع إلى موافقتهم فيؤول الأمر إلى الوقوع في المعاصي وإلى الغفلة التي تصد القلب عن ذكر الله سبحانه وتعالى. وهذا معنى قول ابن عطاء الله : «إذا صحبت أبناء الدنيا جذبوك إليها».

وقد ضرب النبي ﷺ مثلاً رائعاً للجليس الصالح وجليس السوء، فقال ﷺ: «مثل الجليس الصالح والجليس السوء كمثل حامل المسك ونافخ الكير، فأما الأول إما أن يحذيك – يعطيك – أو تبتاع منه أو تجد منه ريحاً طيبة، وأما الآخر إما أن يحرقك وإما أن تجد منه ريحاً خبيثة»(1).

وقد أخبرنا عز وجل على لسان نبيه ﷺ ما ادخره لأولئك الذين تحابوا في الله وتآلفوا عليه أنه جعلهم على منابر من نور يغبطهم الأنبياء والشهداء وليسوا بأنبياء ولا شهداء، إنهم المتحابون في الله إنهم المتزاورون في الله(2).

* * *

(1) البخاري في البيوع، باب: في العطاء وبيع المسك، رقم (1959) ومسلم في البر والصلة، باب: استحباب مجالسة الصالحين، رقم (4762).

(2) الترمذي في الزهد، باب: ما جاء في الحب في الله، رقم (2321) وقال: حديث حسن صحيح. وأحمد، مسند الأنصار، حديث معاذ بن جبل، رقم (20995). ومالك في الموطأ، باب: ما جاء في المتحابين في الله، رقم (1503).

إذا طلبت من يدلك على الله ويعرفك بعيوب نفسك لم تجد إلا قليلاً

يقول ابن عطاء الله: إذا طلبت قارئاً وجدت ما لا يحصى، وإذا طلبت طبيباً وجدت كثيراً، وإذا طليت فقيهاً وجدت مثل ذلك، وإن طلبت من يدلك على الله ويعرفك بعيوب نفسك لم تجد إلا قليلاً، فإن ظفرت به فأمسكه بكلتا يديك: يبين ابن عطاء الله رحمه الله أن العلماء على قسمين: علماء الدنيا، وعلماء الآخرة أما علماء الدنيا فكثيرون جداً، وأما علماء الآخرة فقليلون جداً.

والأمر الفارق بين الفئتين: أن علماء الدنيا، ينظرون في الرياسة فيها، ويحبون كثرة الجمع والثناء، وعلماء الآخرة بمعزل من إيثار ذلك، وقد كانوا يتخوفونه، ويرحمون من بلي به، فكانوا يتدافعون الفتوى ويحبون الخمول أي –الخفاء وعدم الذكر- ومثلهم كمثل راكب البحر وقد خب[1]، فعنده شغل إلى أن يوقن بالنجاة وكان بعضهم يدعو لبعض، ويستفيد منه، لأنهم ركبٌ تصاحبوا فتوادوا فالأيام والليالي مراحلهم إلى سفر الجنة[2].

وقد حذر النبي ﷺ من علماء الدنيا بقوله ﷺ: «يخرج في آخر الزمان رجال يختلون[3] الدنيا بالدين، يلبسون للناس جلود الضأن من اللين ألسنتهم أحلى من السكر وقلوبهم قلوب الذئاب، يقول الله عز وجل: أبي يغترون أم علي يجترئون، فبي حلفت لأبعثن على أولئك منهم فتنةٌ تدع الحليم منهم حيراناً»[4].

---

(1) خل: أسرع.

(2) صيد الخاطر، ابن الجوزي، ص: 49.

(3) يختلون: يطلبون.

(4) الترمذي في الزهد عن رسول الله، باب: ما جاء في ذهاب البصر، رقم (2328).

فإن ظفرت بمرشد همه الخوف من الله والعمل لآخرته فاعلم أن هذا هو من يدلك على الله ويعرفك بعيوب نفسك، فإن ظفرت به فأمسكه بكلتا يديك واستفد منه وخذ من تجربته وتحقق بعلو همته.

* * *

من أكثر من مجالسة أهل هذا الزمان فقد تعرض لمعصية الله

يقول ابن عطاء الله: ليس الشأن فيمن يرفق بك إذا وافقته، بل الشأن فيمن يرفق بك إذا خالفته.

من أكثر من مجالسة أهل هذا الزمان فقد تعرض لمعصية الله تعالى، مثاله: كمن جعل الحطب اليابس في النار، ويريد أن لا تتقد، فقد أراد محالاً، لأنه قد ورد خص بالبلاء من عرف الناس وعاش فيهم ليس كمن لم يعرفهم، فربما جالست غير متقٍ وكنت أنت متقياً فجرك إلى الغيبة، وقهرك في نفسك.

هفوة الصديق لا تخلو إما أن تكون في دينه بارتكاب معصية أو في حقك بتقصيره في الأخوة، أما ما يكون في الدين من ارتكاب المعصية فعليك التلطف في نصحه حتى يعود إلى الصلاح وأبغض عمله من حيث تحبه، وادع له بالعود إلى ما كان عليه من الطاعة. أما زلته في حقه بما يوجب إيحاشه فالأولى العفو والاحتمال والتماس العذر له[1].

كثيراً ما نرى أشخاصاً يوافقون غيرهم وإن كانوا على خطأ وهذا يسبب التمادي في المعصية وقلب الخطأ إلى الصواب، فاحرص على تجنب هؤلاء، واختر من الأصحاب من يصبر عليك إذا خالفته، ويحتمل المكروه ويقبل العثرة. هذا هو الصديق الذي يحبك لله، وذاك منافق سرعان ما يتركك حين تنتهي المصلحة التي رافقك لأجلها.

ثم قال ابن عطاء الله: «من أكثر من مجالسة أهل هذا الزمان فقد تعرض لمعصية الله. .».

فأبناء هذا الزمان قد اختلطت عليهم الأمور، فتراهم يقدسون أشياء بسيطة ويستهترون بأشياء عظيمة، وهم يقدمون العادة والإلف على أحكام الشرع. فهم يستوحشون من فعل الشيء لعدم جريان العادة، لا لنهي الشرع! اسمع لابن الجوزي يصف أهل زمانه –القرن

---

(1) إحياء علوم الدين، الغزالي: 2/ 255 وما بعدها.

السادس الهجري- فكيف بأهل زماننا فيقول رحمه الله: «فكم من رجل يوصف بالخير يبيع ويشتري فإذا حصلت له القراضة [1]. باعها الصحيح من غير تقليد لإمامه، أو عمل برخصة عادة من القوم واستثقالاً للاستفتاء، ونرى خلقاً يحافظون على صلاة الرغائب [2]. . . .

ومنهم من يعلم أن أصل ماله حرام، ويصعب عليه فراقه للعادة، فتجلى لي من الأمر أن العادات غلبت من الناس، وأن الشرع أعرض عنه، وإن وقعت موافقة الشرع كيفما اتفق، أو لأجل العادة، فإن الإنسان لو ضرب بالسياط ما أفطر في رمضان عادة قد استمرت، ويأخذ أعراض الناس وأموالهم عادة»[3].

إذاً مخالطة الناس غالباً ما تعرض لمعصية الله في هذا الزمان، وتوقع في الغيبة وهتك الأعراض والحقد والحسد، فكان اجتنابهم أولى حفاظاً على الدين.

أنشد الإمام الشافعي رحمه اغلله قائلاً:

ليت السباع لنا كانت مجاورةً ... وليتنا لا نرى مما نرى أحداً

إن السباغ لتهدي في مرابضها[4] ... والناس ليس بهادٍ، شرهم أبداً

فاهرب بنفسك واستأنس بوحدتها ... تعش سليماً إذا ما كنت منفرداً

---

(1) القراضة: بيع الدراهم المكسرة بالصحيحة مع عدم التساوي، وهذا فيه شبهة الربا.

(2) تصلى أول ليلة جمعة من شهر رجب. وهذه الصلاة بدعة عند جمهور العلماء والأحاديث المروية في فضلها باطلة.

(3) صيد الخاطر، ابن الجوزي، ص: 263 ، 264.

(4) المربض: مكان مأوى الغنم.

وقال رحمه الله:

الناس داءٌ وداء الناس قـربهم　　　وفي اعتــزالهم قطــع المــودات

ولست أسلمُ من خل يخالطني　　　فكيف أسلم من أهل العداوات

* * *

أحـــوال النفـــس

البلاء اختبار للعبد

يقول ابن عطاء الله: قدر لك الصحة والمرض والغناء والفقر والفرح والحزن، حتى تعرفه بأوصافه. ما من نفس يبديه الله تعالى فيك من طاعة أو مرض أو فاقة، إلا وهو يريد أن يختبرك بذلك.

إذا أردت ورود المواهب عليك صحح الفقر والفاقة لديك: ﴿ ۞ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ وَٱلۡمَسَٰكِينِ ﴾[1] [التوبة: 60].

قال ﷺ: «أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم»[2].

لماذا قضى الله أن تكون الدنيا مشوبة بالأكدار:

قضى الله أن تكون الدنيا مشوبة بالأكدار، وأن يمزج نعيمها بالغصص، فما الحكمة من ذلك؟.

إن الحكمة الباهرة تتجلى في حقيقتين اثنتين [3].

الحقيقة الأولى: أن الله عز وجل جعل من هذه الدنيا دار تكليف، بل جعل منها قاعة امتحان إن جاز التعبير. . . فإذا فرضنا أن الحياة التي أقام الله الإنسان فيها، ليس فيها إلا النعيم الصافي من الأكدار، فيها السرور الذي لا تشوبه منغصات، إذاً فمن خلال أي سلوك أو من خلال أي استجابة لأوامر الله تتجلى عبودية الإنسان لله بسلوكه الاختياري؟.

ممارسة العبودية ثمرة للتكليف، والتكليف لا يسمى تكليفاً إلا إن كان ملاحقاً للمكلف بما فيه كلفة أي مشقة.

---

(1) هذه العبارة إحدى الحكم العطائية.

(2) أحمد، في مسند الأنصار، حديث فاطمة عمة أبي عبيدة، رقم (25832).

(3) الحكم العطائية، شرح وتحليل، د. محمد سعيد رمضان البوطي، ص: 334 وما بعدها بتصرف في العبارة.

ولقد علمت أن الدعاء هو العبادة، وأن الدعاء ثمرة الحاجة والفاقة والخوف من الآلام والمصائب، فمن لم يكن خائفاً على نفسه منها، يعيش في نعمة وسرور فهو أبعد ما يكون عن أن يمد يد فاقة أو ضراعة إلى الله.

ومن المعلوم أن سدى ولحمة التكاليف الإلهية هما الصبر والشكر وإنما يكون الصبر أمام الشدائد والمصائب والآلام. في حين أن الشكر يكون باستخدام النعم. إذاً فحياة التكليف هذه ينبغي أن تكون مزيجاً من هذه وتلك.

وقد نبه البيان الإلهي الإنسان إلى هذا المزيج، ولفت نظره إلى الحكمة من ذلك كي لا يفاجأ منهما بما لم يتوقع.

من ذلك قوله جل جلاله: ﴿ ۞ لَتُبْلَوُنَّ فِىٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾[آل عمران: 186].

الحقيقة الثانية: أن الشأن في هذه الحياة الدنيا، أن تكون محدودة بميقات معين، وهو ميقات الامتحان ومن ثم إلى مقر عاقبة وجزاء. والبوابة للانتقال هي الموت!.

أفترى إذاً أن من الحكمة أن يجعل الله من هذه الحياة الدنيا القصيرة أشبه باستراحة في طرق مسافر، مثابة نعم صافية عن الشوائب والكدورات.

تخيل أنك تتقلب متنعماً في حياة من هذا القبيل، إذاً فلسوف تزداد تعلقاً بها كلما امتد عمرك فيها، فكيف تكون حالك إن جاءك الموت ودعيت إلى الرحيل من هذه الحياة؟.

سيكون فراقك لها، أشبه ما يكون بكتلة من الحرير تعلقت من سائر أنحائها بنبات كثيف ذي رؤوس يابسة شائكة، جاء من اجتذبها بيده جذبة واحدة بشدة، فتقطع منها في يده ما تقطع، وتناثر منها ما تناثر بين الشوك.

فكان من لطف الله بعباده أن جعل نعيم الناس في دنياهم بمقدار احتياجهم إليه على طريق تحقيق المهام التي كلفوا بها، وجعل عافيتهم أداة يسخرونها في هذا المضمار.

ثم جعل سبحانه إقبالهم إلى الدنيا أشد ما يكون في زمن شبابهم، فإذا دخلوا في مرحلة الكهولة تناقص إقبالهم إلى متع الدنيا، تحت وطأة القوة المتراجعة والغرائز التي تميل إلى الملل أو البرود، فإذا دخلوا في مدارج الشيخوخة، ازداد ذلك الإقبال تراجعاً.

كل ذلك يهيئه نفسياً لساعة الرحيل، فإذا طرق الموت بابه فعلاً، بعد هذه المقدمات، لم يأسف على الدنيا التي يرحل منها.

ومن رحمة الله بعباده خفف عنهم ألم البلاء إذ أعلمهم بأنه سبحانه هو المبلي، فيقول ابن عطاء الله في إحدى حكمه: «ليخفف ألم البلاء عنك علمك بأنه سبحانه هو المبلي لك، فالذي واجهتك منه الأقدار هو الذي عودك حسن الاختيار» فإذا أصابتك أيها الإنسان فاقة أي: مصيبة، أو نزلت بك بلية في بدن أو أهل أو مال فاذكر من أنزل ذلك عليك وما هو متصف به من الرحمة والرأفة بك والمحبة والعطف عليك، لعلك تفهم ما في طي ذلك من النعم وما يعقبه من سوابغ الفضل والكرم، ولو لم يكن إلا تطهيرك من الذنوب وتمحيصك من العيوب وتقريبك من حضرة علام الغيوب، فهل تعودت منه إلا الإحسان وهل رأيت منه إلا غاية المسرة والامتنان فالذي واجهتك منه الأقدار هو الذي عودك حسن الاختيار.

وقد ورد في ثواب الأمراض والأوجاع أحاديث كثيرة وآيات قرآنية في مدح الصابرين منها قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[الزمر: 10] وقوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾[البقرة: 155] وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾[البقرة: 153].

وقوله ﷺ: «ما يصيب المسلم من نصب ولا وصب ولا هم ولا حزن ولا أذى ولا غم حتى الشوكة يُشاكها إلا كفَّر الله بها من خطاياه»(1).

---

(1) البخاري في المرضى، باب: ما جاء في كفارة المرض، رقم (5210).

يقول ابن عطاء في حكمه: «لا تستغرب وقوع الأكدار ما دمت في هـذه الـدار فإنهـا مـا أبرزت إلا ما هو مستحق وصفها وواجب نعتها».

الأكدار هنا هي الصحة والمرض والفرح والحزن والموت والفتنة والهرج –وهو ما يسمى بالنوازل الجلالية أو القهرية– . فالمسلم لا يستغرب شيئاً من تجليـات الحـق ولا يتعجـب مـن شيء منها كائنة ما كانت جلالية أو جمالية فإن نزلت به نوازل قهريـة أو وقعـت في هـذه الـدار أكدار وأغيار جلالية فلا يستغرب وقوع ذلك لأن تجليات هذه الدار جلهـا جلاليـة لأنهـا دار أهوال ومنزل فرقة وانتقال فلا تحزن فهذه صفة الـدنيا ونعتهـا بـل تعـرف عـلى الله في الجـلال والجمال والحلوة والمرة[1].

ويقول في إحدى حكمه: «ربـما وجـدت مـن المزيـد في الفاقـات مـا لا تجـده في الصـوم والصلاة».

لأن ورود الفاقات يصفي القلب ويطهر السريرة برجوع العبد إلى ربه وقد لا يحصـل لـه ذلك بالصوم والصلاة، لأن الصوم والصلاة قد يكون فيها شهوة وهوى فلا يـؤمن عليـه مـن دخول الآفات.

وقال في إحدى حكمه «الفاقات بسط المواهب».

لأن الفاقة تجعل العبد يحضر مع الحق سبحانه وتجلسه عـلى بسـاط الصـدق، وتخيـل مـا يحصل من تلك المحاضرة من المواهب الربانية والنفحات الرحمانية.

والمواهب جمع موهبة وهي: كل ما قد يتفضل به المولى عز وجـل عـلى عبـده مـن الـنعم المادية والمعنوية، المتعلقة بشؤون الدنيا أو الآخرة وقال في إحدى حكمه: «مـن لم يعـرف قـدر النعم بوجدانها عرفها بوجود فقدانها».

---

(1) إيقاظ الهمم، ابن عجيبة، ص57.

لذلك قيل: «إنما يعرف قدر الماء من بلي بالعطش في البادية، لا من كان على شاطئ الأنهار الجارية».

ولأجل غلبة الجهل بالنعم إلا عند الفقد، أمرنا النبي ﷺ بالنظر إلى من هو أسفل منا لئلا نزدري نعمة الله علينا فقال ﷺ: «إذا نظر أحدكم إلى من فضل عليه في المال والخلق فلينظر إلى من هو أسفل منه»[1].

ويقول في إحدى حكمه: «إنما جعلها محلاً للأغيار ومعدناً للأكدار تزهيداً لك فيها».

فالأكدار الدنيوية نعمة على العبد تجعله يكره الدنيا ويزهد فيها ويحس بقربه من الله عز وجل فيتجه بقلبه إلى الله طالباً رضاه وراجياً السعادة في الآخرة.

ولكن ضعف الإيمان يجعل النفس لا تصبر على البلاء مما جعل كثيراً من العلماء كالشيخ عبد القادر الجيلاني يقول في دعائه ونحن أولى أن ندعو بهذا: «اللهم لا تبتلينا، اللهم ارزقنا القرب منك بلا بلاء، اللهم قرباً ولطفاً، اللهم قرباً بلا بعد، لا طاقة لنا على البعد منك ولا على مقاساة البلاء فارزقنا القرب منك مع عدم نار الآفات، فإن كان ولابد من الآفات فاجعلنا فيها كالسمندل[2]. الذي يبيض ويفرخ في النار وهي لا تضره ولا تحرقه، اجعلها علينا كنار إبراهيم خليلك، أنبت حوالينا عشباً كما أنبت حواليه وأغننا عن جميع الأشياء كما أغنيته، وآنسنا وتولنا كما توليته، واحفظنا كما حفظته آمين»[3].

* * *

(1) البخاري في الرقاق، باب: لينظر إلى من هو أسفل منه (6009). ومسلم في الزهد والرقائق، (5263).

(2) السمندل: حيوان من رتبة البرمائيات، صغير الجسم غالباً يشبه العظاءة في شكلها العام. ويطلق على طائر بالهند لا يحترق بالنار فيما زعموا. المعجم الوسيط، ص: 469.

(3) الفتح الرباني، ص: 37.

الحكمة من الفاقة والغنى والفقر

يقول ابن عطاء الله: يا هادم الطاعات ما سلط الله عليك الفاقة إلا لترفع حالتك إليه ولتنجع[1] عليه.

ربما كان الغنى دفعاً والفقر جمعاً، لأن الفاقة تحوجب أن تتضرع إلى الله، وفاقة تجمعك على الله خير من غناء يقطعك عنه.

ربما قضى عليك بالذنب ليخرج منك الكبر والعجب.

وهذا تأكيد لما سبق من الحكمة في الابتلاءات.

الفاقة والفقر من نعم الله -كما مر- وإن كان ظاهرها مؤلماً بل هي من النعم الباطنة التي قال عنها سبحانه: ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾[لقمان: 20].

وإذا كان الفقر يجعل صاحبه يتضرع إلى الله ويلتجئ إليه فهو خير من غنى ينسيه ربه ويقطعه عنه.

ثم قال: «ربما كان الغنى دفعاً -عن الله- ، والفقر جمعاً -على الله- ».

فربما رزق الله العبد القليل الكافي ومنعه الكثير المطغي لمصلحته فإن المال يميل غالباً بالإنسان فيحيد بسببه عن الحق والصواب، قال تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾ [العلق: 6- 7]. أي عندما أصبح غنياً جاوز حدود الله في العصيان.

بل إن المال فتنة يصعب التخلص منها لقوله ﷺ: «لكل أمة فتنة وفتنة أمتي في المال»[2].

---

(1) نجع العقاب في المذنب: نفع وظهر أثره. المعجم الوسيط، ص: 940.

(2) الترمذي في الزهد، باب: ما جاء أن فتنة هذه الأمة في المال، رقم (2258) وقال: حسن صحيح غريب، إنما نعرفه من حديث معاوية بن صالح. وأحمد في مسند الشاميين، حديث كعب بن عياض، رقم (16826).

إذا فقر يجمعك على الله ويلجئك إليه خير من غنى يطغيك ويبعدك عن الله.

ثم إن الإنسان لا يعرف قدر النعم إلا عند فقدها وفي ذلك يقول ابن عطاء الله في إحدى حكمه: «من لم يعرف قدر النعم بوجدانها عرفها بوجود فقدانها».

ويقول ابن عطاء الله في إحدى حكمه: «من تمام النعمة عليك أن يرزقك ما يكفيك، ويمنعك ما يطغيك، ليقل ما تفرح به ويقل ما تحزن عليه».

ذلك أن التمشي مع مغريات الحياة يفتح الشهية للمزيد ويعلق القلب بمطامع تشغله عما يجب أن يخلص له.

وترضية النفس بمستوى من العيش يضمن الكفاية، وينفي الفضول، أعون شيء على رفع الجبهة، وتوفير العزة وإرضاء الله.

ونحن لا نحرم حلالاً، ولا نحجر واسعاً، وإنما نصف الطريق التي لابد من سلوكها لأصحاب الرسالات وحملة الدعوات فإنه لا يتفق طمع الدنيا وانتصار للمثل العليا[1].

ثم يقول ابن عطاء الله: «ربما قضى عليك بالذنب ليخرج منك الكبر والعجب».

فإن المذنب يشعر بالذل والانكسار فيهرب الكبر والعجب من نفسه، لذلك كانت المعصية التي توجب الانكسار، أفضل من الطاعة التي توجب الاستكبار.

وفي ذلك يقول ابن عطاء الله في إحدى حكمه: «معصية أورثت ذلاً وانكساراً خير من طاعة أورثت عزاً واستكباراً».

ويقول في حكمة أخرى: «وقضى عليك بالذنب فكان سبباً في الوصول».

* * *

(1) الجانب العاطفي من الإسلام، محمد الغزالي، ص: 145.

ربما كان موت الولد ليتفرغ القلب لعبادة ربه

يقول ابن عطاء الله: الأحمق من مات ولده وجعل يبكي عليه ولا يبكي على ما فاته من الله عز وجل !! فكأنه يقول بلسان حاله: أنا أبكي على ما كان يشغلني عن ربي، بل كان ينبغي له الفرح بذلك، ويقبل على مولاه لأنه أخذ منه ما كان يشغله عنه، وقبيح بك أن تشيب وأنت طفل العقل صغيره، ولا تفهم مراد الله منك، فإن كنت عاقلاً فابك على نفسك قبل أن يُبكى عليك، فإن الولد والزوجة والخادم والصديق لا يبكون عليك إذا مت، بل يبكون على ما فاتهم منك، فسابقهم أنت بالبكاء، وقل: يحق لي أن أبكي على فوات حظي من ربي قبل أن يبكوا علي.

وهنا يذكر ابن عطاء الله الحكمة من الابتلاء بموت الولد، إذ قد يكون القلب قد شغل بحب الولد حتى أنساه ربه عز وجل. والأعمار مقدرة فإذا مات الولد تفرغ القلب لعبادة ربه فتنقلب النقمة إلى نعمة والابتلاء إلى رحمة!!

فينبغي لمن أصيب بفقد ولده أن يفرح بدل أن يحزن. ويقبل على ربه لأنه أخذ منه ما كان يشغله عنه، وعندما ابتلى سيدنا إبراهيم الخليل عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام بذبح ولده وفلذة كبده سيدنا إسماعيل الذي رزقه الله إياه بعد أن كبرت سنه، إنما أراد الله أنه يعلم هل شُغل إبراهيم عليه السلام بهذا الولد عن ربه أم أنه بقي محافظاً على الخلة بينه وبينه سبحانه وتعالى، فلما علم الله صدق إبراهيم في عبادته وعدم انشغال قلبه عنه سبحانه، عندئذٍ فُدي إسماعيل بذبح عظيم. قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعۡىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلۡمَنَامِ أَنِّىٓ أَذۡبَحُكَ فَٱنظُرۡ مَاذَا تَرَىٰۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّآ أَسۡلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلۡجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَٰدَيۡنَٰهُ أَن يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدۡ صَدَّقۡتَ ٱلرُّءۡيَآۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِى ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡبَلَٰٓؤُاْ ٱلۡمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيۡنَٰهُ بِذِبۡحٍ عَظِيمٖ ﴾ [الصافات: 102- 107].

فإن كنت عاقلاً فابك على نفسك وعلى عمرك الذي ضاع بالغفلة عن الله سبحانه قبل أن يبكوا عليك عند موتك، وماذا يفيد البكاء عندئذٍ، لا يفيدك إلا ما قدمت من عمل صالح ينفعك في قبرك ويوم الحساب !؟. وبذلك ننهي الكلام عن الحكمة من الابتلاءات في هذه الدنيا.

* * *

إنفاق المال أم إنفاق الدمع؟

يقول ابن عطاء الله: كثير من أنفق الدنانير والدراهم ولكن من أنفق الدمع[1] قليل.

الناس يتباهون ويتنافسون في متع الدنيا وإنفاق المال، ولكنهم لا يتنافسون أبداً بالسير إلى الله وبالبكاء خوفاً منه سبحانه وشوقاً إليه، إنهم مشغولون بالدنيا مع أنها ملعونة كما قال ﷺ: «الدنيا ملعونة، ملعون ما فيها إلا ذكر الله»[2].

إن من استولت على قلبه الذنوب والمعاصي يثمر ذلك جمود العين، فعين العاصي لا تسكب الدمع لأنها بعيدة كل البعد عن الشعور بعظمة الله والخوف منه.

إننا نعيش في عصر جعل قلوبنا قاسية وأعيننا جامدة، كل ما حولنا يجعلنا قساة القلوب، قل التراحم بين الناس وكثر الحقد والحسد، وملئت أفئدتنا وعيوننا بالنظر إلى الحرام، والاستماع إلى الحرام، نأكل وننام ولا نفطن أن نقوم الليل ولو بركعتين، أو نناجي الله عند السحر !!.

ألا تريد أن تكون ممن يظلهم الله بظله يوم لا ظل إلا ظله، قال ﷺ: «سبعة يظلهم الله بظله يوم لا ظل إلا ظله ومنهم: رجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه. . . »[3].

إنه رجل خلا بنفسه وتفكر في حاله مع ربه، فشعر بالتقصير وقلة الشكر على نعم الله، وأحس برحمة الله تغمره وإنعامه يعمه وعقد العزم على التوبة من كل ذلك، وعلى السير بجد على صراط الله المستقيم فما أحس إلا وعيناه قد هطلتا بالدموع.

---

(1) في المطبوع: الروح.

(2) الترمذي في الزهد، رقم (2244) وقال: حديث حسن غريب. وابن ماجه في الزهد، باب: مثل الدنيا، رقم (4102).

(3) البخاري، الجماعة والإمامة، باب: من جلس في المسجد ينتظر الصلاة، رقم (629).

ورجل آخر خلا بنفسه فامتلأ قلبه بالخشية من ربه والخوف من عقابه ففاضت عيناه، قال ﷺ: «عينان لا تمسهما النار عين بكت من خشية الله وعين باتت تحرس في سبيل الله»[1].

* * *

(1) الترمذي في فضائل الجهاد، باب: ما جاء في فضل الحرب في سبيل الله، رقم (1563). وقال: حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث شعيب بن زريق.

الأخلاء الثلاثة

يقول ابن عطاء الله: واعلم أن لك ثلاثة أخلاء:

أحدها: المال تفقده عند الموت.

والثاني: العيال يتركونك عند القبر.

والثالث: عملك لا يفارقك أبداً.

فاصحب من يدخل معك قبرك، وتأنس به، فالعاقل من عقل من الله أوامره ونواهيه.

يقول ﷺ : «يتبع الميت ثلاثة: أهله وماله وعمله، فيرجع اثنان ويبقى واحد: يرجع أهله وماله، ويبقى عمله»(1).

فإياك أن يقل عملك وتشغل بزوجتك وأولادك ومالك إذ من شأن الزوجة والأولاد والمال أن يتركوك عند الموت وتبقى أنت مرهوناً بعملك تحاسب عليه في قبرك ويوم القيامة.

إن المال فتنة فاحذر هذه الفتنة أن تنسيك الآخرة، وإن الزوجة والأولاد فتنة كما قال سبحانه: ﴿إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ﴾[التغابن: 14].

فاحذر أن تنسيك هذه الفتنة القبر وسؤال الملكين. واحرص على العمل الصالح الذي ترضي به ربك ومولاك في الدنيا ويكون أنيسك في قبرك ويوم القيامة. وإليك الحديث الآتي الذي يبين أن العمل الصالح وحده هو الذي يدفع عنك العذاب من قبرك ولا يفيدك في تلك الساعة ملايين الليرات ولا تؤنسك الزوجة ولا أحد من أولادك. فيقول ﷺ من حديث أبي هريرة: «إن الميت إذا وضع في قبره وإنه يسمع قرع نعالهم حين يُولون مدبرين، فإن كان مؤمناً كانت الصلاة عند رأسه، وكان الصيام عن يمينه، وكانت الزكاة عن شماله، وكان فعل

---

(1) البخاري في الرقاق، باب: سكرات الموت، رقم (6033). ومسلم في الزهد والرقائق (5260).

الخيرات من الصدقة والصلاة والمعروف والإحسان إلى الناس عند رجليه فيـؤتى[1]. مـن قبـل رأسه فتقول الصلاة: ما قبلي مدخل.

ثم يؤتى عن يمينه فيقول الصيام: ما قبلي مدخل.

ثم يؤتى عن يساره فتقول الزكاة: ما قبلي مدخل.

ثم يؤتى من قبل رجليه فيقول فعل الخيرات من الصدقة والأمر بالمعروف والإحسان إلى الناس: ما قبلي مدخل. فيُقال: اجلس فيجلس قد مثلت له الشمس وقد دنت للغروب، فيُقال له: أرأيتك هذا الذي كان قبلكم ما تقول فيه وماذا تشهد عليه، فيقول: دعـوني حتـى أصـلي، فيقولون: إنك ستفعل»[2].

فمن قصر في صلاته أو تهاون فيهـا أو أسرع في أدائهـا أو لم يخلـص لله فيهـا فإنهـا تغـدو جندياً ضعيفاً لا يقوى على رد العذاب عن الجسد، وهكذا يقال في باقي الأعمال.

* * *

(1) أي: يأتيه العذاب.

(2) ابن حبان في صحيحه، فصل: في أحوال الميت في قبره، رقـم (3113): 7/ 381، والمسـتدرك للحـاكم، رقم (1403): 1/ 535.

الاستقامة

أفضل ما يطلب العبد من الله أن يكون مستقيماً معه، قال الله تعالى: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ [الفاتحة: 6] فاطلب منه الهداية والاستقامة، وهو أن تكون مع الله في كل حال بالذي يرضاه لك، وهو ما جاء به النبي ﷺ عن الله سبحانه.

الاستقامة هي: درجة بها كمال الأمور وتمامها، وبوجودها حصول الخيرات، ومن لم يكن مستقيماً في حالته ضاع سعيه وخاب جهده.

قال الله تعالى: ﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَـٰثًا ﴾[النحل: 92) وقد حثنا الباري سبحانه على الاستقامة بقوله تعالى: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾[1][الفاتحة: 6].

أي وفقنا للسلوك على الصراط المستقيم، الذي هدانا إليه رسولك سيدنا محمد ﷺ، ودعانا إليه حيث قلت في كتابك مخاطباً له: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَـٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَـٰنُ وَلَـٰكِن جَعَلْنَـٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ﴾ [الشورى :52-53] وقلت: ﴿ وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾[المؤمنون: 73].

والصراط هنا هو دين الإسلام بدليل قوله ﷺ: «ضرب الله تعالى مثلاً، صراطاً مستقيماً... ثم قال: فالصراط الإسلام»[2].

ومن الآيات التي تحث على الاستقامة قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ [فصلت:30].

---

(1) الرسالة القشيرية ص: 205.

(2) الترمذي في الأمثال عن رسول الله، باب: ما جاء في مثل الله لعباده، رقم (2786) وقال: حديث حسن غريب. وأحمد في مسند الشاميين، حديث النواس بن سمعان، رقم (16976). انظر: حول تفسير سورة الفاتحة، عبد الله سراج الدين، ص: 111.

وأكد هذا الأمر قوله ﷺ: «استقيموا ولن تحصلوا واعلموا أن خير دينكم الصلاة، ولن يحافظ على الوضوء إلا مؤمن»[1]. ومعنى قوله لن تحصوا: أي أن الاستقامة على الدين من الصعوبة بمكان لأنها الخروج عن المعهودات، ومفارقة العادات، والقيام بين يدي الله تعالى على حقيقة الصدق.

فالاستقامة هي الثبات على المنهج الذي أمرنا الله باتباعه والذي جاء به النبي ﷺ عن الله سبحانه.

ومن نتائج الاستقامة دوام الرزق والكرامة من الله تعالى، قال سبحانه: ﴿وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُم مَّاءً غَدَقًا﴾[الجن: 16]. ولم يقل سقيناهم فهو يشير إلى الدوام.

وليست الكرامة شرطاً لوجود الاستقامة، إذ يقول ابن عطاء الله في إحدى حكمه: «ربما رزق الكرامة من لم تكمل له الاستقامة».

إذ قد تظهر الخوارق على يد الفاسق والعاصي كالسحرة والكهان وهذا استدراج وليس كرامة.

إن الكرامة كرامتان كرامة الإيمان وكرامة العمل على الاقتداء والمتابعة لما جاء به النبي ﷺ عن ربه.

والخلاصة: الاستقامة هي أن تكون مع الله في كل أحوالك في السراء والضراء وفي القبض والبسط راضياً عنه في تدبيره، مستعيناً به وحده وخائفاً منه تاركاً كل شيء سواه.

* * *

---

(1) ابن ماجه في الطهارة، باب: المحافظة على الوضوء، رقم (273). وأحمد، باقي مسند الأنصار، ومن حديث ثوبان، رقم (21344). ومالك في الطهارة، باب: أن رسول الله ﷺ قال: استقيموا ولن تحصوا، رقم (66): 1/ 43.

السالك والمجذوب

يقول ابن عطاء الله: مثال السالك كمن يحفر على الماء قليلاً حتى يجد الثقب، فينبع له الماء بعد الطلب. ومثال المجذوب كمن أراد الماء فأمطرت سحابة، فأخذ منها ما يحتاج إليه من غير تعب.

يمكن أن يرقى الإنسان من وحدة الضياع والضلال إلى صعيد الهداية ومعرفة الله من خلال طريقين لا ثالث لهما [1]:

أحدهما: يتجه الإنسان إلى الله، وهو طريق طويل وشاق، يبدؤه الإنسان بغرس حقائق الإيمان وأركانه في عقله، ثم يوجه قلبه إلى محبة الله وتعظيمه والخوف منه، ثم يقبل إلى أوامر الله عز وجل فيأتمر بها، وينتهي عن المنكرات التي حذر منها، ويستعين على ذلك بالأكثار من ذكر الله والإكثار من تلاوة القرآن. والنتيجة التي ينتهي إليها سالك هذا الطريق هي تضاؤل الدنيا شيئاً فشيئاً في نفسه وفؤاده، فيهتم لما هو مقبل إليه أكثر من اهتمامه للدنيا التي يعبرها ويمر بها.

وهذا الطريق يسمى طريق الهداية والإنابة وصاحبه يسمى «سالكاً».

ثانيهما: طريق يتجه به الله إلى العبد.. ويسمى طريق الاجتباء أو «الجذب» يكون الإنسان مستغرقاً في شروده وبعده عن الله منصرفاً إلى أهوائه ورغباته الدنيوية، وفجأة تدركه رحمة من الله تعالى لسبب من الأسباب التي قد لا يعلمها إلا الله، ويتجلى الله عليه تجلي لطف وإيقاظ، فيجذبه إليه، ويسمو به إلى صعيد معرفته فحبه وتعظيمه وقد تم ذلك كله في لحظة واحدة.

ويعبر البيان الإلهي عن هذين الطريقين للخروج من التيه والضلال، إلى الهداية والرشد بقوله عز وجل: ﴿ٱللَّهُ يَجۡتَبِيٓ إِلَيۡهِ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ مَن يُنِيبُ﴾[الشورى: 13].

---

(1) الحكم العطائية، شرح وتحليل د. محمد سعيد رمضان البوطي، ص: 122. وما بعدها.

وهذا يدل على أن الإنسان ليس له أي دور في اختيار هـذا الطريـق، وإنـما هـو خصيصـة واصطفاء من الله لمن يشاء. والطريق الثاني الذي سماه الله طريق الإنابة والهداية هو الذي أناطه الله بسلوك الناس واختيارهم، وتأتي الهداية في أعقاب ذلك ثمرة لجهادهم وجهودهم.

وفي التاريخ الإسلامي كثير ممن جذبهم الله بنقلة واحدة من التيه إلى الرشد، في أصـحاب رسول الله ﷺ منهم كثير. . يفد الأعرابي الجلف من البادية إلى المدينة، فما تكـاد عينـاه تبصرـان رسول الله، وما تكاد أذناه تسمعان شيئاً من نصائحه وحديثه، حتى يتحول وهو في مجلسه ذاك من حال إلى أخرى، لا يخرج إلا وقد عزفت نفسه عن الدنيا، وفاض قلبه حباً ومهابـة لله عـز وجل.

وفي الناس الذين جاؤوا من بعد، من اجتذبهم الله إليه عن طريق الاجتبـاء فـانتقلوا مـن الانحراف الشديد إلى الاستقامة التامة طفرة ودون توقع منهم الفضيل بن عياض الذي تحـول خلال دقائق في جوف ليل مظلم من فتاك قاطع طريق إلى متنسك رباني فرغ قلبه من كل شيء إلا من تعظيم الله وحبه والخوف منه. ومنهم عبد الله بن المبـارك الـذي كـان مولعـاً بـالطرب والسماع والعزف على الأوتار بعيداً عن الالتفات إلى أوامر الله وحقوقه، فما هو إلا أن تحـول في سواد ليلة واحدة إلى نموذج عجيب نادر للعالم الرباني الذي جعل دنياه كلهـا فـداء لرضـا الله عنه وسبيلاً لقربه وقصة أكثر الفنانين والفنانات الذين تحولوا واللاتي تحولن إلى طريق جديـدة من الحب، ولكنه حب الله وإلى جاذب جديد من الشوق ولكنه الشـوق إلى الله، بـل إلى سـكر جديد من العشق ولكنه عشق الذات الإلهية.

* * *

الإخلاص في العمل وذم الرياء فيه

يقول ابن عطاء الله: من هيت له المنازل لم يرض له بالقعود على المزابل، فاعمل الأعمال الصالحات بينك وبين الله سراً. ولا تطلع عليه أهلك، واجعله مدخراً عند الله تجده يوم القيامة، فإن النفس لها تمتع بذكر العمل. صام بعضهم أربعين سنة ولم يعلم به أهله.

هذه صفاوة العمر وغربلته. يأمن لا يأكل الحنطة إلا مغربلة لابد لك أن تغربل عملك فلا يبقى لك إلا ما أخلصت فيه، وما عدا ذلك يُرمى.

هذا هو العيش وما أطيب عيش المحب مع الحبيب إذا لم يطلع عليه رقيب، فإن أحب أن يطلع عليه رقيب فما صدق في حبه، وكل من أراد أن يُعلم أحدٌ بحاله فقد خدع.

أفتصلح ظاهرك وتفسد باطنك، فمثالك كالمجذوم لبس ثياباً جديدة، ويخرج منه في الباطن القيح والصديد، فأنت تصلح ما ينظر إليه الناس، ولا تصلح قلبك الذي هو لربك؟.

الإخلاص روح الدين ولباب العبادة وأساس أي داع إلى الله، فما هو الإخلاص؟ إنه: إفراد الحق سبحانه في الطاعة بالقصد، وهو أن يريد بطاعته التقرب إلى الله تعالى دون شيء آخر من تصنع لمخلوق أو اكتساب محمدة عند الناس أو محبة مدح لمخلوق أو معنى من المعاني سوى التقرب إلى الله تعالى[1].

هذا المعنى ورد في قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ ﴾[الأنعام: 162 – 163].

والإخلاص من ثمار التوحيد الذي يعني: إفراد الله عز وجل بالعبادة والاستعانة، هذا المعنى الذي يعبر عنه الباري سبحانه بقوله﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾[الفاتحة: 5].

---

(1) الرسالة القشيرية، ص 207.

هذه الآية التي جعلها الإمام الهروي محور رسالته: «منازل السائرين إلى مقامات إياك نعبد وإياك نستعين» والتي شرحها ابن القيم في «مدارج السالكين».

إن العمل للناس هو الرياء، وهو عكس الإخلاص وهو من معاصي القلوب الخطيرة على القلب والعمل ومن الكبائر الموبقة، لذلك كان التهديد والوعيد له شديداً في القرآن والسنة.

فالذي ينفق ماله رئاء الناس ذهب عمله هباء وله عذاب شديد يوم القيامة قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبۡطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلۡمَنِّ وَٱلۡأَذَىٰ كَٱلَّذِي يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفۡوَانٍ عَلَيۡهِ تُرَابٞ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٞ فَتَرَكَهُۥ صَلۡدٗاۖ لَّا يَقۡدِرُونَ عَلَىٰ شَيۡءٖ مِّمَّا كَسَبُواْۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾[البقرة: 264].

هذا إنفاق الكافرين، وحتى خروجهم للقتال والغزو كان رياء، قال تعالى: ﴿ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بَطَرٗا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ﴾ [الأنفال: 47] أما المنافقون فصلاتهم أيضًا رئاء الناس، قال سبحانه : ﴿ إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمۡ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلٗا ﴾[النساء: 142].

وتوعد الله بالويل للمرائين بصلاتهم فقال عز وجل: ﴿ فَوَيۡلٞ لِّلۡمُصَلِّينَ ٤ ٱلَّذِينَ هُمۡ عَن صَلَاتِهِمۡ سَاهُونَ ٥ ٱلَّذِينَ هُمۡ يُرَآءُونَ ٦ وَيَمۡنَعُونَ ٱلۡمَاعُونَ ﴾[الماعون: 4 – 7].

إذاً الرياء بالعمل صفة الكافرين والمنافقين.

وأما الأحاديث في الترهيب من الرياء فكثيرة أكتفي بما يأتي: عن أبي هريرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن أول الناس يقضى يوم القيامة عليه رجل استشهد، فأتي به، فعرَّفه نعمته فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: قاتلت فيك حتى استشهدت. قال: كذبت ولكنك قاتلت لأن يُقال جريءٌ فقد قيل ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار. ورجل تعلم العلم وعلمه وقرأ القرآن فأتي به فعرَّفه نعمه فعرفها قال: فما عملت فيها، قال: تعلمت العلم

وعلمته وقرأت فيك القرآن، قال: كذب ولكنك تعلمت العلم ليُقال عالم وقرأت القرآن ليُقال هو قارئ فقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار.. »(1).

وعن أبي بن كعب قال، قال رسول الله ﷺ: «بشر هذه الأمة بالسناء والرفعة بالدين والتمكن في الأرض، فمن عمل منهم عمل الآخرة للدنيا لم يكن له في الآخرة من نصيب»(2).

وعن محمود بن لبيد قال: خرج النبي عليه الصلاة والسلام فقال: «يا أيها الناس، إياكم وشرك السرائر. قالوا: يا رسول الله، وما شرك السرائر؟. قال: «يقوم الرجل فيصلي فيزين صلاته جاهداً لما يرى من نظر الناس إليه، فذلك شرك السرائر»(3).

وعن جندب بن عطاء الله رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: «من سمَّع سمَّع الله به، ومن يراء يراء الله به» (4).

ومنه يتبين أن كتم العمل أفضل من إظهاره، هذا بالنسبة إلى النوافل والتطوعات، أما الفرائض والأركان فهذه يجب إظهارها تعظيماً لشعائر الإسلام وإبرازاً لقوة المسلمين وتمسكهم بدينهم، ومنعاً للتهمة.

---

(1) مسلم في الإمارة، باب: من قاتل للرياء والسمعة استحق النار، رقم (3527).

(2) أحمد، مسند الأنصار، حديث أبي العالية الرياحي، رقم (20273). وابن حبان، باب: ذكر وصف إشراك المرء بالله جل وعلا في عمله، رقم (405): 2/ 132.

(3) ابن خزيمة في صحيحه، كتاب: الصلاة، باب: التغليظ في المراءاة بتزيين الصلاة وتحسينها، رقم (937): 2/ 67. وابن أبي شيبة في الصلاة، باب: الرجل يحسن صلاته حيث يراه الناس، رقم (8403): 2/ 227.

(4) البخاري في الرقاق، باب: الرياء والسمعة، رقم (6134): 4/ 2250. ومسلم في الزهد والرقائق، باب: من أشرك في عمله غير الله، رقم (2986): 4/ 2289.

وانظر إلى أمثلة الرياء في الأعمال، يقول الشيخ محمد الغزالي رحمه الله: «في إحدى قرى الريف لوحظ أن إمام المسجد كان يصلي المغرب بآيتين من أواخر السور، فإذا حضر العمدة الصلاة كان هذا الإمام يتحرى أن يصلي المغرب بسورتين كاملتين يجود قراءتهما في الركعتين الجهرتين، ولا شك أن هذا هو الرياء المحبط للأعمال.

ودلالته الصارخة أن الرجل يصطنع من أجل الناس صلاة أطول وأجود. وأن الأمر لو وكل إلى صلته الخاصة بالله، لكانت الصلاة أقل وزناً !!.

ومن يدري لعله لولا ضرورات العيش ما صلى قط. . . إن الداعية المرائي يقترف جريمة مزدوجة» [1].

من أجل هذا كان المخلصون قليلين، لأن أكثر الناس يحبون ظهور عبادتهم.

إن من يقصد رؤية الخلق بعمله، فقد مضى العمل ضائعاً، لأنه غير مقبول عند الخالق، ولا عند الخلق، لأن قلوبهم قد التفتت عنه، فقد ضاع العمل، وذهب العمر.

فعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لو أن أحدكم يعمل في صخرة صماء ليس لها باب، ولا كوة لخرج للناس كائناً ما كان» [2]. فليتق الله العبد وليقصد من ينفعه فصده، ولا يتشاغل بمدح من عن قليلٍ بلي هو وهم.

إذاً ليس من السهل أن يكون العبد مخلصاً، لأن الإخلاص يتطلب استحضار النية وتحريرها من الشوائب وخاصة حظوظ النفس وهذا أمر صعب لذلك اشترط القرآن على المنافق حتى ينضم إلى قافلة المؤمنين: التوبة والإصلاح والاعتصام بالله والإخلاص لدين الله فقال الباري سبحانه: ﴿ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾ إِلَّا

---

(1) مع الله، محمد الغزالي، ص: 196.

(2) أحمد باقي مسند المكثرين، مسند أبي سعيد الخدري، رقم (10798). والحاكم في المستدرك، رقم (7877): 4/ 349. وقال: صحيح الإسناد. وابن حبان، رقم (5678): 12/ 491.

ﭐلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصۡلَحُواْ وَٱعۡتَصَمُواْ بِٱللَّهِ وَأَخۡلَصُواْ دِينَهُمۡ لِلَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ ﴾ [النساء: 145 – 146].

وأكثر من يطلب منهم الإخلاص هم العلماء والدعاة إلى الله سبحانه، ولنستمع لما يقوله الإمام الغزالي رحمه الله في ذلك: «وأشد الخلق تعرضاً لهذه الفتنة العلماء، فإن الباعث للأكثرين على نشر العلم لذة الاستيلاء والفرح بالاستتباع، والاستبشار بالحمد والثناء، والشيطان يلبس عليهم ذلك، ويقول: غرضكم نشر دين الله، والنضال عن الشرع الذي شرعه رسول الله ﷺ، وترى الواعظ يمن على الله بنصيحة الخلق، ووعظه للسلاطين، ويفرح بقبول الناس قوله وإقبالهم عليه، وهو يدعي أنه يفرح بما يسر له من نصرة الدين، ولو ظهر من أقرانه من هو أحسن منه وعظاً، وانصرف الناس عنه وأقبلوا عليه ساءه ذلك وغمه، ولو كان باعثه الدين لشكر الله تعالى، إذ كفاه الله تعالى هذا المهم بغيره، ثم الشيطان مع ذلك لا يخليه، ويقول: إنما غمك لانقطاع الثواب عنك لا لانصراف وجوه الناس عنك إلى غيرك، إذ لو اتعظوا بقولك كنت أنت المثاب، واغتمامك لفوات الثواب محمود، ولا يدري المسكين أن انقياده للحق، وتسليمه الأمر أفضل وأجزل ثواباً، وأعود عليه في الآخرة من انفراده»[1].

وما ذكره الغزالي أشار إليه ابن عطاء الله في إحدى حكمه التي يقول فيها: «ربما دخل الرياء عليك من حيث لا ينظر الخلق إليك «فالرياء يكون بمرآى من الناس ظاهراً، وهذا أي: الرياء الباطن حيث لا ينظر الخلق إليك لا يحتاج إلى أمارة عليه، بل هو أخفى من دبيب النمل، ومن أماراته: أن يلتمس بقلبه توقير الناس له وتعظيمه وتقديمه في المجالس، ومسارعتهم لقضاء حوائجه، وإذا حضر أحدهم في حقه الذي يستحق عند نفسه استبعد منه ذلك واستنكر»[2].

---

(1) إحياء علوم الدين، الغزالي: 5/ 28.

(2) غيث المواهب العلية، الرندي: 2/ 13.

ويقول ابن عطاء الله في حكمة أخرى «إن الله لا يحب العمل المشترك، ولا القلب المشترك، فالعمل المشترك هو لا يقبله، والقلب المشترك هو لا يقبل عليه».

ويقول في حكمة أخرى: «الأعمال صورة قائمة وأرواحها سر الإخلاص فيها».

فالعمل الخالي من الإخلاص جسد بلا روح لا عبرة به، وروحه وجود الإخلاص فيه، قال تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ﴾[البينة: 5].

وقال سبحانه: ﴿فَٱعۡبُدِ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾[الزمر: 2].

* * *

مثال الحكمة كالقيد

الحكمة كالقيد، إن قيدت بها نفسك امتنعت، وإن رميتها تسيبت ويخاف عليك، مثال ذلك: كالمجنون في بيتك، يخربه ويقطع الثياب، فإذا قيدته استرحت منه، وإذا طرحت القيد وخرجت فالضرر باق.

الحكمة هي: ما تمنع من الجهل وسوء التصرف والاتقان في الأعمال. وهي مجموعة من الفضائل وتجعل صاحبها يضع كل شيء في محله. بحيث يفعل ما ينبغي في الوقت الذي ينبغي وعلى الشكل الذي ينبغي. إن الحكمة تقيد النفس الهوجاء من أن تقع في محظور أو تصرف مشين، إن من رزقه الله الحكمة في التصرف يشيع الخير منه للجميع فهو في تصرفاته يقضي بها، ويعمل بموجبها، ثم يعلمها غيره ليكثر في الناس أمثاله. وصدق الله تعالى حين قال: ﴿يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ﴾ [البقرة: 269]. وقال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ۚ﴾ [لقمان: 12].

إن الحكمة دائماً ما تترافق مع الأخلاق الحميدة والطاعة لله عز وجل، على عكس فاقد الحكمة فإن شره أكثر من خيره، لأنه يوقع نفسه في تصرفات هوجاء لا يحسب لنتائجها حساباً وربما عصى الله وتجرأ عليه وهو يحسب أنه يحسن صنعاً، فهذا مثاله كالمجنون في البيت، إذا قيدته استرحت من جنونه وضرره، وإذا تركته خرب البيت ومزق الثياب.

خذ مثلاً حالة الغضب، إنها حالة هيجان النفس وثوراتها، فتحمر العيون وتنتفخ الأوداج ويجد الشيطان الفرصة لوسوسته، فترى الغاضب يحطم ويسب ويشتم حتى أبويه، وربما قتل نفساً بريئة لذلك قال ﷺ: «ليس الشديد بالصرعة إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب»[1].

---

(1) البخاري في الأدب، باب: الحذر من الغضب، رقم (5649). ومسلم في البر والصلة والآداب، باب: فضل من يملك نفسه عند الغضب، رقم (4723).

وخذ مثلاً التكلم بكلمات لا يلقي المسلم لها بالاً لكنها تضره ضرراً عظيماً في دينه، هذا ما حذرنا منه المصطفى ﷺ: فعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إن العبد ليتكلم بالكلمة من رضوان الله لا يلقي لها بالاً يرفعه الله بها درجات. وإن العبد ليتكلم بالكلمة من سخط الله لا يلقي لها بالاً يهوي بها في جهنم»(1).

وكمثال على الكلمة الأولى: من يُذكر ذا سعة ومال بمعوز ذي فاقة، فتكون كلمة التذكير سبباً لإغاثة ذلك المعسر.

وربما فاه شاهد صدق بكلمة حق لا يتوقع لها كبير نفع، وإذا بها تكشف اللثام عن براءة متهم وإنصاف مظلوم، ونجاتهما من مهلكة.

وأما الكلمة الثانية: فهذا رجل يدخل بيته متعباً، فيجد أولاده في المنزل في هرج وصخب، وإذا به يثير النزاع شديداً مع زوجته المسكينة، فيُفسد تربية الأولاد بهذا الصنع القبيح. ثم أقبح منه أن يؤدي به تبرمه وانزعاجه من صخب الأولاد أن يقسم يمين الطلاق، بزعم أنها مقصرة في المحافظة على هدوء البيت، فيخرب بيته بيده، ويبوء بغضب الله، لأنه ملعون من حلف بالطلاق.

وهذا رجل يطلق لسانه بالكذب والافتراء أو يستفزه الغضب فيسب الدين ليكون مثلاً في القحة وإساءة الأدب، وليخسر دنياه وأخراه(2).

* * *

---

(1) البخاري في كتاب: الرقاق، باب: حفظ اللسان، رقم (5997). ومسلم، كتاب: الزهد، باب: قلة الكلام، رقم (2241).

(2) في ظلال الحديث النبوي د. نور الدين عتر، ص: 298 – 300.

عقل الإنسان لأي شيء يُستعمل

أول ما ينبغي لك أن تبكي على عقلك، فكما يقع القحط في الكلأ يقع في عقول الرجـال، وبالعقل عاش الناس مع الناس، ومع الله تعالى. مـع النـاس بحسـن الخلـق، ومـع الله باتبـاع مرضاته.

العقل يطلق على معنيين [1].

أحدهما: أنه يُطلق ويُراد به العلم بحقائق الأمور، فيكون عبارة عـن صـفة العلـم الـذي محله القلب.

والثاني: أنه يراد به المدرك للعلوم، فيكون القلب تلك اللطيفة التي هي مركز العواطـف من حب وخوف وتعظيم.

العقل سمي بذلك لأنه يمسك صاحبه عن الوقوع في الأمور السيئة التي تضره، مـأخوذ من عقال البعير وهو الحبل الذي يُربط رأس البعير به ويُتحكم به، ولو ترك البعـير دون عقـل لشرد وآذى الناس في أرواحهم وأرزاقهم.

وبالعقل يكون التفكير والاستدلال وبه يتميز الحسن من القبيح، والخير من الشر والحـق من الباطل.

والعاقل مع الناس يُعرف بحسن خلقه متأسـياً بـذلك برسـول الله ﷺ الـذي وصـفه الله سبحانه بقوله: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾[القلم: 4].

وبقوله: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ ۖ ﴾ [آل عمران: 159].

(1) إحياء علوم الدين، الغزالي: 3/ 6.

وبحسن الخلق تنال محبة رسول الله ﷺ وقرب مجلسك منه ﷺ يوم القيامة، قال ﷺ: «إن أحبكم إلي وأقربكم مني مجلساً يوم القيامة أحاسنكم أخلاقاً الموطؤون أكنافاً[1]. الذين يألفون ويُؤلفون»[2].

إذاً بالعقل عاش الناس مع الناس بحسن الخلق، ومع الله تعالى باتباع مرضاته، فبالعقل تميز الحق من الباطل فإن وقفت على مفترق طرق ونظرت فإذا أغلبها يؤدي بك إلى معصية الله وواحد منها نهايته مرضاة الله وجب أن يدلك عقلك على هذا الطريق وترك ما سواء، قال تعالى: ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾ [البلد: 10] أي طريق الخير والشر. وقال سبحانه: ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾[الإنسان: 3].

يقول الإمام الغزالي –رحمه الله– : «مثل العقل مثل فارس متصيد وشهوته كفرسه وغضبه ككلبه، فمتى كان الفارس حاذقاً وفرسه مروضاً وكلبه مؤدباً معلماً كان جديراً بالنجاح، ومتى كان هو في نفسه أخرق وكان الفرس جموحاً والكلب عقوراً فلا فرس ينبعث تحته منقاداً ولا كلبه يسترسل بإشارته مطيعاً فهو خليق بأن يعطب فضلاً عن أن ينال ما طلب، وإنما خرق الفارس مثل جهل الإنسان وقلة حكمته وكلال بصيرته، وجماح الفرس مثل غلبة الشهوة خصوصاً شهوة البطن والفرج، وعقر الكلب مثل غلبة الغضب واستيلائه. نسأل الله حسن التوفيق بلطفه»[3].

* * *

(1) الموطؤون أكنافاً: المتواضعون.

(2) الطبراني في الأوسط، رقم (7697): 7/ 350. وضعفه في مجمع الزوائد وقال: فيه صالح بن بشير وهو ضعيف: 8/ 21.

(3) الإحياء: 3/ 11.

مثالك في صغر عقلك كالمولود

ما مثالك في صغر عقلك، وكونك لا تعلم ما عليك من الملابس، إلا كـالمولود تكسـوه أمه أحسن الملابس، وأفخرها، وهو لا يشعر وربما دنسها ونجسها، فتسرع إليه أمـه وتكسـوه أخرى، لئلا يراه الناس كذلك وتغسل ما تنجس، وهو لا يعلم ما فُعل به لصغر عقله.

هذا مثال من ينسى ما أنعم الله عليه إنه صغير العقل كالطفل لا يـدري مـاذا يجـري مـن حوله.

إن الله وهبنا العقل وميزنا به عن سـائر المخلوقـات لنسـتعمله في التعـرف عـلى الخـالق سبحانه، فننتقل به من المكونات إلى المكون عز وجل. هذه الحقيقة يؤكد عليها القرآن، فيقـول سـبحانه: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [آل عمران: 190].

وقال سبحانه: ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ﴾[المؤمنون: 115 – 116].

وهبنا الله العقل لنحس ونشعر بعظمة النعم التي أسداها الله إلينا فنعلم مدى رحمته بنـا. وعندما ننظر حولنا فلا نرى غير النعم التي لا تُعد ولا تحصى يمتلئ القلب بمحبـة المـنعم عـز وجل، إذ النفوس جُبلت على حب من أحسن إليها لذلك قال ﷺ: «أحبوا الله لما يغذوكم مـن نعمه وأحبوني بحب الله وأحبوا أهل بيتي بحبي»(1).

هذا هو منهج المسلم في تعامله مع الله سبحانه، لكن الإنسـان الظـالم لنفسـه دنـس هـذه الأرض الطاهرة بالمعاصي والذنوب. فاستحق غضب الله عليه وعقابـه لـه، لكـن الله الـرحيم بعباده ستر على الإنسان معصيته وقبل توبته حتى لا يفضحه أمام الخلق.

---

(1) الترمذي في المناقب، باب: مناقب أهل البيت النبي، رقم (3722). وقـال: حـديث حسـن غريـب إنـما نعرفه من هذا الوجه.

هذا هو الله الخالق المنعم الرحيم بنا، وهذا الإنسان القاسي القلب الذي عامله مولاه بالوفاء فعامله بالجفاء وكان الأولى أن يعامله بالإحسان كما قال سبحانه: ﴿ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴾[الرحمن: 60].

وما مثال العبد مع الله إلا كالأم مع ولدها فالولد تكسوه أمه أحسن الملابس وأفخرها وهو يدنسها وينجسها فتعود لتكسوه أخرى وتغسل عنه ما تنجس تبتغي بذلك المحافظة على نظافته وإظهاره بالمظهر الحسن أمام وأفخرها وهو يدنسها وينجسها فتعود لتكسوها أخرى وتغسل عنه ما تنجس تبتغي بذلك المحافظة على نظافته وإظهاره بالمظهر الحسن أمام الناس. كذلك العبد مع الله ينعم عليه النعم الكثير ويستر عليه معصيته ويقبل توبته ولكنه شارد عن كل هذا غافل القلب محجوب بحجاب المعاصي عن ربه سبحانه، ولو كشف له هذا الحجاب لعرف رحمة الله به تلك الرحمن التي لا تدانيها رحمة حتى رحمة الأم بولدها.

وعندما أراد النبي ﷺ أن يدرك صحابته مدى رحمة الله بخلقه كان ماشياً مع صحابته إذا مر أمامهم سبي فنظروا فإذا أم تبحث عن ولدها بين السبي بلهفة وحرقة، فلما وجدته ضمته إلى صدرها ضمة محب رحيم، فقال ﷺ لأصحابه: أترون هذه، أطارحة ولدها في النار؟ قالوا: لا وهي تقدر على أن لا تطرحه، فقال ﷺ: «لله أرحم بعباده من هذه بولدها»[1].

ولكن الإنسان لصغر عقله لا يدري ما فعل به كالطفل الصغير الذي لا يعقل ما حوله.

* * *

---

(1) البخاري في الأدب، باب: رحمة الولد وتقبيله ومعانقته، رقم (5540) ومسلم في التوبة، باب: في سعة رحمة الله تعالى وأنها سبقت غضبه، رقم (4947).

النعم الثلاث

إن من عليك بثلاثة فقد من عليك بالنعمة الكبرى:

الوقوف على حدوده.

والثانية: الوفاء بعهوده.

والثالثة: الغرق في شهوده.

ثلاث نعم عظيمة إن وفق الله عبده للعمل بها فقد فاز ونجا يوم القيامة وعاش حياة طيبة، قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ ﴾[العنكبوت: 69].

وقال سبحانه: ﴿ مَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَنُحۡيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةٗ طَيِّبَةٗۖ وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴾[النحل: 97].

أما النعمة الأولى: فهي الوقوف على حدود الله، قال ﷺ: «إن الله فرض فرائض فلا تضيعوها وحرم حرمات فلا تنتهكوها وحد حدوداً فلا تعتدوها وسكت عن أشياء رحمة غير نسيان فلا تبحثوا عنها»[1].

وهذه الحدود هي حمى الله سبحانه وتعالى كما قال ﷺ في الحديث المتفق عليه: «الحلال بين والحرام بين وبينهما أمور مشتبهات لا يعلمها كثير من الناس فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه. ومن وقع في الشبهات كراع يرعى حول الحمى يوشك أن يواقعه. ألا وإن لكل ملك حمى ألا إن حمى الله في أرضه محارمه، ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب»[2].

---

(1) الدارقطني، رقم (42): 4/ 183. ورجاله رجال الصحيح. مجمع الزوائد: 1/ 171.

(2) البخاري في الإيمان، باب: فضل من استبرأ لدينه، رقم (50). ومسلم في المساقاة، باب: أخذ الحلال وترك الشبهات، رقم (2996).

فقد كانت الملوك يكون لكل ملك منهم حمى يحميه عن الناس، ويمنعهم دخوله فمن دخله أوقع به في العقوبة، ومن احتاط لنفسه لا يقارب ذلك الحمى خوفاً من الوقوع فيه، ولله تعالى أيضاً حمى وهي محارمه، أي: المعاصي التي حرمها الله، كالقتل والزنى والسرقة والقذف والكذب والغيبة والنميمة، وأكل المال بالباطل وأشباه ذلك، فكل هذا حمى الله تعالى من دخله بارتكابه شيئاً من المعاصي استحق العقوبة، ومن قاربه يوشك أن يقع فيه، فمن احتاط لنفسه لم يقاربه، ولا يتعلق بشيء يقربه من المعصية، فلا يدخل في شيء من الشبهات[1].

أما النعمة الثانية: فهي الوفاء بعهوده فلله علينا عهداً أن نعبده ولا نشرك به شيئاً ووعد الله من يؤمن به ويعمل الصالحات بالاستخلاف والتمكين لدينهم في الأرض وبتبديل خوفهم أمناً، قال تعالى: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ ﴾[النور: 55].

وتتأمل في حال فريق كبير من الناس، وإذا هم معرضون عن وعد الله بهذا الاستخلاف إن هم أنجزوا أوامره ونفذوا وصاياه وأحكامه، ويبحثون للوصول إلى هذا الاستخلاف والحكم في الأرض، عند كل ما يتخيلون من الوسائل والأسباب الأخرى، وربما وضعوا أنفسهم موضع المهانة في استجداء هذا الذي وعدهم الله به، من أعدائهم ومن الأمم أو الدول المتسلطة عليهم !!.

والغريب أن تجربة هذا الإعراض عن الوفاء بعهد الله، مقابل ما ألزم الله به ذاته العلية من الوفاء بعهدهم، يتجلى للعيان سوء نتائجها، وخيبة آمال أصحابها بها، ومع ذلك يمعنون في هذا الإعراض عما كلفهم الله به من الوظائف ويواصلون المضي في تجاربهم الفاشلة، التي

(1) شرح النووي لصحيح مسلم: 11/ 28.

تنقلهم من ذل إلى ذل، وتزيدهم بعداً عن الهدف الذي يطمحون إليه. فهل في التصرفات التائهة ما هو أعجب من هذا التصرف[1].

النعمة الثالثة: الغرق في شهوده: وهي مرتبة الإحسان الذي عرفه النبي ﷺ بأنه: «أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنَّه يراك»[2].

أي تنجذب بمشاعرك من الدنيا وأحوالها وآثارها، فتغيب عنك غيبة تامة ولا يبقى في إحساسك إلا الشعور بأنك في حضرة الله وبين يديه تناجيه بما تخاطبه به من قرآن أو ذكر أو دعاء كأنك تراه. . . .

إن شهود العبد لربه لا يعني أكثر من شهود صفاته، وآلائه، ومظاهر فضله ورحمته. فهو لا يستقبل نعمة إلا ويربطها بالمنعم والمتفضل وهو الله عز وجل، ولا يتقلب متنقلاً من حال إلى حال، إلا ويرى أن الله هو المتصرف به والمسير له، ومن شأن هذا الشعور إذا استمر، أن يصرف القلب من محبة الأغيار إلى محبة الله عز وجل، إذ هو مصدر كل تفضل وعطاء، وأن يغيب عنه تعظيم المخلوقات ليقف أمام عظمة الخالق عز وجل[3].

* * *

---

(1) الحكم العطائية، شرح وتحليل، د. محمد سعيد رمضان البوطي، ص: 88، 89.

(2) البخاري في الإيمان، باب: سؤال جبريل النبي عن الإيمان والإسلام والإحسان، رقم (48). ومسلم في الإيمان، باب: بيان الإيمان والإسلام والإحسان، رحم (274).

(3) شرح الحكم العطائية، د. محمد سعيد رمضان البوطي، ص: 190.

سبب استغراب أحوال العارفين

وما سبب استغرابك لأحوال العارفين إلا استغراقك في القطيعة، ولو شاركتهم في الأسفل لشاركتهم في الأخبار، ولو شاركتهم في العناء، لشاركتهم في الهناء.

العارف من المعرفة: وهو المختص بمعرفة الله ومعرفة عظمته وحسن معاملته، وبهذا تكون المعرفة أعظم درجة من العلم، لأن العلم ربما يكون حجاباً يحجب العبد عن معرفة ربه.

والعارف بالله هو أيضاً من أنس بالله فأوحشه من الخلق، وافتقر إلى الله فأغناه عنهم، وذل لله فأعزه منهم، وتواضع لله فرفعه بينهم، واستغنى بالله فأحوجهم إليه.

يقول الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي في بيان معنى «العارف»: «إنه من بلغ من توحيده لله، وثقته بالله، وتوكله على الله، وتفويضه إلى الله، درجة تفنى فيها إراداته وتنطوي فيما يريده الله، وتذوب أمامه الأسباب تحت سلطان الله، وتغيب فيها المشهودات الكونية في وهج من شهود الله»[1].

إذاً العارف بالله هو من عرف الحق فاتبعه، وأبصر الهدى فتعلق به، قال تعالى: ﴿ وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾[المائدة: 83].

إن سبب استغراب أحوال العارفين هو كثرة المعاصي والذنوب، وبعد أغلب الناس عن إتعاب أنفسهم بالطاعات وذكر الله ومراقبته، وانصرافهم عن مجاهدة نفوسهم المريضة، فلو جاهدوا أنفسهم وتعبوا في طاعة الله كما يفعل العارف بالله لذاقوا لذة طاعة الله سبحانه كما يشعر بها العارف وعندئذ لن يستغربوا أحوال العارفين ؟!.

---

(1) المرجع السابق، 3/ 207.

إذاً الذين يتأتى لهم أن يصلوا إلى معرفة الأولياء والعارفين، هم الذين تأتي لهم الوصول إلى معرفة الله وسلكوا السبيل إلى ذلك.

فالسبيل إلى معرفة العارفين بالله متفرع عن السبيل إلى معرفة الله عز وجل فكما أن حواجز الدنيا ومظاهرها لم تحجبه عن معرفة الله وشهوده، فكذلك البشرية وأعراضها ومعايبها لم تحجبه عن شهود ما وراء ذلك من الأنوار المستودعة في قلوب من اجتباهم الله وميزهم بالولاية والمعرفة والعرب منه. هذا الكلام صاغه ابن عطاء الله في إحدى حكمه فقال: «سبحان من لم يجعل الدليل على أوليائه إلا من حيث الدليل عليه، ولم يوصل إليهم إلا من أراد أن يوصلهم إليه».

* * *

حق شهادة أن لا إله إلا الله

يقول ابن عطاء الله: إذا قلت لا إله إلا الله طالبك الله بها وبحقها، وهو: أن لا تنسب الأشياء إلا إليه.

لا إله إلا الله ليست كلمة ينطق بها اللسان، وإنما تتمثل فيها صفة الوحدانية له سبحانه فهو الواحد في صفاته وأفعاله وهو المتصرف في أمور المكونات جميعاً وهو «الصمد» أي الذي قام هذا الكون بأمره وهو لا يحتاج لأحد والكل محتاج إليه سبحانه.

شهادة أن «لا إله إلا الله» هي إقرار من العبد أنه الله هو الخالق وهو الرزَّاق وهو المحيي والمميت. إلخ الأسماء الحسنى.

ومن تتبع آيات القرآن وجد هذه الحقيقة. قال تعالى: ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾[الأعراف: 158].

فقد بين سبحانه أنه له وحده ملك السموات والأرض، يعني: أن له التصرف المطلق والتدبير الكامل للسموات، أي: وما فيها والأرض ومن عليها، لا مدبر لهما غيره سبحانه، فهو الذي يدبر أمر السموات وسير كواكبها في أفلاكها بانتظام، وأمر ملائكة السموات، وأمر الشموس والأقمار، وأمر الليل والنهار، وأمر الجبال والبحار، وأمر الأنهار والأشجار، وأمر الصحاري والقفار. وكلاً يمده بما يحتاجه، ويسوق إلى كل رزقه وقوته، ما لغيره سبحانه شركة في ذلك، ولا تدخل له في شيء من ذلك، بإقرار العباد كلهم واعترافهم.

ثم قال سبحانه: ﴿ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ ﴾ أي: فما خفي عليكم من أن الله تعالى له التصرف وله التدبير المطلق في السموات والأرض، فليس يخفى عليكم تصرفه سبحانه في إحيائكم وإماتتكم، فأنت يا معشر الناس تحيون وتموتون، فمن الذي يحييكم؟. ومن الذي يميتكم؟ .

فأنتم لا تملكون ذلك باعترافكم، إذاً أليس هذا مشهداً يشهدكم أنه لا إله إلا الله الذي يحيي ويميت، على مشهد منكم[1].

ومن خصائص لا إله إلا الله أنها مشتملة على أصول الإيمان بالله تعالى، وهي خمسة أصول[2].

الأصل الأول: الاعتقاد الجازم بأن الله تعالى هو حق أي: واجب الوجود قال تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴾[الحج: 6].

وقال تعالى: ﴿ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلۡحَقُّۖ فَمَاذَا بَعۡدَ ٱلۡحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُۖ ﴾[يونس: 32].

وفي هذا الاعتقاد براءة من التعطيل والإلحاد الذي هو إنكار خالق الخليقة، وصانع العالم، وطابع الطبيعة.

الأصل الثاني: الاعتقاد بأن الله تعالى هو: وحده لا شريك له، قال تعالى: ﴿ وَإِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴾[البقرة: 163].

وقال تعالى: ﴿ قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾[الإخلاص: 1] وفي ذلك براءة من الشرك بأنواعه.

الأصل الثالث: الاعتقاد بأنه سبحانه متصف بالكمالات المطلقة، ومنزه عن النقائص والآفات.

الأصل الرابع: الاعتقاد بأنه لا مشابهة بينه وبين المخلوقات، قال تعالى: ﴿ لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ﴾[الشورى: 11].

الأصل الخامس: الاعتقاد بأن جميع ما سواه سبحانه إنما أوجده الله تعالى بقدرته واختياره ومشيئته وإرادته، والاعتقاد بأنه سبحانه هو وحده المؤثر الفعال، والمدبر للأمور،

---

(1) شهادة لا إله إلا الله محمد رسول الله ﷺ، عبدالله سراج الدين، ص:71.

(2) المرجع السابق، ص :95 وما بعدها..

والمتصرف فيها، فله التدبير المطلق، قال تعـالى: ﴿ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ ﴾ [يـونس: 31] .
وقال تعالى: ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۖ ﴾[يونس: 3].

* * *

إياك وظلم العباد

يقول ابن عطاء الله: إن أمكنك أن تُصبح وتُمسي وما ظلمت أحداً من العباد فأنت سعيد، فإن لم تظلم نفسك فيما بينك وبين الله، فقد تكملت لك السعادة، فأغلق عينيك، وسد أذنيك، وإياك وإياك وظلم العباد.

طبيعة الظلم موجودة في النفس البشرية، كما قال الشاعر:

ظلم القوي للضعيف جار　　　في الأرض والهواء والبحار

وقال آخر:

والظلم من شيم النفوس فإن تجد　　　ذا عفةٍ فلعلة لا يظلم

وهذا التحذير الشديد من ابن عطاء الله أن يتجنب الناس ظلم بعضهم سببه أن حياة الإنسان لا تستقر إلا بالابتعاد عن الظلم.

ونلمس هذا التحذير فيما يرويه النبي ﷺ عن ربه أنه قال: «يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً، فلا تظالموا. . »[1].

فقد ذكر الله تعالى أنه حرم الظلم على نفسه وتقدس سبحانه أن يكون ظالماً أبداً. وتنزه عن الظلم والظلم مستحيل في حقه سبحانه، وجعله بين الناس محرماً: «فلا تظالموا». أي لا يظلم بعضكم بعضاً، ولا تخفى الإثارة العاطفية هنا، فقد أراد أن ينهانا عن الظلم فنفاه عن نفسه أولاً وهو القدير الذي إذا أراد شيئاً قال له: كن فيكون، فكيف بنا نحن العبيد. وإذا كان الظلم وضع الشيء في غير محله فإن ينتفي في الحكمة الإلهية ويأباه الله العادل على عباد[2].

---

(1) مسلم في البر والصلة، باب: تحريم الظلم، رقم (4674).

(2) في ظلال الحديث النبوي، د. نور الدين عتر، ص: 77.

ومن صور الظلم التي شاعت بين الناس اليوم: التعدي على حدود الأرض، فعن سعيد بن زيد ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من ظلم من الأرض شيئاً طوقه من سبع أرضين»[1].

فماذا يساوي الشبر من الأرض مثلاً، لكن عقوبته شديدة عند الله، مما يجعل الإنسان يخشى من الإقدام على هذا الفعل، فتتحسن العلاقة مع جاره في الأرض، وللأسف ما أكثر ما تقع الخصومات والعداوات بين الناس بسبب ظلم متر أو نصف متر من الأرض؟!

ومعنى طوقه: أنه يعاقب بالخسف إلى سبع أرضين فتكون كل أرض في تلك الحالة طوقاً في عنقه، أو أنه يكلف نقل ما ظلم منها في القيامة إلى المحشر ويكون كالطوق في عنقه، لا أنه طوق حقيقة، أو أنه يكلف أن يجعله له طوقاً ولا يستطيع ذلك.

والطوق هنا هو طوق إثم الظلم، ومنه قوله تعالى: ﴿أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ﴾ [الإسراء: 13].

ومن الآثار السيئة للظلم أنه يجعل صاحبه في ظلمات يوم القيام لا يهتدي إلى شيء بسبب ظلمه في الدنيا، فيقول ﷺ: «الظلم ظلمات يوم القيامة»[2]. بعكس المؤمن الذي يسعى بنور بسبب إيمانه في الدنيا، قال تعالى: ﴿يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم﴾ [الحديد: 12].

فإياك وإياك من ظلم العبد «فالمسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده»[3].

ومن كانت لأخيه عنده مظلمة فليتحلله قبل أن لا يفيد الندم يوم القيامة فيقول ﷺ: «من كانت عنده مظلمة لأخيه فليتحلله منها فإنه ليس ثم دينار ولا درهم من قبل أن يؤخذ لأخيه من حسناته، فإن لم يكن له حسنات أخذ من سيئات أخيه فطر حت عليه»[4].

---

(1) البخاري في المظالم والغصب، باب: إثم من ظلم شيئاً من الأرض، رقم (2272).

(2) البخاري في المظالم والغصب، باب: الظلم ظلمات يوم القيامة، رقم (2267).

(3) البخاري في الإيمان، باب: المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده، رقم (9).

(4) البخاري في الرقائق، باب: القصاص يوم القيامة، رقم (6053).

واعلم أن الله يملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته كما قال ﷺ[1].

ثم يقول ابن عطاء الله «فإن لم تظلم نفسك فيما بينك وبين الله فقد تكملت لك السعادة».

وظلم النفس يكون بالغفلة عن الله والانغماس في مهاوي الردى والضلال. ظلم النفس هو انغماسها بالشهوات والأهواء وابتعادها عن الله سبحانه، فمن جاهد نفسه وألزمها طاعة خالقها ومولاها عز وجل فقد تكملت له السعادة.

* * *

(1) البخاري في تفسير القرآن، باب: قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ﴾ ، رقم (318). ومسلم في البر والصلة، باب: تحريم الظلم، رقم (4680).

لذة المناجاة

يقول ابن عطاء الله: يا من عاش وما عاش، تخرج من الـدنيا ومـا ذقـت ألـذ شيء فيهـا، وهي مناجاة الحق سبحانه، ومخاطبته لك، فأنت ملقى جيفة بالليل، فإن دفعت عنـه فاسـتغث بالله، وقل: يا ملائكة الله ويا رسول ربي، فاتتني الغنيمة التي نالوهـا مـن لـذة المناجـاة، ووداد المصافاة.

المناجاة في اللغة تعني: إسرار الحديث، ومناجاة العبد لله سـبحانه تعنـي: إسرار الـدعاء والطلب من الله سبحانه وتعالى.

فالمناجاة لله سبحانه تكـون في الـدعاء وفي الصـلاة، ومخاطبـة الله لـك تكـون باسـتجابة الدعاء وبقبول الصلاة، يشهد لهذا قوله تعـالى: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾[البقرة: 186].

فهناك سائل وهو العبد وهناك مجيب هو الله سبحانه وتعالى.

إن الذي يحرم العبد من لذة المناجاة وقوعه في المعصية، فقد قال أحد علماء بني إسرائيـل: إلهي كم أعصيك وأنت لا تعـاقبني فقـال البـاري سـبحانه: ألا يكفـي أني حرمتـك مـن لـذة مناجاتي.

فلذة المناجاة لا يشعر بها ولا يذوق طعمها إلا من تحقـق بشر-وطها، وهـي: التوبـة مـن المعاصي والاتصاف ببذل العبودية والتواضع لله سبحانه.

ومن أمثلة المناجاة ما قاله ابن الجوزي رحمه الله مخاطباً ربه عز وجل: «سيدي كيف أقـدر على شكرك؟. وبأي لسان أنطق بمدحك؟ إذا لم تؤاخذني على غفلتـي، ونبهتنـي مـن رقـدتي، وأصلحت حالي على كره من طبعي، فما أربحني فيما سلب مني، إذ كانت ثمرته اللجـأ إليـك، وما أوفر جمعي إذ ثمرته إقبالي على الخلود بك، وما أغنـاني إذ أفقرتنـي إليـك، ومـا آنسـني إذ أوحشتني بالتجارب لخلقك، آه من زمان ضاع في غير خـدمتك! آسـفاً لوقـت مضى- في غـير

طاعتك. . . فيا عظيم الإنعام تمم لي العافية ! آه من سكر لم يعلم قدر عربدته إلا في وقت الإفاقة!. لقد فتقت ما يصعب رتقه، فوا أسفاه على بضاعة ضاعت !، وعلى ملاح تعب في موج الشمال مصاعداً مدة، ثم غلبه النوم فرد إلى مكانه الأول»[1].

ومن المناجاة اللطيفة مناجاة ابن عطاء الله كما سأذكرها في آخر الكتاب إن شاء الله.

* * *

(1) صيد الخاطر: 117.

معاملة الله كل يوم

يقول ابن عطاء الله: لا تظهر شمسك[1]. حتى تعامل الله، فتصدق كل يوم ولو بربع درهم، حتى يكتبك الله في ديوان التالين، وصل ولو ركعتين، حتى يكتبك الله مع القائمين، وإياك تغلط وتقول: من عنده قوت يوم بيوم كيف يتصدق؟ قال تعالى: ﴿ لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦۖ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُۚ ﴾ [الطلاق: 7]. فمثال المسكين إذا تصدق عليه كالمطية تحمل زادك للآخرة.

أي لا يتبين صدقك مع الله والتزامك لأوامره حتى تعامل الله كل يوم، بما دلك عليه ابن عطاء الله من الصدقة وتلاوة القرآن وصلاة ركعتين في الليل.

إن هذه الأعمال التي ذكرها ابن عطاء الله تظهر مدى حبك لله ومدى اصطباغك بأوصاف العبودية. أما إن كنت عن كل ذلك لاهياً ساهياً همك إرواء شهواتك من الدنيا فاعلم أنك لم تصدق مع الله. وأنك شردت عن المنهج الذي أمرك الله به، وكيف ينجو من كانت هذه صفته يوم القيامة، إنه لم يتزود لذلك اليوم فمصيره هو الذي رسمه، كالفراش يرتمي على النار يظن أن بها النجاة!

* * *

---

(1) في نسخة: لا تطهر حتى تعامل الله.

شرط النصر والعطاء من الله

يقول ابن عطاء الله: إذا أردت أن تنصر فكن كلك ذلة، قال الله تعـالى: ﴿ وَلَقَدۡ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدۡرٖ وَأَنتُمۡ أَذِلَّةٞۖ ﴾ [آل عمران: 123] . إن أردت أن تعطي فكن كلك فقراً: ﴿ ۞ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ وَٱلۡمَسَٰكِينِ ﴾[التوبة: 60].

لقد جعل الله النصر والفتح مقرونين بالفاقة والذل وتحقيق الضعف كـما في غـزوة بـدر. وجعل الخذلان وعدم النصر والمعونـة في إظهـار ﴿ وَيَوۡمَ حُنَيۡنٍ إِذۡ أَعۡجَبَتۡكُمۡ كَثۡرَتُكُمۡ فَلَمۡ تُغۡنِ عَنكُمۡ شَيۡـٔٗا وَضَاقَتۡ عَلَيۡكُمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ ثُمَّ وَلَّيۡتُم مُّدۡبِرِينَ ﴾ [التوبة: 25].

فإذا أردت أن تحوطك حماية الله ونصرته ومعونته فتحقق بذل العبودية له، قال ابن عطاء الله في إحدى حكمه: «تحقق بأوصافك يمدك بأوصافه، تحقق بذلك يمدك بعزه، تحقق بعجزك يمدك بقدرته، تحقق بضعفك يمدك بحوله وقوته».

* * *

معرفة أولياء الله والتأدب معهم

يقول ابن عطاء الله: إذا رأيت ولياً لله فلا يمنعك إجلاله، من أن تقعد بين يديه، متأدباً وتتبرك به.

واعلم أن السماء والأرض، لتتأدب مع الولي، كما يتأدب معه بنو آدم.

الولي له معنيان:

المعنى الأول: فعيل بمعنى مفعول كقتيل وهو: من يتولى الله تعالى عنايته وحفظه فلا يكله إلى نفسه، كما قال سبحانه: ﴿وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ﴾[الأعراف: 196].

المعنى الثاني: فعيل صيغة مبالغة ككريم وعليم وهو: الذي يتولى عبادة الله وطاعته فيأتي بها على التوالي من غير أن يتخللها عصيان أو فتور فيحبه الله ويتولاه بحفظه.

أما صفاتهم فيقول ابن الجوزي رحمه الله: «تأملت الذين يختارهم الحق عز وجل لولايته والقرب منه، فقد سمعنا أوصافهم ومن نظنه منهم مما رأيناه، فوجدته سبحانه لا يختار إلا شخصاً كامل الصورة، لا عيب في صورته، ولا نقص في خلقته، فتراه حسن الوجه، معتدل القامة، سليماً من آفة في بدنه» [1]. ثم يكون كاملاً في باطنه، سخياً، جواداً، عاقلاً غير خب[2]، ولا خادع، ولا حقود ولا حسود، ولا فيه عيب من عيوب الباطن. . . »[3].

(1) هذا رأي ابن الجوزي ولا أظن أن ذلك صحيحاً، فالمظهر ليس له أي قيمة في قرب العبد من ربه، والنقص في الخلقة بلاء من الله ليمتحن العبد بصدقه في عبوديته له وكم من ناقص في خلقته أقرب من ربه بكثير ممن هو حسن الصورة كاملاً في جسده، والله أعلم.

(2) الخب: الخداع والغش.

(3) صيد الخاطر، ص: 389.

فمن كانت هذه صفته فاعلم أنه من أولياء الله، فيجب عليك احترامه والتأدب معه والتبرك به.

وإياك ثم إياك من سوء الأدب مع عباد الله الصالحين ومن هم مظنة الولاية، وسوء الأدب قد يكون في كلمة نابية أو نظرة استهزاء، أو إطالة اللسان، بالاعتراض والنقد، بقصد التجهيل والانتقاص. وهذا التصرف يندرج في معنى المعاداة التي حذر منها الله عز وجل في الحديث القدسي بقوله: «ومن عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب»[1]. فإن رأيت منه ما يخالف حكماً شرعياً لا خلاف فيه، فذكره بالحكم الشرعي بعبارة متأدبة، دون أي انتقاص له، ودون أن يجرك ذلك إلى إساءة الظن به.

وإلى جانب هذا التحذير تكون البشارة لمن كان دأبه التقرب إلى الله عن طريق محبة الصالحين وتوقيرهم والتأدب معهم وحسن الظن بهم، بصلاح الحال، ومغفرة الذنوب، وحسن الخاتمة والمآل، وكم من تائه مسرف على نفسه شفع له عند الله حبه للصالحين وحسن ظنه بهم وتأدبه معهم.

ولا تقل: لعله دجالٌ يصطنع التقوى والصلاح فكيف أحبه وأركن إليه، فإنك من هذا الرجل في إحدى حالتين، إما أنك ترى فيه دلائل الصلاح والتقوى من خلال استقامته على أوامر الله وشرعه، إذاً فليس لك أن تفترض ما تراه من ظاهره، . . وإما أنك لا تعرف من حاله شيئاً فالزم حينئذٍ جانب الحيطة في الأمر وأنه ربما كان من الصالحين المغمورين بغاشية من الخفاء عن أعين الناس، والزم النصيحة القائلة: كل ما رأيت فالخضر اعتقد، فإنك إن أصبت الحق في افتراضك كان حسن ظنك به وتأدبك معه ربح كبير وفائدة عظيمة في دينك، وإن لم يكن افتراضك، في الحقيقة صواباً، فإن حسن ظنك به لا يضرك بل المأمول أن ينفعك ويقربك

(1) البخاري في الرقاق، باب التواضع، رقم (6021).

إلى الله عز وجل، إذ إن محبتك لمن ترجو صلاحهم، ليست في حقيقتها إلا أثراً من آثار محبة الله[1].

أما مشروعية التبرك بالأنبياء والصالحين فدليلها ما يأتي:

عن عائشة رضي الله عنها: «أن النبي ﷺ كان يُؤتى بالصبيان فيبرك عليهم ويحنكهم فأتي بصبي فبال عليه فدعا بماء فأتبعه بوله ولم يغسله»[2].

قال الإمام النووي في شرح هذا الحديث: «فيه استحباب تحنيك المولود وفيه التبرك بأهل الصلاح والفضل وفيه استحباب حمل الأطفال إلى أهل الفضل للتبرك بهم»[3].

وعن جابر قال: «مرضت فأتاني رسول الله ﷺ وأبو بكر يعوداني ماشيين فأعمي علي فتوضأ ﷺ ثم صب علي من وضوئه فأفقت»[4].

قال الإمام النووي رضي الله في شرحه لهذا الحديث: «وفيه التبرك بآثار الصالحين وفضل طعامهم وشرابهم ونحوهما وفضل مؤاكلتهم ومشاربتهم»[5].

وروى البخاري في صحيحه عن إسرائيل بن يوسف عن عثمان بن عبد الله بن موهب قال: «أرسلني أهلي إلى أم سلمة زوج النبي ﷺ بقدح من ماء – وقبض إسرائيل ثلاث أصابع

---

(1) شرح الحكم، د. محمد سعيد رمضان البوطي: 4/ 94، 59.

(2) البخاري في الدعوات، باب: الدعاء للصبيان بالبركة ومسح رؤوسهم، (5878). ومسلم في الطهارة، باب: حكم بول الطفل الرضيع وكيفية غسله، رقم (430).

(3) شرح النووي على مسلم: 3/ 194.

(4) البخاري، الوضوء، باب: صب النبي وضوءه على المغمي عليه، (187). ومسلم في الفرائض، باب: ميراث الكلالة، رقم (3031).

(5) شرح النووي: 11/ 55.

- من فضة فيه شعر من شعر النبي ﷺ وكان إذا أصاب الإنسان عين أو شيء بعث إليها مخضبة فاطلعت في الجلجل [1] فرأيت شعرات حمراً»[2].

يعني أنهم كانوا إذا أصاب أحدهم عينٌ أو أصابه أي مرض أرسل إليها -أم سلمة- إناءٌ فيه ماء فجعلت الشعرات في الماء ثم أخذوا الماء يشربونه أو يغسلون به توسلاً للاستشفاء والتبرك.

وقد تبرك الصحابة بشعره ﷺ وعرقه ونخامه ووضوئه وآثار أصابعه من الطعام بعد فراغه منه، كل ذلك في أحاديث صحيحة.

ثم قال ابن عطاء الله: «واعلم أن السماء والأرض، لتتأدب مع الولي، كما يتأدب معه بنو آدم».

فعندما يشهد العبد المكون وينسى الأكوان ويستغني عنها ويتحرر من قيودها، فإنها تصبح خادمة له ومتبركة به ومتأدبة معه.

* * *

---

(1) الجلجل: وعاء يشبه القارورة يحفظ فيه ما يراد صيانته.

(2) البخاري في اللباس، باب: ما يذكر في الشيب، رقم (5446).

معرفة أولياء الله

يقول ابن عطاء الله: فمنهم من يعرف الأولياء بالشم، من غير وجود طيب، ومنهم من يعرفهم بالذوق إذا رأى ولياً ذاق طعم الحلاوة في فمه، وإذا رأى صاحب قطيعةٍ، ذاق طعم المرارة في فمه.

أولياء الله عرائس، والعرائس لا يراها المجرمون.

من الناس من يسمع أخبار الأولياء دون اللقاء بهم فيتعرفون عليهم من صفاتهم.

ومنهم من يحصل له اللقاء به ومشاهدته والتنعم بعلائم ولايته فيعرفه إذا رآه، قال تعالى: ﴿سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم﴾[الفتح: 29].

ومن الناس من يحس بمرارة المعصية على صاحبها فيحصل له الانقباض والنفور كما أحس سيدنا عثمان رضي الله عنه بأثر الزنى في عيني الرجل الذي دخل عليه ثم قال رضي الله عنه: «اتقوا فراسة المؤمن فإنه يرى بنور الله»[1].

فالذي يعرف الأولياء يجب أن يكون قلبه عامراً بالإيمان والتقوى وروحه صافية حتى يشعر بنور الطاعة على الولي، أما الذي على قلبه ران من الذنوب والمعاصي فأنى له أن يعرف الولي أو يحس به؟! وهذا مثال المجرم لا يُسمح له أن يرى العروس، إذ لا يراها إلا التقي الطاهر من الباطن الظاهر.

وقد ذكر الشوكاني في كتابه «قطر الولي» شخصية الولي التي بها يُعرف فقال: «إنه رجل مجاب الدعوة، راضياً عن الله عز وجل في كل حال، قائماً بفرائض الله سبحانه، تاركاً لمناهيه، زاهداً فيما يتكالب عليه الناس من طلب العلو في الدنيا، والحرص على رياستها، لا يكون لنفسه شغل بملاذ الدنيا ولا بالتكاثر منها ولا بتحصيل أسباب الغنى، وكثرة اكتساب

---

(1) سبق تخريجه، ص: 51.

الأموال والعروض، إذا وصل إليه القليل صبر، وإن وصل إليه الكثير شكر، يستوي عنده المدح والذم، والفقر والغنى، والظهور والخمول، غير معجب بما من الله به عليه من خصال الولاية، إذا زاده الله رفعة زاد في نفسه تواضعاً وخضوعاً، حسن الأخلاق كريم الصحبة عظيم الحلم كثير الاحتمال. فمن اتصف بهذه الصفات فهو ولي الله الأكبر الذي ينبغي لكل مؤمن أن يقر له بذلك، ويتبرك بالنظر إليه، والقرب منه. ومن كان منه بعض هذه الخصال فله من الولاية بقدر ما رزقه الله سبحانه منها، ووهب له من محاسنها» (1).

* * *

(1) قطر الولي، الشوكاني، ص: 255، 256.

التخلف عن صلاة الجماعة

يقول ابن عطاء الله: كان بعضهم لا يخرج لصلاة الجماعة لما يعرض له في طريقه، منهم: مالك بن أنس ﷺ، لأن الجماعة ربح والربح لا يحسب إلا بعد الإحاطة على رأس المال.

هذا تصرف فردي من الإمام مالك، والأصل في الحكم هو السنة النبوية التي حثت على صلاة الجماعة، وإنما ترك الإمام مالك – إن صح ذلك – بعض الصلوات لما يعرض له من المخالفات الشرعية في الطريق ولا يؤخذ بتصرفه وإنما الحكم يؤخذ من الكتاب والسنة الصحيحة، فالنبي ﷺ حثنا على صلاة الجماعة بقوله ﷺ: «صلاة الجماعة تفضل صلاة الفذ بسبع وعشرين درجة»[1].

وقال ﷺ: «لقد هممت أن آمر بحطبٍ فيحطب ثم آمر بالصلاة فيؤذن لها ثم آمر رجلاً فيؤم الناس ثم أخالف إلى رجالٍ فأحرق عليهم بيوتهم والذي نفسي بيده لو يعلم أحدهم أنه يجد عرقاً سميناً أو مرماتين[2] حسنتين لشهد العشاء»[3].

* * *

(1) البخاري في الأذان، باب: فضل صلاة الجماعة، رقم (609). ومسلم في المساجد ومواضع الصلاة، باب: فضل صلاة الجماعة، رقم (1038).

(2) مرماتين: مفردها مرماة وهي ما بين ظلفي الشاة من اللحم.

(3) البخاري في الأذان، باب: وجوب صلاة الجماعة، رقم (608)، ومسلم في المساجد ومواضع الصلاة، باب: فضل صلاة الجماعة، رقم (1040).

أحوال السلف الصالح
رضي اللّه عنهم

الصحبة للنبي ﷺ أعظم كرامة

يقول ابن عطاء الله: كانوا رضي الله عنهم لا يدخلون في شيء بنفوسهم، ولكن من الله وبالله، وإن المسافة بعدت بين الأولياء والصحابة، فجعلت الكرامات جبراً لما فاتهم من قرب المتابعة التامة، فإن من الناس من يقول: إن الأولياء لهم الكرامات، والصحابة لم يكن لهم ذلك، بل كانت لهم الكرامات العظيمة، بصحبتهم له ﷺ، وأي كرامة أعظم منها؟!.

هذه هي أحوال السلف صدق وإخلاص لله عز وجل، وقد أماتوا نفوسهم وأحيوا قلوبهم بذكر الله ومحبته والخوف منه.

أما الكرامات لماذا لم تظهر على أيدي الصحابة وظهرت على أيدي من بعدهم؟

فسببه كما يقول ابن عطاء الله، الجبر لما فات الأولياء من قرب الصحابة الكرام لمتابعة النبي ﷺ التامة في حياته.

إذاً إن نعمة الصحبة للمصطفى لا تعادلها ملايين الكرامات؟!.

وإنما احتاج الأولياء للكرامات تسكيناً لنفوسهم، وتثبيتاً لليقين في قلوبهم. ومنعها الصحابة لأنهم لا يحتاجون إليها لما هم من الرسوخ واليقين، والقوة والتمكين»[1].

* * *

(1) غيث المواهب العلية في شرح الحكم العطائية، الرندي: 1/ 276.

صدق الصحابة والسلف رضي الله عنهم مع ربهم

يقول ابن عطاء الله: وسمعت شيخنا أبا العباس المرسي ﵁ يقول: العارف لا دنيا له ولا آخرة، لأن دنياه لآخرته، وآخرته لربه. وعلى هذا تحمل أحوال الصحابة والسلف رضي الله عنهم أجمعين، فكل ما دخلوا فيه من الأسباب فهم بذلك إلى الله متقربون ولرضاه منتسبون، لا قاصدون بذلك الدنيا وزينتها ووجود لذاتها، ولهذا وصفهم الحق سبحانه وتعالى بقوله تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ﴾[الفتح: 29].

حين انتصر الصحابة الكرام على أنفسهم نصرهم الله على أعدائهم، حين جعلوا همهم مرضاة الله وامتلأت قلوبهم بالمحبة له، ولم يخافوا أحداً سواه وجعلوا الدنيا وزينتها وراء ظهورهم، عند ذلك امتلأت قلوبهم بالشجاعة ولم يعد يهمهم أوقع الموت عليهم أم وقعوا على الموت فكانوا أشداء على الكفار رحماء بينهم كما وصفهم ربهم، ونصروا بالرعب مسيرة شهر كما قال ﷺ: «نُصرت بالرعب مسيرة شهر»(1).

* * *

(1) سبق تخريجه، ص: 87.

فضل الصحابة الكرام على المؤمنين إلى يوم القيامة

يقول ابن عطاء الله: وما ظنُّك بقوم يحبهم الله، واختارهم الله لصحبة رسول الله ﷺ، ولمواجهة خطابه في تنزيله، فما أحد من المؤمنين إلى يوم القيامة إلا وللصحابة في عنقه منن لا تحصى، وأياد لا تنسى، لأنهم هم الذين حملوا إلينا عن النبي ﷺ الحكم والأحكام، وبينوا الحلال من الحرام، وفهموا الخاصة والعام، وفتحوا الأقاليم والبلاد، وقهروا أهل الشرك والفساد، ويحق قوله ﷺ صلاة وسلاماً دائماً أبداً: «أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم»[1]. وقد وصفهم الله في الآيةالكريمة بأوصاف إلى أن قال: ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾ [الحشر: 8]. دل ذلك من قوله سبحانه وتعالى أنهم ما ابتغوا بما حملوه من الدنيا ولم يقصدوا بذلك إلا وجهه الكريم وفضله العظيم. وقال سبحانه وتعالى في آية أخرى: ﴿ فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ﴾ [النور: 36]. ولم ينف عنهم الأسباب ولا التجارة، ولا البيع ولا الشراء فلا يخرجهم عن المدحة غناهم إذا قاموا بحقوق مولاهم.

هذه صفة أصحاب النبي ﷺ، ونزيد في حقهم ما قاله أبو حمزة الخارجي: «وهل كان أصحاب محمد ﷺ إلا شباباً؟. شباب والله مكتهلون في شبابهم. عمية عن الشر أعينهم، بطيئة عن الباطل أرجلهم.

قد نظر الله إليهم في آناء الليل متثنية أصلابهم بمثاني القرآن. إذا مر أحدهم بآية فيها ذكر الجنة بكى شوقاً إليها.

(1) روي هذا الحديث عن نافع عن ابن عمر وهو حديث ضعيف جداً، وقال أبو بكر البزار هذا الكلام لم يصح عن النبي ﷺ وقال ابن حزم: هذا خبر مكذوب موضوع باطل. تلخيص الحبير، ابن حجر: 4/ 191.

وإذا مر بآية فيها ذكر النار شهق شهقة كأن زفير جهنم في أذنيه. . . قد وصلُوا ليلهم بكلال نهارهم، أنضاء [1]. عبادة. قد أكلت الأرض جباههم وأبدانهم وركبهم من كثرة السجود. مصفرة ألوانهم، ناحلة أجسادهم من كثرة الصيام وطول القيام. مستقلون لذلك في جنب الله، موفون بعهد الله، حتى إذا رأوا سهام العدو قد فوقت، ورماحه قد شرعت وسيوفه قد انتضيت، وبرقت الكتيبة بصواعق الموت، استهانوا بوعيد الكتيبة لوعيد الله. . . فمضى الشباب منهم قدماً حتى تختلف رجلاه على عنق فرسه، قد زملت محاسن وجهه بالدماء. . . وعفر جبينه بالثرى. . .

وأسرع إليه سباع الأرض، وانحطت عليه طير السماء. . . فكم من مقلة في منقار طائر، طالما بكى صاحبها من خشية الله. وكم من كف بانت من معصمها، طالما اعتمد عليها صاحبها في سجوده؟. وكم من خد عتيق، وجبين رقيق قد فلق بعمد الحديد؟ رحمة الله على تلك الأبدان، وأدخل أرواحها الجنان [2].

ومن الملاحظ أن العصبة المؤمنة التي تركزت في دار الأرقم، وعلى يديها تحقق نصر الإسلام كانوا شباباً، فرسول الله ﷺ كان عمره أربعين سنة عند البعثة، وأبو بكر ﵁ أصغر منه بثلاث سنين، وعمر ﵁ كان عمره سبعاً وعشرين سنة، وعثمان ﵁ كان أصغر من رسول الله ﷺ وعلي ﵁ كان أصغر من الجميع. . . وهكذا كان عبد الله بن مسعود، وعبد الرحمن بن عوف، والأرقم بن أبي الأرقم وسعيد بن زيد، ومصعب بن عمير، وبلال بن رباح، وعمار بن ياسر، وعشرات غيرهم. . بل مئات كلهم كانوا شباباً»[3].

هؤلاء الشباب هم الذين حملوا على كواهلهم أعباء الدعوة، وهم الذين استعذبوا في سبيلها أسمى آيات الصبر والعذاب والتضحية. . وهم الذين واصلوا ليلهم بنهارهم حتى

---

(1) أي أجسامهم هزيلة ومتعبة من العبادة.

(2) مع الله، محمد الغزالي، ص: 473، 474.

(3) تربية الأولاد في الإسلام، عبد الله ناصح علوان: 2/ 775.

حققوا لهذا الإسلام انتشاره وكيانه، ولهذا الدين انتصاره وتمكينه. فما بين عشية وضحاها قامت للمسلمين دولة وسلطان، وتأسست لهم حكومة وقيادة. . وأخضعوا لحكمهم المملكتين العظيمتين: فارس والروم، وامتد سلطانهم إلى بلاد السند شرقاً، وإلى بلاد الروس وأرمينية شمالاً، ودخلت في عدلهم بدلا الشام ومصر وطرابلس وبقية أفريقية. . . وذلك كله في خمس وثلاثين سنة.

وفي عهد بني أمية استبحر ملكهم وامتد سلطانهم إلى أن دخلوا بلاد السند، ومعظم بلاد الهند، وبلاد التركستان، ووصلوا إلى حدود الصين شرقاً، ودخلوا بلاد الأندلس غرباً.

* * *

الصحابة الكرام والدنيا

يقول ابن عطاء الله: قال عبد الله بن عتبة: كان لعثمان بن عفان ﵁ عند خازنة يوم قتل مئة ألف وخمسمئة دينار، وألف ألف درهم، وترك ألف فرس، وألف مملوك، وخلف ضياعاً بئر أريس وخيبر ووادي القرى ما قيمته مئتا ألف دينار. وخلف عمرو بن العاص ثلاثمائة ألف دينار، وبلغ ثمن مال الزبير بن العوام خمسين ألف دينار. وترك ألف فرس وألف مملوك. وغنى عبد الرحمن بن عوف ﵁ أشهر من أن يذكر. وكانت الدنيا في أكفهم لا في قلوبهم، وصبروا عنها حين فقدت، وشكروا الله حين وجدت، وإنما ابتلاهم الله بالفاقة في أول أمرهم، حتى تكملت أنوارهم، وتطهرت أسرارهم، فبذلها لهم حينئذ، لأنهم لو أعطوا منها قبل ذلك لعلها كانت تأخذ منهم، فلما أعطوها بعد التمكين والرسوخ في اليقين، تصرفوا فيها تصرف الخازن الأمين، وامتثلوا فيها قول رب العالمين: ﴿وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ [الحديد: 7].

هذا والله هو الزهد الحقيقي. وعندما تعارضت الدنيا مع الدين رمى الصحابة الدنيا وراء ظهورهم وتمسكوا بالدين، فماذا يفيد المال إن ذهب الدين؟!.

هؤلاء الصحابة الكرام صبروا على الدنيا وهم فقراء وشكروا الله وهم أغنياء، وإنما ابتلاهم الله بالفقر في أول أمرهم، قبل معركة بدر حتى يعرف صدقهم ويثبت إيمانهم ، فلما صدقوا مع ربهم أتتهم الدنيا وهي صاغرة. فالآن مهما أعطوا من الدنيا فلن تطغيهم بل هم أمناء عليها ينفقونها في مرضاة الله سبحانه كما أمرهم بقوله: ﴿وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ [الحديد: 7].

وأصدق مثال على ذلك غزوة بدر الكبرى.

غزوة بدر أول امتحان للصحابة الكرام مع الغنائم:

وكانت غزوة بدر أول تجربة للمسلمين في المواجهة القتالية مع الأعداء، وكانت أيضاً أول تجربة لهم في رؤية الغنائم والأموال وقد تراكمت أمامهم في أعقاب المعركة، وقد كانوا على ما قد علمت من الفقر والحاجة.

وقد كان لابد لهم وهذه هي حالهم، أمام أول تجربة انتصار في معركة قتالية وأمام أول تجربة لإقبال المال إليهم بهذه الصورة على غير توقع، أن يتأثروا نوعاً ما بهذه المفاجأة، وأن تهفو نفوسهم أو نفوس بعضهم إلى تلك الغنائم ويتساءلوا فيما بينهم عمن سيأخذها ويستحقها وكيف ستتم قسمتها بين الغانمين.

وتسابق بعض المسلمين فعلاً يسألون رسول الله عن كيفية اقتسام الغنائم بينهم، وكاد بعضهم يشتجر على ذلك، فأقبلوا يسألون عن ذلك رسول الله ليتولى هو القسمة بينهم.

ولكن فانظر إلى التربية الإلهية لعباده في هذه المناسبة، وتأمل في الآيات التي نزلت جواباً عن تسابقهم واستفساراتهم اللاهث من أجل تقسيم الغنائم: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال: 1 – 2] فأنت ترى أن الآيتين لا تنطويان على جواب عن سؤالهم، وإنما فيهما صرف لهم عن الموضوع كله. . لأن الأنفال (الغنائم) ليست لأحد منهم، بل هي لله ورسوله، أما هم فعليهم أن يتركوا الأموال في مكانها وأن ينصرفوا إلى إصلاح هذا الشقاق الذي دب فيهم، وأن يتذكروا أنهم لم يقاتلوا ابتغاء مغنمة أو مال. وإنما انتصاراً لدين الله عز وجل . . . والله هو الذي يتولى رزقهم فليتكلوا عليه وحده، ولا يمدوا أعينهم إلى مثل هذه الغنائم بأي طمع، وليروضوا أنفسهم على التسامي فوقها، فهم مقبلون غداً على أضعاف هذه الأموال متمثلة في

كنوز الأكاسرة والقياصرة فماذا عسى أن يصيبهم من ذلك إن كان هذا ما ستفعل بهم رؤية الغنائم والأموال؟.

فلما تاب هؤلاء المسلمون إلى هدي هاتين الآيتين، وندموا، وصرفوا النظر عما اشتجروا فيه، واطمأنت نفوسهم متعلقة بما عند الله عز وجل راضية مستسلمة لحكمه، نزلت آيات أخرى تقرر كيفية تقسيم الغنائم بين المقاتلين على اختلافهم، وهي قوله تعالى: ﴿ ۞ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ ﴾ [الأنفال: 41][1].

* * *

(1) فقه السيرة النبوية، د. محمد سعيد رمضان البوطي، ص: 199، 200.

الدنيا في أيـدي الصحابة رضي الله عنهم لا في قلوبهم

يقول ابن عطاء الله: فكانت الدنيا في أيـدي الصـحابة لا في قلـوبهم، ويكفيـك في ذلـك خروج عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- عن نصف ماله، وخروج أبي بكـر الصـديق -رضي الله عنه- عـن مالـه كله، وخروج عبد الرحمن بن عوف -رضي الله عنه- عن سبعمائة بعير موقور بالأحمال، وتجهيز عثمان بن عفان -رضي الله عنه- جيش العسرة، إلى غير ذلك مـن حسـن أفعـالهم وسـني[1]. أحـوالهم، رضي الله عنهم أجمعين، رضاءً دائماً أبـداً، فتضـمنت الآيـات التزكيـة لظـواهرهم وسرائـرهم وإثبـات محامدهم ومفاخرهم، فقد تبين من هذا أن التدبير على قسمين: تدبير الدنيا للدنيا: كما هو حال أهل القطيعة اللئام الغافلين وتدبير الدنيا للآخرة: كحال الصحابة الأكرمين والسلف الصالح رضوان الله تعالى عليهم أجمعين، وجعلنا ممن اقتدى بهم، آمين بل ألف ألف آمين !!.

لو أن الصحابة الكرام جعلوا الدنيا في قلوبهم والدين في أيديهم، ولم ينفقوا تلك الأموال في المعارك ضد المشركين والكافرين لاستولى الأعداء عـلى الأرض والأمـوال، لكـنهم عنـدما جعلوا الدنيا في أيديهم والدين في قلوبهم تنازلوا عن الـدنيا فانتصرـوا في معـاركهم وحفظـوا أرضهم ودينهم. هذا هو الدرس الذي يجب أن نتعلمه في كل زمان ومكان من بلاد المسلمين.

أما الآيات التي تتحدث عن الصحابة فكثيرة منها:

قوله تعالى: ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ تَرَىٰهُمۡ رُكَّعٗا سُجَّدٗا يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗاۖ سِيمَاهُمۡ فِي وُجُوهِهِم مِّنۡ أَثَرِ ٱلسُّجُودِۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِۚ وَمَثَلُهُمۡ فِي ٱلۡإِنجِيلِ كَزَرۡعٍ أَخۡرَجَ شَطۡـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسۡتَغۡلَظَ فَٱسۡتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعۡجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلۡكُفَّارَۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنۡهُم مَّغۡفِرَةٗ وَأَجۡرًا عَظِيمَۢا ﴾[الفتح: 29].

ثم قال ابن عطاء الله: «فقد تبين من هذا أن التدبير على قسمين:

---

(1) أي: أحوالهم الرفيعة.

تدبير الدنيا للدنيا: كما هو حال أهل القطيعة اللئام الغافلين، وتدبير الدنيا للآخرة، كحال الصحابة الأكرمين والسلف الصالح رضوان الله تعالى عليهم أجمعين».

التدبير هو: النظر في الأمور وأواخرها، كأن يحدث الإنسان نفسه بأنه بتعامله مع الأسباب قد رتب لنفسه خطة الربح والنجاح وضمن لنفسه النتائج، أما المسلم فإنه يتعامل مع الأسباب أما نتائجها فعائد إلى تدبير الله.

فتدبير الدنيا للدنيا هو الذي يشغلك عن الله ويعطلك عن القيام بخدمة الله، فتلهث وراء الرزق ناسياً الصلاة وحق الزوجة والأولاد مثلاً.

وهذا تدبير مذموم. وهو حال أهل القطيعة والغفلة عن الله.

أما تدبير الدنيا للآخرة فهو الذي يقربك من الله ويوصلك إلى مرضاة الله، وهو حال الصحابة والسلف الصالح كانوا يتعاملون مع الأسباب كما أمرهم الله لكن النتائج كانت بيد الله، فبيده سبحانه الرزق والنجاح والنصر على الأعداء وما شابه ذلك.

وسيأتي مزيد تفصيل عند الكلام عن التدبير في فقرة مستقلة إن شاء الله تعالى [1].

وبذلك ينتهي الكلام عن أحوال الصحابة الكرام رضي الله عنهم وفضلهم على المؤمنين إلى يوم القيامة.

* * *

---

(1) انظر ص 587.

صحبة المشايخ وحقيقتها

يقول ابن عطاء الله: ليس كل من صحب الأكابر اهتدى بصحبتهم، فلا تجعل صحبة المشايخ علة في أمنك، فمن اغتر بالله فقد عصاه، لأنك أمنت عقوبته، كما يقول الجاهل: صحبت سيدي فلان، ورأيت سيدي فلاناً، ويدعون دعاوى كلها كاذبة باطلة، بل كان ينبغي لهم أن تزيدهم صحبة المشايخ خوفاً ووجلاً، فقد صحبت المشايخ رسول الله ﷺ، وكانوا أكثر وجلاً ومخافة.

يقول ابن عطاء الله: ليس كل من صحب الأكابر اهتدى بصحبتهم، فلا تجعل صحبة المشايخ علة في أمنك، فمن اغتر بالله فقد عصاه، لأنك أمنت عقوبته، كما يقول الجاهل: صحبت سيدي فلان، ورأيت سيدي فلاناً، ويدعون دعاوى كلها كاذبة باطلة، بل كان ينبغي لهم أن تزيدهم صحبة المشايخ خوفاً ووجلاً، فقد صحبت المشايخ رسول الله ﷺ، وكانوا أكثر وجلاً ومخافة.

فاصحبهم وتأدب في مجالسهم   وخل حظك مهما قدموك ورا

أي اصحب الفقراء وتأدب في مجالستهم فإن الصحبة شبح والأدب روحها فإذا اجتمع لك بين الشبح والروح حزت فائدة الصحبة.

أوصى لقمان الحكيم ابنه فقال: يا بني ما بلغت من حكمتك؟ قال: لا أتكلف ما لا يعنيني.

قال: يا بني، إنه قد بقي شيء آخر: جالس العلماء وزاحمهم بركبتيك، فإن الله يحيي القلوب الميتة بنور الحكمة، كما يحيي الأرض الميتة بوابل السماء[1].

أما من جعل صحبة المشايخ علة في أمنة فأقول له:

---

(1) غيث المواهب العلية، الرندي: 2/ 42.

هل الشيخ آمن على نفسه حتى يؤمن غيره، إن هذا لجهل عميق في مبادئ الإسلام، إن مهمة الشيخ هي الدلالة على الله سبحانه وتعليم المريد كيف يحب الله وكيف يخافه ولماذا يخافه؟

وإليك نماذج من الخوف ترتعد منها فرائص المشايخ مهما كانوا أتقياء وقريبين من الله عز وجل:

إن الملائكة المقربين يخافون من الباري عز وجل، قال تعالى في صفتهم: ﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۩ ﴾ [النحل: 50].

وإن الأنبياء الكرام يخافون من ربهم. فهذا رسول الله ﷺ أكرم الخلق على الله تقول عنه السيدة عائشة رضي الله عنها: «ما رأيت رسول الله ﷺ قط مستجمعاً ضاحكاً، حتى أرى منه لواته إنما كان يبتسم، وكان إذا رأى غيماً وريحاً عرف ذلك في وجهه، فقلت: يا رسول الله: الناس إذا رأوا الغيم فرحوا رجاء أن يكون المطر، وأراك إذا رأيته عرفت الكراهة في وجهك! فقال: «يا عائشة: ما يؤمنني أن يكون فيه عذاب؟ قد عذب قوم بالريح، وقد رأى قوم العذاب فقالوا: هذا عارض ممطرنا»[1].

وخاف الصحابة الكرام حتى إن الصديق رضي الله عنه كان يمسك لسانه ويقول: هذا الذي أوردني الموارد. وقال: يا ليتني كنت شجرة تعضد ثم تؤكل.

وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يسمع آية من القرآن هي قوله تعالى: ﴿ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ﴾ [الطور: 7] فيمرض فيعاد أياماً. وأخذ يوماً تبنة من الأرض فقال: يا ليتني كنت هذه التبنة، يا ليتني لم أك شيئاً مذكوراً، يا ليت أمي لم تلدني. وكان في وجهه خطان أسودان من البكاء.

---

(1) البخاري في تفسير القرآن قوله: ﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ ﴾ ، [4454]. ومسلم في صلاة الاستسقاء، باب: التعوذ عند رؤية الريح، رقم (1497).

فهذه مخاوف الملائكة والأنبياء والصحابة الكرام ونحن والمشايخ أجدر بالخوف منهم ولكن ليس الخوف بكثرة الذنوب ولكن بصفاء القلوب وكمال المعرفة، وإنما أمنا لغلبة جهلنا وقوة مساوئنا، فالقلب الصافي تحركه أدنى مخافة، والقلب الجامد تنبو عنه كل المواعظ[1].

إن كل إنسان مرهون بعمله يوم القيامة قال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾[المدثر: 38] فالشيخ مرهون بعمله ولا يدري هل ينجو يوم القيامة أم لا؟ .

وقال تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾[الإسراء: 15] أي لا تحمل نفس ذنب نفس أخرى. فكيف بعد هذا تكون صحبة المشايخ علة في الأمن يوم القيامة؟ إن هذا لا يدعيه إلا أحمق.

* * *

(1) منهاج القاصدين، ابن قدامة، ص: 337 وما بعدها.

تكرار حضور مجالس العلماء

يقول ابن عطاء الله: يكون بك حب الرياسة والجاه وغيرهما، وتقول: الشيخ ما يجذب قلوبنا، قل: العائق مني، لو استعددت في أول يوم، لما احتجت إلى حضور مجلس ثان، وإنما احتجت إلى التكرار لقوة صداء قلبك، حتى تكون لكل جلسة صقلة.

فمن كان قصده تزكية نفسه من شيخه فعليه أن يكون مهيأ لذلك بأن يتخلص من رعونات نفسه وأمراض قلبه فعند ذلك يستفيد من شيخه أو مرشده. ولكن لقوة صدأ القلب بسبب تلك الرعونات يحتاج المريد لتكرار الجلوس حتى يتطهر قلبه من الصدأ شيئاً فشيئاً.

❊ ❊ ❊

أهمية حضور مجالس العلماء

يقول ابن عطاء الله: إذا حضرت المجلس وخرجت إلى المخالفات والغفلات، فإياك أن تقول: ماذا يفيد الحضور؟ بل احضر. يكون بك مرض أربعين سنة، أفتريد أن يذهب عنك في ساعة واحدة، أو في يوم واحد، فمثاله كرمل رمى في موضع أربعين عاماً، أفتريد أن يزول في ساعة واحدة أو في يوم واحد، فمن فعل المعاصي وتقلب في الحرام لو انغمس في سبعة أبحر لم تطهره، حتى يعقد مع الله عقد التوبة.

لا يفتك مجلس الحكمة ولو كنت على معصية، فلا تقل: ما الفائدة في سماع المجلس، ولا أقدر على ترك المعصية، بل على الرامي أن يرمي فإن لم يأخذ اليوم يأخذ غداً.

وهذا تأكيد لما سبق من أن حضور مجالس العلماء يشترط لها التوبة من الذنوب والغفلة حتى يتطهر القلب، وتكون الإفادة العظيمة مما يسمعه من حقائق الإسلام، فإن بقي غافلاً على قلبه ران وحجاب من المعاصي فكيف يفهم القلب ما يسمع، شفاؤك بيدك أزل ذلك الحجاب، وانظر كيف يفيدك الحضور وسماع المواعظ.

عليك بحضور مجالس العلماء ولو كنت على معصية فإن لم تستفد اليوم ربما استفدت غداً. إذ جلسة واحدة من عالم صادق قد تحيلك من عبدٍ عاصٍ إلى عبد تائب خائف من الله وقد مر بك قول ابن عطاء الله: «ليس الرجل من يربيك لفظه بل الرجل من يربيك لحظه». وقد سمعت قصة الشيخ محمد الحامد رحمه مع شيخه أبي النصر فارجع إليها[1]. وتدبر فيها لتدرك أنك ما ينبغي أن يفتك مجلس الحكمة حتى ولو كنت على معصية.

* * *

---

(1) انظر، ص: 373.

تصحيح البدايات

يقول ابن عطاء الله: من أراد النهايات فعليه بتصحيح البدايات.

هذه العبارة جاءت في الحكم العطائية كالآتي: «من علامة النجح في النهايات الرجوع إلى الله في البدايات».

والمعنى إذا أردت أيها العبد طلب شيء وأردت أن ينجح أمره وتبلغ مرادك فيه وتكون نهايته حسنة وعاقبته محمودة، فارجع إلى الله في بداية طلبه، وانسلخ من حولك وقوتك مفوضاً أمرك إلى الله تنظر ما سبق في علم الله، كان ذلك علامة نجح نهايتك وحصول مطلبك قُضيت في الحس أو لم تقض، وإن طلبت شيئاً بنفسك معتمداً على حولك وقوتك حريصاً على قضائها جاهداً في طلبها كان ذلك علامة على عدم قضائها وخيبة الرجاء فيها وعدم نجح نهايتها وإن قضيت في الحس وكلت إليها فتعبت بسببها.

ثم كمل ابن عطاء هذه المسألة بقاعدة كلية بقوله: «من أشرقت بدايته أشرقت نهايته» [1].

إن خاتمة الإنسان لا تكون إلا ثمرة ونتيجة لما قبلها من البدايات والأحوال السابقة، إنها ليست إلا الصدى لما كانت عليه حال الإنسان من قبل معتقداً أو سلوكاً.

ألا فلتعلم أنه بمقدار ما تكون بداءات حياتك سليمة مستقيمة لا عوج فيها، تضمن لنفسك خاتمة حسنة إذا حان الرحيل وجاء الموت، وبمقدار ما تستسلم في البداءات السابقة من حياتك لعواصف الأهواء والشهوات ومحبة الأغيار، تغيب عنك هذه الخاتمة الحسنة [2].

* * *

---

(1) إيقاظ الهمم، ابن عجيبة، ص: 59.

(2) الحكم العطائية، شرح وتحليل د. محمد سعيد رمضان البوطي: 1/ 363.

فوائد الصدق مع الله

يقول ابن عطاء الله: من صدق مع الله كفاه الله مضرة الأعداء، وحمل عنه مؤنة الأرداء[1].

الصادق مع الله هو من باع نفسه وماله لله، إنها مسألة بيع وشراء فالله سبحانه اشترى منا أنفسنا وأموالنا وعوضنا بها الجنة، وفي الدنيا يجازيه الله بأن يعجل له ما يليق به في هذه الدار، ومن ذلك ما يدفع عنه المضار ويجلب له المنافع والمسرات، لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [الأعراف: 196]. وقال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: 2 – 3] وقال تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يونس: 62].

ولذلك يقول ابن عطاء الله في إحدى حكمه: «جل ربنا أن يعامله العبد نقداً فيجازيه نسيئة».

فالنقد ما كان معجلاً والنسيئة ما كان مؤخراً، ومن شأن الكريم إذا اشترى شيئاً أن ينجزه نقده ويزيد إحسانه ورفده، فالصادق مع الله جزاؤه الجنة آجلاً، وجزاؤه ما ذكرناه في الدنيا من التوفيق والهداية وأن يكفيه مضرة الأعداء ويحمل عنه مؤنة الأرداء[2]. أي يتكفل سبحانه بعونه ونصرته ولا يكله إلى معين أو أو ناصر من الخلق.

* * *

---

(1) الأرداء جمع ردء: وهو المعين والناصر، قال تعالى في قصة موسى: ﴿فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِيٓ﴾ [القصص: 34]. المعجم الوسيط، ص: 137.

(2) إيقاظ الهمم، ابن عجيبة، ص: 137.

تقوى الله وحسن الخلق

يقول ابن عطاء الله: التقوى هي ترك معصية الله حتى لو كنت لا يراك أحد.

سئل رسول الله ﷺ: «ما أكثر ما يدخل الناس الجنة، فقال عليه الصلاة والسلام: تقوى الله وحسن الخلق» فقيل له: فما أكثر ما يدخل الناس النار؟ فقال عليه الصلاة والسلام: الأجوفان: الفم، والفرج»[1].

فاغسل قلبك بالندم على ما فاتك من الله عز وجل، غلطوا والله في النوائح على زوجة، أو زوج، أو والد، أو ولد، بل كان من حقهم أن يقيموا النوائح على فقدانهم تقوى الله من قلوبهم.

التقوى من الاتقاء والحماية، وهي تعني: اتقاء المعاصي والذنوب بطاعة الله عز وجل حتى لو كنت لا يراك أحد. وهذا يعني مقام المراقبة أو الإحسان الذي قال عنه ﷺ: «أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك»[2].

وقد جمع النبي ﷺ بين تقوى الله وحسن الخلق في الحديث الذي ذكره ابن عطاء الله، لأن تقوى الله يصلح ما بين العبد وبين ربه وحسن الخلق يصلح ما بينه وبين خلقه، فتقوى الله توجب له محبة الله، وحسن الخلق يدعو الناس إلى محبته[3].

---

(1) ابن ماجه في الزهد، باب: ذكر الذنوب، رقم (4236). والترمذي في البر والصلة، باب: ما جاء في حسن الخلق، رقم (1927) وقال: صحيح غريب.

(2) البخاري في الإيمان، باب: سؤال جبريل النبي عن الإيمان والإسلام والإحسان، رقم (48). ومسلم في الإيمان، باب: بيان الإيمان والإسلام والإحسان، رقم (274).

(3) الفوائد، ابن القيم، ص: 79.

فتقوى الله وحسن الخلق إذاً هي أكثر ما يدخل الناس الجنة؛ إذ إن الجنة أعدت للمتقين كما قال تعالى: ﴿ ۞ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ﴾[آل عمران: 133].

وحسن الخلق سبب محبة الرسول ﷺ للعبد وسبب القرب منه ﷺ في الجنة لقوله ﷺ: «إن أحبكم إلي وأقربكم مني مجلساً يوم القيامة أحاسنكم أخلاقاً»[1].

أما أكثر ما يدخل النار فهما الأجوفان: الفم والفرج كما قال ﷺ:

لأنه بالفم تكون الغيبة والنميمة والسب والشتم والكلام فيما لا يعني وذلك سبب لدخول النار كما قال ﷺ لمعاذ: «هل يكب الناس في النار إلا حصائد ألسنتهم»[2].

وأما الفرج إذا لم يحفظه صاحبه فإنه سبب لجريمة الزنى، قال ﷺ: «من يضمن لي ما بين لحييه أي اللسان – وما بين رجليه- أي الفرج- أضمن له الجنة»[3]. وكان ﷺ يقول في دعائه: «اللهم إني أعوذ بك من شر سمعي وبصري وقلبي ومنيي»[4].

ثم قال ابن عطاء الله: «فاغسل قلبك بالندم على ما فاتك من الله عز وجل. . . ». إلخ الفقرة.

---

(1) الترمذي في البر والصلة،، باب: ما جاء في معالي الأخلاق، رقم (1941). وقال: حسن غريب.

(2) الترمذي في الإيمان، باب: ما جاء في حرمة الصلاة، رقم (2541) . وقال: حسن صحيح. وابن ماجه في الفتن، باب: كف اللسان عن الفتنة، رقم (3963).

(3) البخاري في الرقاق، باب: حفظ اللسان، رقم (5993).

(4) الترمذي في الدعوات، باب: ما جاء في عقد التسبيح باليد، رقم (3414). وقال: حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه من حديث سعيد بن أوس عن بلال بن يحيى. والنسائي في الاستعاذة، باب: الاستعاذة من شر السمع والبصر، رقم (5349). وأبو داود في الصلاة، باب: في الاستعاذة رقم (1327). وأحمد في مسند المكيين، حديث شكل بن حميد، رقم (14992).

فالندم والحزن لا يكون على فقدان الزوجة أو الزوج أو الوالد أو الولد إذ هؤلاء لا ينفعوك عند ربك، بل الذي ينفعك هو تقوى الله، فابك على فوات التقوى من قلبك وأن يكون الناس قد تزودوا بالتقوى للآخرة وأنت صفر اليدين.

قال الشاعر:

إذا أنت لم ترحل بزاد من التقى ... وأبصرت يوم الحشر من قد تزودا

ندمت على أن لا تكون كمثله ... وأنك لم ترصد كما كان أرصدا

* * *

حسن الخلق هو القيام بحقوق الله تعالى

يقول ابن عطاء الله: أتحسب أن حسن الخلق هو أن يكون الإنسان حسن الملتقى؟. ومن أكرم الناس وضيع حقوق الله تعالى؟. ليس هذا بحسن خلق، بل لا تكون ممدوحاً بحسن الخلق، حتى تكون قائماً بحقوق الله تعالى، وقائماً بأحكامه مستسلماً لأوامر الله، مجتنباً لنواهيه، فمع منع نفسه معاصي الله، وأدى حقوق الله فقد حسن خلقه.

ليس حسن الخلق ما يرضي الناس، بل ما يرضي الله سبحانه، وعندما قال النبي ﷺ: «أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً، وخياركم خياركم لنسائهم خلقاً»[1].

انظر كيف ربط حسن الخلق مع اللطف بالزوجة، إذ إن كثيراً من المسلمين تحسبهم ملائكة تسير على الأرض، لا يكاد أحدهم يُغلق باب منزله من ورائه حتى ينقلب شيئاً آخر، فهو بين الناس حسن الكلام مهذب اللفظ، لكن في بيته خشن قذر الألفاظ، هو بين الناس ناعم يسيل عذوبة ورقة، لكنه في بيته جاف غليظ الطبع فاجر متوحش. إنه حسن الملتقى لكن ضيع حقوق الله التي أمره بها في بيته.

إذاً حسن الخلق نابع عن الإيمان ومن ثمراته أداء حقوق الله واجتناب نواهيه. فمن فعل ذلك كان حسن الخلق، وإلا فلا؟!.

* * *

(1) الترمذي في الرضاع، باب: ما جاء في حق المرأة على زوجها، رقم (1082). وقال: حسن صحيح. وأحمد في باقي مسند المكثرين، مسند أبي هريرة، رقم (7095).

نقاء البصيرة

يقول ابن عطاء الله: بدل ما تقول: أين أصحاب الخطوة؟ أي الأولياء؟ أي الرجال؟ قل: أين البصيرة؟.هل يصلح للمتلطخ بالعذرة أن يرى بنت السلطان؟!.

البصيرة: نور يقذفه الله في القلب كالبصر في العين، يرى به حقيقة الأشياء وحقيقة القرآن وما أخبرت به الرسل عن ربهم عز وجل[1]. والبصيرة جاءت في القرآن الكريم مرتين، قال تعالى: ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ﴾ [يوسف: 108]. وقال عز وجل: ﴿ بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ﴾ [القيامة: 14- 15]. على نفسه بصيرة أي: على معرفة وتحقيق[2].

سبب عدم وجدانك للأولياء والرجال الصالحين هو حجاب بصيرتك بسبب ما ران عليها من الذنوب والشهوات، فمن رمدت عينه كيف يرى الشمس ومن رمدت بصيرته كيف يرى أولياء الله.

صحح بصيرتك بتوبة صادقة واجتهد في طاعة الله تجد الكثير من حولك ممن هم مثلك في الطاعة وممن سبقوك في القرب من الله سبحانه.

يقول ابن عطاء الله في إحدى حكمه: «سبحان من لم يجعل الدليل على أوليائه إلا من حيث جعل الدليل عليه، ولم يوصل إليهم إلا من أراد أن يوصله إليه».

فالأولياء الذين تولاهم الله بعنايته واصطفاهم لنفسه واختصهم بمحبته وطهر قلوبهم من الأغيار، لم يظهرهم إلا لمن يعرفهم، لأن الحق تعالى أغير على أوليائه من أن يظهرهم إلى من لا يعرفهم، فلم يجعل لأحد دليلاً عليهم إلا من حيث الدليل عليه، ولم يوصل إليهم إلا

---

(1) مدارج السالكين، ابن قيم الجوزية: 1/ 143.

(2) صفوة التفاسير، محمد علي الصابوني: 3/ 461.

من أراد أن يوصله إليه. إذ لا يعرفه سبحانه إلا من صدق في عبوديته وتوجه بقلبه إلى ربه. بل كثيراً من الخلق محجوبون عن ربهم بسبب طغيان الهوى على بصيرتهم.

إذاً حتى تعرف الأولياء كن مثلهم في الطاعة والعبادة وكن محباً لهم محترماً لهم في الظاهر والباطن وصحح بصيرتك بتوبة صادقة إلى الله تعالى.

* * *

لا تؤذ مؤمنا

يقول ابن عطاء الله: من أكرم مؤمناً فكأنما أكرم الله، ومن آذى مؤمناً فقد آذى سيده ومولاه.

فإياك أن تؤذي مؤمناً، فإن نفسك قد امتلأت بمساويها، يكفيك حملك.

قال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا ﴾[الأحزاب: 58].

فلا يجوز إيذاء المسلم بقول ولا فعل، ولا التكبر عليهم ولا سماع بلاغات الناس بعضهم في بعض، ولا تبليغ بعضهم ما تسمع من بعض.

إن إيذاء المؤمن إيذاء لله سبحانه؟. وهي مبالغة لخطورة إيذاء المؤمن إذ لا يمكن لأحد أن يؤذي الله سبحانه! والدليل على ذلك قوله تعالى في الحديث القدسي: «من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب»[1].

لقد ارتكب من عادى ولياً جرماً عظيماً استحق بذلك عذاب الله وهلاكه.

ويقول تعالى في الحديث القدسي: «الكبرياء ردائي والعظمة إزاري فمن نازعني في أحدهما عذبته»[2].

والتكبر والعظمة تكون على الخلق فهي إيذاء لهم ولذلك تعرض صاحبها لعقوبة الله سبحانه.

---

(1) البخاري في الرقاق، باب: التواضع، رقم (6021).

(2) مسلم في البر والصلة، باب: تحريم الكبر، رقم (4752).

إن المسلم من سلم المسلمون من لسان ويده كما قال ﷺ[1].

وبالمقابل فإن إكرام المؤمن إكرام لله، يشهد لهذا قوله ﷺ: «من لم يشكر الناس لم يشكر الله»[2].

وإكرام المسلم: أن تسلم عليه إذا لقيته، وتجيبه إذا دعاك، وتشمته إذا عطس[3]، وتعوده إذا مرض، وتشهد جنازته إذا مات، وتبر قسمه، وتنصح له إذا استنصحك، وتحفظه بظهر الغيب إذا غاب، وتحب له ما تحب لنفسك وتكره له ما تكره لنفسك.

وانظر إلى هذا المعنى في الحديث القدسي الذي يقول فيه رب العالمين: «عبدي استطعمتك فلم تطعمني، قال: وكيف أطعمك وأنت رب العالمي، قال: وكيف أطعمك وأنت رب العالمي، قال: ألم تعلم أن فلاناً استطعمك فلم تطعمه أما إنك لو أطعمته لوجدت ذلك عندي. . . إلخ الحديث»[4].

* * *

(1) البخاري في الإيمان باب: المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده، رقم (10). ومسلم في الإيمان، باب: بيان تفاضل الإسلام، رقم (57).

(2) الترمذي في البر والصلة، باب: ما جاء في الشكر لمن أحسن إليك، رقم (1878). وقال: حسن صحيح. وأحمد في باقي مسند المكثرين، مسند أبي سعيد الخدري، رقم (10850).

(3) للأسف كثير من المسلمين لا يعلمون كيفية تشميت العاطس، وإذا شمت أحدهم وقيل له: يرحمك الله، تحير ولم يعرف الإجابة؟.

(4) مسلم في البر والصلة والآداب، باب: فضل عيادة المريض، رقم (4661).

المرور على الصراط

يقول ابن عطاء الله: فإن أردت أن تعرف كيف تمر على الصراط فانظر حالك في الإسراع إلى المساجد، فيكون جزاء الذي يأتي المسجد قبل الأذان أن يمر على الصراط كالبرق الخاطف، والذي يأتي في أول الوقت يمر عليه كأجاويد الخيل، وها هنا صراط الاستقامة لا يشهد بالأبصار، ولكن تشهده القلوب، قال الله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [الأنعام: 153]. ولم يشر إلا إلى موجود، فمن أضاءت له الطريق يتبعها، ومن كانت طريقه مظلمة لم يشهدها فيبقى متحيراً، فإن كنت قد أطلقت سمعك وبصرك ولسانك برهة من عمرك فقيد الآن ما أطلقت.

الصراط جسرٌ يضرب على جهنم كما أخبر بذلك النبي ﷺ ففي الصحيحين: «ويضرب جسر جهنم فأكون أول من يجيز، ودعاء الرسل يومئذ اللهم سلم سلم وبه كلاليب، مثل شوك السعدان، أما رأيتم شوك السعدان؟ قالوا: بلى يا رسول الله، فقال: فإنها مثل شوك السعدان غير أنه لا يعلم قدر عظمها إلا الله. فتخطف الناس بأعمالهم منهم الموبق بعمله ومنهم المخردل ثم ينجو. . »[1].

والصراط هو المنهج الذي أمرنا الله باتباعه بقوله: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ﴾ [الأنعام: 153].

إن اجتياز الصراط يوم القيامة هو انعكاس لأعمالك في الدنيا فإن كنت قد أعطيت نفسك ما تشتهي ووسعت لها في الملذات ضاق صراطك، يوم القيامة حتى يصبح أحد من السيف، وإن كنت ضيقت على نفسك سبل الشهوات وحجزتها عن معصية الله اتسع صراطك حتى كأنه جادة عريضة.

---

(1) سبق تخريجه، ص: 117.

أما الكلاليب المذكورة في الحديث التي تخطف الناس فإنها بسبب أعمالهم لأنهم اتخذوا الدنيا للهو واللعب فنسوا بسب ذلك هذه المواقف التي ستواجههم يوم القيامة، قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ... ﴾[الأعراف: 51].

* * *

الفقراء والأغنياء

يقول ابن عطاء الله: قال رسول الله ﷺ: «يدخل فقراء المؤمنين الجنة قبل الأغنياء بخمسمائة عام»[1]. وذلك لأنهم سبقوا في الدنيا بالعبادات، وأنت تترك الجماعة وتصلي وحدك، وإذا صليتها نقرتها نقر الديك، وهل يهدى للملوك إلا ما حسن وانتخب؟. فما سبق الفقراء إلى الجنة إلا لأنهم سبقوا إلى خدمة المولى في الدنيا، والمراد بالفقراء الصبر: الذين صبروا على مر الفاقة، حتى إن أحدهم ليفرح بالشدة كما تفرح أنت بالرخاء، فدخول الفقراء الجنة يدل على تحضيضهم على الفاقة.

الأحق بدخول الجنة هو الأعلم بسنة النبي ﷺ وأتبعهم لها.

وفي ذلك يقول ابن القيم في كتابه: «عدة الصابرين».

«وما ينبغي أن يُعلم أن كل خصلة من خصال الفضل قد أحل الله رسوله ﷺ في أعلاها، وخصه بذروة سنامها، فإذا احتجت بحاله فرقة من فرق الأمة التي تعرف تلك الخصال وتقاسمتها على فضلها على غيرها، أمكن للفرقة الأخرى أن تحتج به على فضلها أيضاً.

فإذا احتج به الغزاة والمجاهدون على أنهم أفضل الطوائف، احتج به العلماء على مثل ما احتج به أولئك، وإذا احتج به الزهاد والمتخلفون عن الدنيا على فضلهم، احتج به الداخلون في الدنيا والولاية، وسياسة الرعية، لإقامة دين الله، وتنفيذ أوامره.. . إلى أن قال:

---

(1) ابن ماجه في الزهد، باب: منزلة الفقراء، رقم (4112). وأحمد، باقي مسند المكثرين، مسند أبي هريرة رقم (7605). والترمذي في الزهد، باب: ما جاء أن فقراء المهاجرين يدخلون الجنة قبل الأغنياء، وقال: حسن صحيح.

وإذا احتج به الفقير الصابر، احتج به الغني الشاكر. . . ثم قال: «والمقصود بهذا الفصل: أنه ليس الفقراء والصابرون، أحق به ﷺ من الأغنياء الشاكرين وأحق الناس به أعلمهم بسنته وأتبعهم لها»[1].

فإذا كان الفقير صابراً فإنه أحق بدخول الجنة من الغني غير الشاكر، وهذا معنى قول ابن عطاء الله: «المراد بالفقراء الذين صبروا على الفاقة».

وإذا كان الغني شاكراً فهو أحق بدخول الجنة من الفقير الذي لم يصبر على فقره وفاقته.

أما إذا تساوى الغني مع الفقير من التقوى فالغني الشاكر أفضل عند الله لإنفاقه المال في سبيل الله.

إن الفقير عندما يسبق الغني بالطاعات فمن الطبيعي أن يدخل الجنة قبل الغني.

فالفقير الذي خشع في صلاته وحافظ على صلاة الجماعة، أفضل من الغني الذي عقله وقلبه قد شغفا بحب المال فهو لذلك يترك الجماعة ويصلي وحده في داره أو محله صلاة سريعة ينقرها نقر الديك. فكأنه لم يصل كما قال ﷺ لذلك الرجل الذي أسرع في صلاته، قال ﷺ: «ارجع فصل فكأنك لم تصلِّ»[2].

إن الفقير إلى الله المنخلع من اعتماده على نفسه المعتمد على الله وتوفيقه وتدبيره المتصف بذل عبوديته له، أفضل ممن يعتقد على نفسه وماله وغناه مدبراً لنفسه ولا يأبه لتوفيق الله وتدبيره؟!.

* * *

---

(1) عدة الصابرين، ابن القيم، ص: 412 وما بعدها.

(2) البخاري في صفة الصلاة، باب: وجوب القراءة للإمام والمأموم. . .، رقم (724).

تكريم الله للإنسان

يقول ابن عطاء الله: جعلك الله في العالم الأوسط بين ملكه وملكوته، ليعلمك جلالة قدرك بين مخلوقاته، وأنك جوهرةٌ انطوت علها أصداف مكوناته، أنت مع الأكوان ما لم تشهد المكون، فإذا شهدته كانت الأكوان معك.

هذه إحدى الحكم العطائية وتعني: أن الله جعل الإنسان عالماً متوسطاً بين ملكه وهو عالم الشهادة وملكوته وهو عالم الغيب. ولم يجعلك ملكياً محضاً ولا ملكوتياً محضاً، بل جعل فيك من عالم الملك جسمك، ومن عالم الملكوت روحك وسرك، ليعلمك جلالة قدرك بين مخلوقاته، حيث جمعت بين الظاهر والباطن، وبين الجسمانيات والروحانيات، ففيك انطوى العالم الأكبر.

كما قال سيدنا علي رضي الله عنه:

وتزعم أنك جرمٌ صغير ... وفيك انطوى العالم الأكبر

ومتى تدبرت ذلك علمت أنك جوهرة نفيسة، تنطوي أي: تحتوي عليك للخدمة والحفظ مكوناته التي هي لك كالأصداف المحيطة بالجوهرة. فإن الله تعالى سخر لك جميع مخلوقاته لنفعك كما قال تعالى: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مِّنۡهُۚ ﴾ [الجاثية: 13]. فينبغي لك أن ترفع همتك عن الأكوان، وتشتغل بعبادة الكريم المنان، فإنه يقبح منك أن تخدم الخدم وتترك عبادة مولي النعم[1].

والأكوان هي هذه الأشياء من حولك، فمن كان مع الأكوان فقد تقيد بها واحتاج إليها، ثم تتخلى عنه ولا يبقى إلا عمله.

---

(1) شرح الحكم العطائية، عبد المجيد الشرنوبي، ص: 163، 164.

فمن عرف هذه الحقيقة وأن الأكوان حجاب تحجبه عن شهود الله، تخلى عنها واتجه بشهوده إلى الله تعالى فعلم أنه الخالق والمنعم والمحسن الأوحد عندئذ يستغني عن الأكوان ويتحرر من أسر عبوديتها، وتصبح هي محتاجة إليه وخادمة له ومتبركة به.

* * *

أنواع الصحبة

يقول ابن عطاء الله: فإن قيل: كيف الصحبة لله، فاعلم أن صحبة كل شيء على حسبه، فصحبة الله تعالى بامتثال أوامره واجتناب نواهيه، وصحبة الملكين أن يمليهما الحسنات، وصحبة الكتاب والسنة أن يعمل بهما، وصحبة السماء بالتفكر فيها، وصحبتك الأرض بالاعتبار لما فيها، وليس من لازم الصحبة وجود الرتبة، فالمعنى صحبة الله أياديه ونعمه، فمن صحب النعم بالشكر، وصحب البلاء بالصبر، وصحب الأوامر بالامتثال، والنواهي بالانزجار، والطاعة بالإخلاص، فقد صحب الله تعالى، فإذا تمكنت الصحبة كانت خلة.

- صحبة الله هي امتثال أوامره واجتناب نواهيه، فعندما يأمرنا الله بأمر كقوله تعالى: ﴿ وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ ﴾ [الإسراء: 26] فعلينا امتثال هذا الأمر وتطبيقه عملياً في حياتنا، وعندما ينهانا الله عز وجل عن الزنى بقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴾ [الإسراء: 32]. فعلينا الابتعاد عن هذه الجريمة، وهكذا في كل أمر أمرنا الله به وكل نهي نهانا عنه.

- وصحبة الملكين أن يمليهما الحسنات: قال تعالى: ﴿ إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ [ق: 17: 18].

فالملكان الموكلان يتلقيان: أي يحفظان ويكتبان أعمال الإنسان ملك عن اليمين يكتب الحسنات وملك عن الشمال يكتب السيئات.

- وصحبة الكتاب والسنة أن يعمل بهما: قال ﷺ: «تركتكم على البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها بعدي إلا هالك، من يعش منكم فسيرى اختلافاً كثيراً فعليكم بما عرفتم من سنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين عضوا عليها بالنواجذ»(1).

---

(1) ابن ماجه في المقدمة، باب: اتباع سنة الخلفاء الراشدين المهديين، رقم (43). وأحمد، مسند الشاميين، حديث العرباض بن سارية، رقم (16519).

وقال ﷺ: «تركت فيكم شيئين لن تضلوا بعدهما كتاب الله وسنتي ولن يتفرقا حتى يردا علي الحوض»(1).

- وصحبة السماء بالتفكر فيها، وصحبتك الأرض بالاعتبار لما فيها: قال: ﴿ قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ ﴾[يونس: 101].

وقال: ﴿ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾[آل عمران: 191].

فانتقلوا من شهود الأكوان إلى شهود المكون سبحانه وتعالى.

ثم يقول ابن عطاء الله: «وليس من لازم الصحبة وجود الرتبة».

أي أن يكون الصاحب مثل المصحوب، ليس هذا المقصود إنما المقصود طاعة الله في أوامره وشكره على نعمه والصبر على البلاء والإخلاص في كل ذلك. عندئذ تتمكن الصحبة لتصبح خلة.

والخلة هي: الصداقة الحميمة والمحبة التي تخللت القلب فصارت خلاله أي في باطنه.

قال ﷺ: «لو كنت متخذاً من أمتي خليلاً: لاتخذت أبا بكر ولكن أخي وصاحبي ﷺ »(2). أي هو أخي في الإسلام أما الخلة فقد اتخذ الله نبيه محمداً ﷺ خليلاً كما اتخذ إبراهيم خليلاً وفي رواية «لو كنت متخذاً خليلاً غير ربي».

فخلة العبد لربه هي طاعته، وخلة الله للعبد بمعنى نصره له ومعاونته.

* * *

---

(1) الحاكم في المستدرك، رقم (319): 1/ 172. والبيهقي في السنن الكبرى: 10/ 113. والدارقطني، رقم (149): 4/ 245.

(2) البخاري في المناقب، باب: قول النبي : لو كنت متخذاً خليلاً، (3383).

التواضع والتأدب مع الله تعالى

يقول ابن عطاء الله: كان النبي ﷺ إذا شرب الماء، قال: «الحمد لله الذي جعله عذباً فراتاً برحمته، ولم يجعله ملحاً أجاجاً بذنوبنا». وهو ﷺ مقدس عن الذنوب، ولكن تواضعا منه وتعليماً، وكان يمكنه أن يقول: بذنوبكم، وما أكل ﷺ ولا شرب إلا ليعلمنا الأدب، وإلا فكان عليه الصلاة والسلام يطعم ويسقى[1].، فالعارف ينكس رأسه إذا شرب، وربما تقطر عيناه بالدموع ويقول: هذا تودد من الله تعالى.

يعلمنا ابن عطاء الله كيفية التأدب مع الله، فإذا أحس الإنسان بنعمة وتلذذ بها لم ينس المنعم بل ينكس رأسه خجلاً من الله وشكراً له على هذه النعمة!. . إذ لم يكن همه إشباع بطنه بل التقوي على طاعة الله سبحانه.

فليتفكر كيف أن الله أنعم عليه بنعمة الإحساس فرزق الحواس الخمسة، وآلة الحركة في طلب الغذاء، فلو خلق لك البصر حتى تدرك به الطعام، ولم يخلق لك في الطبع شوقاً إليه وشهوة تستحثك على الحركة، كان البصر معطلاً، فكم من مريض يرى الطعام وهو أنفع الأشياء له، ولا يقدر على تناوله لسقوط شهوته، فانظر إلى هذه النعم لتقوى على الشكر، ولتتأدب مع الله عند الطعام والشراب وتقول: هذا تودد ومن الله، إنه يحببنا بذاته سبحانه ونحن غافلون عن كل هذا، ما هذا الحمق؟.

---

(1) هذه مبالغة، فالنبي ﷺ يتصف بصفات البشر وإن كان نبياً يوحى إليه، قال تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ ﴾ فهو يجوع ويشبع. وله خصوصية عند ربه تختلف عن البشر، وقد خرج النبي ﷺ من بينه مرة من الجوع، وفي غزوة الخندق كان يربط حجراً على بطنه من الجوع ﷺ.

أما قول ابن عطاء الله –رحمه الله– : «وإلا فكان عليه الصلاة والسلام يطعم ويسقى» وذلك عندما نهى النبي ﷺ صحابته الكرام عن الوصال فقالوا له: «إنك تواصل، فقال ﷺ: إني لست كهيئتكم، إني أطعم وأسقى»[1].

وقد غلط من ظن أن هذا طعام وشراب حسي للفم. ولو كان كما ظنه هذا الظان: لما كان صائماً، فضلاً عن أن يكون مواصلاً. ولما كان جوابه ﷺ: «إني لست كهيئتكم». فأجاب بالفرق بينه وبينهم. ولو كان يأكل ويشرب بفيه الكريم حساً، لكان الجواب أن يقول: وأنا لست أواصل أيضاً. فلما أقرهم على قولهم: «إنك تواصل» علم أنه ﷺ كان يمسك عن الطعام والشراب، ويكتفي بذلك الطعام والشراب العالي الروحاني، الذي يغني عن الطعام والشراب الحسي[2].

* * *

(1) البخاري في الصوم، باب: بركة السحور، رقم (1788).

(2) مدارج السالكين، ابن القيم: 3/ 87.

العلم والعمل به

ما فائدة العلم إلى العمل به، مثاله كملك كتب إلى نائبه كتاباً، فما فائدة الكتاب أن تقرأه فقط، إنما فائدته العمل به.

يقول الإمام الغزالي – رحمه الله- ينصح ذلك الطالب: «أيها الولد: ولو قرأت العلم مئة سنة، وجمعت ألف كتاب، لا تكون مستعداً لرحمة الله تعالى إلا بالعمل لقوله تعالى: ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴾[النجم: 39]. وقوله تعالى: ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا ﴾ [الكهف: 110]. وقوله تعالى: ﴿ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾[التوبة : 82]. وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴾، وقوله تعالى: ﴿ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا ﴾[الفرقان: 70].

وما تقول في هذه الأحاديث؟: «بني الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت من استطاع إليه سبيلاً» [1].

والإيمان: قول باللسان، وتصديق بالجنان، وعمل بالأركان. . .

أيها الولد: ما لم تعمل لم تجد الأجر. قال علي ﷺ: من ظن أنه دون الجهد يصل فهو متمن، ومن ظن أنه ببذل الجهد يصل فهو مستغن. أي أنه يركن على عمله غير محتاج إلى فضل الله ورحمته. . . وقال رسول الله ﷺ : «الكيس من دان نفسه، وعمل لما بعد الموت، والأحمق من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله [2]»[3].

---

(1) البخاري في الإيمان، باب: بني الإسلام على خمس، رقم (7). ومسلم في الإيمان، باب: بيان أركان الإسلام ودعائمه العظام، رقم (21).

(2) الترمذي في صفة القيامة والرقائق، رقم (2383). وقال: حديث حسن. وابن ماجه في الزهد، باب: ذكر الموت والاستعداد له، رقم (4250). وأحمد، مسند الشاميين، حديث شداد بن أوس، (16501).

(3) أيها الولد، الغزالي، ص: 8 وما بعدها.

إن العلم بلا عمل إكثار من حجة الله على العالم لأنه سيحاسبه قائلاً له: أنت تعلم كذا وكذا فهل عملت بما علمت؟!. ولذلك قالت أم الدرداء لرجل: هل عملت بما علمت؟ قال: لا. قالت: فلم تستكثر من حجة الله عليك؟. وقال الفضيل: يغفر للجاهل سبعون ذنباً قبل أن يُغفر للعالم ذنب واحد، فما يبلغ من الكل قوله تعالى: ﴿ ۞ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ﴾[الرعد: 19][1].

ولنستمع لابن الجوزي يحدثنا عن صحبته للمشايخ ويبين أن الذي انتفع منه هم العاملون بما علموا فيقول: «ولقيت مشايخ أحوالهم مختلفة، يتفاوتون في مقاديرهم في العلم، وكان أنفعهم لي في صحبته العامل منهم بعلمه وإن كان غيره أعلم منه، ولقيت جماعة من علماء الحديث يحفظون، ويعرفون، ولكنهم كانوا يتسامحون بغيبة يخرجونها مخرج جرح وتعديل، ويسرعون الجواب لئلا ينكسر الجاه وإن وقع خطأ. ولقيت عبد الوهاب الأنماطي فكان على قانون السلف لم يسمع في مجلسه غيبة، ولا كان يطلب أجراً على سماع الحديث، وكنت إذا قرأت عليه أحاديث الرقاق بكى واتصل بكاؤه، فكنت – وأنا صغير السن حيئذٍ– يعمل بكاؤه في قلبي ويبني قواعد. . . ورأيت مشايخ كانت لهم خلوات في انبساط ومزاح، فراحوا عن القلوب، وبدد تبديدهم ما جمعوا من العلم، فقل الانتفاع بهم في حياتهم ونسوا بعد مماتهم، فلا يكاد أحد يلتفت إلى مصنفاتهم، فالله الله في العلم والعمل»[2].

إذاً العلم سابق للعمل ويدل عليه، وانظر كيف بدأ الله بالعلم التوحيد ثم أتبعه بالاستغفار وهو عمل فقال سبحانه: ﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ﴾[محمد: 19].

وغلط بعضهم ففضلوا العبادة على العلم، وهذا مخالف لسنة النبي ﷺ التي تثبت أن العلم أفضل من العبادة.

---

(1) صيد الخاطر، ص77.

(2) صيد الخاطر، ص: 180، 181.

يقول ﷺ: «فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب»[1].

ومن حكم ذلك أن العلم نفعه متعد ونفع العبادة قاصر على صاحبه.

ولأن العلم هو الذي يكشف الغوامض من المسائل ويجد الحلول للمشكلات فذلك الذي حدث عنه النبي ﷺ أنه قتل تسعة وتسعين نفساً، فسأل رجلاً عابداً هل له من توبة فقال له: لا توبة لك، فقتله، ثم سأل رجلاً عالماً فقال له: ويحك ومن يحول بينك وبين التوبة اخرج من القرية الخبيثة التي أنت فيها إلى القرية الصالحة قرية كذا وكذا فاعبد ربك فيها. . .»[2].

وبالعلم تعرف الحلال من الحرام والسنة من البدعة ودون العلم قد يقع المرء في باطل وهو يظنه حقاً، ويرتكب البدعة وهو يحسبها سنة، ويتورط في الحرام وهو يتوهمه حلالاً.

فالعلم أفضل من العبادة، لأن العلم يدل صاحبه على العمل الأفضل عند الله، وإن كان أقل من غيره مشقة، فصاحب العلم أقل تعباً ومعاناة، وهو أكثر مثوبة وأجراً، وانظر إلى الصناع والأجراء كيف يعانون الأعمال الشاقة بأنفسهم والأستاذ المعلم يجلس يأمرهم وينهاهم، ويريهم كيفية العلم، ويأخذ أضعاف ما يأخذونه.

ولذلك قال أحدهم: ما سبقكم أبو بكر ﵁ بكثرة صوم ولا صلاة، ولكن بشيء وقر في قلبه !.

أي ما وقر في قلبه من العلم بالله والهيبة له والتعظيم لحرماته.

* * *

---

(1) الترمذي في العلم، باب: ما جاء في فضل الفقه على العبادة، رقم (2606). وقال: لا تعرف هذا الحديث إلا من حديث عاصم بن رجاء بن حيوه وليس هو عندي بمتصل. وأبو داود في العلم، باب: الحث على طلب العلم، رقم (3157). وابن ماجه في المقدمة، باب: فضل العلماء والحث على طلب العلم، رقم (219). وأحمد في مسند الأنصار، باقي حديث أبي الدرداء، رقم (29723).

(2) البخاري في أحاديث الأنبياء، حديث الغار، رقم (3211). ومسلم في التوبة، باب: قبول توبة القاتل وإن كثر قتله، رقم (4968).

الرحلة من الأكوان إلى المكون

يقول ابن عطاء الله: لا ترحل من كون إلى كون فتكون كالحمار في الرحى[1]. يسير والذي ارتحل إليه هو الذي ارتحل فيه، ولكن ارحل من الأكوان إلى المكون، ﴿ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴾ [النجم: 42].

هذا جزء من إحدى الحكم العطائية وباقي الحكمة: «وانظر إلى قوله ﷺ: «فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه»[2].

فافهم قوله عليه الصلاة والسلام، وتأمل في هذا الأمر إن كنت ذا فهم.

قال تعالى: ﴿ وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾ وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَٰهَا فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ ﴿٤٨﴾ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾ فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ وَلَا تَجْعَلُواْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾[الذاريات: 47- 51].

هذه آيات خمس، الثلاث الأولى منها وصفت الأكوان علوها وسفلها وما انبث فيها من حياة وأحياء.

والاثنتان الأخريان انتقلت من الأكوان إلى المكون فتحدثت عن وجوده ثم توحيده.

إن من له أدنى مسكة يعرف – من العالمين- رب العالمين، ويعرف -من الأكوان- صاحب هذه الأكوان[3] !!.

---

(1) لفظ الحكم: كحمار الرحى.

(2) البخاري في بدء الوحي، باب: بدء الوحي، رقم (1). ومسلم في الإمارة، باب: قوله إنما الأعمال بالنية، رقم (3530).

(3) الجانب العاطفي من الإسلام، محمد الغزالي، ص: 127.

فمن كانت همته الحظوظ والشهوات النفسية والتعلق بالمكونات فقط، فحاله حال حمار الساقية في السير دائم وهو في موضعه قائم يظن أن قطع مسافة مما طلب، وما زاد إلا نقصاً مع تعب.

فينبغي أيها العبد أن ترحل من رؤية الأكوان إلى شهود المكون سبحانه وتعالى.

ثم استدل على طلب رفع الهمة إلى الله مع الإعراض عما سواه بحديث الهجرة الذي في الصحيح، فقال: «وانظر إلى قوله ﷺ فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله . . . إلخ الحديث».

أي من هاجر قاصداً بهجرته الوصول إلى رضا الله ورسوله فهجرته موصلة إلى الله ورسوله على حسب قصده وهمته، ومن كانت هجرته إلى حظوظ نفسه وهواه فقد خاب قصده ومسعاه وغاية هجرته ما هاجر إليه وكانت هجرته زيادة في جر الوبال إليه [1].

وذكر ابن عطاء الله في حكمة أخرى ما يشبه هذه الحكمة فقال: «أباح لك أن تنظر في المكونات وما أذن لك أن تقف مع ذوات المكونات: ﴿ قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [يونس: 101] فبقوله انظروا ماذا في السموات فتح لك باب الأفهام ولم يقل انظروا السموات لئلا يدلك على وجود الأجرام».

فلا يجوز الوقوف عند المكونات كالسماء، وإنما الانتقال من السموات إلى خالق السموات سبحانه وتعالى.

* * *

---

(1) إيقاظ الهمم، ابن عجيبة، ص: 74.

من هو الفقيه

يقول ابن عطاء الله: قال الشيخ أبو الحسن رضي الله تعالى عنه: ليس الفقيه من فقأ الحجاب عيني قلبه، وإنما الفقيه من فهم سر الإيجاد، وأنه ما أوجده إلا لطاعته، ولا خلقه إلا لخدمته، فإذا فهم هذا كان هذا الفقه منه سبباً لزهده في الدنيا وإقباله على الآخرة وإهماله لحظوظ نفسه واشتغاله بحقوق سيده، مفكراً بالمعاد، قائماً بالاستعداد، قال رسول الله ﷺ: «المؤمن القوي خير عند الله من المؤمن الضعيف وفي كل خير»[1]. والمؤمن القوي هو الذي أشرق في قلبه نور اليقين.

قال ﷺ: «من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين»[2]. وقال: «إذا أراد الله بعبد خيراً فقهه في الدين وبصره بعيوب نفسه»[3]. فالفقه في الدين سبب لمعرفة النفس.

والفقه: العلم، أي العلم بالأحكام الشرعية، قال تعالى: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾[التوبة: 122].

فليس الفقيه من كانت الذنوب والمعاصي وعيوب النفس حجاباً يحجبه عن الله وشهود عظمته، بل الفقيه من فهم سر قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[الذاريات: 56]. فهل رأيت عبداً يشتريه سيده للأكل والشرب؟. إنه اشتري لطاعة سيده.

فالعاقل من زهد في الدنيا ونسي حظوظ نفسه وكان همه إلى الآخرة والتفكر بقدومه على الله سبحانه؟.

ثم قال ابن عطاء الله تفسيراً للحديث المذكور: «والمؤمن القوي هو الذي أشرق في قلبه نور اليقين».

---

(1) مسلم في القدر، باب: في الأمر بالقوة وترك العجز والاستعانة بالله، رقم (4816).

(2) البخاري في العلم، باب: من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين، رقم (69). ومسلم في الزكاة، باب: النهي عن المسألة، رقم (1719).

(3) أخرجه ابن أبي شيبة، رقم (31049): 6/ 240.

كلمة اليقين تدل على معنى الثبات مع الوضوح، واليقين هو العلم الذي انتفت عنه الشكوك والشبهات.

عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: «ما كان رسول الله ﷺ يقوم من مجلس حتى يدعو بهؤلاء الدعوات لأصحابه: اللهم أقسم لنا من خشيتك ما يحول بيننا وبين معصيتك، ومن طاعتك ما تبلغنا به جنتك، ومن اليقين ما تهون به علينا مصائب الدنيا. . . »[1].

فالمؤمن القوي هو القوي في يقينه بأن يكون بما في يد الله أوثق منه بما في يده، فيؤمن بأن الرازق هو الله، فيعتمد عليه لا على نفسه بأن يأخذ بالأساب أما النتائج فهي بيد الله عز وجل.

وكأن اليقين ينبثق من ينبوع البحث والتأمل، وسعة التدبر والتفكر، فيعمر نور الإيمان قلب الإنسان، ويدفعه ذلك إلى أداء الفروض والواجبات ويجعله على الدوام متذكراً لقاء الله، فيحسن الاستعداد لهذا اللقاء.

ومن نتائج قوة اليقين بالله القناعة وحسن الظن بالله.

قال ﷺ: «طوبى لمن هُدي إلى الإسلام وكان عيشه كفافاً وقنع به»[2].

وقال ﷺ: «إن الله يحب الفقير المتعفف»[3].

وقال ﷺ: «أنا عند ظن عبدي بين وأنا معه إذا ذكرني. . »[4].

* * *

---

(1) الترمذي في الدعوات، باب: ما جاء في عقد التسبيح باليد، رقم (3424) وقال: حديث حسن غريب.

(2) مسلم في الزكاة، باب: في الكفاف والقناعة، رقم (1746).

(3) ابن ماجه في الزهد، باب: فضل الفقراء، رقم (4111).

(4) البخاري في التوحيد، باب: قول الله تعالى ويحذركم الله نفسه، رقم (6856). ومسلم في الذكر والدعاء، باب: الحث على ذكر الله ، رقم (4822).

حقيقة الشهود

يقول ابن عطاء الله: قال الشيخ أبو الحسن الشاذلي ﷺ: قوي علي الشهود فسألته أن يستر علي ذلك، فقيل لي: لو سألته بما سأله موسى كليمه، وعيسى روحه، ومحمد حبيبه ﷺ وصفيه لم يفعل، ولكن سله أن يقويك، فسألته فقواني.

ما منعك من الشهود إلا عدم وقوفك مع الحدود، واشتغالك بهذا الوجود.

تقدم الكلام عن معنى الشهود[1]، أما قوله : «ما منعك من الشهود إلا عدم وقوفك مع الحدود، واشتغالك بهذا الوجود».

أي ما منعك شهود عظمة الله وشهود صفاته وآلائه ومظاهر فضله ورحمته وأن المنعم والمحسن الأوحد في هذا الكون هو الله سبحانه إلا تجاوزك لحدود المنهج الذي أمرك الله به واشتغال القلب بالمكونات ونسيان المكون سبحانه.

يقول ابن عطاء الله في إحدى حكمه: «الكون كله ظلمة وإنما أناره ظهور الحق فيه» فالكون كله ظلمة لأنه حجاب لمن وقف مع ظاهره عن شهود ربه، وإنما أناره تجلي الحق به وظهوره فيه، فمن نظر إلى ظاهر حسه رآه نوراً قال تعالى: ﴿ ۞ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ ﴾ [النور: 35].

* * *

(1) انظر، ص: 483.

التوكل على الله

يقول ابن عطاء الله: قال بعضهم: كن مع الله كالطفل مع أمه، كلما دفعته أمه ترامى عليها لا يعرف غيرها.

هذه درجة التوكل على الله وهي: أن يكون حال العبد مع الله تعالى كحال الطفل مع أمه فإنه لا يعرف غيرها ولا يفزع إلى أحد سواها ولا يعتمد إلا إياها، فإذا رآها تعلق في كل حال بذيلها، وإن نابه أمر في غيبتها كان أول سابق إلى لسانه: يا أماه، وأول خاطر يخطر في قلبه أمه فإنها مفزعة، فإنه قد وثق بكفالتها وكفايتها وشفقتها ثقة ليست خالية عن نوع إدراك بالتمييز الذي له، ويظن أنه طبع من حيث إن الصبي لو طولب بتفصيل هذه الخصال لم يقدر على تلقين لفظه ولا على إحضاره مفصلاً في ذهنه، ولكن كل ذلك وراء الإدراك، فمن كان باله إلى الله عز وجل ونظره إليه واعتماده عليه كلف به كما كلف الصبي بأمه فيكون متوكلاً حقاً. فإن الطفل متوكل على أمه [1].

* * *

(1) انظر: إحياء علوم الدين، الغزالي: 4/ 373.

من توكل على الله كفاه ما أهمه

يقول ابن عطاء الله: فأهل الفهم أخذوا عن الله وتوكلوا عليه فكانوا بمعونته لهم، فكفاهم ما أهمهم، وصرف عنهم ما أغمهم، واشتغلوا بما أمرهم عما ضمن لهم، علماً منهم بأنه لا يكلهم إلى غيره، ولا يمنعهم من فضله، فدخلوا في الراحة ووقفوا في جنة التسليم، ولذاذة التفويض، فرفع الله بذلك مقدارهم، وكمل أنوارهم.

أهل الفهم هم المتوكلون على الله سبحانه، والتوكل شعور بهيمنة الله على الحياة، وبأن حركاتها وسكناتها محكومة بحوله وقوته لا يمكن أن تند منه أو تبعد عنه. إنه الشعور بالاعتماد على الله في كل شيء.

إن التوكل دلالة علم بالله وصفاته وما ينبغي له. من أجل ذلك كثرت الأوامر في الكتاب والسنة بالتوكل على الله جلا وعلا، قال تعالى ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾[هود: 123].

فالمتوكل اشتغل بما أمره الله أما الرزق فهو على الله سبحانه قد ضمنه له، وهذا معنى قول ابن عطاء الله: «واشتغلوا بما أمرهم عما ضمن لهم».

وبهذه اليقظة الفكرية والنفسية كان المتوكل أهلاً لأن يظفر برعاية الله وتوفيقه ومحبته: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾[آل عمران: 159]، ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا﴾[الطلاق: 3].

ومن الجهل بالله وصفاته أن يتوقع أحد الخذلان والضياع مع ارتباطه بالله !. وقد جاء في نظم القرآن الكريم تساؤل غريب يكشف وجه الحق في هذه القضية: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ۖ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٦﴾ وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِى ٱنتِقَامٍ﴾[الزمر: 36- 37].

وهذا معنى قول ابن عطاء الله «فكفاهم ما أهمهم وصرف عنهم ما أغمهم».

والتوكل على الله لا يعني الكسل والقعود عن العمل، فقبل أن يأمر الله نبيه بالتوكل عليه في قوله: ﴿فَٱعۡبُدۡهُ وَتَوَكَّلۡ عَلَيۡهِۚ﴾ [هود: 123]. قيل ذلك مباشرة قال: ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ إِنَّا عَٰمِلُونَ ١٢١ وَٱنتَظِرُوٓاْ إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾[هود: 121- 122].

فالأمر بالتوكل جاء بعد إعلان عن عمل موصول وصبر طويل.

ورأى أحد الأئمة فقيراً ينطلق إلى الحج دون زاد، فسأله: أين زادك؟

فقال: أنا متوكل على الله.

فقال له: أمسافر أنت وحدك؟ قال: بل مع القافلة.

فقال له: أنت متوكل على القافلة؟!!.

وصدق، فهذا متأكل لا متوكل، وهذا الصنف جاهل بالإسلام، ومعرفته بالله غامضة، يشوبها حمق كثير.

التوكل إيمان بالغيب بعد استنفاد كل الوسائل المقررة في عالم الشهادة، إيمان بالله بعد أداء كل ما يربط بالنفس من واجبات [1].

إذاً: هل الفهم كما وصفهم ابن عطاء الله: «وقفوا في جنة التسليم ولذاذة التفويض». فوضوا الأمر إلى الله الذي بيده كل شيء وعملوا بالأسباب التي أمرهم الله بها دون الاعتماد عليها فرفع الله بذلك مقدارهم وامتلأت قلوبهم بالأنوار بسبب طاعتهم لله وقربهم منه سبحانه وتعالى.

* * *

(1) الجانب العاطفي من الإسلام، ص: 236 وما بعدها.

العلم النافع

العلم النافع هو القاهر للهوى القامع للنفس

يقول ابن عطاء الله: واعلم رحمك الله تعالى – أن العلم– حيثما تكرر في الكتاب العزيز أو في السنة المطهرة إنما المراد به العلم النافع الذي تقارنه الخشية، وتكتنفه المخافة، قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر: 28]. فبين أن العلم تلازمه الخشية، فالعلماء هم أهل الخشية، وكذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ﴾ [الإسراء: 107]. وقوله تعالى: ﴿ٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ﴾ [النساء: 162]. وقوله تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا﴾ [طه: 114]. وقوله ﷺ: «العلماء ورثة الأنبياء»(1)، إنما المراد بالعلم في هذه المواطن كلها: العلم النافع، القاهر للهوى، القامع للنفس، وذلك متعين بالضرورة، لأن كلام الله تعالى وكلام رسول الله ﷺ أجل من أن يحمل على غير ذلك.

قال ﷺ: «اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع»(2).

كثيراً ما يكون العلم سيئاً، لبعد العالم عن ربه إذا كان يقصد الشهرة بين الناس وكسب الحظوظ الدنيوية، إنه العلم الضار أما العلم النافع فهو الذي يقربك إلى الله سبحانه وهو الذي يقهر الهوى ويقمع النفس عن حظوظها، هذا هو حال من فهم كلام الله وفهم كلام رسول الله ﷺ.

وقد حذر النبي ﷺ من أن يكون قصد العالم غير الله.

---

(1) الترمذي في العلم عن رسول الله، باب: ما جاء في فضل الفقه على العبادة، رقم (2606). ثم قال: ولا نعرف هذا الحديث إلا من حديث عاصم بن رجاء وليس عندي بمتصل: وأبو داود، العلم، الحث على طلب العلم، (3157).

(2) مسلم في الذكر والدعاء، باب: التعوذ من شر ما عمل، رقم (4899).

فعن أبي هريرة ﷺ، عن النبي ﷺ أنه قال: «من تعلم علماً مما يبتغي به وجه الله عز وجل، لا يتعلمه إلا ليصيب به عرضاً من الدنيا، لم يجد عرف[1] الجنة يوم القيامة»[2].

وقال ﷺ: «من تعلم العلم ليباهي به العلماء، أو يماري[3] به الشفهاء أو يصرف به وجوه الناس إليه، فهو في النار»[4].

والعلم الذي تقارنه الخشية هو: علم طريق الآخرة ومعرفة دقائق آفات النفوس ومفسدات الأعمال وقوة الإحاطة بحقارة الدنيا وشدة التطلع إلى نعيم الآخرة واستيلاء الخوف على القلب. وهذا ما كان يطلق عليه اسم «الفقه» في العصر الأول: ويدل عليه قوله تعالى: ﴿لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوۡمَهُمۡ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيۡهِمۡ لَعَلَّهُمۡ يَحۡذَرُونَ﴾[التوبة: 122]. فهذا الذي يحصل به الإنذار والتخويف دون تفريعات الطلاق والعتاق واللعان والسلم والإجارة، فذلك لا يحصل به إنذار ولا تخويف، بل التجرد على الدوام يقسي القلب وينزع الخشية منه.

* * *

(1) عرف الجنة: ريح الجنة.

(2) أبو داود في العلم، باب: في طلب العلم لغير الله تعالى، رقم (3179). وابن ماجه في المقدمة، باب: الانتفاع بالعلم والعمل به، رقم (248). وأحمد في باقي مسند المكثرين، رقم (8103).

(3) يماري: يجادل.

(4) ابن ماجه في المقدمة، باب: الانتفاع بالعلم والعمل به، رقم (249).

العلم النافع يلزم الخشية من الله تعالى

يقول ابن عطاء الله: والعلم النافع هو الذي يُستعان به على الطاعة، ويلزم الخشية من الله تعالى، والوقوف على حدود الله تعالى، وهو علم المعرفة بالله تعالى، ولكن من استرسل بإطلاق التوحيد ولم يتقيد بظواهر الشريعة فقد قذف به في بحر الزندقة، ولكن الشأن أن يكون بالحقيقة مؤيداً، وبالشريعة مقيداً، وكذلك المحقق فلا يكون منطلقاً مع الحقيقة ولا واقفاً مع ظاهر إسناد الشريعة، وكان بين ذلك قواماً، فالوقوف مع ظاهر الإسناد شرك، والانطلاق مع الحقيقة من غير تقيد بالشريعة تعطيل. ومقام الهداية فيما بين ذلك.

يقول ابن عطاء الله في إحدى حكمه: «خير العلم ما كانت الخشية معه».

لأن الله تعالى أثنى على العلماء بذلك فقال عز وجل: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر: 28]. فكل علم لا خشية معه فلا خير فيه، بل لا يسمى صاحبه عالماً على الحقيقة.

وقال في حكمة أخرى: «العلم إن قارنته الخشية فلك وإلا فعليك». فالعلم الذي قارنته الخشية لك، لأنك تنتفع به في دنياك وآخرتك. والعلم الذي لا خشية فيه عليك، لأنك تستضر به.

ورأس العلم هو المعرفة بالله تعالى وآلائه، وأنه المعبود دون سواه.

ثم قال: «ولكن من استرسل بإطلاق التوحيد ولم يتقيد بظواهر الشريعة فقد قذف به في بحر الزندقة. . إلخ الفقرة».

ورد في حديث جبريل المشهور[1] الذي يرويه عمر بن الخطاب ﵁ تقسيم الدين إلى ثلاثة أركان، بدليل قول الرسول ﷺ لعمر: «فإنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم».

---

(1) البخاري في الإيمان، باب: سؤال جبريل النبي عن الإيمان والإسلام والإحسان، رقم (48). ومسلم في الإيمان، باب: بيان الإيمان والإسلام والإحسان، رقم (9).

الركن الأول: الإسلام وهو الجانب العملي من عبادات ومعاملات وأمور تعبدية، ومحله الأعضاء الظاهرة الجسمانية. وقد اصطلح العلماء على تسميته بالشريعة، واختص بدراسته الفقهاء.

الركن الثاني: الإيمان وهو الجانب الاعتقادي القلبي، من إيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقضاء والقدر، وقد اختص بدراسته علماء التوحيد.

الركن الثالث: الإحسان وهو الجانب الروحي القلبي، وهو أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك، وقد اصطلح العلماء على تسميته الحقيقة.

ولتوضيح الصلة بين الشريعة والحقيقة نضرب لذلك مثلاً الصلاة، فالإتيان بحركاتها وأعمالها الظاهرة، والتزام أركانها وشروطها، وغير ذلك مما ذكره علماء الفقه، يمثل جانب الشريعة، وهو جسد الصلاة، وحضور القلب مع الله تعالى في الصلاة يمثل جانب الحقيقة، وهو روح الصلاة.

ومن هنا ندرك التلازم الوثيق بين الشريعة والحقيقة كتلازم الروح والجسد. والمؤمن والكامل هو الذي يجمع بين الشريعة والحقيقة.

أما من نظر إلى الحقيقة مجردة عن الشريعة فقد قال بالجبر وأن الإنسان لا خيار له في أمر من الأمور، فعطل بذلك أحكام الشريعة والعمل بها وأبطل حكمتها والنظر إليها.

وإلى هذا المعنى أشار الشيخ عبد القادر الجيلاني -رحمه الله- تعالى بقوله: «كل حقيقة لا تشهد لها الشريعة فهي زندقة، طر إلى الحق عز وجل بجناحي الكتاب والسنة. ادخل ويدك في يد الرسول ﷺ»[1].

---

(1) الفتح الرباني: عبد القادر الجيلاني، ص: 29. مطبعة بولاق، مصر 1302هـ.

وقال منكراً على مـن يعتقـد أن التكـاليف الشرـعية تسـقط عـن السـالك في حـال مـن الأحوال: «ترك العبادات المفروضة زندقة. وارتكاب المحظورات معصية. لا تسقط الفرائض عن أحد في حال من الأحوال»[1].

فمن يقول أن المقصود من الدين هو الحقيقة فقط فقـد عطـل أحكـام الشرـيعة وهـؤلاء ضالون منحرفون زنادقة -كما يقول ابن عطاء الله: «فقد قذف به في بحر الزندقة».

* * *

(1) المرجع السابق.

كل علم تميل إليه النفس فارم به

يقول ابن عطاء الله: كل علم تسبق إليك فيه الخواطر وتتبعها الصور، وتميل إليه النفس، وتلتذ به الطبيعة، فارم به، وإن كان حقاً، وخذ بعلم الله الذي أنزله على رسول الله ﷺ، واقتد به وبالخلفاء من بعده، وبالصحابة والتابعين من بعدهم، وبالهداة إلى الله تعالى، الأئمة المبرئين من الهدى، ومتابعتهم تسلم من الشكوك والظنون، والأوهام، والوساوس، والدعاوى الكاذبة المضلة عن الهوى وحقائقه.

قال ﷺ: «العلماء ورثة الأنبياء»(1). فقد ورثوا علم النبي ﷺ وما اقتدى به الخلفاء الصحابة والتابعين من بعده.

فالعلم المفروض على كل مسلم هو علم التوحيد ويعلم به ذات الله سبحانه وصفاته، وعلم الفقه ويعلم به العبادات والحلال الحرام، وعلم العبد بحاله ومقامه من الله عز وجل ويجمع كل ذلك العلم بالكتاب والسنة والإجماع والقياس.

وأما علم فرض الكفاية فهو علم لا يستغنى عنه في قوام أمور الدنيا كالطب، والحساب، والهندسة. . إلخ.

وأما العلم المذموم فهو علم السحر والطلمسات وعلم النجوم وما شابه ذلك.

والخلاصة: كل علم دنيوي يلهيك عن الآخرة فارم به، واجعل نيتك في كل عمل رضا الله سبحانه فذلك هو المطلوب. أما الركون إلى الأعمال الدنيوية فهذا خطر على الدين وعاقبته وخيمة يوم القيامة.

* * *

---

(1) الترمذي في العلم، باب: ما جاء في فضل الفقه على العبادة، رقم (2606): وأبو داود في العلم، باب: الحث على طلب العلم، رقم (3157). وابن ماجه في المقدمة، باب: فضل العلماء والحث على طلب العلم، رقم (219). وأحمد في مسند الأنصار، باب: باقي حديث أبي الدرداء، رقم (20723).

أنواع من العلم النافع

يقول ابن عطاء الله: وحسبك من العلم النافع: العلم بالوحدانية، ومن العلم: محبة الله ومحبة رسوله ﷺ، ومحبة الصحابة، واعتقاد الحق للجماعة، وإذا أردت أن يكون لك نصيب مما لأولياء الله تعالى، فعليك برفض الناس جملة، إلا من يدلك على الله تعالى، إما بإشارة صادقة أو بأعمال ثابتة لا ينقضها كتاب ولا سنة، فارفع همتك إلى مولاك واشتغل به دون غيره.

قال ابن عطاء الله في حكمه: «العلم النافع هو الذي ينبسط في الصدر شعاعه، وينكشف به عن القلب قناعه».

فالعلم النافع هو العلم بالله تعالى وصفاته وأسمائه، والعلم بكيفية التعبد له والتأدب بين يديه، فهذا هو العلم الذي ينبسط في الصدر شعاعه فيتسع وينشرح للإسلام، ويكشف عن القلب قناعه فتزول عنه الشكوك والأوهام[1].

ومن العلم محبة الله ومحبة رسوله ﷺ وهي فرض على كل مسلم، قال تعالى: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ﴾ [آل عمران: 31]. وقال : ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ﴾[البقرة: 165].

وقال ﷺ: «أحبوا الله لما يغذوكم من نعمه وأحبوني بحب الله وأحبوا أهل بيتي بحبي»[2].

فيجب على المسلم أن يعلم فضل هذه المحبة وآثارها، فقد بشر النبي ﷺ المحبين بالمعية مع محبوبهم، فقد روى أنس رضي الله عنه: «أن رجلاً سأل النبي ﷺ متى الساعة يا رسول الله ؟. قال: ما أعددت لها؟ قال: ما أعددت لها من كثير صلاة ولا صوم ولا صدقة، ولكني أحب الله

(1) غيث المواهب العلية، الرندي: 2/ 125.

(2)الترمذي في المناقب، باب: مناقب أهل بيت النبي، رقم (3722). وقال: حسن غريب.

ورسوله. قال: أنت مع من أحببت. قال أنس: فقلنا ونحن كذلك؟ قال: نعم. ففرحنا بها فرحاً شديداً»[1].

أما محبة الصحابة فسببها أنهم بلغوا أوج الكمال في الإيمان والأخلاق والتضحية بسبب محبتهم لله ورسوله. وأنستهم حلاوة المحبة مرارة الابتلاء وقساوة المحن، وحملهم دافع المحبة على بذل الروح والمال والوقت وكل غال ونفيس في سبيل محبوبهم لعلهم يحوزون رضوانه وحبه فكيف بعد ما قدموه للإسلام لا نحبهم؟!.

ومن العلم النافع اعتقاد الحق للجماعة، قال ﷺ: «لا تجتمع أمتي على ضلالة»[2]، والإجماع هو المصدر الثالث من مصادر التشريع.

وبذلك تنتهي الفقرات التي تكلمت عن حقيقة العلم النافع لصاحبه يوم القيامة.

* * *

---

(1) البخاري، كتاب الأدب، باب: ما جاء في قول الرجل ويلك، رقم (5701). ومسلم، كتاب: البر والصلة والآداب، باب: المرء مع من أحب، رقم (4775).

(2) الترمذي في الفتن، باب: ما جاء في لزوم الجماعة، رقم (2093).

أداء الأمانة كما يجب

يقول ابن عطاء الله: مثال المدخر للأمانة كعبد الملك لا يرى أن لـه مـع سـيده شـيئاً، ولا يعتمد على ادخار ما في يده، ولا بدل له، ولا يختار إلا ما اختاره السيد له، فإذا فهم هـذا العبـد أن الإمساك مراد السيد، أمسك لسيده لا لنفسه، حتى يتخير موضع صرفه، فيكون له صـارفاً حين يفهم لسيده لا لنفسه. كذلك أهل المعرفة بالله إن بذلوا ففيه، وإن أمسكوا فله، يبتغون ما فيه رضاه، لا يريدون ببذلهم وإمساكهم إلا إياه، فهـم خزنـاء أمنـاء، وعبيـدٌ كـبراء، وأبـرارٌ كرماء، حررهم الحق من رق الآثار، فلم يميلوا إليه بحب، ولم يقبلوا عليهـا بـود مـنعهم مـن ذلك ما أسكنه في قلوبهم من حب الله ووده وما امـتلأت بـه صـدورهم مـن عظمتـه ومجـده، فصارت الأشياء في أيديهم كهي في خزائن الله من قبل أن تصل إليهم، علماً منهم بأن الله تعـالى يملكهم ويملك ما ملكهم.

يقول ابن القيم: «علمت كلبك فهو يترك شـهوته في تنـاول مـا صـاده احترامـاً لنعتـك وخوفاً من سطوتك وكم علمك معلم الشرع وأنت لا تقبل. حـرم صـيد الجاهـل والممسـك لنفسه فما ظن الذي أعماله لهوى نفسه»[1].

كل ما في هذا الكون ملك لرب العالمين أما البشر فلا يملكون شيئاً قال تعـالى: ﴿وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ [الحديد: 7].

فالمال مال الله، والرزق رزق الله وقد أمرنا الله بإنفاق المال في وجـوه الجـلال، فمـن فهـم هذا فإنه لا يبذل المال إلا في مرضاة الله، وإن منع الإنفاق فخوفاً من الله، إنهم خزناء أمناء، قال ﷺ: «من أعطى الله، ومنع لله، وأحب لله، وأبغض لله، فقد استكمل الإيمان»[2].

* * *

---

(1) الفوائد، ص 115.

(2) أبو داود في السنة، باب: الدليل على زيادة الإيمان ونقصانه، رقم (4061).

معنى قوله تعالى: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرۡ﴾

يقول ابن عطاء الله: عن الشيخ أبي الحسن الشاذلي ﷺ أنه قال: قيل لي: يا علي ظهر ثيابك من الدنس، تحفظ بمدد الله في كل نفس، فقلت: وما ثيابي ! فقيل: إن الله كساك حلة المعرفة، ثم حلة التوحيد، ثم حلة المحبة، ثم حلة الإيمان، ثم حلة الإسلام، فمن عرف الله صغر لديه كل شيء، ومن أحب الله هان عليه كل شيء، ومن وحد الله لم يشرك به شيئاً، ومن آمن بالله، أمن من كل شيء، ومن أسلم لله قل ما يعصيه، وإن عصاه اعتذر إليه، وإن اعتذر إليه قبل عذره، قال: ففهمت من ذلك قوله تعالى: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرۡ﴾[المدثر: 4].

إذا بحثنا عن تفسير هذه الآية في كتب التفاسير نجد أن لها تفسيراً ظاهراً وتأويلاً باطناً، فالتفسير الظاهر يعني: أن الله يأمر نبيه بأن يطهر ثيابه من النجاسات والمستقذرات، فإن المؤمن طيب طاهر، لا يليق منه أن يحمل الخبيث.

أما التأويل فقال ابن عباس: كنى بالثياب عن القلب والمعنى: وقلبك فطهر من الإثم والمعاصي واستشهد بقول غيلان:

وإني بحمد الله لا ثوب فاجر لبست ولا من غدرة أتقنع

قال الرازي، والسبب في حسن هذه الكناية: أن الثوب كالشيء الملازم للإنسان، فلهذا السبب جعلوا الثوب كناية عن الإنسان، فقالوا: المجد في ثوبه، والفقه في إزاره[1].

والمعنى الثاني هو المقصود في هذه المغفرة.

فمن طهر قلبه من محبة الأغيار وملأه بمحبة الواحد القهار صغر لديه كل شيء وهان عليه كل شيء، ومن أسلم نفسه لله قل ما يعصيه، وإن اقترفت يداه معصية أسرع وتاب إلى الله واعتذر إليه فقبل الله عذره.

* * *

(1) مدارج السالكين، ابن القيم: 2/ 22.

عناية الله بالعبد

يقول ابن عطاء الله: إن كانت معك عناية ينفعك القليل، وإن لم تكن لك عناية لم ينفعك الكثير.

«قليل في سنة خير من كثير في بدعة»[1].

وأي بدعة أعظم من حب الدنيا والانكباب عليها بالقلب والقالب فهذا مهما عمل فإنه قليل عند الله وإن كان كثيراً في الحس، وأما من كان قلبه متعلقاً بربه زاهداً في الدنيا فإنه ينفعه قليل العمل: لأن هذا القليل كبير عند الله. ولذلك قال ابن عطاء في إحدى حكمه: «ما قل عمل برز من قلب زاهد ولا كثر عمل برز من قلب راغب». أي راغب في حب الدنيا وشهواتها.

وما مثال عبادة الزاهد مع قلتها في الحس وكثرتها في المعنى، وعبادة الراغب مع كثرتها في الحس وقلتها في المعنى إلا كرجلين أهديا للملك أحدهما أهدى ياقوتة صافية صغيرة قيمتها ستون قنطاراً والآخر أهدى ستين صندوقاً خاوية فارغة. فلا شك أن الملك يقبل الياقوتة ويكرم صاحبها ويرد الصناديق ويهين صاحبها ويغضب عليه لكونه استهزأ بالملك[2].

يقول ابن عطاء الله في إحدى حكمه: «رب عمر اتسعت آماده وقلت أمداده، ورب عمر قليلة آماده كثيرة أمداده».

فالإمدادات الإلهية التي يمد الحق تعالى بها عباده المؤمنين زيادة في إيمانهم، لا أثر فيها لطول العمر ولا قصره، فلا تنقص بذلك ولا تزيد به وإنما ترد عليهم من خزائن الفضل

---

(1) نسبه في مجمع الزوائد لابن مسعود وليس حديثاً: 1/ 173. ونسبه البيهقي للحسن بن علي، شعب الإيمان: 7/ 72.

(2) إيقاظ الهمم، ص : 77.

والكرم والفضل بحسب قوة استعدادهم وكمال قابليتهم، وبهذا فضلت هذه الأمة على سائر الأمم على قصر أعمارهم، وطول أعمار غيرهم.

وفي حكمة تالية لهذه الحكمة يقول ابن عطاء الله: «من بورك في عمره أدرك في يسير من الزمن من منن الله تعالى ما لا يدخل تحت دوائر العبارة ولا تلحقه الإشارة».

فالبركة في العمر أن يرزق العبد من الفطنة ما يحمله على اغتنام أوقاته، ويشرق عليها من الأنوار الربانية ما تعجز العبارة عنه، وكل ذلك في عمر قصير وزمن يسير[1].

* * *

(1) غيث المواهب العلية، الرندي: 2/ 194.

الاحتراس للدين لا للبدن

يقول ابن عطاء الله: ما أكثر احتراسك على بدنك، وما أرخص دينك عليك، لو قيل لك: إن هذا الطعام مسموم لامتنعت منه، ثم لو حلف لك بالطلاق أنه ليس بمسموم لتوقفت عنه، بل لو غسلت الوعاء الذي هو فيه مراراً لنفرت منه نفسك، فلم لا تكن كذلك في دينك؟!.

طبيعة الإنسان أنه يسعى لمصلحة بدنه ويحترس له ومن خوفه يمتنع من أكل طعام ظن أنه مسموم ولو قيل له إنه ليس مسموماً، أما في دينه فإنه يغامر به ويعرضه للهلاك فتراه ينغمس في الملذات، ويدخل في شبهات الحرام والربا.

فكما أنت حريص على بدنك كن حريصاً على دينك بأن تكون صادقاً في عبادتك لله لا تبتغي أي شيء سواه إذ كل ما سواه ضرر على دينك كضرر السم على الجسد؟.

ثم إياك واقتراف الذنوب والمعاصي فإنها أيضاً سموم لا يمكن التخلص منها إلا بالإحراق بالنار يوم القيامة. قال تعالى: ﴿ يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ ﴾ أي: يحرقون. [الذاريات: 13].

* * *

توفيق الله

يقول ابن عطاء الله: لا تعتقد أن الناس فاتهم العلم، بل فاتهم التوفيق أكثر من العلم.

كثيراً ما يكون العلم سبباً لهلاك صاحبه وعذابه يوم القيامة، إذا كان العلم يُقصد به التفوق على الأقران والجدال، أو أن يكون العالم قد شُغف بحب مدح الناس وتعظيمهم له، أو يكون الهدف من علمه هو جمع المال، وهذه بعض آفات العلم الكثيرة. . .

ويشهد لهذا قوله ﷺ في الحديث الصحيح: «من تعلم العلم ليباهي به العلماء أو ليماري به السفهاء لم يزدد من الله إلا بعداً»[1].

إذاً الناس لم يفتهم العلم بل فاتهم التوفيق لأن يكون علمهم خالصاً لوجهه سبحانه، لا تشوبه أي شائبة من مغريات الدنيا ومفاتنها، قال تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُۗ﴾ [البقرة: 282].

أي: يعلمكم الله علماً تجدون لذة العبادة معه لا علماً جافاً تعتمدون فيه على أنفسكم وجهدكم العقلي فقط.

* * *

(1) ابن ماجه في المقدمة، رقم (256).

علماء مزيفون

يقول ابن عطاء الله: وقد ابتلى الله تعالى بحكمته ووجود منته الفقراء الذين ليسوا بصادقين بإظهار ما كمنوه من الرغبة، وأسروه من الشهوة فابتذلوا أنفسهم لأبناء الدنيا، مباسطين لهم موافقين لهم على مآربهم، مدفوعين عن أبوابهم فترى الواحد منهم يتزين كما تتزين العروس، معتنين بإصلاح ظواهرهم، غافلين عن إصلاح سرائرهم ولقد وسمهم الحق وشمة كشف بها عوارهم [1]، وأظهر أخبارهم، فبعد أن كانت نسبتهم مع الله، أن لو صدق مع الله أن يقال له: بعد. فأخرج عن هذه النسبة فصار يُقال له: شيخ الأمير، أولئك الكاذبون على الله تعالى، الصادون العباد عن صحبة أولياء الله، لأن ما يشهده العوام منهم يحملونه على كل منتسب إلى الله، صادق وغير صادق، فهم حجب أهل التحقيق، وسحب شمس أهل التوفيق، ضربوا طبولهم، ونشروا أعلامهم، ولبسوا دروعهم، فإذا وقعت الحملة ولوا على أعقابهم ناكصين، ألسنتهم منطلقة بالدعوى، وقلوبهم خالية من التقوى، ألم يسمعوا قوله سبحانه وتعالى: ﴿لِّيَسۡـَٔلَ ٱلصَّٰدِقِينَ عَن صِدۡقِهِمۡۚ﴾ [الأحزاب: 8]. ترى إذا سأل الصادقين، أيترك المدعين من غير سؤال؟ ألم يسمعوا قوله تعالى: ﴿وَقُلِ ٱعۡمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمۡ وَرَسُولُهُۥ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾[التوبة: 105]. فهم في إظهار زي الصادقين، وعملهم عمل المعرضين.

هذه صفة العالم عندما يكون قصده من علمه رضا الناس لا رضا الله سبحانه. يلبس زي العلماء ويحسن ظاهره للناس، أما الباطن فمشوب بآفات النفوس وأمراض القلوب، همهم أن يعظمهم الناس ويحترموهم ويقوموا على خدمتهم.

فمن كان هذا وصفه مهما أظهر الإخلاص لله في دعوته وعمله فإنه سيكشف في يوم من الأيام وسيكون ذلك الكشف سبباً في صد الناس عن الله وتشكيك الناس بالعلماء عامة

---

(1) العوار: العيوب.

والطعن بعلمهم وصدقهم، فهؤلاء يصبحون كما قال ابن عطاء الله: «حجب أهل التحقيق وسحب شمس أهل التوفيق».

ومهما حاول هؤلاء إقناع الناس بألسنتهم فإن ما وقر في قلوبهم من حب الدنيا سيطغى على ذلك الكلام كما قال سيدنا علي ﵁: ما أضمر أحدٌ شيئاً إلا ظهر في فلتات لسانه، وصفحات وجهه.

وكما قال ابن عطاء الله في إحدى حكمه: «كل كلام يبرز وعليه كسوة القلب الذي منه برز». فالقلب المتدنس بالذنوب كلام صاحبه يوجب قسوة القلب لا رقته. بينما القلب المتطهر من الأغيار تشرق عليه الأنوار فيكتسب الكلام نوراً وينتفع به السامعون ويزدادون سروراً.

فليحذر هؤلاء من سؤال الله لهم يوم القيامة، فإنه سبحانه سيسأل الصادقين عن صدقهم فكيف بالمدعين، سيسأل المتقين فكيف بمن زيه الصدق وعمله عمل المعرضين، هؤلاء تنتظرهم فتن تجعل الحليم فيهم حيراناً، فقد روى أبو هريرة ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «يخرج في آخر الزمان رجال يختلون الدنيا بالدين يلبسون للناس جلود الضأن من اللبن، ألسنتهم أحلى من السكر وقلوبهم قلوب الذئاب يقول الله عز وجل: أبي يغترون أم علي يجترئون فبي حلفت لأبعثن على أولئك منهم فتنة تدع الحليم منهم حيراناً»[1].

اللهم لا تجعلنا منهم، واجعلنا مخلصين لك في أعمالنا كلها يا أرحم الراحمين.

* * *

---

(1) الترمذي في الزهد، باب: ما جاء في ذهاب البصر، رقم (2328).

كشف الحجاب

لو كشف عنك الحجاب، لرأيت كل شيء ناطقاً مسبحاً لله تعالى، ولكن النقص فيك والحجاب منك.

مصداق هذا قوله سبحانه: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: 44].

وفي الصحيح قال ﷺ: «قرصت نملة نبياً من الأنبياء، فأمر بقرية النمل فأُحرقت، فأوحى الله إليه، أن قرصتك نملة أهلكت أمة من الأمم تسبح!»[1].

فمن داوم على طاعة الله وجاهد نفسه قد ينكشف له الحجاب عن بعض أسرار هذا الكون الذي أودعها الله فيه ومنها تسبيح الكائنات، ولكن الذي أعطى نفسه هواها وملأ قلبه بالأمراض الدنيوية فقد حجب بسبب ذلك عن تلك الأسرار.

يقول ابن عجيبة: «اعلم أن الحق سبحانه لما أراد أن يتجلى بأسرار ذاته وأنوار صفاته أظهر بقدرته قبضة من نوره الأزلي فاقتضت القدرة ظهور آثارها وشهود أنوارها واقتضت الحكمة إسدال حجابها وإظهار أستارها، فلما فرغت القدرة نورها في مظاهر الكون، أسدلت عليها الحكمة رداء الصون فصارت الأكوان كلها نوراً في حجاب مستور، ثم إن الحق سبحانه قسم الخلق على قسمين وفرقهم فرقتين: قسم اختصهم بمحبته وجعلها من أهل ولايته ففتح لهم الباب وكشف لهم الحجاب فأشهدهم أسرار ذاته ولم يحجبهم عنه بآثار قدرته، وقسم أقامهم لخدمته وجعلهم من أهل حكمته، أسدل عليهم حجاب الوهم وغيب عنهم نور العلم والفهم فوقفوا مع ظواهر القشور ولم يشهدوا بواطن النور مع شدة الظهور»[2].

* * *

---

(1) البخاري في الجهاد، باب: إذا حرق المشرك المسلم هل يحرق، رقم (2866).

(2) إيقاظ الهمم، ص: 61.

من هم السابقون

يقول ابن عطاء الله: قال الله تعالى: ﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ١٠ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡمُقَرَّبُونَ ١١ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴾[الواقعة: 10 – 12]. سبقوا إلى الله فخلص قلوبهم مما سواه، فلم تعقهم العوائق، ولم تشغلهم عن الله الخلائق، فسبقوا إلى الله، فكلما همت قلوبهم أن ترحل إلى الله سبحانه وتعالى جذبها ذلك التعلق الذي به تعلقت، فكرت راجعة إليه ومقبلةً عليه، فالحضرة محرمةٌ على من هذا وصفه، وممنوعةٌ على من هذا نعته.

قال تعالى في سورة الواقعة: ﴿ وَكُنتُمۡ أَزۡوَٰجٗا ثَلَٰثَةٗ ٧ فَأَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ ٨ وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ ٩ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ١٠ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡمُقَرَّبُونَ ١١ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴾ [الواقعة: 7 – 12].

فقد قسم الله الناس ثلاثة أصناف [1]:

الأول: أصحاب اليمين: الذي يؤتون صحائفهم في أيمانهم، فهؤلاء يدخلون الجنة ويتنعمون فيها.

الثاني: أصحاب المشأمة: الذين يؤتون صحائفهم بشمالهم، وهؤلاء يدخلون النار ويشقون فيها.

الثالث: السابقون: أي السابقون إلى الخيرات والحسنات، السابقون إلى جنات النعيم، ثم أثنى الله عليهم بقوله: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡمُقَرَّبُونَ ﴾ المقربون من الله في جواره وفي ظل عرشه ودار كرامته في جنات النعيم.

---

(1) صفوة التفاسير، محمد علي الصابوني: 3/ 288 – 289.

والسابقون هم الأعلى درجة والأقرب إلى الله من غيرهم وهج المذكورون في قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ أَوۡرَثۡنَا ٱلۡكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَيۡنَا مِنۡ عِبَادِنَاۖ فَمِنۡهُمۡ ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ وَمِنۡهُم مُّقۡتَصِدٞ وَمِنۡهُمۡ سَابِقُۢ بِٱلۡخَيۡرَٰتِ ﴾[فاطر: 32].

فالظالم لنفسه هو العاصي، الذي يتلو القرآن ولا يعمل به، والمقتصد هو المتوسط في فعل الخيرات، يعمل بالقرآن في أغلب الأوقات، ويقصر في بعض الفترات، والسابق قد أحرز قصب السبق في فعل الطاعات بتوفيق الله وتيسيره.

هذا ما ورد في تفسير الآية، ويزيد ابن عطاء الله في صفة السابقين بأنهم الذين سبقوا إلى الله وشغلت قلوبهم بمحبته وذكره وشهود عظمته ونعمه وآلائه، أما الدنيا فلم يلتفتوا إليها ولم تعقهم عوائقها ولم تكن حجاباً يحجبهم عن الحق سبحانه بل رموا الدنيا وراء ظهورهم وأخلصوا عملهم ونيتهم لله سبحانه فرحلت قلوبهم إليه ولم تجذب بعلائق الدنيا. وهؤلاء هم المتوكلون على ربهم الواثقون بما عنده، أخذوا بالأسباب كما أمرهم الله سبحانه أما النتائج فتركوها لخالقهم.

فاعتمدوا على توفيقه لا على عملهم وجهدهم وتدبيرهم.

أما الذين منعوا السبق فهم المعوقون بعوائق الدنيا كلما همت قلوبهم للرحيل إلى الله منعها ذلك التعلق بالدنيا فمنعوا بذلك من دخول حضرته عز وجل.

* * *

إنفاق المال في وجوه الحرام

يقول ابن عطاء الله: لا شيء يخجلك يوم القيامة مثل درهم أنفقته في حرام.

هذا حال من أنفق درهماً في حرام، فكيف بمن أنفق الآلاف؟!. كم سيكون خجله من ربه حين يسأله عن ماله فيم أنفقه؟.

إن الإثم في كسب المال من الحرام هو نفس الإثم فيمن ينفق المال في الحرام، كأن ينفقه في شرب الخمر أو من أجل الزنى أو ليؤذى به مسلماً أو ليصد عن سبيل الله كما يفعل الكافرون.

قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴾[الأنفال: 36].

وقد حذرنا النبي ﷺ من إنفاق المال في الوجوه غير المشروعة فقال ﷺ: «لن تزول قدماً عبد يوم القيامة حتى يسأل عن خمس: عن عمره فيم أفناه وعن شبابه فيم أبلاه وماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه وماذا عمل فيما علم»[1].

* * *

(1) الترمذي في صفة القيامة والرقائق، باب: ما جاء في شأن الحساب والقصاص، رقم (2340). وقال: حديث غريب.

العبد مع اللّه

مثال العبد مع الله كالطفل مع أمه

يقول ابن عطاء الله: مثال العبد مع الله في هذه الدار كالطفل مع أمه، ولم تكن الأم لتدع تدبير ولدها من كفالتها، ولا أن تخرجه من رعايتها، كذلك المؤمن مع الله قائم له بحسن الكفالة، فهو سائق إليه المنن، ودافعٌ عنه المحن.

فكما أن الطفل لا يعرف غير أمه وهي التي تقوم برعايته وتدفع عنه الأذى فالله سبحانه هو الذي يدبر شؤون العبد. تكفل له بالرزق ووهبه الصحة والعافية والنعم التي لا تعد ولا تحصى، وحماه الله من الأعداء وجميع أنواع الأخطار، قال سبحانه: ﴿وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [الأعراف: 196].

وقال: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَأَنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ﴾[محمد: 11].

وقد سبق قول ابن عطاء الله: «من صدق مع الله كفاه الله مضرة الأعداء». وكما قال سبحانه: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[يونس: 62].

* * *

مثال العبد مع الله كمثل أجير الملك

يقول ابن عطاء الله: ومثال العبد مع الله، كمثل أجير أتى به ملك إلى داره، وأمره أن يعمل عملاً فما كان الملك ليأتي بالأجير ويستخدمه في داره ويتركه من غير تغذية، إذ هو أكرم من ذلك، فكذلك العبد مع الله: فالدنيا دار الله، والأجير هو أنت، والعمل هو الطاعة، والأجرة هي الجنة، ولم يكن الله ليأمرك بالعم، ولا يسوق لك ما به تستعين عليه.

فاشتغل أيها العبد بما أمرت من طاعة الله وتنفيذ وصاياه وثق أن رزقك مقسوم من عند الله، ولن تموت حتى تستكمل رزقك، قال ﷺ: «أيها الناس: اتقوا الله وأجملوا في الطلب، فإن نفساً لن تموت حتى تستوفي رزقها وإن بطأ عنها، فاتقوا الله وأجملوا في الطلب، خذوا ما حل ودعوا ما حرم»[1].

ومن اتقى الله وأجمل في الطلب فإن جزاءه الجنة كالأجرة للعامل.

* * *

(1) ابن ماجه في التجارات، باب: الاقتصاد في طلب المعيشة، رقم (2135).

مثال العبد في الدنيا

يقول ابن عطاء الله: ومثال العبد في الدنيا: كمثل عبد قال له سيده: اذهب إلى أرض كذا وكذا، وأحكم أمرك لأن تسافر منها في برية كذا وكذا، وخذ أهبتك وعدتك، فإذا أذن له السيد في ذلك، فمعلومٌ أنه قد أباح له أن يأكل ما يستعين به على إقامة بنيته ليسعى في طلب العدة، وليقوم بوجود الأهبة. كذلك العبد مع الله أوجده في هذه الدار وأمره أن يتزود منها لمعاده، فقال تعالى: ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ﴾ [البقرة: 197]. فمعلوم أنه إذا أمره بالزاد للآخرة، فقد أباح له أن يأخذ من الدنيا ما يستعين به على تزوده إلى الآخرة، واستعداده وتأهبه لمعاده.

من الخطأ الانقطاع الكامل عن الدنيا وترك لبس الثياب النظيفة وترك الأكل زهداً فيه. هذا خطأ وليس من سنة الأنبياء أجمعين فقد كانوا أزهد الناس بالدنيا وكان ﷺ أزهدهم فيها، لكنه ﷺ أكل اللحم وادهن بالطيب ولبس الثياب الغالية الثمن وتزوج. لكن كل ذلك لم يشغله عن المهمة التي أوكلت إليه وهي التزود للدار الآخرة بالتقوى والعمل الصالح.

فخذ من الدنيا وزينتها ما يعينك على الطاعة فقط ولا تنغمس في ملذاتها وشهواتها لأن الله أباح لك منها ما تستعين به على التزود للآخرة فقط.

* * *

مثال آخر للعبد مع الله

يقول ابن عطاء الله: ومثال العبد مع الله: كمثل عبد أمره الملك أن يقيم في أرض كذا ويحارب فيها العدو ويجاهده فيها، فمعلوم أنه إذا أمره بذلك أباح له أن يأكل من مخازن تلك الأرض بالأمانة، ليستعين به على محاربة العدو، وكذلك العباد: أمرهم الحق سبحانه وتعالى بمحاربة النفس والشيطان، ومجاهدتهما، لقوله تعالى: ﴿وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ﴾ [الحج: 78]. وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمۡ عَدُوّٞ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّاۚ﴾ [فاطر: 6]. فلما أمر العبد بمحاربته، أذن له أن يتناول من منابت أرضه ما يستعين به على محاربة الشيطان، إذ لو تركت المأكل والمشرب لم يمكنك أن تقوم بطاعته، ولا أن تنهض بخدمته.

فالطعام والشراب من المباحات التي تنقلب إلى عبادة عندما يقصد به التقوى على طاعة الله ومحاربة الشيطان ومجاهدة النفس. وإن كان المطلوب ألا يملأ الإنسان بطنه بالطعام حتى لا يثقل عن الطاعة ويحتاج إلى النوم، وإنما المطلوب كما قال ﷺ: «ما ملأ آدمي وعاء شراً من بطن بحسب ابن آدم أكلات يقمن صلبه بها فإن كان لا محالة فثلث لطعامه وثلث لشرابه وثلث لنفسه»[1].

فالتقليل من الطعام هو الذي يعين على الطاعة ومجاهدة الشيطان والنفس.

* * *

(1) الترمذي في الزهد، باب: ما جاء في كراهية كثرة الأكل، رقم (2303). وابن ماجه في الأطعمة، باب: الاقتصاد في الأكل وكراهة الشبع، رقم (3340). وأحمد، مسند الشاميين، حديث المقدام بن معدي كرب، (165556).

مثال العبد مع الله كمثل ملك له عبيد

يقول ابن عطاء الله: ومثال العبد مع الله: كمثل ملك له عبيد، فبنى داراً وبهجها وحسنها وتولى غراسها وكمل المشتهيات فيها، في غير الموطن الذي فيه العبيد، وهو يريد أن ينقلهم إليها، أترى إذا كانت هذه عنايته بهم فيما ادخر لهم عنده وهيأه لهم بعد الرحلة أيمنعهم ها هنا أن يتناولوا من مننه، وفضلات طعامه وهو قد هيأ لهم الأمر العظيم والفضل الجسيم؟! . كذلك العباد مع الله، جعلهم في الدنيا، وهيأ لهم الجنة، فلا يريد أن يمنعهم من الدنيا ولكن ما يقيم به وجودهم، قال تعالى: ﴿كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا﴾ [المؤمنون: 51]. وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾ [البقرة: 172]. وإذا ادخر لك الباقي ومن عليك به لا يمنعك الفاني، فإنما يمنعك ما لم يقسمه لك، وما لم يقسمه لك فليس لك.

فالعبد في الدنيا أباح له الله الطيبات من الرزق وقسم له معيشته يستخدمها لحاجته ولإعانته على طاعة ربه، حتى ينتقل إلى دار أخرى أسمى من هذه فيها نعيم مقيم هي جنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين.

أما الممنوع عليك في هذه الدنيا فهو ما لم يقسمه لك لأنه ملك غيرك لا ملكك أنت فلماذا تتعب في طلبه ؟!.

* * *

مناجاة الحق سبحانه لعبده في شأن التدبير والرزق على لسان هواتف الحقائق

أيها العبد: التي سمعك وأنت شهيد يأتك مني المزيد، وأصغ بسمعك فأنا لست عنك ببعيد. كنت بتدبيري لك قبل أن تكون لنفسك، فكن لنفسك بألا تكون لها. وتوليت رعايتها قبل ظهورك، وأنا الآن على الرعاية لها.

أنا المنفرد بالخلق والتصوير، وأنا المنفرد بالحكم والتدبير، لم تشاركني في خلقي وتصويري فلا تشاركني في حكمي وتدبيري.

أنا المدبر لملكي وليس لي فيه ظهير[1]، وأنا المنفرد بحكمي فلا أحتاج إلى وزير.

أيها العبد: من كان لك بتدبيره قبل الإيجاد فلا تشاركه في المراد، ومن عودك حسن النظر منه إليك فلا تقابله بالعناد.

عودتك حسن النظر مني لك فعودني إسقاط التدبير منك معي.

أشكا بعد وجود التجربة؟ وحيرةً بعد وجود البيان، وضلالاً بعد وضوح الهدى؟! وقد سلمت لي قيامي بمملكتي وأنت من مملكتي، فلا تنازع ربوبيتي، ولا تضاده بتدبيرك مع وجود ألوهيتي.

متى أحوجتك إليك حتى تحتال عليك؟!.

متى وكلت شيئاً من مملكتي لغيري حتى أكل ذلك إليك؟!.

متى خاب من كنت له مدبراً، ومتى خذل من كنت له ناصراً؟!.

---

(1) ظهير: ناصر ومعين.

أيها العبد: لتشغلك خدمتي عن طلب قسمتي، وليمنعك حسن الظن بين عن اتهام ربوبيتي، لا ينبغي أن يتهم محسن، ولا أن ينازع مقتدر، ولا أن يضاد قهار، ولا أن يعترض على حكيم، ولا أن يعال هم مع لطيف.

لقد فاز بالنجاح من خرج عن الإرادة معي، ولقد دل على تيسير الأمور من احتال علي، ولقد استوجب النصر مني عبد إذا تحرك تحرك بي، ولقد استمسك بأقوى الأسباب من استمسك بسببي.

أيها العبد: نريد منك أن تريدنا ولا تريد معنا، ونريد منك أن تختارنا ولا تختار معنا، ونرضى لك أن ترضانا ولا ترضى سوانا. وكما سلمت لي تدبيري في أرضي وسمائي، وانفرادي فيهما بحكمي وقضائي، سلم وجودك لي فإنك لي، ولا تدبر معي فإنك معي، واتخذني وكيلاً وثق بي ويحك ! إنا أجللنا قدرك أن نشغلك بأمر نفسك فلا تصغر قدرك.

يا من رفعناه: لا تدلن بحوالتك على غيرنا.

يا من أعززناه: ويحك! أنت عندنا أجل من أن نشغلك بغيرنا. لحضرتي خلقتك، وإليها خطبتك، وبجواذب عنايتي إليها جذبتك، فإن اشتغلت بنفسك حجبتك، وإن اتبعت هواها طردتك، وإن خرجت عنها قربتك، وإن توددت إلي بإعراضك عما سواي أحببتك.

أيها العبد: ما آمن بي من نازعني، ولا وحدني من دبر معي، ولا رضي بي من شكا ما أنزلت به إلى غيري، ولا اختارني من اختار معي، ولا امتثل أمري من لم يستسلم لقهري.

لو طلبت التدبير لنفسك لجهلت، فكيف إذا دبرت لها، ولو اخترت معي ما أنصفت فكيف إذا اخترت علي؟!.

أيها العبد: يكفيك من الجهل أن تسكن لما في يدك، ولا تسكن لما في يدي، أنا أختار لك أن تختارني أفتختار علي؟!.

يا مهموماً بنفسه، لو ألقيتها إلينا لاسترحت.

ويحك! أعباء التدبير لا يحملها إلا الربوبية، وليس يقوى عليها ضعيف البشرية.

ويحك! أنت محمول فلا تك حاملاً، أردنا راحتك فلا تكن لنفسك متعباً.

أيها العبد: أمرتك لخدمتي، وضمنت لك قسمتي، فأهملت ما أمرت، وشككت فيما ضمنت، ولم أكتف بالضمان حتى أقسمت، ولم أكتف بالقسم حتى مثلت، فخاطبت عباداً يفهمون فقلت: ﴿ وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴾ [الذاريات: 22- 23].

وقد رزقت من غفل عني وعصاني فكيف لا أرزق من أطاعني ودعاني؟!.

ويحك! الفارس للشجرة هو ساقيها، والممد للخليقة هو باريها. مني كان الإيجاد وعلي دوام الإمداد. مني كان الخلق وعلي دوام الرزق. أأدخلك داري وأمنعك إبراري؟!. أأبرزك لكوني وأمنعك وجود عوني؟! أأخرجك إلى وجودي وأمنعك جودي؟!.

لك هيأت منتي، وفيك أظهرت رحمتي، وما قنعت لك بالدنيا حتى ادخرت لك جنتي وما اكتفيت لك بذلك حتى أتحفتك برؤيتي.

فإذا كانت هذه أفعالي فكيف تشك في أفضالي؟.

فاخترني ولا تختر علي، ووجه قلبك بالصدق إلي فإن فعلت أريتك غرائب لطفي، وبدائع جودي، وأمتع سرك بشهودي.

لقد أظهرت الطريق لأهل التحقيق، وبنيت معالم الهدى لذوي التوفيق، فبحق سلم إلي الموقنون، وببيان توكل علي المؤمنون، علموا أني خير لهم من أنفسهم لأنفسهم، وأن تدبيري لهم أحرى من تدبيرهم لها، فأذعنوا لربوبيتي مستسلمين، وطرحوا أنفسهم بين يدي مفوضين، فعوضهم عوض ذلك راحة في نفوسهم، ونوراً في عقولهم، ومعرفة في قلوبهم. وتحقيقاً بقربي في أسرارهم. هذا في هذه الدار، ولهم عندي إذا قدموا علي أن أجل منصبهم

وأعلي محلهم، ولهم إذا أدخلتهم داري: ما لا عينٌ رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

أيها العبد: الوقت الذي أنت تستقبله لم أطالبك به بالخدمة، فلا تطالبني فيه بالقسمة، فإذا كلفتك تكفلت لك، وإذا استخدمتك أطعمتك.

واعلم بأني لا أنساك ولو نسيتني، وأني ذكرتك قبل أن تذكرني، وأن رزقي عليك دائم وإن عصيتني، فإذا كنت كذلك في إعراضك عني، فكيف ترى أن أكون لك في إقبالك علي؟. ما قدرتني حق قدري إن لم تستسلم لقهري، ولا رعيت حق بري إن لم تمتثل أمري، فلا تعرض عني فإنك لا تجد من تستبدله مني، ولا تغتر بغيري فلا أحد يغنيك عني.

أنا الخالق لك بقدرتي، وأنا الباسط لك منتي، فكما أنه لا خالق غيري فكذلك لا رازق غيري، أأخلق وأحيل على غيري وأنا المتفضل؟! وأمنع العباد وجود خيري وأنا المنعم؟!.

فثق أيها العبد بي فأنا رب العباد، واخرج من مرادك إلي أبلغك عين المراد، واذكر سوابق لطفي، ولا تنس حق الوداد.

* * *

مناجاة ابن عطاء الله رضي الله عنه

إليه! أنا الفقير في غناي فكيف لا أكون فقيراً في فقري، وأنا الجهول في علمي فكيف لا أكون جهولاً في جهلي.

إلهي! مني ما يليق بلؤمي، ومنك ما يليق بكرمك. إن ظهرت المحاسن مني فبفضلك ولك المنة علي، وإن ظهرت المساوئ مني فبعدلك ولك الحجة علي.

إلهي! كيف تكلني وقد توكلت لي! وكيف أضام وأنت الناصر لي، أم كيف أخيب وأنت الحفي بي؟!.

ها أنا أتوسل إليك بفقري، وكيف أتوسل بما هو محال أن يصل إليك! أم كيف أشكو إليك حالي وهو لا يخفى عليك، أم كيف أترجم بمقالي وهو منك برز وإليك، أم كيف تخيب آمالي وهي قد وفدت عليك، أم كيف لا تحسن أحوالي وبك قامت وإليك؟!.

إلهي! ما ألطفك بي مع جهلي، وما أرحمك بي مع قبيح فعلي! وما أقربك مني وما أبعدني عنك، وما أرأفك بي فما الذي يحجبني عنك؟!.

إلهي! كلما أخرسني لؤمي أنطقني كرمك، وكلما أيأستني أوصافي أطمعتني منتك.

إلهي!. من كانت محاسنه مساوئ فكيف لا تكون مساويه مساوئ؟!. من كانت حقائقه دعاوي فيكف لا تكون دعاويه دعاوي!.

إلهي ! كيف أعزم وأنت القاهر، وكيف لا أعزم وأنت الآمر.

ترددي في الآثار يوجب بعد المزار، فاجمعني عليك بخدمةٍ توصلني إليك.

كيف يستدل عليك بما هو في وجوده مفتقر إليك؟!.

أيكون لغيرك من الظهور ما ليس لك، حتى يكون هو المظهر لك؟!.

متى غبت حتى تحتاج إلى دليل يدل عليك، ومتى بعدت حتى تكون الآثار هي التي توصل إليك؟!.

إلهي! عميت عينٌ لا تراك عليها رقيباً، وخسرت صفقة عبد لم تجعل له من حبك نصيباً.

إلهي! هذا ذلي ظاهر بين يديك، وهذا حالي لا يخفى عليك. منك أطلب الوصول وبك أستدل عليك، فاهدني بنورك إليك، وأقمني بصدق العبودية بين يديك.

إلهي! علمني من علمك المخزون، وصني بسر اسمك المصون، وحققني بحقائق أهل القرب، واسلك بي في مسالك أهل الجذب، وأغنني بتدبيرك عن تدبيري، وباختيارك عن اختياري، وأوقفني على مراكز اضطراري، وأخرجني من ذل نفسي، وطهرني من شكي وشركي قبل حلول رمسي[1].

بك استنصر فانصرني، وعليك أتوكل فلا تكلني، وإليك أسأل فلا تحرمني، وفي فضلك أرغب فلا تخيبني، ولجنابك أنتسب فلا تُبعدني، وببابك أقف فلا تطردني.

إلهي! إن القضاء والقدر غلبني، وإن الهوى بوثائق الشهوة أسرني، فكن أنت الناصر لي حتى تنصرني وتبصرني، وأغنني بفضلك حتى أستغني بفضلك عن طلبي.

أنت الذي أشرقت الأنوار في قلوب أوليائك، وأنت الذي أزلت الأغيار من أسرار أحبائك. أنت المؤنس لهم حيث أوحشتهم العوالم، وأنت الذي هديتهم حتى استبانت لهم المعالم.

ماذا وجد من فقدك وما الذي فقد من وجدك؟.

ولقد خاب من رضي دونك بدلاً، ولقد خسر من بغى دونك متحولاً. كيف يُرجى سواك وأنت ما قطعت الإحسان، وكيف يطلب من غيرك وأنت ما بدلت عادة الامتنان؟!.

---

(1) الرمس: القبر والمعنى قبل دخول قبري.

يا من أذاق أحباءه حلاوة مؤانسته فقاموا بين يديه متملقين.

يا من ألبس أولياءه ملابس هيبته فقاموا بعزته مستعزين.

أنت الذاكر من قبل الذاكرين، وأنت البادي بالإحسان من قبل توجه العابدين، وأنت الجواد بالإعطاء من قبل طلب الطالبين، وأنت الوهاب لنا ثم أنت لما وهبتنا من المستقرضين، فاطلبني برحمتك حتى أصل إليك، واجذبني بمنتك حتى أقبل عليك.

إلهي! إن رجائي لا نقطع عنك وإن عصيتك، كما أن خوفي لا يُزايلني وإن أطعتك. قد دفعتني العوالم إليك، وأوقفني علمي بكرمك عليك، فكيف أخيب وأنت أملي، أم كيف أهان وعليك متكلي؟! كيف أستعز وفي الذلة أركزتني، أم كيف لا أستعز وإليك قد نسبتني؟! كيف لا أفتقر وأنت الذي في الفقر أقمتني، أم كيف أفتقر وأنت الذي بجودك أغنيتني؟!.

أنت الذي لا إله غيرك. تعرفت لكل شيء فما جهلك شيء، وأنت تعرفت لي في كل شيء فرأيتك ظاهراً في كل شيء، فأنت الظاهر لكل شيء.

يا من استوى برحمانيته على عرشه، فصار العرش غيباً في رحمانيته كما صارت العوالم غيباً في عرشه. محقت الآثار بالآثار، ومحوت الأغيار بمحيطات أفلاك الأنوار.

يا من احتجبت في سرادقات عزه عن أن تدركه الأبصار، يا من تجلى بكمال بهائه فتحققت عظمته الأسرار، كيف تخفى وأنت الظاهر، أم كيف تغيب وأنت الرقيب الحاضر؟!.

وصلى الله على سيدنا محمد النبي الأمي الطاهر الزكي، وعلى آله صلاة تحل بها العقد، وتفرج بها الكرب، ويزول بها الضرر، وتهون بها الأمور الصعاب. صلاةً ترضيك وترضيه وترضى عنا يا رب العالمين.

* * *

قائمة المراجع

قائمة المراجع

1- إحياء علوم الدين، محمد الغزالي، دار الحديث، القاهرة، ط 8 199م.

2- آداب النفوس، الحارث المحاسبي، ت: عبد القادر عطا، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، ط 2 1991م.

3- الأذكار، النووي، مكتبة دار البيان، دمشق، ط 3 2003م.

4- أمراض القلوب، ابن تيمية، مكتبة ابن القيم دمشق، ط 9 299م.

5- إيقاظ الهمم في شرح الحكم، ابن عجيبة، دار المعرفة، بيروت.

6- أيها الولد، محمد الغزالي، دار الترمذي.

7- تاريخ الطبري، محمد بن جرير الطبري، دار الفكر، بيروت.

8- تربية الأولاد في الإسلام، عبد الله ناصح علوان، دار الفكر، ط 30 1996م.

9- تفسير الطبري، محمد بن جرير الطبري، دار الفكر، بيروت.

10- تفسير القرطبي، محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، دار الشعب، القاهرة، ط 2، 1372هـ.

11- تلخيص الحبير، أحمد بن على (ابن حجر)، ط 4 196م.

12- جامع العلوم والحكم، ابن جرب الحنبلى، دار المعرفة، بيروت، ط1 1408 هـ.

13- الجانب العاطفى من الإسلام، محمد الغزالي، دار القلم، دمشق، ط1 1997م.

14- الحكم العطائية شرح وتحليل، د. محمد سعيد رمضان البوطي، دار الفكر، دمشق ط1 2000م.

15- حقائق عن التصوف، عبد القادر عيسى، مكتبة الفرقان، حلب، ط5 1993م.

16- حول تفسير الفاتحة، عبد الله سراج الدين، مكتبة دار الفلاح، حلب، ط1 1991م.

17- حياة الحيوان الكبرى، محمد بن موسى الدميري، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1 1994م.

18- الحيوان، عمرو بن بحر الجاحظ، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1 1998م.

19- الخشوع في الصلاة، محمد نجدات المحمد، دار الرؤية، دمشق، ط1 2002م.

20- دستور الوحدة الثقافية بين المسلمين، محمد الغزالي، دار القلم، دمشق، ط2 1998م.
21- الرسالة القشيرية، عبد الكريم القشيري النيسابوري، دار الخير، دمشق،ـ ط1 1991م.
22- رياض الصالحين، النووي، دار المأمون للتراث، دمشق، ط1 1994م.
23- سنن أبي داود، سليمان بن أشعث السجستاني، دار الفكر، بيروت.
24- سنن البيهقى، أحمد بن الحسين البيهقى، مكتبة دار الباز، مكة المكرمة، 1994م.
25- سنن الترمذي، محمد بن عيسى الترمذي، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
26- سنن الدارقطنى، على بن عمر الدارقطنى، دار المعرفة، بيروت، 1916م.
27- سنن ابن ماجه، محمد بن يزيد بن ماجه، دار الفكر، بيروت.
28- شرح الحكم العطائية، عبد المجيد الشرنوبي، دار ابن كثير، دمشق، ط3 1992م.
29- شرح النووي على صحيح مسلم، يحيى بن شرف النووي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط2 1392 هـ.
30- شعب الإيمان، البيهقى، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1 1410هـ.
31- شهادة لا إله إلا الله محمد رسول الله، عبد الله سراج الدين، مكتبة دار الفلاح، حلب.
32- الشيخ المجاهد محمد الحامد، عبد الحميد طهماز، دار القلم، دمشق، ط4 1995م.
33- صحيح البخاري، محمد بن إسماعيل البخاري، ضبط د. مصطفى ديب البغا، دار ابن كثير ط3 1987م، بيروت.
34- صحيح الحاكم، الحاكم النيسابوري، ت: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1 1990م.
35- صحيح ابن حبان، محمد بن حبان، ت: شعيب أرناءوط، مؤسسة الرسالة، ط2 1993م.
36- صحيح ابن خزيمة، محمد بن إسحاق، المكتب الإسلامى، بيروت، ط 1970م.
37- صحيح مسلم، مسلم بن الحجاج، ت: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط1 1972م.
38- صفوة التفاسير، محمد على الصابوني، دار الفكر، بيروت، ط1 1996م.

39- صفوة الصفوة، عبد الرحمن الجوزي، دار المعرفة، بيروت، ط 1979م.
40- صور من حياة الصحابة، عبد الرحمن رأفت باشا، مؤسسة الرسالة، ط1 1994م.
41- صيد الخاطر، ابن الجوزي، ت: يوسف علي بديوي، ط دار اليمامة، دمشق، ط2 2002م.
42- عون المعبود، شمس الحق آبادي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط2 1315 هـ.
43- غيث المواهب العلية في شرح الحكم العطائية، محمد بن إبراهيم الرندي، مطبعة السعادة، مصر، ط1 1970م.
44- فتح الباري، أحمد بن حجر العسقلاني، دار الفكر، ط 1993.
45- الفتح الرباني، عبد القادر الجيلاني، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، وأولاده، مصر.
46- الفردوس بمأثور الخطاب، أبو شجاع الهمذاني، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1 1986م.
47- فقه السيرة النبوية، د. محمد سعيد رمضان البوطى، دار الفكر، دمشق، ط10 1991م.
48- الفوائد، ابن القيم، ت: عصام الدين الصبابطى، دار الحديث، القاهرة.
49 - فيض القدير، عبد الرءوف المناوي، المكتبة التجارية الكبرى، مصر، ط1 1356هـ.
50- في ظلال الحديث النبوي، د. نور الدين عتر، ط2 2000م.
51- قضايا في الدين والحياة والمجتمع، محمد بن لطفي الصباغ، المكتب الإسلامي، بيروت، ط1 1991م.
52- قطر الولي على حديث الولي، الشوكاني، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 1985م.
53- كشف الخفاء، إسماعيل بن محمد الجراحي، ت: أحمد قلاش، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط4 1405 هـ.
54- لسان العرب، ابن منظور، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط 1995م.
55- مجمع الزوائد، الهيثمى، دار الريان للتراث، القاهرة، ط 1407 هـ.
56- مختصر منهاج القاصدين، أحمد بن قدامة المقدسي، ت: عبد الرزاق المهدي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط1 1995م.

57- مدارج السالكين، ابن قيم الجوزية، ت: محمد البغدادي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط4 1997.
58- مسند الإمام أحمد، أحمد بن حنبل، مؤسسة قرطبة، مصر.
59- مسند البزار، أحمد بن عمر، مؤسسة علوم القرآن، بيروت، ط1 1409 هـ.
60- مصنف ابن أبي شيبة، ت: كما يوسف الحوت، مكتبة الرشيد، الرياض، ط1 1409هـ.
61- مسند الدارمى، عبد الله بن عبد الرحمن الدارمى، دار المغنى، الرياض، ط1 2000م.
62- المعجم الأوسط، الطبراني، دار الحرمين، القاهرة، ط 1415 هـ.
63- المعجم الكبير، الطبراني، ت: حمدي السلفي، مكتبة العلوم والحكم، الموصل، ط2 1983م.
64- المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، ط3.
65- مع الله دراسات في الدعوة والدعاة، محمد الغزالي، دار القلم، دمشق، ط2 1996 م.
66- منهاج العابدين، محمد الغزالي، مكتبة ابن القيم، دمشق، ط1 2002م.
67- هذا ما قلته أمام بعض الرؤساء والملوك، محمد سعيد رمضان البوطي، دار اقرأ، دمشق، ط1 2001م.
68- وحى القلم، مصطفى صادق الرافعى، دار الكتاب العربي، بيروت.

* * *

المحتـــوى

المحتوى

الموضوع | الصفحة

المقدمة.. 5

من هو ابن عطاء الله السكندري 11

خطر المعاصي والذنوب ووجوب التوبة منها

اطلب التوبة من الله في كل وقت 15

تعريف التوبة 15

أركان التوبة 16

الإسراع في طلب التوبة 18

أفضل الأوقات لطلب التوبة 21

محاسبة النفس 23

أهمية الخلوة 24

خطر الذنوب على القلوب................................ 26

المصاب حقاً من محقته الذنوب 30

مثال العبد إذا فعل المعصية 31

من تاب ظفر ومن لم يتب خسر 33

فرحة الله ورسوله بتوبة العبد 36

تجرؤ العبد على معصية المحسن سبحانه 39

ماذا تتضمن المعصية 43

الآثار الظاهرة للمعصية 46

الآثار الباطنة للمعصية 48
مقارنة بين الطائع والعاصي 55
مشروعية زيارة القبور 58
الذنوب الصغائر والكبائر 61
متى يصبح الذنب الصغير كبيراً 66
أمثلة عن صغائر يتسامح بها الناس 68
المعصية قد تكون سبباً لتوقف الرزق 71
الحكمة من اختيار ابن عطاء الله سن الأربعين 72
واؤتوا البيوت من أبوابها 74
حقيقة سوء الخاتمة 75
الذل يترافق مع المعصية 79
مثال الإيمان معك إذا عصيت الله كالشمس المكسوفة 83
المنكوب من عصى الله 85
قصة عبد الله بن أبي نوح مع رجل يعظه 86
طهر قلبك من العيب يفتح لك باب الغيب 88
حلاوة الطاعة وحلاوة المعصية 91
إنما عصى الله من لم يعرف عقابه 92
صور من عقاب الله للعصاة وما أعده الله لأهل الجنة 92
من الناس من هو جعلي الهمة فراشي العقل 97
ما هي الهمة 97

إذا نمت على تخليط رأيت التخليط في منامك 99
ما أرخص نفسك عليك 100
إن طلبت أن تعصيه فاطلب مكاناً لا يراك فيه 101
قصة إبراهيم بن أدهم مع رجل 101
إن تفضل عليك بالتوبة فمن فضله سبحانه تبت إليه 103
تقهقه بالضحك كأنك جاوزت الصراط 104
تعريف الورع وحقيقته 105
قصة رائعة عن الورع 107
حقيقة الاستدراج 109
نعم الله على العبد 111
جددوا إيمانكم بقول لا إله إلا الله 113
مثال الذنب كجيفة أدخلت الكلاب خراطيمها فيها 114
من أحب الله تطهر من العيوب 115
العبد العاصي لا قيمة له عند ربه 116
اجتناب مجالس المعصية 118
خطر الغيبة وحقيقتها 119
تعريف الغيبة 120
ما يباح من الغيبة 122
كفارة الغيبة والتوبة منها 124
النجاة من المعاصي يكون بالهروب إلى الله والاستغاثة به 125

مثال من يكثر الذنوب والاستغفار 126
تنقية القلب من الذنوب يكون بالتوبة والأذكار والندم والاستغفار 127
القلب يتنور بالطاعة ويظلم بالمعصية 129
حقيقة الفراسة 130

فضل متابعة النبي ﷺ

حقيقة متابعة النبي ﷺ 135
الخير يكون بمتابعة النبي ﷺ 137
بماذا تكون المتابعة 138

أحوال القلب

إذا جف القلب سقطت ثمراته 145
القلب شجرة تسقى بماء الطاعة 147
مثال الإيمان في القلب كالشجرة الخضراء 150
مثال القلب كالمرآة 152
تعريف الزاهد 152
تعريف العارف 153
أربعة تعينك على جلاء القلب 154
القلب أشد تقلباً من القدر إذا غلت 158
القلب بمثابة السقف وحقيقة ذلك 160
مثال القلب إذا أسلمته إلى النفس 162
الغيرة على القلب والإيمان 164
المؤمن له قلبان يرجو بأحدهما ويخاف بالآخر 165

خوف القلب تعريفه وحقيقته 165
رجاء القلب تعريفه وحقيقته 167
الجمع بين الرجال والخوف 170
هل يغلب الرجاء أم الخوف 171
أمثلة القلوب 173
أمثلة القلوب العامرة السليمة........................ 173
أمثلة القلوب السقيمة 174
إبليس يهوى القلوب الخربة 176
مثال الجوارح كالسواقي تجري إلى القلب........................ 177
كيف يستنير القلب 178
مرض القلب وعلاجه........................ 181
علاج القلب من الهوى أفضل ممن يكثر الصلاة والصوم........................ 183
عزلة القلب 184
فوائد الخلوة 186
كيف يشرق قلب صور الأكوان منطبعة في مرآته 187

مثال العبد مع الله

إن أردت شفاء قلبك فاخرج إلى صحراء التوبة........................ 191
إنما الأنوار مطايا القلوب والأسرار........................ 192
أنوار أذن لها في الدخول إلى القلب وأنوار أذن لها في الوصول 195
القلب السليم وحقيقته 198

الحكمة من الابتلاءات في الدنيا

مجاهدة النفس 203

تعريف النفس 203

معنى جهاد النفس 203

كلام ابن الجوزي حول جهاد النفس 205

مثالك مع نفسك 208

خيانة النفس 209

الرجل من صاح على نفسه وردها إلى الله تعالى 210

اجعل نفسك كدابتك 211

مخاطر صحبة النفس 213

الحكمة من وجود القلب والروح والنفس والهوى 215

احذر نفسك التي بين جنبيك 217

النفس كالمرآة كلما أكثرت خصامها أكثرت خصامك 219

معنى: تسلم النفس لله 219

إنما تحتاج إلى معالجة نفسك في الابتداء 221

خطر اتباع هوى النفس 222

النفس في وقت الرضا كالبعير المعقول 224

حب الدنيا من عيوب النفس 225

لولا هوان نفسك عليك ما عرضتها لعذاب الله تعالى 226

من لم يلزم نفسه لزمته 227

أصل كل معصية وغفلة وشهوة: الرضا عن النفس 228

أجهل الناس من ترك يقين ما عنده لظن ما عند الناس 231

المؤمن يشغله الثناء على الله عن أن يكون لنفسه شاكراً 234

الغفلة عن الله

من أماتته الغفلة لم ترده النكبات ....

من علامات الغفلة انشغال القلب بالدنيا 238

علاج الغفلة 239

الغفلة والشهوة والإعراض من صفات النفس 240

حقيقة المؤمن

من هو المؤمن والمخذول........ 243

كيفية التعامل مع العصاة والمذنبين

خطر مباسطة ومؤانسة العاصين 247

الرحمة بالعصاة 250

الإعراض عن العصاة والدعوة لهم في الغيبة 252

لا تنتقد على الناس بظاهر الشرع ولا تنكر عليهم 254

لا تقنط الناس من رحمة الله 255

كيف تكون الطاعة لله وحده

ليتك لو أطعت مولاك كما يطيعك عبدك 259

إفراد الله بالعبادة 260

قصة سيدنا إبراهيم الخليل مع النمرود 261

التقرب إلى الله 262

جوارحك غنمك وقلبك الراعي والله هو المالك 263
صنائع الله للعبد........ 264

حلاوة محبة الله والتودد له واليأس من التودد للمخلوقين

حلاوة محبة الله 267
التودد للخلق والتودد للحق سبحانه 270
اقطع يأسك من المخلوقين 273
قد هان كل الهوان من احتاج إلى الخلق 277
عليك بالحوالة على مولاك 279
إذا ظلمك الغوي فارجع إلى القوي 281
من هو التائه 283
غيب نظر الخلق إليك بنظر الله إليك 284
رفع الهمة عن الخلق 286
لا ترفع حوائجك إلا إليه سبحانه 287
خطر التعلق بالزوجة والأولاد........ 288
استفت قلبك 290
الحسد المحمود والمذموم........ 291
لا تحسد إلا عبداً قد لف في ملابس التقوى 294
ضياع العمر واستدراك ما فات منه........ 295
فوائد الأذكار الجامعة 297
فضل الصلاة على النبي ﷺ 299

تحصيل الزاد للرحيل للآخرة 302

ترقيع العبادة بالبكاء والتضرع لمن كبرت سنه 303

من بلغ أربعين سنة فقد اقترب من لقاء الله 305

فائدة ذكر الله تعالى 306

التماس الأعذار 310

خطر التكبر 312

الإعجاب بالطاعة 318

آفات التكبر 320

حقيقة الدنيا والآخرة

مثل من عال هم الدنيا وترك هم الآخرة 325

الدنيا أحقر من أن يُعال همها.. 328

كفاك من الإدبار أن تفتح عينيك في هذه الدار 332

إنما تأكل لتعيش ولا تعيش لتأكل.................................... 334

قيمتك قيمة ما أنت مشغول به.. 336

العاقل بما هو أبقى أفرح منه بما هو يفنى 337

كفى بك جهلاً أن تعول الهم الصغير وتترك الهم الكبير............... 339

مثال الدنيا كعجوز جذماء برصاء 342

وحدانية الله سبحانه وتعالى 344

التوسل بالأنبياء والأولياء والصالحين................................ 346

حقيقة التوسل وأدلته... 346

التوسل بالعمل الصالح 349

أسرار الصلاة

من أراد أن يعرف حقيقته فلينظر إلى صلاته.......... 355
كل صلاة لا تنهى صاحبها عن الفحشاء والمنكر لا تسمى صلاة........ 358
من فوائد الصلاة 359
مثال الصلاة بغير حضور قلب.............................. 360
الدواء النافع في إحضار القلب............................. 361
ركعتان بالليل خير من ألف بالنهار 364
الصلاة محل المناجاة ومعدن المصافاة........................ 366
الشك في الرزق 368
فوائد الذكر 370
مهمة الشيخ المربي.. 377
صفات المربي والمرشد 378
ليس الرجل من يربيك لفظه إنما الرجل من يربيك لحظه 380
قصة الشيخ محمد الحامد مع شيخه أبي النصر خلف........... 381

أبناء الدنيا وأبناء الآخرة

عليك بأبناء الآخرة 387
صحبة أبناء الدنيا وأبناء الآخرة 390
إذا طلبت من يدلك على الله ويعرفك بعيوب نفسك لم تجد إلا قليلاً..... 392
من أكثر من مجالسة أهل هذا الزمان فقد تعرض لمعصية الله............ 394

أحوال النفس

البلاء اختبار للعبد 399

لماذا قضى الله أن تكون الدنيا مشوبة بالأكدار 399

الحكمة من الفاقة والغنى والفقر 404

ربما كان موت الولد ليتفرغ القلب لعبادة ربه 406

إنفاق المال أم إنفاق الدمع 407

الأخلاء الثلاثة: المال والعيال والعمل 409

الاستقامة 411

السالك والمجذوب والفرق بينهما 413

الإخلاص في العمل وذم الرياء فيه 415

مثال الحكمة كالقيد 421

عقل الإنسان لأي شيء يستعمل 423

مثالك في صغر عقلك كالمولود 425

النعم الثلاث: الوقوف على الحدود والوفاء بالعهود والفرق في الشهود.. 427

سبب استغراب أحوال العارفين 430

حق شهادة أن لا إله إلا الله 432

إياك وظلم العباد 435

لذة المناجاة 438

معاملة الله كل يوم 440

شرط النصر والعطاء من الله 441

معرفة أولياء الله والتأدب معهم 442
مشروعية التبرك بالأنبياء والصالحين 444
معرفة أولياء الله 446
التخلف عن صلاة الجماعة 448

أحوال السلف الصالح رضي الله عنهم

الصحبة للنبي ﷺ أعظم كرامة 451
صدق الصحابة والسلف مع ربهم 452
فضل الصحابة الكرام على المؤمنين إلى يوم القيامة 453
الصحابة الكرام والدنيا 456
غزوة بدر أو امتحان للصحابة مع الغنائم 457
الدنيا في أيدي الصحابة لا في قلوبهم 459
صحبة المشايخ وحقيقتها 461
تكرار حضور مجالس العلماء 464
أهمية حضور مجالس العلماء 465
تصحيح البدايات 466
فوائد الصدق مع الله 467
تقوى الله وحسن الخلق 468
حسن الخلق هو القيام بحقوق الله تعالى 471
نقاء البصيرة 472
لا تؤذ مؤمناً 474

المرور على الصراط 476
الفقراء والأغنياء........ 478
تكريم الله الإنسان........ 480
أنواع الصحبة........ 482
التواضع والتأدب مع الله 484
العلم والعمل به 486
الرحلة من الأكوان إلى المكون 489
من هو الفقيه 491
حقيقة الشهود 493
التوكل على الله........ 494
من توكل على الله كفاه ما أهمه 495

العلم النافع

العلم النافع هو القاهر للهوى القامع للنفس 499
العلم النافع يلزم الخشية من الله تعالى........ 501
كل علم تميل إليه النفس فارم به 504
أنواع من العلم النافع 505
أداء الأمانة كما يجب........ 507
معنى قوله تعالى «وثيابك فطهر»........ 508
عناية الله بالعبد 509
الاحتراس للدين لا للبدن 511

توفيق الله 512
علماء مزيفون 513
كشف الحجاب 515
من هم السابقون 516
إنفاق المال في وجوه الحرام 518

مثال العبد مع اللّه

مثال العبد مع الله كالطفل مع أمه 521
مثال العبد مع الله كمثل أجير الملك 522
مثال العبد في الدنيا 523
مثال آخر للعبد مع الله.. 524
مثال العبد مع الله كمثل ملك له عبيد 525
مناجاة الحق سبحانه لعبده في شأن التدبير والرزق 526
مناجاة ابن عطاء الله رضي الله عنه 530
قائمة المراجع 533
المحتوى 539